حنا مينه

نهاية رجل شجاع



رواية

دار الآداب

حنا مينه

BADER HAMDAN

نهاية رجل شجاع

رواية

دار الآداب - بيروت

القسم الأول

أسماك القرش

في أحد أيام الصيف، وكان عمري ١٢ عاماً، قطعت بسكّين حادّة كنت أحملها دائماً، ذنب حمار أحد الجيران في ضيعتي «الخراب» انتقاماً من صاحبه الذي شكاني إلى والدي، بسبب ما كنت أقوم به، مع عصبة فاسدة من أولاد القرى المجاورة، من اعتداء على أملاك الناس، وسرقتها، وإتلافها أحياناً.

كانت فعلتي هذه شائنة حقاً، وقد تألم الحيوان، والتقط صاحبه عبّود ذنب الحمار، وحمله وهو يقطر دماً وذهب باكياً شاكياً إلى والدي، يطالبه بثمن الحمار الذي أتلفته دونما نظر إلى العواقب.

كان عبّود، وهو رجل عجوز، لا يملك سوى هذا الحمار، يركبه في نزوله إلى بانياس، ويحمل عليه بعض نتاجه من الخضار، فيبيعها ويشتري بثمنها بعض حاجياته. وحين يتعب، في الذهاب أو الإياب، يركب عليه مسافة ما، يستريح خلالها من المشي. وقد حسب أن حماره سيموت بعد قطع ذنبه، لكن الجيران، وأهل الضيعة الذين تجمّعوا، أقنعوه أن الحمار لن يموت، وأن الحيوان يمكن أن يفقد ذنبه ويعيش سالماً، وضربوا مثلاً بالأفعى، فهي تعيش بلا ذنب إذا قطع، بل إن ذنبها يفرع من جديد، وقد يفرع ذنب حماره، وما عليه إلا الصبر. فالفاعل ولد طائش، وسيتكفل والده بتأديبه.

وفعلاً تكفّل الوالد بتأديبي. كانت طريقته المفضّلة هي ربطي بالحبال. وإحكام وثاقي، وضربي بقشاطه العسكري حتى يغمى علي، ولا يحلّ عني حتى تتدخّل أمي، ويتدخّل الجيران، ويكفلوني عنده، ويحلّوا وثاقي.

فتأخذني أمي بعيداً، إلى طرف الحقل أو إحدى زوايا البيت، وتشرع المسكينة بنصحي، وملاطفتي، ومساءلتي عن السبب الذي جعلني أرتكب فعلتي التي لا يرضى الله بها، وسيعاقبني إذا ما استمررت بفعل مثلها، ثم تسقيني وتطعمني، وتأخذني إلى الفراش الذي أنام عليه وأنا مدمًّى، مهدود الحيل، فاقد القدرة على الحركة. حتى أن أمي كانت تخاف أن أموت لشدّة الضرب الذي تحمّلته كبغل في كل تأديبة.

في اليوم التالي حين ذهب والدي للعمل في الحقل، أيقظتني أمي وسألتني عن حالي، وداوت الجراح والكدمات التي في رأسي وجسمي، وأتتني برغيف وحبّات من الزيتون. ولأن حالي كانت سيّئة، فقد سلقت لي بيضة، كتعويض عما لحقني، ثم كلمتني بهدوء، بلطف، بحنان الأم قائلة:

ـ لماذا يا مفيد فعلت ما فعلت؟

ـ وماذا فعلت؟

ـ قطعت ذنب الحمار. . ألا تخاف الله؟

ـ أنا لم أقْطَعْهُ.

ـ ومنْ قَطعهُ إذن؟ كل الأولاد شهدوا أنك أنت الذي قطعته.

ـ الحق ليس عليّ.

ـ على من إذن؟

ـ على ذنب الحمار. .

ـ كيف على ذنب الحمار؟

ـ لأنه كان ذنباً طويلاً، وفي نهايته باقة من الشعر.

ـ وهل هذه حجّة؟ ماذا تصنع بالذنب حتى لو كان طويلاً كما تقول؟

ـ أستخدمه بعد أن يجف ككرباج، وأكشّ بطرفه المشعر الذباب.

ـ وهل رأيت أحداً يصنع من ذيل حمار كرباجاً؟

ـ وممّ يصنعون الكرباج إذن؟

ـ وما أدراني؟

ـ أنا أدري. . بعد ذبح الثور يأخذون ذلك الشيء منه، ويضعون عليه ملحاً حتى يجف ويتقدّد. . في المرة القادمة. .

قاطعتني والدتي صائحة:

ـ يا ويلي، حذار، لا تفعلها مع الثيران. . أما كفاك الحمار. .؟

ـ لكنني أريد كرباجاً. .

ـ ولماذا؟ هل تنوي أن تضرب به أحداً؟ خَفِ الله يا ولدي، قم، حان وقت المدرسة.

قمت إلى المدرسة كما طلبت مني، لكنني وجدت ذنب الحمار قد سبقني إليها. عمل منه عبّود فضيحة. لم يترك بيتاً، أو سوقاً، أو قرية مجاورة، إلا دار فيها حاملاً ذنب حماره المقطوع والدم ينقط منه. كان حادثاً غير مألوف، فضيحة بجرس، ورغم جانب المصيبة التي أراد عبود أن يظهرها حزناً على ذنب حماره المقطوع، فقد كان الجانب الآخر، المضحك، يطغى أحياناً، فيضحك الناس، ويتناولون الذنب بأيديهم يتأملونه، يتأسّفون على جماله، يعزّون عبّود في مصابه، وبعضهم، الذين تواتيهم النكتة، أو يركبهم الغباء، كانوا ينصحونه بأن يعيده إلى مكانه، أن يلصقه بمؤخرة الحمار، حتى أن الأستاذ شعبان، في محاولة لإظهار شطارته كمعلّم، اقترح على عبّود أن يأخذ الحمار إلى طبيب بيطري، لئلا يترك الجرح فيصاب الحمار بالغرغرينة ويموت فيخسر كل شيء.

المختار، من جهته، أخذ المسألة بجديّة أكثر. وصف الحادثة بأنها فظيعة، تدلّ على روح إجرامية، وبأنها سابقة خطيرة: «اليوم ذنب الحمار، وغداً أذن بقرة، وبعد ذلك من يدري، ربما طعن أحد التلاميذ أو المعلّم شعبان نفسه، أو ربما استخدم السكّين لطعن أيّما شخص يقف في وجه شقاوته في القرية، أو ربما استعان بها في السطو والسرقة، أقلّه في تخويف

الناس، لذلك يجب إخبار الدرك، وتحرير ضبط بالحادثة، وسوق الفاعل إلى المخفر، وإحالته إلى النيابة، حتى يضرب ويسجن ويعاقب العقوبة الرادعة».

على هذا النحو من الاستنفار العام، ترك الرجال أعمالهم واجتمعوا في بيت المختار، وأرسل المختار أحد رجاله لإحضار والدي، فلحقت به والدتي وهي تبكي، وقبضوا عليّ وقدّموني مع السكّين إلى مجلس المخترة، وبذلك اكتملت الفضيحة وتحوّلت إلى فاجعة، فاستدعاني المختار وصفعني صفعة قوية، قال والدي على أثرها:

ـ اضربْ يا مختارنا، اضرب بكل قوتك، لك اللحم ولي العظم، وحتى العظم لا أريده، تستطيع أن تشنقه على شجرة التوت أمام عيني جزاء فعلته الفظيعة.

وما أن سمعت أمّي كلمة الشنق، حتى صدّقت، فارتمت على قدمي المختار، وقبّلت ركبتيه متوسّلة، متضرّعة، باكية، حتى أشفق الجمع على حالها، وبعد أن أشبعوني ضرباً، بحضور المعلّم نفسه، الذي كان شعاره «العصا من الجنة» استقرّ الرأي على التريّث بإبلاغ الدرك، رحمة بإبراهيم المغضوب الذي هو والدي، والبكبوكة التي هي أمّي، وتعهّد عجوز صاحب تجارب من أهل الضيعة بمعالجة ذنب الحمار، حتى إذا شفي، دفع والدي غرامة الذنب المقطوع، أما إذا مات فعندئذ تفصل الحكومة في الموضوع.

من حسن حظّي أن الحمار لم يمت. عالج العجوز عقب الذنب النازف بالزيت المغلي، وبمرهم أعدّه من الأعشاب، وأخرج الحمار من مجلس المختا مُشيّعاً بالإشفاق والدعاء له بالصحة وطول العمر، وبقي الحمار الآخر، الذي هو أنا، مقيّد اليدين و الرجلين، مرمياً في طرف باحة الدار، ريثما يتمّ الانفاق على نوع العقوبة التي يجب إنزالها بي. وكانت هذه العقوبة

معروفة، مسبوقة، وهي الفلقة، التي يتقنها رجال الدرك، وأزلام المختار، ولها شهرة في كل القرى والمخافر المجاورة.

امسكني رجلان من يديّ، ألقى رجل ثالث بكل ثقله على بطني، ورفعوا رجلي وأنا في حالة استلقاء، وأدخلوا قضيباً ثخيناً في الحبل، بدل المرتينة(1) التي يستعملها الدرك، وجاءوا بحزمة من أغصان التوت والرّمان، وتبرّع المختار مشكوراً بخيزرانته، وقال رجل من الهيئة الاختيارية:

هذا الولد لن يتوب ويرجع عن شقاوته، إذا لم تتكسّر كل هذه الحزمة من الأغصان على قدميه.

وأضاف رجل آخر:

ـ ليس المهمّ الضرب، بل شكله، إذا لم يُضرب ضرباً موجعاً فلا فائدة.

وقال ثالث:

ـ شرط الفلقة أن يتناثر اللحم وينفر الدم.

ولم يقل والدي شيئاً. كان قاسياً، غاضباً، يتحرّق لإنزال أقصى العقوبة فيّ، حتى لو متّ تحت الضرب. أما والدتي فلم تتحمّل المشهد. أخرجوها من البيت، وأغلقوا الباب دونها، وسدّوا آذانهم عن صيحاتها ورجاءاتها ودموعها، ومن مكانها على العتبة، خارج الباب، كانت تسمع ضربات الفلقة، وتستغيث ولا مُغيث.

انتهت حفلة التعذيب. أُقيمت الفلقة أمام جمع كبير من أهل الضي رجالاً ونساء وأطفالاً، وحين فكّوا وثاقي، بقيت ممدّداً على الأرض، را عن النهوض أو الكلام والعودة إلى البيت، لكن المختار، الذي حسب أدّبني بعمليّة الجلد، حسم الموضوع قائلاً:

(1) البندقية.

- يا عبود اطمرْ ذنب الحمار واعتبر المسألة منتهية.

قال عبود الذي لعب بعقله بعضهم:

- كيف المسألة منتهية يا مختارنا؟

- وماذا تريد أكثر؟ الحمار عالجناه، والولد جلدناه، والأب اعتذر، فماذا تريد بعد هذا؟

قال رجل من الحاضرين، بينه وبين والدي عداوة:

- عبود يريد الدّية يا مختار.

صاح المختار ساخراً:

- هاي هاي.. عشنا وشفنا، حمار عبود كله لا يسوى متليكين(1)، وقد شفي، بعد أن انْقطع الدم، ودُهن مكان القطع بالمرهم. يستطيع عبود من الآن أن يستخدمه كما كان يفعل سابقاً، كعادته تماماً، والعقوبة كانت رادعة وزيادة، فماذا تريدون أكثر؟ الدّية قال.. العمى، هل هذا قتيل؟ القتيل يذهب دمه هدراً، وقد ثأرنا للحمار، فلماذا تتفاصح يا غنوم؟ نصبت نفسك محامياً عن عبود، أم أنك تريد أن تنفخ في النار؟

قال غنوم:

- لا تزعل من الحق يا مختار.. الحمار أصيب بعطل وضرر، ولا بد من التعويض، هذا ما يريده عبّود.

- عبّود لم يقل شيئاً، ولا يريد شيئاً، ولم يعد له حق.. وليس هناك عطل أو ضرر، الحمار سليم معافى، واعْتبروا المسألة منتهية، حلّوا عنا.

قال عبّود تَنِحاً:

- حماري أصبح بلا ذنب، ولن أستطيع بيعه بعد الآن. اريد ثمن ذنب الحمار، ولن أُسقط حقّي، ولن أطمر ذنب الحمار وأعتبرَ المسألة منتهية.

---

(1) المتليك: قطعة نقدية عثمانية صغيرة تافهة.

قال المختار بنبرة تهكّم:

- علّق الذنب زينة في البيت.

- سأحمله إلى المخفر في بانياس، وأشتكي لرجال الدرك.

- وماذا يفعل لك الدرك؟ سيضحكون عليك.. ولد تشيطن وعاقبناه، فماذا في وسع الحكومة نفسها أن تفعل أكثر من هذا؟

- تأخذ لي حقّي.

- مرحباً حق.. لا تكنْ أهبل يا عبّود.. ولا تدع غنّوم يستفزّك.. أنت رجل عاقل، وغنّوم هذا شيطان، بينه وبين برهوم عداوة.. يريد أن ينتقم.. وبماذا؟ باستغلال ذنب حماره. دعه يخيّط بغير هذه المسلّة! المختار فعل ما عليه، والهيئة الاختيارية وافقت على ما فعله، واكتفت به، وأهل الضيعة شهدوا الفلقة، ثم يأتي غنّوم ويشعلها من جديد. كيف؟ قال ديّة يا سيدي.. وعن أيّ شيء؟ عن ذنب حمار.. ولكْ يا عبود، يا مخبول، قطعُ ذنب حمارك لا يستحقّ صفعة، ونحن ضربنا الولد فلقة.. وأخذت مسؤوليتها على عاتقي.. الفلقة ليست لعبة.. عملية الجلد تساوي الحمار كله، فلا تجعل من قطع ذنب حمارك قضية.. إيّاك والنزول إلى بانياس. هناك ستكون عرضة للسخرية.. أنت رجل كبير، وأنا أنصحك لوجه الله.. لا تتعب نفسك. مفيد ولد، ولو فعل فعلة أكبر من هذه لضربوه كفّين وصرفوه، ونحن فعلنا أكثر.. لا تجعل من قطع ذنب حمارك قضية.. هيا.. مع السلامة، فرْجُونا عرض أكتافكم، وأنت يا برهوم خذ ابنك وانصرف. أنا أدّبته لك، ربّيته إلى الأبد.

انتهت خطبة المختار الذي فيه قنفشة(1). رفض والدي أن ينظر إليّ، اعتبر فعلتي جريمة، قضية تمسّ شرف العائلة، وهكذا تركني في أرضي وانصرف. جاءت أمي فأجلستني، ثم نهضتُ بمساعدتها، وكنت عاجزاً

---

(1) القنفشة: التشوف، حب التظاهر.

عن الوقوف على قدمي، فاستندت عليها حتى وصلت إلى البيت، وهناك غسلتُ قدميّ بماء ساخن، ودعت على المختار بالموت، وشتمتْ غنّوم صاحب الفتن، وتأسفت للحادث، ولم تقل أيّ شيء بحق عبّود، ففي رأيها أنّ من حقه أن يقول عليّ ما يشاء، لأن ذنب الحمار لا يُعوّض، وهذا ما يجعل بيعه صعباً، وسعره أقل، لكن ما جرى قد جرى، والزيت إذا اندلق على التراب لا يُجمع ثانية، وباختصار فإن الله سيعاقب أولاد الحرام.

بعد أيام شُفيتُ.. ونزولاً عند نصيحة الوالدة، التي بقيت خلال هذه المدة تعتني بي، وتصبّ على رأسي دلواً وراء دلو من نصائحها، تحاملتُ على نفسي وذهبت إلى المدرسة. لم أكن أحسّ بأيّ ذنب، وكنت مقتنعاً أن الحق ليس عليّ، بل على ذنب الحمار، الذي كان طويلاً، طحينياً، وفي طرفه باقة من الشعر، ونتيجة لذلك فقد شعرت بالظلم، وتضاعفت رغبتي في الأذى، وفكرت بالانتقام، خاصة من غنّوم والمختار، وأجّلتُ كل ذلك حتى أكبر، وحتّى تحين الفرصة، ووجدت في نفسي القدرة، والرغبة في حرق بيت المختار، وحتى بيوت الضيعة كلها وبينها بيتنا.

كان والدي قد انتزع السكين مني، وهكذا أصبحت أعزل. لم أتوقف عند هذه النقطة. لم أتأسف على السكين، ففي وسعي الحصول على غيرها، بل لم أجد أني بحاجة إليها، فأنا، حتى في هذا العمر الذي كنت فيه، عندي من القوة والشجاعة ما يكفي لمقابلة أيّ كان، وحتى المختار نفسه. ولو جاء الدرك لما تمكّنوا من القبض عليّ، ووالدي لا يستطيع شيئاً، ولن أخضع أو أستسلم، ولن يكون في وسعه أن يربطني بعد الآن إلى التونة أو الزيتونة، أما قشاطه العسكري الذي يجلدني به فقد قررت تقطيعه، أو إلقاءه في البئر، وباختصار، ملأتني الفلقة غضباً، فقرّرت، بيني وبين نفسي، أن أفرّ من البيت، وأن أقطع كل صلة لي بالعائلة والضيعة.

هكذا دفعوني في طريق الشقاوة. لا أنفي أنني كنت شقياً منذ ولادتي، لكن القصاص الذي أنزلوه بي، حوّل هذه الشقاوة إلى قصد، فرحت أبحث عن سبب للشجار، وللاعتداء، وعدت إلى المدرسة أحمل روحاً عدوانية، ودخلت الصف متجهّماً، تُنذر عيناي بالشرّ، حتى لم يتجاسر أيّ من الأولاد أن يتحرّش بي، أو يقول كلمة حول موضوع ذنب الحمار.

لكن المعلّم شعبان، الذي شهد العقوبة التي نزلت بي عند المختار، كان يعدّ لي عقوبة من نوع آخر، كلاميّة هذه المرة. كان طويلاً، نحيلاً، يلبس طربوشاً يصل إلى ما فوق الحاجبين بقليل، ويبدو أشبه بشيء أحمر مدوّر لولا الشرّابة التي كان ينسى أحياناً أن يجعلها إلى وراء، لأنه لا يملك مرآة في البيت، أو لأنه يخرج على عجل فيضع الطربوش على رأسه كيفما اتفق. كان شيء ما في تكوينه، هيئته، بروز أنفه، يُغريني بالعبث به، خاصة إذا أطال نَكْش أنفه في الصف، وأنزل بي عقوبة، أو ضايقني بإخراجي للتسميع، وراح يطمرني بالأسئلة والتقريعات بصوته الحادّ كصوت ذكر الإوزّ.

رأيت الشرّ في عينيه منذ دخل، تجاهلته. كنت أتجاهله كثيراً، لا متعمداً بل لأن الطبيعة التي تبدو من النافذة، كانت تشدّ انتباهي أكثر من الدرس، كان المطر، في الشتاء، يبعث في نفسي نشوة خاصة، غامرة، فأنا أراقبه، وأتمتع بنزوله من وراء النافذة، وحين أسمع وقعه على الزجاج أو الأرض كنت أطرب، راغباً في الخروج والسير تحته حتى أتبلل كلّي. وحين كان الرعد يقصف، وهو كثير عندنا في الشتاء، كنت أحسّ أن شيئاً ما يتفجّر ويلامس قلبي، ثم يلمع البرق، فأتمنّى مغادرة الصفّ والتخبّط في الماء والوحل، واللعب أو الرحيل مع المطر إلى حيث لا أدري. فإذا جاء الربيع، وتفتّح زهر اللوز، كان يفتنني ببياضه، فأقوم بملخ غصن أحمله معي إلى المدرسة أو البيت، ويضحك شيء ما في داخلي، لرؤية الشمس وزرقة السماء. باختصار كنت أحب الطبيعة في كل فصولها، حتى في فصل

الخريف، حتى تصفرّ الأوراق وتتساقط، وتكون هناك بقايا من العنب والتين على الأشجار، وأنا أعمل في لقط الزيتون مع عائلتي، أو أذهب إلى المعصرة لمراقبة عمليّة عصر الزيتون، أو اصطياد العصافير والطيور وتخريب أعشاشها إنْ وجدت. باختصار كانت الحياة بالنسبة إليّ كذبة، وكانت كذبتها فرحة كبيرة، أو هكذا كان يخيّل إليّ. ولأنها فرحة فقد مازحتها طويلاً دون أن يخطر لي أن الوجه الآخر للمزح هو الجدّ، كما أن الوجه الآخر للحياة هو الموت. وما كنت لأكترث، حتى بالحياة أو الموت، لأنهما، ولوقت طويل جداً، ظلاّ خارج حساباتي. أقول حساباتي من باب التشبّه بالناس، فأنا أعلم، مما يقال حولي، أن لكل إنسان حساباته في هذه الدنيا، لكن غبائي، أو غفلتي، أو رعونتي، كلها مجتمعة، أو إحداها منفردة، وضعتني، منذ وعيت الوجود، خارج هذا التفكير الذي يقال له حساب، أو عاقبة، أو خوف.

ذلك أنني ولدت كما يولد الناس جميعاً، من أب وأمّ، وكان لي أخوة وأخوات، غير أنني في طيشي، أو في جنون الولدنة، لم أعترف، يوماً، بسلطة أب، ولا عناني، كما يعني الحيوان نفسه، حنان الأم. أما الأخوة والأخوات فلم أشعر بوجودهم، ولم أعترف بهذا الوجود أصلاً، فهم، حتى في قرابتهم الشديدة، قرابة اللحم والدم. كانوا بشراً كغيرهم، ولم أستشعر، حتى عندما كنت في حضن الأسرة، أنهم من أسرتي، بل إن أسرتي نفسها كانت شيئاً غير محدد. فالارتباط العائلي، كما هي حال الآخرين، كان مبتوتاً في حياتي، والبيت في قرية الخراب التي ولدت فيها، لم يكن أكثر من وكر، ألجأ إليه للنوم في الليل، أو طلباً للطعام حين أجوع، أو حين أعجز عن تحصيل لقمتي بنفسي، أي من خلال الشيطنة، أو استغفال أي ولد أو امرأة أو رجل، تجمعني بهم الصدفة، كعمل عابر، أو رفقة طريق، أو شراكة القيام بمغامرة في الميناء، أو شوارع اللاذقية، أو

الصيد في البر والبحر، أو عضوية غير شرفية لعصابة من الفتيان، تتألّف ارتجالاً، وتنفضّ ارتجالاً، أو تدوم لبعض الوقت، حين تقوم بمهاجمة عصابة من الفتيان في حيّ آخر، أو تنصاع لاقتراحاتي الكثيرة، في التوجّه إلى الريف، لاستباحة أيما كرم للعنب، أو مزرعة للبرتقال، أو حقل للأشجار المثمرة، أو إمساك الدجاج، أو التسكّع في بازار اللاذقية، لممارسة الشقاوة، كأن نضع حجراً في سلّة بيض يحملها فلاح، أو نربط شملتي قرويين يجلسان متجاورين، أو إلقاء سيكارة مشتعلة في جيب سترة تركماني ينزل المدينة للتسوّق، أو نشل بعض المحافظ وبعض النقود حين نكون جياعاً أو في حالة إفلاس تامّ.

كان والدي إبراهيم المغضوب، ويلقّبونه بالمتوف، رجلاً ضخماً، له هيكل جمل، ورأس جدي الماعز، وله قوّة بغل حقيقيّ، وعنه ورثت ضخامة القامة، وقوّة الساعد، وما عدا ذلك فأنا أفترق عنه في كل شيء، في كبر الرأس، وقلّة الصبر، وعدم الاستقامة، وسخافة العقل. وقد أحبّ هو الأرض، وكان يعنى بقطعة أرضه الصغيرة، فيزرعها في كلّ المواسم. وفي الخريف يشتغل عاملاً في معصرة للزيتون، في قرية قريبة. وكنت أنا، على خلافه تماماً، لا أطيق الأرض، أو القرية، أو المدرسة، أو البيت، وكثيراً ما أبكيت أمّي ريما الحنش، وكانوا يلقّبونها البكبوكة، وأشقيت عائلتي، وعبثت بمعلّمي في المدرسة، وهربت من صانع الأحذية، الذي أوكل إليه والدي أمر تعليمي المهنة، كما هربت من «الخراب» إلى اللاذقية، حيث كنت ألجأ إلى بعض أقربائي. فكان والدي يبحث عني عندهم، وفي كل مكان، من القرى المجاورة، أو البلديات القريبة، مثل بانياس وجبلة وطرطوس، وحين لا يقع لي على أثر، ينزل اللاذقية، فيجدني متشرّداً، أنام حيثما اتّفق، وأعمل أيّ عمل أربح منه قروشاً قليلة.

وأذكر أن والدي، من شدّة غضبه عليّ، وحنقه من تصرّفاتي الطائشة،

كـان يدعـونني «الضارّ» مشقلباً، على هـذا النحو، اسمي الحقيقي مفيـد، وحين يقبض علي، ويعيدني تحت العصا إلى البيت، كان يصرخ في وجهي:

ـ يا عرص، يا ابن الكلب، يا ضارّ، يا وحش. .

وكنت أقول له:

ـ أنت تسيء إلى سمعتي، وتقلب اسمي، وتصفني بـالـوحش، مـع أن اسمي مفيـد، وأريد أن أكـون مفيداً، لكنني لا أستـطيـع، أو لا أعرف. علّمني كيف أكون مفيداً، حتى أستحقّ اسمي على الأقل.

وعندئذ تتدخل أمي وتقول له:

ـ الـولد معـذور يا إبراهيم. . لماذا تقلب اسمـه؟ من أين جئت بكلمة «الضارّ» هذه؟

فيصيح بها:

ـ ضـارّ لأنه ضـارّ، وهل فيـه غير المَضَرّة؟ أخـطأت حين سجّلتـه باسم مفيد، هذا الكلب لا أثـر للفائـدة فيه، ولم يجلب لي سـوى وجع الـرأس، فماذا أفعل به؟

ولم يكن أبي ينتـظر رأي أمي ليفعل بي مـا يريـد، أو مـا يـراه ضروريـاً لتأديبي. كان يربطني إلى زيتـونة، أو شجـرة توت، وينـزع زناره الجلدي، القشاط العسكري، وينهـال به عـليّ حتى يتعب، حتى يتصبّب عرقـاً، حتى يتعضّل ساعـده الأيمن، دون أن يفكر، أو يبـالي، أين تقع الضربـة. وبعد أن يشفي غليله، يدعني مربوطاً ويذهب ليستريح، ليشرب طاسـة ماء تبـلّ حلقه، وتروي عـطشه، ويجلس عـلى المصطبـة في الصيف، وعلى الخـوان داخل البيت في الشتاء، ويلف سيكارة ثخينة يـدخنها بنهم، فـإذا استراح، واستردّ أنفاسه، قام إليّ وعاود جلدي، وشتمني. وفعل مثل ذلك، في كـل عمليـة تأديب، حتى تنهـار قواه هـو العملاق، فيـدعني مربـوطاً، سـاعات طـويلة، أو ليلة كاملة، منـذراً كل من يتجـاسر على فـكّ وثـاقي، بعقـاب

لكن أمي كانت تجازف، وتتحمّل الضرب والشتم، وتأتي إليّ فتفـكّ وثاقي، وتأخـذني من يدي بعيـداً عن البيت، فنجلس معاً عـلى صخرة، أو التراب تحت شجرة، وتأخذ في ملاطفتي ونصحي:

ـ لماذا يا مفيد، يا ابني، تُعذّب والدك وتعذّبني على هذا الشكل؟

ـ أنا لا أعذب أحداً.

ـ كيف؟

ـ هكذا أنا لا أعذّب أحداً، أتصرّف بشكل طبيعيّ.

ـ هذه الشقاوة تصرّف طبيعي؟

ـ وكيف يكون التصرّف الطبيعي إذن؟

ـ أن تذهب إلى المدرسة، أو تتعلّم مهنة.

ـ أنا لا أطيق المدرسة.

ـ لماذا؟

ـ لأن المعلّم شعبان ينكش أنفه.

ـ وأنت ما دخلك في نكش أنفه؟

ـ أقرف منه.

ـ أنت تكذب. .

ـ أنا لا أكذب، اسألوا الأولاد.

ـ لا ضرورة للسؤال، أنت تكذب.

ـ وهل أكذب إذا قلت إنه يلاحق نسوان الضيعة؟

ـ رأيته. . . بعينيك؟

ـ نعم!

ـ ولماذا لم يره سواك؟

ـ لأنهم لا يفهمون كما أفهم. . عيونهم مغمضة.

ـ أغمض عينيك أنت الآخر. . تظاهر كأنك لا ترى شيئاً.

ـ كيف لا أرى حين أكون أرى؟

- انت تكذب يا ولد.
- وهل أكذب إذا قلت إنه يضربني؟
- إذا حفظت دروسك لا يضربك.
- أنا غير قادر على حفظ دروسي!
- وكيف يحفظها أولاد الضيعة؟
- لا أعرف.
- أنت تكذب. أنت تتشيطن.
- ما أفعله ليس شيطنة.
- وما هو إذن؟
- تسلية!
- المشاغبة أثناء الدرس ليست تسلية.. أنت في مدرسة.. افهم يا مفيد! المدرسة لأجل الدراسة وليست للشغب أو التسلية.. المدرسة كي تتعلّم، والعلم ضروريّ، لأجْل مستقبلك، تفكّ الحَرْف على الأقل.. هيّا انهض، تعال معي، قبّل يد والدك واعتذر منه.. غداً تذهب إلى المدرسة وتطلب السماح من المعلّم.. تعترف له بخطئك، وتظهر الندم، وتعلن التوبة، والله يقبل، وكذلك المعلّم، توبة التائبين.
- وبعد ذلك؟
- بعد ذلك تسلك سلوكاً جيداً، تهدأ، تترك الولدنة، تنتبه إلى ما يقول المعلّم، وتستوعب كلامه، وتحفظ دروسك، وأنا كفيلة أن المعلم سيحبّك، ولن يعود إلى طردك، ولن تضطر إلى الهرب، كما أن والدك سيكون مسروراً منك، ولن يضربك، وسيعطيك «خرجيّتك»(١)، وهكذا ينصلح حالك. تصبح ولداً طيباً، وأصبح سعيدة بك. أتفهم ما أقول؟ كن طيّباً لأجل خاطري، ولأجل مستقبلك، فكّر بمستقبلك يا مفيد، ضع عقلك في

(١) مصروف الجيب.

رأسك، اترك الشقاوة وأولاد السوء. نحن فقراء يا بني، فارحم فقرنا، ارحم عذابنا، أنت ابننا البكر، فكن مثلاً طيباً لإخوتك وأخواتك.. افعل ذلك لأجل خاطري، لأجل خاطر والدك، لأجل أن تكون نافعاً تنفع نفسك على الأقل.

كانت أمي طيّبة، كانت عنوان الطيبة، وكانت لطيفة، لم تضربني أبداً، وحين تتحدّث إليّ أتقبّل حديثها بالرضى، وأتفهّمه، وأنوي أن أعمل به، فأنهض وأعود معها إلى البيت، وأحاول تقبيل يدي والدي فيرفض. يقول إنه لا خير فيّ، وأنه لا تنفع معي غير العصا، وبعد محاولات يرضى، فأذهب وأغسل وجهي، وأزيل آثار الدم عن ثيابي، وأتناول ما أجد من طعام، وأذهب فأنام، وفي الصباح تصحبني أمي إلى المدرسة، ويتكرّر مشهد الاعتذار، والتوبة، وأعود إلى الصف الثالث، الذي لم أترفّع منه أبداً.

أتساءل الآن: لماذا كنت أكره المدرسة؟ هل لأنها مدرسة قرية، في بيت من طين، وفي غرفتين متجاورتين، وأرضيّة ترابية، ونوافذ ضيّقة كالطاقات، يقتلنا البرد في الشتاء، والحرّ في الصيف؟ أم لأن المعلم ينكش أنفه طوال الوقت؟ لا أدري.. كل ما أذكره أن المعلم كان يرسلني من حين إلى حين لجمع الحطب، أو جلب الماء، أو قضاء حاجات له، ليس لها علاقة بالعلم والتعليم. أعترف. كنت غبياً، أو كنت أتغابى، فلا أحفظ ما في الكتاب، ولا أعي ما يقوله المعلم، ولا أكتب وظائفي، وأشاغب طوال الوقت، فإذا سألني المعلم سؤالاً، كنت أقطع عليه درسه، فأرميه بحبات الزيتون، أو حبات الزنزلخت، أو الحصى، عندما يدير ظهره إلينا ليكتب على اللوح الخشبي الأسود.

أذكر أن المعلّم كان يحفظنا الأبجدية، ويطلب منا كتابة حروفها، في أشكال مختلفة. وبعد أن اجتزنا هذه المرحلة، طلب أن نجعل الحروف

كلمات، والكلمات جملاً، وأن نحفظ بعض الأناشيد وبعض القصائد، وأن نتعلم الحساب. وكنت لا أعرف ذلك كله، ولا أحفظ جدول الضرب، أو أجيد كتابة الكلمات، أو أقرأ ما في الكتاب. والمعلم الذي حاول معي بالطرق المفيدة، كان يكتشف أنها معي غير مفيدة، فيعمد إلى ضربي، ومعاقبتي وحبسي في المدرسة، وتقديم الشكاوى إلى والدي، دون أن يفلح أيّ من أساليبه هذه في جعل عقلي يتفتّح للفهم أو الحفظ أو القراءة، ومساعدة أهلي، وصار حضوري مثل غيابي، لا يكترث به، بل إنه كان يتمنّى غيابي، ليتخلّص من شقاوتي، ومضايقاتي، ومشاجراتي مع التلاميذ من مختلف الأعمار. لقد وهبني الله قوة كبيرة، وشجاعة لا يقف في وجهها شيء، فكنت أعتدي على زملائي بالضرب، بالشتم، وأفرض عليهم أن يجلبوا لي من بيوتهم التين والجوز والزبيب، ويجمعوا عنّي الحطب، أو يحضروا الماء، أو يشتركوا معي في السخرية من المعلم، أو تعذيبه بمختلف الوسائل. وإثارة الفوضى في الصفّ حين يخرج من القاعة، حتى بلغت بي الشقاوة حدّ تكسير المقاعد، وتمريغ اللوح الأسود بالطين.

كان المعلم، أحياناً، يخرجني من الصفّ، ويجعلني أقف أمام التلاميذ ويسألني: ما هو ناتج ضرب ستة في تسعة، فأصمت كأبكم، أو أحرن كالحمار، أو أجيب على أسئلته بأجوبة تثير الضحك في الصفّ، وتحدث ضجة يصعب عليه بعدها السيطرة على الموقف.

كان يسألني مثلاً:

ـ لماذا لم تكتب درسك؟

ـ لأن قلمي ضاع.

ـ وأين أضعته؟

ـ لا أدري.

أحياناً أعترف بأنني كسرته، فإذا أعطاني قلماً أتحجج بفقدان الدفتر، فيسألني:

ـ أضعته أيضاً؟

ـ لا أدري من سرقه!

ـ سرقوه أم مزّقته؟

ـ سرقوه.

ـ لكن رفاقك يقولون إنك مزّقته.

ـ مزّقت الورقات التي لم أنجح في الكتابة عليها.

ـ ولماذا لم تنجح؟

ـ . . .

ـ ألم تتعلم كالتلاميذ الآخرين كيف تكتب الحروف والكلمات؟

ـ . . .

ـ لماذا لا تجيب. . ؟

ـ . . .

في مثل هذه الحال، وأمام صمتي المتعمد، كان المعلم يستثار، فيذهب، في الغرفة ويجيء. وكلّما أعطاني ظهره قمت بحركات تضحك الأولاد في الصف، أو نقفتهم بالحصى، أو عدت إلى مكاني دون أن يطلب مني ذلك، وعندئذ كان يثور، ويخرجني ثانية، ويضربني، ويشدّني من شعري الخشن، ويصيح في وجهي:

ـ يا كلب، ماذا أفعل فيك؟

ـ أرسلني لجمع الحطب.

ـ ولكنك تذهب ولا تعود.

ـ لأني لا أجد حطباً يابساً، وأنت ترفض أغصان الزيتون، أو الأغصان الخضر، لأنها لا تشتعل.

ـ والماء؟ لماذا تكسر الجرار؟
ـ لأنها تنكسر عند مَلْئها.
ـ أنت شقيّ.
ـ نعم يا معلمي.
ـ وأنت كلب.
ـ نعم يا معلّمي.
ـ وأنت حمار.
ـ نعم يا معلّمي.
ـ أتسخر مني؟
ـ أقول الحقيقة.
ـ الحقيقة أم الشيطنة؟
ـ لا أدري.
ـ كم هو حاصل ضرب أربعة في تسعة؟
ـ ٤٠
ـ وخمسة في ستة؟
ـ ٥٣.
ـ واثنين في اثنين؟
ـ ٤.
ـ برافو. . .
ـ هل كان جوابي صحيحاً يا معلّمي؟
ـ تستحق عليه الضرب حتى أفجّ لك راسك.
ـ هذا أفضل من الحبس في المدرسة وقت الغداء.
ـ لكنني سأضربك وأحبسك معاً. سيكون القصاص مزدوجاً.
ـ كما تريد.
ـ أتهزأ؟

ـ أقول الصحّ.
ـ ستنتبه وتحفظ كغيرك بعد اليوم؟
ـ أعدك بأن أفعل.
ـ ولكنّك لا تفعل.
ـ هذا ما يريده الله.
ـ الله يريد منك أن تتعلّم.
ـ وأنا أتعلّم.
ـ أين ما تتعلّمه؟
ـ في رأسي.
ـ ولكن رأسك فارغ.
ـ هكذا خلقني الله.
ـ الله خلق للناس أدمغة في رؤوسهم.
ـ أنا حَرَمَني من الدماغ.
ـ أنت تكذب. . أسمعت ما أقول؟
ـ نعم سمعت، أنا أكذب.
ـ في رأسك دماغ كسائر الناس، لكن دماغك لا يشتغل.
ـ سأشغله.
ـ كيف؟
ـ علّمني أنت.
ـ تتواقح أيضاً. .
ـ وماذا أقول إذن؟
ـ تعلّم تشغيل دماغك بنفسك.
ـ سأجرّب.
ـ ولكنك لا تفلح

- انا لا افلح.
- أتسخر مني يا كلب؟
- العفو يا معلمي.. أصادق على كلامك فقط.
- ماذا أفعل بك..
- ...
- أضربك؟
- ...
- أحبسك؟
- ...
- أطردك من المدرسة.

ويثور المعلم من جديد:
- لماذا لا تجيب؟
- وبماذا أجيب؟
- بأيّ شيء، بأيّ كلام.. بأيّ وعد في أنك ستتخلّى عن سلوكك المعيب هذا، وتصبح إنساناً، تصبح مجتهداً، هل تسمع ما أقول؟ هل تفهم عليّ؟
- أسمع وأفهم يا معلّمي.
- سترى
- نعم سترى.
- أريد عملاً لا قولاً.
- سأعمل.. أعدك بأن أعمل.
- برهن لي عن ذلك.. احفظ جدول الضرب على الأقل
- سأحفظه.
- متى؟
- حين يريد الله!

- وحين أريد أنا أيضاً، أتسمع؟ كلمة المعلم من كلمة الله.. يجب أن تطيعني كما تطيعه، وكما تطيع والديك.
- سأطيع الله وأطيعك وأطيع والديّ.
- وتحفظ دروسك؟
- سأحفظها.
- في هذه الحال سأكون سعيداً بك، وسيرضى عنك أهلك.
- سأعمل لإسعادك وإرضاء أهلي.
- هل هذا وعد؟
- وعد..
- وأمام التلاميذ؟
- أمام الجميع.
- في هذه الحال عد إلى مقعدك.. أحضر غداً قلماً ودفتر وحافظ على كتاب القراءة وكتاب الحساب.
- كتاب الحساب غير موجود.
- أين ذهبت به!؟
- سقط مني في البئر..
- كيف ذلك؟ ماذا جاء بالكتاب إلى البئر؟
- كنت أذاكر هناك.
- طيّب.. لا تذاكر قرب البئر بعد اليوم.. العمى انتهت الحصة وأنا مشغول بك.. تريد أن تجنّني..؟
- اشترِ كتاب الحساب من جديد.
- أخاف أن أطلب ذلك من والدي
- كان الله في عون والدك.

وبعد أن يتنهّد، ويزفر عدة مرات، ويفكر في كيفية إصلاحي، يصيح بنا:

ـ انصراف.

كانت هذه الكلمة أحبّ الكلمات لي. انصراف يعني ترك المدرسة، يعني الخروج من بين الجدران، والانطلاق حيث أشاء، دون كتب أو دفاتر أو أقلام، هذه التي كنت أرميها في البيت، أو أكلف أحد الأولاد بحملها إليه، فإذا سألوه أين مفيد، أجابهم، كما كنت أوصيه، سيأتي بعد قليل. وكان أبي يعرف هذا القليل، فيتمتم، ويهمهم، ويهدّد ويتوعّد، وأمي تحاول تهدئته قائلة:

ـ سيأتي، لا تقلق عليه.

ويجيبها بعصبية:

ـ أنا أقلق عليه؟ ولماذا؟ أخاف أن يخطفوه، أن يضربوه، أن يموت؟ ليته يموت، كنت على الأقل أستريح.

وتنوح أمي:

ـ يا ويلي، تدعو عليه بالموت؟ أليس ابنك وفلذة كبدك؟ كيف يطاوعك قلبك فتدعو عليه بالموت؟

ـ أنا أدعو وأنا أعرف ما أقول.. ليته يموت هو، أو أموت أنا، في هذه الحال فقط ينتهي الأمر، وأتخلص من همّه.

ـ لو مات لبكيت عليه، وتأسّفت طول عمرك على فقده.

ـ لو مات لن أبكي عليه، ولن أتأسف.. يكفي ما تحمّلت من بلاء بسببه، يكفي عذابي، ويكفي ما أقاسي. ليمتْ. اسأل الله أن يموت، لأنه ولد لا نفع منه، ولن يجلب لي إلا المزيد من المتاعب.

تُبرطم أمّي.

ـ آه! ما أقسى قلبك، لم أسمع، في حياتي كلها، رجلاً يدعو على ابنه بالموت.

ـ اسمعي إذن، أنا أدعو عليه بالموت، هذا ليس ابني، أنا أتبرأ منه، إنه

عاهر ابن عاهرة، هذا النغل، لا أريده في بيتي.

كيف؟ أتطرده؟ تدفعه إلى التشرّد والضياع؟

ـ إنه يطرد نفسه، إنه متشرّد وضائع، هذا الولد لا خير فيه، قلت لك لا خير فيه، والأيّام بيننا

ـ كل هذه العصبية لأنه بعث بكتبه مع أحد رفاقه؟

ـ بل لأنه خائب، لأنه خاسر، لأنه سيذهب الآن إلى حيث لا يدري إلا الشيطان. وغداً تأتي الشكاوى بحقّه، غداً يطالبونني بإصلاح ما أتلف.

ـ لن يتلف شيئاً.. انصرفَ من المدرسة فذهبَ يتنزّه مع الأولاد.

ـ بعد المدرسة يعود التلميذ إلى البيت.. يكتب وظيفته أو يحفظ درسه، هكذا يفعل أولاد الناس، أولاد الجيران، الذين في رؤوسهم عقل. الله، يا الله، لماذا رزقتني بولد مجنون؟

تصيح أمي:

ـ بعيد الشرّ.. لا تقل إنه مجنون. سيسمع الناس ويصدقون، سينادونه يا مجنون، يحسبونه مجنوناً حقاً، هل يرضيك هذا؟

ـ يرضيني، نعم يرضيني، ابنك مجنون حقاً.

ـ ابننا طائش.. مفيد طائش.. وفي مثل عمره يطيش الأولاد، وغداً يكبر ويعقل، لا تغضب، أرجوك لا تغضب، لا تقتل نفسك قهراً

ـ هو الذي سيقتلني قهراً.

ـ لأنك تأخذه بالشدّة.. لأنك تحرمه من الكلمة الحلوة [illegible] تربية، أنت لا تعرف كيف تربّيه.

ـ وكيف أربّي إخوته وأخواته!؟

ـ أصابعك ليست كلها مثل بعضها.. هذا الولد ورش، الله خلقه [illegible]، وعندما يكبر يعقل، يحطّ عقله في رأسه.. سأتكلم معه حين يعود، دعني أكلّمه بهدوء حين يعود، اتركه لي، دع تربيته لي

ـ أنا موافق. . سأتركه لك. . سأنفض يدي منه. . ربّيه بكلماتك الحلوة.

حين كان والداي يتحاوران هكذا حول شقاوتي، كنتُ أنا أطوف في البساتين، مفتوناً بالطبيعة. المعلم شعبان لم يكن يروق له هذا. كان، لأمر ما، لا يحب الطبيعة، ولا يكترث بها. وكانت زوجته القصيرة، تبدو كرة في استدارة جسمها حتى قبل الحمل. كانت قبيحة، تحاول التشوّف على نساء الضيعة. وكانت كثيرة الإنجاب، لذلك كان شعبان، استجلاباً لبعض الهدايا والعطايا من المختار والوجهاء، يبدو مطواعاً، يخصّ أولادهم بالعناية، وبدروس خاصة، ويلازم بيت المختار، ويصادق رجال الدرك، ويتقنزع على الفلاحين كي يبدو افندياً بينهم. وكان بعض أولاده معنا في المدرسة، وكنت أتحرّش بهم وأضايقهم نكاية بوالدهم.

لكل هذه الأسباب، أو لبعضها على الأقل، ومنها كسلي، ورعونتي، كان الودّ مفقوداً بيني وبين معلمي. ويبدو أنه انتظر طويلاً لينتقم مني بضربة قاضية. قطع ذنب الحمار وفّر له هذه الفرصة. تجهّم حين دخل الصف ورآني بين التلاميذ. صرف النظر عن الدرس، جعلني موضعاً للحصّة الدراسية بكاملها، وبدأ بنوع من استجواب تعلّمه من المختار والدرك. فسألني والقضيب في يده، يضرب به اليد الأخرى، كعلامة تهديد يعرفها التلاميذ، وأفهمها أنا على الطائر.

طلب مني الوقوف فوقفت. رازني بعينين ثعلبيتين، محدّقتين، يتطاير منهما الشرر. غير أنني لم أخف، وتلبّستني لا مبالاة، فيها جانب من السخرية، فرحت أنكش أنفي، وأقف على إحدى قدمي، ثم الأخرى، مائلاً إلى هذا الجانب وذاك، مدفوعاً برغبة في التحدّي، كأنما لأنتقم لنفسي من المختار والهيئة الاختيارية ومن غنّوم ووالدي وكلّ الذين أساؤوا إليّ.

صاح بي وهو يتابع التهديد بعصاه:

ـ أنت، يا ولد، قليل الأدب.

سألت متجاهلاً سبب غضبه:

ـ وماذا فعلت يا معلّمي؟

ـ لماذا تنكش أنفك في الصف؟

ـ كي أزيل ما فيه من أوساخ. .

ـ هذا يفعلونه في البيت، عند غسل الوجه صباحاً.

ـ حسبت أن عليّ أن أفعل ذلك هنا، كما تفعل أنت.

ـ اخرس. وقح!

ـ وماذا فعلت؟

ـ قلت لك اخرس. . قف جيّداً، بصورة مستقيمة.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا ما شاء الله؟

ـ لأن أمي نقعت قدمي بالحليب ثلاثة أيام متتالية.

ـ أتسخر يا كلب؟

ـ أقول الحقيقة. . عالجتني أمي بالحليب الساخن.

ـ من أين تعلّمت السيدة والدتك هذه الحكمة؟

ـ من الحكايات. . اسأل أيّ تلميذ يجبْك أن الأميرة، في الحكاية، تستحمّ بالحليب.

ـ وأنت أميرة؟

ـ أنا أمير. .

ـ أنت حيوان. . هل تفهم؟ أنت حيوان!

ـ ولهذا نقعت أمي قدميّ بالحليب. . هكذا تفعل مع حمارنا أيضاً.

ضحك التلامذة. ارتفعت الضجّة في الصف. أحسّ المعلّم بالاستخذاء. ارتحت في داخلي، قرّرت أن أخوض معه معركتي الأخيرة،

وساعدني على ذلك أن الجو كان غائماً، يحلو فيه اللهو والسخرية. كنت افرح، بعكس أهل القرية، بالجوّ الغائم، بسُحُبه الواطئة الداكنة التي تحملني على التفكير في أن افرّ، أو أرتكب حماقة ما، أو أتشرّد وحيداً في حقول الزيتون، أو ألجأ إلى البيت فأنام بكل بساطة، فإذا هطل المطر، وفاحت من التربة تلك الرائحة الحبيبة، رائحة الأرض، التي أحسّها إحساساً حلواً، أخرج فأقف في الباب، وأتابع حبّات المطر، الممزوجة بالبرد أحياناً، راغباً في أن يستمرّ المطر طويلاً ولعدّة أيام.

أخرجني المعلّم من الصف. كان يضمر شرّاً، وكنت مثله، أضمر شراً مماثلاً. لم أكن مبالياً، برغم أن السكّين ليست معي. كان شيطان يركبني، فأشعر بقوة مضاعفة، وجرأة مضاعفة، ولا أشكّ أن في استطاعتي قهر المعلم، في أي شجار أخوضه معه. فالعقوبة التي نلتها في بيت المختار، ملأتني نقمة، وبخلاف ما توقّع الجميع، لم تحملني على الندم. فقد كنت مقتنعاً، بسبب لعين لا أعرف ما هو، أن ذَنَب الحمار ذاك كان يجب أن يقطع.

وقفت في أوّل الصف، في الجهة المقابلة للباب، مسترخياً، مائلاً إلى جنب واحد، نظري يشعّ بالكره، أعصابي مستنفِرة، دون أن يظهر عليّ ذلك، بفعل تلك العادة المستحكمة فيّ، عادة أن أبلغ في داخلي أقصى التوتر، وأظلّ من الخارج، هادئاً، ساخراً، كأنما لا شيء في الدنيا بقادر أن يخيفني.

لاحظ المعلم شعبان ذلك، لاحظه دون شك، وربما رغب، في أعماقه، بصرف النظر عن معاقبتي ثانية. لكنه كان قد استعدّ، وبَانَ استعداده للتلاميذ. وكان، خلال غيابي، قد أبلغهم أنه سينزل بي عقوبة أين منها عقوبة المختار. فأيقن الأولاد أنه فاعل بي ما لا يُفعل، وأنه سيضربني حتى أموت، أو أزحف وأقبّل قدميه طالباً الرحمة، مبدياً الندم والتوبة. وها هي

لحظة التنفيذ قد حانت، واستعدّ كلّ من في القاعة، لرؤية مشهد مثير، كانوا يتمنّونه، لا كرهاً ولا بغضاً، بل حباً بالإثارة، وباستعادة موضوع ذنب الحمار، الذي صار قضية الضّيْعة كلّها.

ذهب المعلم وجاء. كرّر ذهابه ومجيئه، شاء أن يخيفني، أن يدخل الرعب إلى قلبي، قبل أن ينقضّ عليّ بعصاه. وحين لم يجد لنظراته الملأى بشهوة ترويضي، أيّ أثر عليّ، ولم تنفع حركاته المشحونة بالبغض في حملي على الخروج من لامبالاتي، استعاض عن الضرب مباشرة بحوار شاءه مهيناً، حتى يستدرجني إلى الخجل الذي لم أكن أتعامل معه، فأنا لست وقحاً، لكن الخجل لا يعرف سبيله إلى نفسي. وبقدر الاستثارة، كانت وقاحتي تزداد، وتعبّر عن نفسها بسخرية تبدو في قسمات وجهي.

أخيراً نطق المعلّم شعبان. بدل العنف أخذني باللين. سألني:

- ما هي العداوة التي بين والدك وعبّود؟
- لا أعرف.. عن أيّ عداوة تسأل؟
- عن العداوة.. ألا تعرف معنى العداوة؟

كنت أعرف معنى الكلمة، لكنني أجهل كيف تكون، ولماذا تكون. فأنا، منذ وعيت ما حولي، لا أتعاطى العداوة. كنت بريئاً بقدر ما كنت شقياً، ولم تكن هناك عداوة بيني وبين أحد، ولم أسمع بعداوة بين والدي بن عبود، بَلْ كنت أستغرب وجود عداوة، ما دام كل إنسان يستطيع أن يضرب الآخر، ويأخذ حقّه بالقوة. وفي حال كهذه، لماذا تبقى عداوة كامنة في النفس؟

صاغ المعلم شعبان سؤاله بعبارة أخرى:

- قصدت الثأر.. أليس لوالدك ثأر عند عبّود؟
- ليس لوالدي ثأر مع أحد.
- ولا حتى مع المختار؟

- ولا مع المختار . .
- والدَرك؟
- ما شأن الدرك بوالدي؟
- ألا تعرف ما شأن الدرك مع الناس؟
- والدي رجل عاقل مستقيم، وليست له مشاكل.
- من أين تعلمت الشقاوة إذن؟
- من المدرسة.
- وقح . . المدرسة تعلّم الأدب.
- أنا علّمتني . . .

قلتها وغمزت بعيني. فهم الأولاد المعنى وتضاعف غيظ المعلم: وضح الآن أنني أتحدّاه، وأنني أجعله سخرية أمام التلاميذ، وأهين المدرسة التي هي مقدّسة في نظره، بقدر ما كان يريد أن يكون مقدّساً في نظرنا أيضاً. غير أنه، للمرة الثانية، تردّد في الانقضاض عليّ، وبدل الضرب صرّ على أسنانه، وقال بصوت مشحون بالغضب:

- أنت لست وقحاً فقط، أنت مجرم، مجرم بالفطرة.
- وبماذا أجْرمتُ؟
- أتسأل بعد؟ ألم تعرف حتى الآن؟
- قل لي عن جريمتي وأنا أعترف.
- وهل يحتاج الأمر إلى اعترافك؟ لماذا قطعت ذنب الحمار؟
- لأنني وجدته صالحاً للقطع.
- الحمار حيوان، والحيوان له روح مثل الإنسان. . ألا تفهم؟
- لو رأيت ذنباً لأيّ إنسان لقطعته.
- هكذا؟
- نعم. . الذنب لا يليق بالإنسان. . القرد نفسه بلا ذنب.

- وأين رأيت القرد؟
- رأيت صورته في الكتاب.
- أنا لم أرى أيّ قرد في أي كتاب مدرسي.
- أنا رأيته.
- أنت تكذب.
- أنا لا أكذب. . رأيت القرد، اسأل الأولاد.

صاح الأولاد:

- نعم رأينا القرد، جاء إلى الضيعة في الصيف رجل ومعه قرد وطبلة.
- وهل كان القرد بذنب أم لا؟
- بذنب يا أستاذ.

التفت الأستاذ شعبان نحوي، وفي عينيه معنى الانتصار، لأن القرد بذنب وليس كما قلت، وأن القرد جاء مع صاحبه إلى الضيعة وليست صورته في الكتاب كما زعمت. انني الآن، متلبس بجريمة كذب صريحة، ومن هنا المدخل لمحاسبتي.

سألني المعلم شعبان:

- لماذا تكذب؟ أنت لم تر صورة القرد في كتاب، وللقرد ذنب وليس دون ذنب كما ادّعيت، فكيف تبرر أقوالك؟
- أنا لا أبالي بالقرد مهما يكن. . لكنني رأيت صورته وكان بلا ذنب!
- أتجرؤ على تكذيبي أيضاً؟ وما رأيك بشهادة رفاقك؟
- رأيي أنهم يكذبون.
- وأنا؟
- أنت لم تر القرد في الكتاب ولا في الضيعة.
- لكنني رأيته في المدينة. وكان بذنب.
- إذن لو رأيت أنا قرداً بذنب لقطعته أيضاً.

ـ تفعلها من جديد؟ تقترف جريمة أخرى؟

ـ قطع الأذناب ليس جريمة.

ـ وما هو إذن؟

ـ لا أدري، ولكنني سأقطع أذناب جميع الحمير وجميع القرود، وحتى أذناب جميع الحيوانات، ولو رأيت إنساناً بذنب لقطعته.

صاح المعلّم شعبان:

ـ آه ضبطك!! بعد الحيوانات يأتي دور البشر، تريد الاعتداء على البشر، وهنا الجريمة الكاملة.. أنت مستعد لارتكاب جريمة كاملة؟

ـ نعم..

ـ وتقولها بهذه السهولة؟

ـ بهذه السهولة.

ـ ولا تخشى العقاب؟

ـ لا أخشى أي عقاب.

ـ إذن أنت وحش؟!

ـ نعم أنا وحش..

ـ في هذه الحالة لا أرى فائدة من الحوار معك، ولا من معاقبتك.

ـ هذا هو الصحيح.

ـ يعني لا أمل في إصلاحك؟

ـ لا أمل في إصلاحي.

ـ وتقولها بصراحة ووقاحة؟

ـ أقولها بصراحة، فماذا تريد بعد؟ لماذا لا تضربني؟ لماذا تعذّبني بأسئلتك هذه؟

ـ لن أضربك.. لا، لن أضربك، لا فائدة من الضرب، أنت لا تحترم المدرسة، ولا الأستاذ، ولا أحداً.. هذا واضح.. سأتخذ التدبير المناسب، وسأشرح كل شيء للمختار.

ـ ومتى تفعلونها؟

ـ نفعل ماذا؟

ـ الطرد من المدرسة.

ـ الآن، في الحال، هيّا خذ دفاترك وكتبك وانصرف.. لم يبق لك مكان هنا.

ـ هذا أفضل.

قلت ذلك وعدت إلى الصفّ. أخذت أغراضي وانصرفت. خرجت من المدرسة دون أن أنظر إلى وراء. كنت أكره أن أرى سحنة المعلم شعبان، وكنت سعيداً لأنه طردني، ولأنه لم يضربني، فوفّر على نفسي معركة كنت سأخوضها معه حتى الموت. قلت في نفسي: «الآن انتهى كل شيء. أنا لا أصلح للمدرسة، ولا للحياة العائلية، ولا للبقاء في القرية. لقد عاقبوني في كل مكان دون ذنب. أنا لا أرى في قطع ذيل الحمار ذنباً، لقد كان ذيلاً طويلاً وجميلاً، وفي نهايته شلّة من الشعر.

إنني أتساءل، بعد أن كبرت: «لماذا ينشأ سوء التفاهم بين البشر بسبب تافه؟ لو نهم تَرَوّوْا قليلاً، وحاول كل طرف أن يتفهم وجهة نظر الطرف الآخر، لعاش الناس في محبة ووئام. وقد استغربت، حين طُردت من المدرسة، ذلك السبب التافه، البسيط، الذي هو ذَنَب الحمار، الذنب الملعون الذي أدّى إلى مصيبتي كلها. قلت استغربت، وما زلت حتى الآن أستغرب، حوادث تافهة بسيطة، مماثلة، تدخلت في حياتي وأدّت إلى كل مصائبي التي نزلت على رأسي، لأن الآخرين لا يريدون أن يفهموني، أو لا يريدون أن يفهموا حسن النيّة وراء تصرّفاتي كلّها.

يقولون إنني أحمق، أرعن، سافل، منحطّ، ثم ماذا؟ صحيح أنا لا أبالي أمام جميع هذه النعوت، وحتى أمام لقب الوحش الذي تلبّسني وصرت أعرف به. لكنني، مرة واحدة، لم أقتنع أنني أستحقّ ما نزل بي، عقوبة

كانت أم قصاصاً، ولهذا لم تنفع جميع المواعظ والشتائم، وكل النصائح والعقوبات في الحيلولة بيني وبين ما أريد، أو في منعي من التصرّف على الأساس الذي أراه أنا سليماً، ويراه غيري مُعوجّاً. هكذا، مع الأعوام، فهمت أن عدم قناعتي بموقف الناس مني، قائم على أنني أرى الأمور من زوايا تختلف عن الزوايا التي يرونها منها، وهناك قولان لا ثالث لهما: إما أنني غبيّ إلى درجة لا تُصدّق، أو أن الناس أشرار إلى درجة لا تُصدّق أيضاً.

طُردت من المدرسة. كان هذا عقاباً آخر على فعلتي التي هي لا فعلة، لا شيء، إنما مجرد تسلية يراها أهل الضيعة جريمة. وقد قلت في نفسي مراراً: «يا ولد، يا فاسد، يا وحش، لماذا قطعت ذَنَب الحمار؟» وأبداً لم أستطع أن أجد جواباً مقنعاً على تساؤلي، وعندئذ فكرت على نحو آخر: «أنت يا مجنون، اعتديت على حيوان، وهذا لا يجوز، لأن الحيوان له روح مثل الإنسان، فبأي حقّ تؤذي حيواناً لم يصدر عنه ما يسيء إليك؟» ولم أقتنع بأنني اعتديت، لأن الذئب حيوان، والضبع حيوان، والسبع حيوان، فبأيّ حقّ يقتلون هذه الحيوانات؟ أليس قتلها عدواناً أيضاً؟ وإذا كان الذئب يأكل الغنم، فالأرنب يأكل الحشيش، ولماذا إذن يقتلون الأرنب؟ أنا لم أقتل الحمار، قطعت ذنبه فقط. هم لا يكتفون بقطع الأذناب أو الآذان، ومع ذلك لا أحد يتّهمهم بالعدوان، ولا أحد يعاقبهم، فكيف تستوي الأمور هنا وتعوجّ هناك؟ ولماذا أُعاقَب أنا، وينالون هم المديح؟ فعلتهم تُسمّى صيداً، وفعلتي تسمى عدواناً، فأين الإنصاف في كل هذا؟ ومن جديد، فكرت تفكيراً مغايراً، قلت في نفسي: «يا صاحب الرأي اليابس، يا طائش، الحمار حيوان أليف، نافع، ولهذا فإن قطع ذنبه يُعدّ عملاً سيّئاً، أما الذئب فحيوان مفترس، ولهذا فإن قتله يُعدّ عملاً جيداً، يعدّ بطولة، وهنا كل المسألة». لكنني لم أقتنع أيضاً، لأنني تساءلت عندما كبرت،

وعركتني الحياة: «لو كان الحمار حماري، وفعلت به ما فعلت، من كان يتهمني أو يعاقبني؟ لا أحد طبعاً، وإذن فإنّ القضية كلها تعود إلى أن الحمار ليس ملكي، وأنني اعتديت على ملكية الآخرين، وهذا هو السبب في الذي جرى لي، وأنا أرفضه، فهو يخالف الواقع، فالأسياد يعتدون على أراضي الفلاحين ومواشيهم وليس من يحاسبهم، فلماذا؟» هنا ارتحت قليلاً لأن الجواب أصبح واضحاً. الأسياد يفعلون ما يفعلون لأنهم أقوياء، وأنا ضعيف. إذن عليّ، لكي أفعل ما يفعلونه، أن أكون قوياً مثلهم، وأنا قويّ، وسأفعل ما يحلو لي، غير أنني لا أريد، لا خوفاً بل شفقة، وسأمتنع عن فعل الشرّ، لأنني، في داخلي، لست شريراً، وأشعر بالعطف حتى على العصفور.

هذه الفَذْلَكة، كما يسمونها في اللاذقية، لم أكن أعرفها عندما قطعت ذنب الحمار. كنت حماراً أحسّ ولا أعرف التعبير عن إحساسي، وعندما خرجت من المدرسة، رحت أتشرّد في البراري. كنت أمشي دون أن أفكر لماذا أمشي وإلى أين. تركت نفسي لقدميّ، وتركت قدميّ للدرب التي تأخذني. وأحسست، من خلال تشغيل مخّي، أنني كبرت، وأنني بلغت، وأصبحت قادراً على التمييز، وأن من حقي، بعد اليوم، أن أتصرّف وفق ما أراه صواباً وأن أسأل نفسي، قبل الإقدام على أيّ عمل: «هل هذا خير أم شرّ؟» لكن الغريب، أن ما كنت أراه خيراً، لم يكن يراه الآخرون كذلك، ربما لأنني أنا فاعله. كانت سمعتي السيئة تنسحب على عملي، فتلوّثه بالسوء، وأبداً لم أستطع، في مرحلة اليفاعة والصبا، أن أجعل الناس يفهمون تصرفاتي، والدّوافع وراءها، وأن يسروا إلى براءتي ويؤمنوا بها، أو يشهدوا لها. ولقد استنتجت أنه من المحال حمل الناس على الاعتراف بأنني بشر سوي بإثبات أنني بشر. وهذا يحتاج إلى العمل والقوة، وأن عليّ أن أعمل وأكون قوياً، وأن لي من متانة البنيان، وشجاعة

القلب، ما تجعل هذه القوة تدخل في حساب ذل ابن ساقطة وترهبه.

الآن قُضي الأمر، قطعت ذيل حمار عبّود، وطُردت من المدرسة، ولم تعد الفلقه ترهبني، ولا حتى ربطي إلى أيّ شجرة وجلْدي بالقشاط. خرجت على إرادة الجميع، وقبل الكل على إرادة والدي، وخيّبتُ آماله في مستقبلي، وفي أن أكون نافعاً له في هذا المستقبل.. ولكنْ على من الحق؟ قد أكون خشناً، مشاكساً، لا يدخل العلم رأسي، ولا العمل في الأرض يلائمني، غير أن والدي هو الذي كرّهني بالأرض والعمل فيها. والمعلم الغبيّ، الذي أتقزّز وأنا أراه ينكش أنفه في الصف، قد أقام بيني وبين العلم سدّاً، بطريقته الفظّة، وأسلوبه الذي يُنفّر البغل من شرب الماء وهو عطشان. وجاءت مسألة قطع ذنب الحمار، هذه التي أغراني بها الشيطان. فاكتملت الحفلة. وفي بيت المختار قلبوا الحكاية إلى مصيبة، فتعاونوا، عفاهم الله، على إدانتي وجلدي، حتى تورّمت قدماي. وكان والدي في صفّهم، كان يُحرّضهم. لعلّه كان يأمل أن يميتني الضرب، أو يطلق الدرك رصاصة عليّ، فيتخلّص مني، بعد أن عذّبته بما فيه الكفاية. ومن حق هذا الأب، هذا الفلاح المنخور، أن يستريح من ابن عاقّ مثلي، لا يجلب له سوى المصائب. إنني أعذره، لا ألومه، فليس هو بالحكيم، ولا بالمتعلّم، ويفهم التربية على أنها تأديب بالعصا، ويقول لي: «أنت، يا مفيد، لن تكون مفيداً لأيّ شيء في هذه الدنيا. الله عاقبني بك. ربما كنت خاطئاً وعاقبني بك، وأنا لا أشكو ولا أتذمر، أتقبّل عقاب الله بالصبر والتقوى، ولكن لا أعرف ماذا أصنع بك، إنت لست إنساناً، أنت حيوان، وحش، وأنا لا طاقة لي على تربيتك، وأصبحت عاجزاً عن تأديبك. فإذا جلدتك فكأنني أجلد نفسي، وإذا ضربتك توجّع جسدي، فأنا أتعب، وأنت لا تحسّ ولا تتعب، أنت وحش كما قالوا عنك، أنت وحش حقيقيّ، ارحمني وارحل عن بيتي، اذهب إلى جهنم، إلى النار، إلى القبر، فلم تعد لي طاقة

على الكلام معك، أو على توبيخك، وقد يئست، وأسأل الله أن تموت أنت، أو أموت أنا، وعندئذ ينتهي عذابي».

أمثال هذه المواعظ المبلّلة بالدموع، وبالشكوى، وقرع الصدر، كانت تتكرّر، وكانت تؤثّر بي، وتجعلني أشفق على المسكين والدي، وأتوجّع من حنان وخوف على أمي، التي كان يعاقبها حين يعاقبني، أو يعاقبها نيابة عني، أو يجعل منها الجورة الأخيرة التي يصبّ فيها ماء الظلم والقهر اللذين أتسبّب بهما، وكان بودّي أن أستغفر هذه الأم، أن أقبّل رأسها ويديها، أن أضمّها إلى صدري وأشمّ رائحة الأمومة في عنقها النحيل من تعب ومرض، لكن والدي حرّم عليّ دخول البيت بعد طردي من المدرسة، وهكذا كتب عليّ أن أتشرّد، وأنام في مغارة عند طرف الجبل، أو في زريبة ماشية، أو طرف حقل، أو كرم تين أو زيتون، وأتغذّى من لحم دجاجة أقتنصها، أو خروف صغير أسرقه، وكان الملح ينقصني، لكن أحد الرعاة حمل إليّ الخبز والملح وأعواد الثقاب، مقابل تعهدي بأن لا أمسّ قطيعه، وهكذا عشت شهراً في براري القرية، على أمل أن يرقّ قلب والدي، أو تخرج أمي للبحث عني، أو يتشفّع لي أوادم الضيعة، ويعيدوني إلى البيت. ولمّا لم يحدث شيء من هذا، لأسباب ربُّك يعلم بها، قرّرت أن أهاجر، أن أكفي الناس شرّي، أن أسامح المختار والهيئة الاختيارية الّذين عاقبوني بالجلد، وأن أصفح عن المسكين الذي هو معلّمي شعبان.

كان لقب الوحش قد ركبني كما يركب الفلّاح الحمار، وقد انزعجت من ذلك أولاً، ثم تقبّلته، ثم أشعته عن نفسي، حتى لا أُعرّض اسم العائلة للعار، وصار اسمي مفيد الوحش، وكان اسماً على مسمّى، فأنا، من كثرة ما عنيت، ومن كثرة ما ناداني والدي والمختار والمعلم وأهل القرية بالوحش، صرت وحشاً حقيقياً، وقرّرت، في سرّي، وبكل ما في طاقتي من قوة غير عادية، أن أنتقم من الدنيا بوحشية، أن أغامر، أن أطلب

الموت، وأبارزه، وأرتكب كل معصية، وأدخل رجلي في مؤخرة الدنيا، وأن أخرق القانون، وأدوسه، وأفعل مالا يُفعل، حتى أجد لنفسي مكاناً في الدنيا أو على الخازوق، متذكراً قولة فلّاح من ضيعتنا، كان لا يسكت على واحدة، ولا يصبر على ضيم، وما أن يدخل في خصام مع الآخرين حتى يمسك بطرف شاربه الثخين ويقول: «إما أن أحلق هذا الشارب أو أجعله فُرْجة في «الشيخ ضاهر». أي إما أنْ يكون «مَرَه» أو يقتل خصمه ويتدلّى على حبل المشنقة في ساحة الشيخ ضاهر في اللاذقية.

أنا من الآن قاتل أو مقتول. طردني أهلي، طردتني الضيعة، أمطرت السماء عليّ وأنا في العراء، كأنها تطردني من العراء نفسه. التجأت إلى المغارة وليس في يدي سوى عصا، دافعت بها عن نفسي ضدّ دبّ اغتصبتُ مأواه. قتلت ثعباناً وعقرباً وكلباً أردته صديقاً فإذا هو مسعور حاول أن يعضّني، حتى لم يبق، في ضيعة «الخراب» كلها، من أستطيع أن ألوذ به، أو يقبل أن يتفهّم أنني لست وحشاً كما يزعمون، ولم أقطع ذنب الحمار عن سابق قصد وتصميم، وأن شقاوتي ليست إلا ستاراً لطيبتي التي لا يصدّقها أحد، ولا يستطيع، حتى الشيوخ، أن يكتشفوها.

فكرت: «اللعنة تجلب اللعنة. أنا ملعون ولاعن. لعنني الجميع ولعنت الجميع، ما كان في وسعي، ولا طبعي، أن أكون حماراً يركبني الناس، أو جملاً يركع على أربع، أو أرنباً مذعوراً يفر أمام كلب صيّاد. خُلقت للقتال، وهذا حظّي، أقاتل في سبيل اللقمة، والمأوى، واللباس، والكلمة الكيّسة، وأترك أمري للأقدار، كقشّة تتلاعب بها الريح في الفلاة، ولكن ليس إلى زمن طويل. فوعيي بالحياة، وبحقّي في هذه الحياة، تنامى خلال شهر من التشرّد.

ثم كبرت، بعد أن ذهبت إلى اللاذقية، ومارست الشقاوة طويلاً، وصرت شاباً راغباً بالعيش بسلام وتحصيل الرزق من خلال العمل، ورفض الظلم الذي ينزل بي أو بأحد من رفاقي وكنت مستعداً أن أكون حارساً، بلطجياً[1] حامياً لامرأة، لرجل، لمقهى، لمقمرة، لأيّ شيء يكون فيه عراك، تحدٍّ، وقوف في وجه الغير. أخذتْ لذةٌ بهيمية في القتال تنهشني كي أثبت أنني، على فتوّتي، رجل، وأن في مقدوري أن أمسح الأرض بأيّ رجل، حتى ولو كان له شارب يريد أن يتفرج عليه الناس في ساحة الشيخ ضاهر

وهذا الطبع فيّ، كان السبب الأول والأكبر لطردي من المدرسة والبيت. وحين طردت وأصبحت وحيداً متشرداً في البراري، كان عليّ أن أتحمّل الجوع والعطش والوحشة، وقبلها ذلك الشعور بأنهم عاقبوني دون ذنب، مادام قطع ذَنَب الحمار لم يكن ذنباً في نظري.

أخيراً خرجت من المغارة ذات يوم مع الفجر. لعنت ضيعتي «الخراب»، بصقت عليها. بصقت على بيت المختار، وبيت أبي، وباركت أمي، ودعوت لها بالصحّة والعمر الطويل، حتى أعود يوماً وأراها، وانحدرتُ من خاصرة الجبل، وقمت بدورة كبيرة، حتى أتجنّب المرور بالضيعة أو قربها، ومشيت في طريق هجرتي الأولى، من الخراب إلى بانياس، حيث لي قريب لأمي، مزمعاً أن أقيم عنده أياماً، إذا قبلني، وإذا لم تكن حكاية قطع ذنب الحمار والطرد من المدرسة ومن البيت قد بلغته، ولن أكلّفه سوى المبيت عنده. أما طعامي فأتدبره بأيّ شكل كان.

كان قريب أمي يدعى ابراهيم الشنكل. رجل بسيط، فقير يبيع الخضار على عربة يدفعها أمامه، ويرهقه دفعها حينما يصادف مرتفعاً من الأرض والدرب، وعندئذ تنفر عروقه كلها، على جانبي رقبته، وفي ساعديه، ورجليه، ومن جرّاء هذا كانت الشروش الزرق، أو الدوالي، تجعل من

---

(1) فتوة في اللغة المصرية الدارجة

حتى ساقيه بلطخة خضراء مبعجرة، فيها عُقد. وكان عرقه يسيل، خاصّة في الصيف، حيث الحرّ والرطوبة، فيجري في صدره، ويغمر وجهه، ويمتلىء به عيناه. كان ربَّ عائلة، وعليه، طوال العام، أن يكدح كدحاً متواصلا. لذلك يعمل في الشتاء حمّالاً، ولا يكاد، هو وزوجته واولاده، يشبعون اللقمة. أمّا اللباس فكان خِرقاً تستر الأجسام. غير أنه، من جهة أخرى، كان أبيّاً، عزيزاً، يضع في رأسه أفكاراً حلوة يعاقبونه عليها، ويسجنونه دائماً بتهمة توزيع منشورات ضد الحكومة الفرنسية.

عرفته وأنا صبيّ، يوم جاء إلى قريتنا الخراب، حاملاً كدسة من المنشورات، قام بتوزيعها على بيوت الفلاحين في الليل، وفي النهار اختفى في أحد كروم الزيتون، حيث قيل إنه اجتمع ببعض الفلاحين، وتكلّم معهم، هو الأميّ، عن العدالة، والأرض، ومقاومة الانتداب الفرنسي. ثم هرب حينما وشي به المختار إلى الدرك، فلم يكن من هؤلاء سوى كبس بيتنا، وتفتيشه، والسؤال عن قريبنا الشنكل، الذي أفاد والدي، رغبة في الخلاص، أنه جاء إلينا، لكنه منعه من المبيت عندنا، وبعد ذلك لا علم له ولا خبر.

أنا ما حييت، لن أنسى إبراهيم الشنكل وأمثاله، وكانوا كثراً، التقيت بهم في بانياس وطرطوس وجبلة واللاذقية، وحتى في بعض القرى. وكان كل شيء في حياتي الشقيّة، وفقري وبؤسي، جديراً بأن يقودني إليهم. لكن دماغي المجبول من طين أسود، حال بين أفكارهم وبين أن تدخل رأسي، وإن كنت، في مرات كثيرة، دافعت عنهم بالوسيلة التي أملكها: ذراعي.

لقد تعلّمت خلال تشرّدي الطويل، ومعاركي التي لا عدد لها، أن آنس إلى من يحملون أفكاراً كالتي يحملها قريب أمّي هذا. كانوا طيّبين، وبرغم عسر الحياة، كان لهم أمل في أنها ستصبح أفضل. وكانوا يعطفون على الفقير، لأنه منهم وفيهم، ولا يخجلون من فقرهم، أو يتظاهرون بما ليس

عندهم، وتطيبُ اللقمة، حتى لو كانت حبّة زيتون ورقاقة بصلة، معهم. وبمثل هذه الروح الأنيسة الشهمة، استقبلني الخال ابراهيم، كما كنت أدعوه، ورحّب بي ترحيباً بسيطاً، صريحاً، صادقاً، وسألني عن حالي، وعن أهلي، وعن أمي بخاصّة، وقال لي، بعد أن نامت عائلته، وبقينا معاً، احكِ لي عن كلّ ما جرى معك، فأنا، في صغري، كنت مثلك، والفارق الوحيد، هو أنني لم أهرب من بيت أهلي، وكنت أعمل لمساعدتهم قدر إمكاني.

رويت له أشياء كثيرة عن حياتي. حاولت أن أخفي شقاواتي، أو أخفّف منها، لكنه كان يقول: «أعرف. سمعت عنك، كان الله في عون أمك، أنت لم تخلق للمدرسة، وقد عاشرت رفاق السوء، وتستطيع، الآن، أن تغيّر سلوكك، وتبدأ بداية أخرى، طيّبة، أي في وسعك أن تأكل خبزك بعرق جبينك، وأن تساعد والدك. كلّنا فقراء «كلنا في الهوا سوا» ولكن لا ذنب لنا في فقرنا. هناك الأغوات والملاّكون والدرك، وكل سلطة الحكومة التي تترصّدنا، وتعقّبنا، وتعتقلنا، وتعذّبنا، وتسجننا. أتعرف لماذا؟ ولما هززت رأسي بالنفي أجاب: «لأننا نوقظ الناس، نُفهمهم حقوقهم، نُحرّكهم للمطالبة بخروج فرنسا، وندفعهم للأعمال النافعة، فإذا كانت لديك قوة، فدافعْ بهذه القوة عن حقّك، عن حقوق الناس، ولا تهدرها في الشقاوة».

قال كلاماً كثيراً مشابهاً. لكنني كنت فتى، وكنت طائشاً، وقليل الصبر، ورأسي الكبير، المكسوّ بشعر خشن كشعر القنفذ، لا ينفذ إليه هذا الكلام، وجسمي العملاق خُلق للعراك ولم يُخلق لنشر الأفكار، حتى لو فهمتها، أو آمنت بها. وقد ضحك قريبي حين رويت له كيف قطعت ذَنَب حمار عبّود، وكيف رفعوني فلقة في بيت المختار، وكيف طردت من المدرسة، ومن البيت، وقال لي وهو يمسح دموعه من شدة الضحك: «وما

ذنب الحمار المسكين حتى قطعت ذَنَبه؟ ولماذا حمار عبّود بالذات وليس بغل البيك أو حصانه؟ ثم كيف خطرت لك هذه الفكرة؟ أنت متهوّر، أنت لا تصلح للقرية. هنا في المدينة ستتعلّم كيف تتعامل مع الناس، وكيف سينالونك بالأذى، إذا لم تقلع عن هذه الشقاوة. فكّرْ في أمرك، في وضعك، في تدبير عمل ما، وإلا متّ جوعاً. هنا لا توجد كروم عنب أو تين لتسطو عليها وتشبع معدتك».

سهرنا طويلاً، إلى ما بعد منتصف الليل. سألني عما إذا كنت قد تعلمت شيئاً من المدرسة، وعما إذا كنت أحسن الكتابة والقراءة. ولما أجبته: «أعرف القراءة قليلاً» قال: «يمكنك، إذا اجتهدت، أن تقرأ جيداً، لا تترك جريدة أو كتاباً إلا وتحاول القراءة فيه. أنا فعلت هذا ونجحتُ. تعلمت في المدرسة حتى الصف الرابع، وبعد ذلك تابعت القراءة وحدي. أنا الآن أقرأ وأكتب، وأنت أيضاً تستطيع أن تفعل مثلي، أن تعوّض ما فات، أن تحسّن قراءتك يوماً بعد يوم، وبقليل من الجهد، وقت الفراغ، يمكن أن تحقق ما أقوله لك» قلت: «أعدك. سأفعل. الأمر غير صعب عليّ». بعد ذلك اعتذرمني، إذ سيمدّ لي بساطاً في المطبخ، لأن غرفته الوحيدة بالكاد تتسع له ولعياله، فشكرته، وأبديت امتناني له، وقلت إنني لن أنسى معروفه، ونمت، تلك الليلة، في المطبخ، وفي الصباح انسللت وذهبت أبحث عن عمل.

لم أجد أيّ عمل في بانياس فذهبت إلى اللاذقية. كنت مقتنعاً، إلى حدّ ما، بعد كلام إبراهيم الشنكل، أن عليّ أن أغيّر سلوكي، وأن أبدأ عملاً شريفاً، لكن أين العمل الشريف؟ سألت، فتّشت، رجعت خائباً، ولأ جائع فقد سرقت، وسُجنت، وبعد خروجي تعرّفت بأشقياء أمثالي، ور نعيش على ما تأتينا به شقاوتنا.

ولما بلغت، وصار عمري ١٨ عاماً، عدت إلى بانياس، على أمل

البحث عن عمل شريف، وترك الشقاوات والتوبة عن السرقة.

بانياس بلدة ساحلية صغيرة، محصورة بين تلٍ جبليّ صغير، وساحل رملي، يغري مثلي بالسير عليه متسكّعاً، متأملاً السماء والبحر والأفق البعيد. في تلك الأيام لم تكن بانياس قد أصبحت مرفأ بترولياً، ولم تكن قد أُنشئت فيها خزّانات النفط، ولا ترسو في بحرها الناقلات. كان رصيفها الصغير، الفقير، مربطاً لفلائك الصيد، هذه التي تُبحر ليلاً إلى الأعماق، وتنتشر في خطّ مستقيم أو متعرّج، في المياه البعيدة، تنوس فيها مصابيح تدلّ على أمكنتها، فيعرف الذين في البلدة، أو الذين قرب الشاطىء، أن الصيادين، كعادتهم كل ليلة، قد خرجوا في طلب الرزق، ولن يعودوا إلا في الصباح أو الضحى.

جلست على الشاطىء الرملي، مسنداً ظهري إلى فلوكة ملقاة على البرّ، ضمن مجموعة فلائك قيد الإصلاح أو عاطلة عن العمل. كنت جائعاً، متبلّداً، خامل الجسم والذهن، أفكر في الضيعة وفي بيتنا الذي سقفه من قرميد أحمر، ويطل على منحدر تتسلّقه مدرّجات، فيها أشجار زيتون وتين ومشمش، وفيها بعض الدوالي المتعرّشة على أشجار التوت، وفي هذه البقعة الصغيرة، ذات التربة السمراء، يعمل والدي، حين لا يكون لديه عمل في المعصرة، أو لا يكون موسم جني الزيتون قد حل بعد. كان والدي، مكتفياً بقطعة أرضه الصغيرة، التي يزرعها، بين الأشجار وعند التخوم، حنطة أو شعيراً، قانعاً بعيش يقوم على الكفاف، رافضاً بعناد أن يصير مرابعاً، تابعاً لأحد الملاكين في القرية. ولقد حننت في جلستي تلك، على الرمل، أمام بحر أزرق ينبسط كبيراً، رحيباً، إلى ضيعتنا، وندمت على شقاوتي، وعلى سوء التفاهم الذي قام بيني وبين والدي، وتحلّب ريقي إلى رغيف تنّوري، أغمسه بالزيت والزعتر، وإلى حبّة تين، أو عنقود عنب، يشدّني شعور رقيق ولكن حارق، إلى أيام طفولتي الأولى.

ومــع ارتفـاع الشمس، تقلّص ظـلّ الفلوكـة التي أجلس في فيئهـا، وتذكّرت أن عليّ أن أبحث عن عمل، فحسـدت قريبي إبـراهيم الشنكل، لأنه يتدبّر أمر رزقه، ويناضل، كما قال، في سبيل ألاّ يبقى النـاس عاطلين أو جياعاً. خطر لي أن أذهب إليه، وأطلب منه كدسـة منشورات، أوزّعهـا جهاراً في السوق، حتى إذا قبض علي كان السجن رحمة لي، أجد فيه مكاناً للنـوم وللقمة. أنـا لا أخـاف الـدرك ولا الحكـومـة، ولا المعـادين لأفكـار قريبي، ومستعدّ أن أخوض معركة معهم، معركة حقيقية يسيل فيها الدم. طاقتي الجسدية، وأنا أتقـدّم في فتوتي، وشجـاعتي، والإهمال الـذي هو من طبعي، صفـات ملائمـة لمثـل هـذه المعـركـة، لا لسبب، يـدفعني، أو فكـر يحـرّضني، بـل لأنني هكـذا أريـد أن أضرب وأُضرب، وأتحـدّى شيئـاً مـا غامضاً، وأنال من هيبة الذي يقف في طريقي.

فكرت وأنا كتلة مهملة، ملقـاة على الـرمل، أن أنبش في الـرمل، لعـل كنزاً مطموراً فيه. كما فكرت أن أقـوم وأسير عـلى طول الشـاطىء، عسـاني أجد شيئاً ما أنتفع به، وخطر لي أن أجرّ فلوكة إلى المـاء، أنزل فيهـا وأبحر بعيداً عن اليابسـة.. جرّبت أن أخـترع مشاريـع، أن أضع مخـطّطاً، لكن خيـالي كان قاصراً: فـأنا إنسـان خُلق لينفّذ، ليقـوم بعمـل يُـطلب منـه، ليضرب إنساناً مقابل وجبة طعام، ولم يُخلق ليخترع مشاريـع، أو يحتال على العيش. كنت تماماً كما وصفني والدي، حماراً بأذنين طويلتـين، كنت بغلاً، وحشاً كما يلقبونني، ومن عجب أنه مع كل هذه الضخامة البدنية، كنت لا أقـوى على تحصيـل رغيف أقتات به. كانت طـاقتي مكرّسـة للهدر، وقـد هـدرتها طـوال حياتي. ومن عجب أيضـاً أنني لم أمت، مـع أنني واجهت الموت، وسعيت إليه.

أخيراً تذكّرت عبدوش. كـان هذا فتى يكبرني. كان شـاباً، وقـد هرب من القرية، ونزل إلى بانيـاس، وهو يعمـل في فرن، فلماذا لا ألتجىء إليه

وأطلب مسـاعدتـه؟ راقت لي الفكرة، نهضت واتجهت إلى المـدينـة. طفت على الأفران أسأل عن عبدوش، حتى عثرت عليه، في جورة فرن، يتصبّب عرقاً، والمخباز في يده، يدفع بـه إلى بيت النار ويسحبـه؛ وصاحب الفـرن يجلس، في مقـدمة فـرنه، أمـام الميزان، يلبس شروالاً أسـود، ولـه كـرش ظاهر.

سلّمت فردّ السلام، وسألت عن عبدوش فدلّني عليه، والتفت هـذا إليّ فلم يتعرفني للوهلة الأولى. لكنني عندمـا ذكرت لـه اسمي، واسم ضيعتي «الخراب» تذكّرني، وضحك وهو يصيح:

- أنت الذي قطعت ذَنَب حمار عبود؟
- أنا هو!
- ولماذا فعلت ذلك؟
- كي أتسلّى.
- وتسلّيت؟
- طيش يا عبدوش.. طيش دفعت ثمنه، وطردت من البيت لأجله.
- ومنذ متى أنت في بانياس؟
- منذ أمس.
- وماذا تعمل؟
- لا أعرف.. إنني أبحث عمن يستأجرني.

قال صاحب الفرن ضاحكاً:

- أنت تصلح لجرّ عربة.

قلت ببسـاطة وتأكيد:

- مستعدّ أن أجرّ عربة..
- ولكنك لست بغلاً.
- أستطيع أن أقوم مقام البغل. كل ما أريده هو اللقمة.

لاحظ عبدوش، وهو يسحب المخباز من بيت النار وعليه أرغفة الخبز الحارة، الموردة، ذات الرائحة الحلوة، النافذة، هذه الملاحظة:

ـ أنت جائع إذن!

لم أجب. شعرت بقهر داخلي ولم أجب. كنت جائعاً حقاً، فأنا لم آكل ليلة أمس كفاية، وها قد انتصف النهار ولم أتبلغ بكسرة خبز. لكن أيّ ذل، أن تقول للآخرين إنك جائع، وأن تطلب رغيفاً، كأيّ متسول عاجزٍ عن العمل؟ الأعوام التي أمضيتها في اللاذقية عرّفتني، ولو بقدر صغير، ما معنى أن يكون الإنسان عاطلاً وجائعاً، وليس من شك، في أن شعور المرارة، الذي عرفته وأنا على رمل الشاطىء، وفي وقفتي أمام الفرن، قد كان عيّنة، بحجم رأس الدبوس، من المرارة التي كان عليّ أن أعرفها، وأنا أمام هذين الشرّين اللذين يكشّران في وجهي: البطالة والجوع!

الصمت جواب. صمتي كان جواباً. كنت جائعاً، وليس أشهى، بالنسبة إليّ، من رغيف سخن في تلك اللحظة. وقد كان عبدوش، الذي يلقّبونه في ضيعتنا بالداشر، لأنه يتيم، لا بيت له ولا أسرة، شبيهي من نواحٍ كثيرة، ولعله ذاق مرارة البطالة والجوع. ولهذا، لا لأية فراسة بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض، أدرك أنني جائع، وأنني قادر، دفعاً لجوعي، أن أسطو على الفرن، وعلى أيّ مطعم، وأن أعارك حتى تندلق أحشائي، بطعنة ساطور أو سكّين، قبل أن أرتدّ عن الحصول على ما أريد. عبدوش الداشر، شبيهي، أخي، زميلي في اقتناص اللقمة، وفرّ لي هذه اللقمة، فصنع لي بمعروفه هذا، بهجة ملأتني، من جديد، برجاء الحصول على لقمتي من طريق شريف.

أرسل غلام الفرن فأحضر لي صحناً من الحمّص. كان الرغيف كافياً، وفوق الكفاية أيضاً. لكن عبدوش الشهم، بأريحية لا توجد إلا عند من عرفوا مذلّة الجوع، زاد على الرغيف أرغفة وصحناً من الحمص الرائع،

المرحون[1] جيداً، بنكهته الطيبة، لما فيها من حمّص وزيت. ادخلني إلى دار الفرن وقال لي وهو مايزال يدفع مخبازه بين بيت النار ومصطبة الفرن:

ـ هيا، كل ولا تخجل، كل حتى تشبع، وبعد ذلك، حين أفرغ من عملي نتحدّث.

وعلّق صاحب الفرن:

ـ وماذا يكفيه حتى يشبع؟ إنه يأكل دستاً من الطعام دون أن يشبع.

فقال عبدوش من جورة الفرن التي هو فيها:

ـ أنت، يا حاجّ، تقيس كل الناس، بمقياسك. أقسم بالطلاق أنك أنت الذي يأكل الدست ولا يشبع.

قهقه الحاج وهو يزن الخبز ويناوله إلى الزبائن:

ـ أنت يا عبدوش هو الخروف الذي سآكله يوماً، سألقي بك في بيت النار، حتى تتحمّر جيداً، وعندئذ تعرف أن الله حقّ.

قال عبدوش:

ـ أنت يا حاج على رأسي، ولكنك تعرف أن لي رأساً حامياً. عبدوش ليس بطيخة، وتعرف أن ذراعه لا تُلوى، وقد جرّبتني، ورأيت كيف رددت، مرات ومرات، كلّ أولاد العاهرات عن فرنك.

ـ من هذه الجهة معك حق. أشهد أنك وحش..

ـ لست أنا الوحش بل صاحبي.. اسمه مفيد، وفي الضيعة، كما سمعت، كانوا يلقبونه مفيد الوحش، وهو لا يتضايق من ذلك.

ـ إذن حاذر أن يأكلنا..

ـ بل سيأكل من يتطاول على فرننا..

ـ ماذا تقول؟

---

(1) [illegible] الشيء: هرسه جيداً.

- أقول إن مفيد سيشتغل معنا..

- وإذا رفضت؟

- أنت أعقل من أن ترفض.. مفيد لُقية، أرسلته السماء لمعاونتنا.. دعه الآن يأكل، وبعد ذلك ندخل في الكلام الجَدّ.

كنت، خلال هذا الحوار الفكه، أتربّع على كيس من الخام، فوق أكياس الطحين، آكل وأسمع. حواسّي جيدة. تشتغل كلها دفعة واحدة، ومن بينها كلّها، تتفوّق حاسّة التذوّق، وكنت أتذوّق الحمّص والخبز السخن، وأمزّق الرغيف إلى قطع كبيرة، أغمسها والتقمها كضبع، حتى أنني حمدت الله في سرّي أن عبدوش، بنظره الثاقب، أدرك أنني قادر أن ألتهم كيلو من الخبز، مع صحن الحمّص الذي كنت أقتصد كثيراً حتى لا «أمسحه» ببضع غمسات.

بعد قليل من فراغي من الطعام، جاءت شاحنة فيها أكياس طحين مخصّص للفرن. نزل السائق النزق، وطلب إفراغ الحمولة فوراً. قلت للحاجّ صاحب الفرن «أنا أفرغ الشاحنة». أثنى عبدوش على همّتي وقال: «جرّب أن ترفع الأكياس بعضها فوق بعض، إلى أعلى ما يمكن.. هذا يترك، في هذا القبو اللعين، فسحة للحركة» أضاف: «ألا تحتاج لمن يساعدك؟» أجبته: «أنا مستعدّ، لا لإدخال الطحين فقط، بل لتفكيك الشاحنة وإدخالها إلى القبو أيضاً، لا تحسب قوتي بعمري. أما عمري ١٨ سنة، لكن جسمي الضخم يعطيني عشرين سنة. الذين طردوني من المدرسة، أحسنوا. كنت أخجل وأنا فتى بين أولاد صغار.. الوالد أراد أن أفكّ الحرف وأنا خلقت لفكّ الرقاب، أنت تعرف أن العمل يزيد قوّتي، يلهب حماستي، يجعلني أشعر أنني مفيد لشيء ما في هذا العالم، وليس ضارّاً كما يزعم والدي» قال عبدوش: «أحسن من أسماك الوحش. ولكن هنا، في الفرن، كن وحشاً بعقل، إعمل ما يطلب منك، ولا تشاكل الناس،

إلّا إذا، وقت الزحمة على الخبز، أو عند إحداث شغب من قِبَل أيّ عسكري، أردت أن تتريّض، وأن تجرّب قوتك قليلاً.

أفرغت الشاحنة، رفعت أكياس الطحين صفوفاً بلغت السقف تقريباً، باذلاً جهداً مضاعفاً، فيه اختبار لقدرتي على العمل، وفيه إرضاء للحاج، ودعم لموقف صديقي الذي أطعمني ووعدني بالعمل معه. كنت قد خلعت قميصي. بقيت ببنطال من الكتان، عتيق، محتوت القفا وعند الركبتين، وكنت أرغب أن أبقى بالكلسون، كما يفعل عبدوش وهو في جورة الفرن، لكن كلسوني كان ممزّقاً، فبقيت في البنطال، ورحت أحمل كيس الطحين على ظهري كأنني أحمل دمية، وكنت أركض، كمكّوك، بين الفرن والشاحنة. ولكي أنجز العمل بأسرع ما يمكن، طلبت من السائق الذي كان يقف في صندوق الشاحنة، أن يضع كيسين على ظهري دفعة واحدة، أحملها بخفة، وأصعد بهما صفوف الأكياس، متسلّقاً كسنجاب، مما جعل سائق الشاحنة يحذرني قائلاً:

- انتبه لئلا ينبق لك فتق.

قلت له وأنا أمسح العرق بيدي الملوّثتين بالطحين، فيتلطخ وجهي ويصبح أبيض مضحكاً:

- أستطيع، ياابن امك، أن أحملك فوق الكيسين أيضاً دون أن ينبق لي فتق.

قال متواقحاً:

- أنا ابن بيي ولست ابن أمي!

- كن ابن من شئت، ولكن ضع لسانك في فمك.. عضّ عليه كي لا يخونك.

- وإذا خانني!؟

ـ عندئذ ستبقى بلا لسان، سأسحبه كما يسحبون الدودة من مؤخرة نمل

قهقه الحاج فاهتزّ كرشه. وقال عبدوش في نبرة ردع لا يجانبها الاعتداد:

ـ ضع، أنت أيضاً، لسانك في فمك، أنت تعمل عند ناس محترمين، لا نريد مشاكل من أوّل يوم.

سكتُّ. لم أكن مهتاجاً. كانت لي أعصاب باردة كأنها منقوعة بالثلج. ومن حسن الحظ أن السائق سكت أيضاً، وكان آخر كلمة قالها:

ـ أعوذ بالله.

وقال الحاج:

ـ تعوّذْ ما شئت.. لماذا تتحرّش به؟

ـ خفت أن ينبق له فتق.

ـ وماذا يعنيك أنت.. ألا تريد إفراغ شاحنتك بأقصر وقت ممكن؟

عندما انتهى إفراغ الشاحنة، كان جسمي قد بلغ حدّ الإرهاق. لم أكن ألهث، لكنني كنت تعباً، وقد استبدّ بي العطش، فركضت إلى صنبور الماء العمومي، في طرف الساحة الآخر، وأدخلته في فمي، وشربت ما يملأ جرّة كاملة. صاح بي الحاج: «اغتسل من الطحين الذي يغطّي وجهك ورقبتك وظهرك. إجلس كما أنت، تحت صنبور الماء» لكنني رفضت نصيحته. كنت بحاجة إلى حمّام، فكرت أن البحر هو الحمّام الملائم، فحملت قميصي وركضت إلى الشاطىء، غير مبال ببرودة الماء، في شهر تشرين الأول ذاك، وعلى إحدى الفلائك ألقيت ثيابي، واندفعت كصاروخ إلى الماء الذي انفجّ بغمري، ورحت أسبح، وأسبح، وابتعد إلى الداخل، فأغطس ككلب البحر، ثم انتصبت، في عمق الماء، ورحت أفرك جسمي، وأشعر بانتعاش، بسعادة، وفرح بهذا التوفيق الذي لم أكن أتوقّعه.

خرجت من الماء بإحساس مريح. جلست على الرمل. تدحرجت عليه، دررته على جسمي كله، لأزيل آثار الطحين الذي كان، مع رطوبة الجو، دبقاً من اللّزوجة التي تشبه الطحلب. استرخيت في محاولة للراحة. ما عدت أفكر بشيء. الإنسان هو الإنسان، والبهيمة هي البهيمة، وأنا بين الإنسان والبهيمة، أتحسّس الأشياء، أفرح لها، أحزن من أجلها، أطير سعادة، أختنق غماً، لكنني، في كل ذلك، لا أستطيع التعبير، ولا ترتيب مشاعري أو معرفة الحسن من السيء بينها. لقد انقطع ما بيني وبين الضيعة منذ زمن بعيد. أنا الآن في المدينة، في بلدة صغيرة، هنا كل شيء يختلف. هنا زحام شديد، حشد كبير من الناس. أسواق، دكاكين، باعة، عمال، فلاّحون جاؤوا من الريف، سيارات، درّاجات، هنا عالم آخر. صحيح أنه عالم صغير، لكنه بوّابة للعالم الكبير، وفي سبيل اللقمة واللباس والمأوى عليّ أن أعمل لأصل. عبدوش كان صديقاً. إنه شبيهي، بهيمة أخرى، وهذا التشابه بيننا هو الذي جعله يهتمّ بي، وقد يُدبّر لي عملاً في الفرن كما وعد، لكن الحاج، صاحب الفرن، قد يدفع لي أجرة تفريغ شاحنة الطحين ويصرفني، عندئذ سأجد نفسي، من جديد، أمام المشكلة التي كنت أمس أمامها: أعني مشكلة المبيت والطعام. قريبي إبراهيم الشنكل أضافني أمس، لكنْ سيكون صعباً عليه أن يضيفني اليوم أيضاً. هذا رجل كلامه حلو، كان حديثه، أمس، حلواً، ورغم أنه خرج من رأسي كما دخل، إلا أنني فهمت منه شيئاً واحداً: هو أن الحياة معركة، وكل إنسان يخوض هذه المعركة لسبب ما. أما بالنسبة إليّ، فهذه المعركة، الآن، تنحصر في تدبير مأوى وطعام، دون أن أفكر بهذه الثياب العتيقة، المزرية، التي أنا مضطر لاحتمالها، وربما سيمضي وقت طويل قبل أن يتوفّر لي مال أشتري به غيرها. تبقى مشكلة المبيت وهذه يمكن حلها ففي قاع أية فلوكة على هذا الشاطىء، يمكن أن أنام، إذا أعاروني من الفرن بعض الأكياس الفارغة

مثلي بها، وسأقتصد في الطعام، فلا اكل إلا ما يمسك عليّ حياتي، وهذا التدبير جيّد ومناسب، فإذا جرت الأمور وفقه، نجوت، عشت مسالماً، وإلا فإنّ قضيتي ستتعقد، وعندئذ سيخرج من جلدي الادمي هذا ذئب يروّع البلدة ترويعاً.

نزلت مرة أخرى إلى الماء. أجيد السباحة منذ طفولتي، فكم هربنا من الضيعة ونزلنا إلى الشاطىء وسبحنا. أستشعر الراحة وأنا في الماء، وأفرح بالسباحة والغطس، وعلى ساحل البحر أطمئنّ. إنه لكل الناس، ولا يقوى أحدٌ أن يدّعيه لنفسه. البحر جميل، السباحة فرحة، وحين يكون البحر مائجاً تصبح لذّتي مضاعفة. الموج الهادر، الصاخب، يتحدّاك، يصارعك، وفي مثل هذا الجو أُجنّ، يجتذبني العراك والتحدّي والهدير، كما يجتذب الإبرة حديدُ المغناطيس. أرى الأشياء جميلة، مخيفة، جديرة بالمنازلة، فأهجم كأنني ذاهب إلى حفلة رقص، وأمضي سابحاً بعنف، في حركة من الصخب الشديد، لملاقاة المخاطر الشديدة، حيث أجد نفسي على انسجام تامّ، وفي المكان الذي ينبغي أن أكون فيه، حتى تتروّض قوتي الوحشية، وتصير مطواعة، هادئة، ناعمة مع لذّة من ذلك النوع الذي نحسّه ونحن نمارس عملية جنسيّة نجريها بأنفسنا على أنفسنا.

قفزت، بعد خروجي من الماء، إلى إحدى الشخاتير. نشرت جسمي في الشمس حتى جفّ، ارتديت ثيابي القليلة، الوسخة، ولبست حذائي البالي، ولم يبق سوى شعري القنفذي مشوشاً، فأنا لا أملك مشطاً ولا مرآة، وقد حاولت، قدر استطاعتي، أن أسرّحه بأصابعي، وأمسّده بكفّي، ثم ضجرت، وقلت إلى جهنم بكل هذه الزينة التي لا لزوم لها، فما نفع أن يكون شعري مسرحاً بينما ثيابي ممزّقة، وما الفائدة من تدليس الوجه وماء الملح يتبقّع على جسدي، ويجفّ، ببياضه، على صدغي وعنقي؟

في الفرن كانت وجبة ما قبل الظهر قد انتهت. انتهى العجين، ونفق

الخبز، وجلس الحاج أمام صندوق الغلّة يجمع نقوده ويحسبها، وتعرّى عبدوش حتى وسطه، وراح يدلك الماء حتى جذعه ورأسه حتى يغتسل ويبترد، وقد ضحك حين أخبرته بما فعلت وقال للمعلّم:

- شف! مفيد الوحش عاد.

- ظننته هرب.

قلت متباهياً:

- مثلي لا يهرب.

- أنت معتدّ بنفسك.

- ولماذا لا أفعل!؟

- لأنّ التواضع حلو.

- الله لم ينعم عليّ بهذه الخصلة.

- تحسب إفراغ شاحنة طحين رجولة!؟

- أنا لم أقل هذا، ولكنني قادر أن أعجنها أيضاً.

- وهل جرّبت العجن قبل الآن؟

- سأتعلّم.

قال عبدوش الداشر:

- أنا أعلّمه.. دعه لي.. لن يروّض مثل هذا الوحش مثلي، أما قلت لك إنه لقية؟

- لكنني أُحذّركم.. لا أريد مشاكل.

قال عبدوش:

- وإذا تحرّش بك ابن عاهرة؟

- عندئذ يأتي دوركم.. هذا فرن الحاج مبروك.. نصف البلد يهابني.

- والعساكر؟

- هؤلاء أتفاهم معهم، فإذا خطفوا الخبز، أو رفضوا دفع ثمنه، هناك الحكومة.

قال عبدوش ساخراً:

- مرحباً حكومة!

قهقه الحاج، الذي كان يضحك كطفل، فيرتج كرشه:

- الحكومة، يا ابني، هي الحكومة.. لا أريد مشاكل معها.

- نحن لسنا أصحاب مشاكل.. هيا، أعطنا شيئاً على الحساب، نريد أن نتغدّى.

كان يجري، وراء الفرن، نهر صغير. كان ماؤه صافياً، بلّورياً، يسيل في قناة من إسمنت، فيخترق المقهى المقام على جانبيه، باعثاً بهجة خاصّة بخريره. وكان الزبائن يفضّلون الجلوس قريباً من مسيل الماء هذا، خاصّة في الأمسيات، حيث يتناولون الطعام والشراب ويدخّنون الأراكيل. ابن أمه، عبدوش الداشر، بعد أن اغتسل ولبس بنطاله وقميصه النظيفين، أحبّ أن يصنع لي وليمة بفضل أريحية كانت فيه، مردّدها المثل القائل: «اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب». وقد نهيته عن ذلك، قلت له: «في مثل حالنا، يكفي مطعم الحمص والفول المقابل للفرن» لكنه أصرّ عليّ أن يدخلني الجنّة دفعة واحدة، وأن يلقي عليّ بعض النصائح، حول الشغل، والحياة في المدينة، وعدم الإنحناء لابن امرأة، وإلا ركبكَ حتى أجير البقال نفسه.

أصغيت له طويلاً. كنت أصغي لا عن حكمة، بل عن خمْرَنة. فأنا لا أعرف أن أشرح نفسي، وأجد الكلام زائداً عن الحاجة. وأمام الأحاديث الجديدة، عن الدنيا الجديدة التي وجدت فيها نفسي فجأة، كان الإغراء قد استبدّ بي كما أمام الحكايات وأنا صغير. طلب عبدوش لحماً مشوياً، مع سلطة وتوابل. رجوته ألاّ يفعل، فالحمّص وحده يكفي، وخفت ألاّ يكون

معه ما يسدّد به الحساب، فضحك من بلاهتي وقال: «لدي من النقود ما يكفي، وحتى لو كنت مفلساً فإنني أدفع في اليوم التالي، ولو رغبت أن لا أدفع فأنا لا أدفع أبداً. إنني قادر أن أقلب هذه الطاولات على رؤوس الجميع، من صاحب المقهى واجرائه إلى الزبائن.. إنني أقف على أرض صلبة، ولدي مطواة[1] حادّة، وذراع لا تُلوى. هنا، في المدينة، يجب أن تأخذ حقّك بالقوّة. وباطلك بالقوة، وأن تجعل الناس يرهبونك. احفظ هذا الدرس جيداً. إنه نافع لك. لا تكن خروفاً بل كن ذئباً.. والآن إلى الكأس، فهو أبجدية الكيف. الشرب، يا مفيد يريح الأعصاب، يزيل الهموم، ومع السيكارة تكتمل الرجولة، تكفّ عن أن تكون فتى، يلاحقك اللواطيون».

كان هذا أوّل درس نظري أتلقّاه من صديقي وعزيز روحي عبدوش الداشر. أعترف. أصبت برهبة. هذه ليست طريقة السلامة التي أنشدها. أنا لا أريد أن أكون «بلطجياً»، أفضل أن أكسب رزقي بالحلال، وقد سمعت، أمس واليوم، حديثين متناقضين: الأول عن معاملة الناس بالحسنى، وتعليمهم أن يطالبوا بحقهم، ويدافعوا عنه، والثاني يخلط الحق بالباطل، ويراهما متساويين، لا يُنالان إلا بالقوّة والبلطجة.

لا أزعم أنني لم أكن قد ذقت العرق حتى تلك الساعة. ففي القرية يشرب حتى الفتيان، وفي اللاذقية شربت أيضاً، ولم أكن أخاف السكر، فرأسي يحمل قنطاراً، لكنني كنت ضعيفاً، وجديداً في المدينة، وأحرص على إيجاد عمل، وقد قبل الحاج صاحب الفرن أن أعمل عنده، لذلك ينبغي أن أكون حسن السلوك. قلت هذا لعبدوش فضحك من غبائي. ملأ لي الكأس، وشربنا نخب لقائنا، ثم نخب قريتنا، ثم نخب كل العاهرات،

(١) سكين بكبّاس تُطوى وتُفتح.

وبعد ذلك نخب المعلّم مبروك صاحب الفرن، ثم شربنا بغير انتخاب، حتى أتينا على بطحتين كاملتين، وأكلنا لحماً مشوياً، ومقبّلات. وقال عبدوش، بعد ان دفع حساباً رمزياً: «قم بنا نتنزّه قليلاً، ثم نعود إلى الفرن لعجن الطحين. أنت، بعد اليوم، ستكون مساعدي» توقّف قليلاً وأضاف: «ستكون مساعدي في كل شيء، فهمت؟» هززت رأسي إيجاباً، وعندئذ شرح لي: «منطقة شغلنا هي هذه الساحة. يدخل في ذلك الفرن والمقهى والخمارة والسوق المحيط بها، وعلينا، كي نبرر وجودنا، ونثبت أقدامنا، أن ندافع عن منطقتنا.. غداً سأشتري لك مطواة».

- لماذا مطواة؟
- وماذا تريد يا شيخي إذن؟ مسدساً؟
- وهل العراك هو عملنا، أم الشغل في الفرن؟
- هذا شيء، وهذا شيء آخر. الفرن للشغل.. وحماية المنطقة شغل آخر، إضافي.
- أنا يكفيني الشغل في الفرن.
- لكي تشتغل في الفرن، يجب أن تشتغل في المنطقة.
- ولحساب من أشتغل؟
- لحسابي أنا.
- وما هو شغلك؟
- ستعرفه في حينه.
- أنا لم آت إلى بانياس لمثل ذلك.
- ولماذا جئت إذن؟
- لكي أشتغل في أيّ عمل شريف.
- أنت دابّة..

اجفلت. هذه أول إهانة تصيبني في بانياس. أنا لست دابّة، ويجب أن

يفهم عبدوش هذا جيداً. إني أعترف بفضله عليّ، وأرفض أن أكون تحت سلطته. أخاف أن يجرّني إلى أعمال عاقبتها الندم. لست ملاكاً، ولا أريد أن أكون شيطاناً لحساب غيري. ورغم طيشي، ورعونتي، وقوتي، ولا مبالاتي أمام المخاطر، فإنني أكره الوصاية.

اجبته:

- لو قال هذه الكلمة غيرك لكسرت ضلوعه.
- في هذه الحال تكون دابّة حمقاء.
- لماذا تريد أن تفسد مابيننا يا عبدوش؟.
- لأنك لا تعرف مصلحتك.. أنت مفلس، جائع، ممزّق الثياب، لا بيت ولا حيط، ومع ذلك ترفض عملاً شريفاً.
- أنا لا أرفض العمل الشريف.
- حماية المنطقة عمل شريف.. في بانياس ثكنة للجنود، إنهم جنود لمامة، تطوّعوا في الجيش الفرنسي، أو جيش الشرق كما يسمونه، كي يعيشوا، وهؤلاء، وربما بتحريض من الفرنسيين، يعتدون على الناس. أحياناً يرفضون دفع ثمن الخبز، وأحياناً يتعاركون في الخمارة، وتارة يتحرشون بالمارة، والنساء خاصة، وهناك امرأة أحبّها، هي مومس، لكنني أحبها، ويريدونها بالقوة، وهذا لن يحصل. ثم إنهم يسكرون في المقهى ويقلبون الطاولات إذا طولبوا بدفع الحساب، هل هذه أعمال شريفة؟ لا، إنها أعمال شرّيرة، ونحن في دفاعنا عن المنطقة ندافع عن الخير ضد الشر، نقاوم الفرنسيين.. ألا تريد أن تقاوم الفرنسيين؟ اسأل قريبك إبراهيم الشنكل، قل له ما معنى هذا كله، وكيف يجب أن تتصرّف حياله، وسيجيبك: «قاوم!» لكن مقاومة الفرنسيين ليست في الكلام وتوزيع المنشورات فقط..

قلت:

- ولا هي في العراك أيضاً.

- بلى هي في العراك، بل أكثر من ذلك، هي في الثورة، ألم تسمع بثورة الشيخ صالح العلي؟

- سمعت.

- هل كانت ثورته كلاماً أم رصاصاً؟

- كانت رصاصاً.

- نحن لن نطلق الرصاص، ولكننا سنؤدب أولاد العاهرة.

- حتى ولو كانوا ضباطاً فرنسيين؟

- يكون هذا أفضل.

- نقتل؟

- ولماذا لا.

- وبعد ذلك الإعدام: شنقاً أو رمياً بالرصاص.

- أتخاف!؟

- أنا لا أخاف، لكنني بغنى عن هذه الأعمال.

ابتسم عبدوش وقال:

- أنا هوّلت عليك. المسألة بسيطة، بل أبسط مما تتصور، عراك فقط، بضع لكمات. وأحياناً ينتهي الاشكال لمجرد معرفتهم أننا هنا. يُعدّون عندئذ إلى العشرة قبل الإقدام على أية مغامرة.. العمى! كنت وحيداً وكانوا يخافونني، فكيف الحال الآن وقد أصبحنا اثنين؟

لم يكن لي خيار، أنا فتى وأريد أن أبدو رجلاً. صحيح أنني رجل بلا تجارب، لكن لي قوة حصان، فممّ أخاف؟ ثم إن الفرنسيين أعداء ومقاومتهم ضرورية. سيكون إبراهيم الشنكل مسروراً في هذه الحال، لولا أن نقطة في الموضوع لا تروق لي، هي حماية تلك المومس، صاحبة عبدوش الداشر، لا أريد، من الآن، أن أكون بلطجياً، أحمي المومسات.

قلت ذلك لعبدوش فضحك وأجاب:

- لا تزعل، ستكون لك أنت أيضاً صاحبة.

- مومس؟

- لا، بنت بيت شريف، فتاة لم يقبل فمها سوى أمها.

قالها بسخرية، وأضاف:

- نحن لن نتزوج.. ستكون لكل منا امرأة دون زواج.

أضاف فجأة:

- هل عرفت المرأة؟ أعني هل مارست الجنس مع امرأة؟

- قليلاً.

- ومع ولد؟

- أعوذ بالله.

نظر إليّ طولاً وعرضاً. تمعّن جيداً. قال:

- أنت بغل في ثوب بنت. أنت خرع، أنت غرّ، لكن عليك، يا صاحبي، أن تكبر، أن تصبح رجلاً، وأنا من سيصنع منك هذا الرجل.. هيّا! لنعد إلى الفرن.

كلامه أغاظني. أنا لست بغلاً ولا بنتاً. أنا شاب، ولا تنقصني تجربة الشباب، لكن ماذا أقول؟

لا بد من السكوت، مؤقتاً على الأقل.

لذت بالصمت وأنا أسير إلى جانبه. لم يكن في مظهره ما يشير إلى رجولته واندفاعه.. كان طويلاً ضامراً، في وجهه بعض آثار الجدري، عصبيّ الحركة، يمشي وكأنه يثب، وله رأس ذئب، يمتدّ إلى أمام، بفكّيه الضامرين.

قادني إلى الفرن وأطلعني على مدّخراته: «بونية[1]»، مسدس، خيزرانات، مطاوٍ، ثياب الشغل، وجمجمة بشرية بعينين فارغتين. حدّقت في الجمجمة ولم أخف، لكنني لم أرتح، كنت أفضل إخفاء الجمجمة، وأجهل السبب الذي من أجله يحتفظ بها، لكنه احتفظ بها بين يديه وقلّبها متأملاً المحجرين، والفم، والقحف، كأنه يتأمل تحفة فنية، وبعد أ وضعها جانباً قال:

ـ بعد الموت، ستصير رؤوسنا جماجم كهذه.

ـ هذا ليس اكتشافاً، لكن منظر الجمجمة منفّر، أبعدها عني.

ـ ستعتاد النظر إليها.. إنني أحبها.

ـ تحب جمجمة؟

ـ أحب إنساناً كان مثلي ومثلك.

ـ ولكن الناس يحبون الأحياء..

ـ وأنا كذلك، تحسب أنني أكرههم؟ لست عدواً لهم، لكن عليّ أن أوطّن نفسي على رؤية الموت حتى يصبح أليفاً بالنسبة إليّ.

ـ معنى هذا أنّك تفكّر فيه طويلاً، وهذا..

قلت ذلك وأمسكت. ما كنت أريد استفزازه، غير أن تفكيره الدائم في الموت علامة سيئة. إنه يخاف الموت، ويريد، كما قال، أن يألفه بإمعان النظر إليه، فكيف أفسّر هذا؟

قال موضّحاً:

ـ المسألة بسيطة. إنني أفكّر في الموت لأنني لن أعيش طويلاً. تحسب أنني أخاف الموت؟ لا، لكن ظلمة القبر شيء مرعب. لو كان الأمر لي، طلبت ألّا يدفنوني، وسيكون معزّياً لي، بعد موتي، أن يأتي إنسان ويُخرج جمجمتي ويحتفظ بها، يعرّضها للنور، ويجعلها تشبع منه.

(١) قطعة حديد مدببة تلبس في الأصابع، وتستخدم في القتال.

ـ هذا كلام فارغ.

ـ كلام فارغ؟

ـ قصدي غير مقنع.

ـ أنا غير معنيّ كثيراً بإقناعك.. ستقول في نفسك إنني شاذّ.. حسناً! أنا شاذّ، وبين أدوات الموت هذه، أريد أن أحتفظ برأس ميت.. هذا كل ما في الأمر.

ـ قالها ولفّ الجمجمة بخرقة، وكذلك فعل بأدواته الأخرى، عدا المسدس الذي قال:

ـ خذه إذا أردت.. أنا أفضل السكين، هذه تجرح فقط، تعلّم على الخصم ولا تقتله.

قلت:

ـ أُفضل خيزرانة قوية.. أنا أعتمد على ذراعي.

ـ لك ما تشاء.. خذ الخيزرانة التي تختارها.

اخترت خيزرانة في رأسها قمع من الفضة. خيزرانة مفضّضة. كنت في السن التي تستهويني فيها الأشياء الجميلة، وكانت تلك الخيزرانة جميلة. وقد احتفظت بها طويلاً، وبعد هذه الحفلة من التعارف على أدوات القتال، سألني:

ـ كيف أنت الآن؟

ـ في حال جيّدة.

ـ ألم تخف من رؤية أدوات «متحفي الحربيّ»؟

ـ ولماذا أخاف؟.. أنا مثلك، منذور للمعارك.. لكن هذه الجمجمة أزعجتني.

ـ ستعتادها.. أنا، حين أنام في الفرن، ألفها بالأكياس وأجعلها وسادة.

قلت في نفسي: «عبدوش يخاف. «متحفه الحربي» لتشجيع قلبه. لكن قلبه ليس بقوة قلبي. أنا لا أفكر بالموت مثله، لأنني لا أخاف مثله».

سألني:

- بماذا تفكر؟

- فيك.. أنت مخيف وغير مفهوم.

- لكنني صديق طيّب.

- وأنا أقبل صداقتك، سأتربّى على يديك.

- وستكون تربيتك حسنة.. هيا إلى العمل.

قالها وأشار إلى حلّة خشبية: «هذه - قال - حلة العجين، هذا هو المعجن[1]، يتسع لثلاثة أكياس، وعليك أن تعجن حلّتين أو أكثر في اليوم، حسب الطلب، تضع الطحين ثم الخميرة وتصبّ الماء، بمقدار معين، أي حسب حاجة العجين، وبعد ذلك تمرّن ساعديك وظهرك.. انظر كيف سأفعل أنا، تعلم مني، راقبني جيداً، وستكون عجّاناً طيّباً، وفي هذا الفرن ستنام، وفي نهاية الأسبوع، حين تقبض أجرك، نشتري لك ثياباً لائقة، تظهر فيها في الساحة، وتتبختر كالديك، وتحصد مجاملات الناس ومودّتهم».

لم يطل بي الوقت حتى تعلّمت عجن الطحين. في البدء تعبت، تعذّبت، تعضّل ساعداي، انقصم ظهري، ومع الأيام اعتدت، صرت أعجن وكأنني ألهو. فرح عبدوش بذلك، أبدى الحاجّ مبروك رضاه، لم تقع أيّما حادثة في الأسبوع الأول، كان عليّ، إضافة إلى العجين، أن أقوم بالتقريص، فآخذ قطعة من العجين، وأقسمها إلى أقراص متساوية، ثم أدحوها على بلاطة، وأضعها على لوح خشبي، حيث يتناولها عبدوش،

(١) المعجن: مربع خشبي ضيق القاع واسع الفوهة قائم الزوايا.

يضعها على مخبزه، ويلقي بها على بلاط الفرن، حتى إذا انتفخ الرغيف ونضج، وتصاعد منه البخار، وتحوّل لونه إلى أحمر فاتح، سحبه بالمخباز، بل سحب عدة أرغفة دفعة واحدة، وألقى بها على الدكة الخشبية أمام الميزان، حيث يجلس الحاجّ مبروك.

في تلك الأيام، كان الزبائن يحملون صوانيهم، وفيها الكبّة، واللحمة، واللحم بعجين، والصفيحة، إلى الفرن. كذلك كانوا يحملون صواني الكعك والحلوى، وخاصة في الأعياد، وبكثرة يضيق بها عبدوش ويشتم، لكنه لا ينسى، وهو يخرجها من الفرن، أن يأخذ قرصاً أو قرصين من الكبّة، أو بضع صفائح، أو شيئاً من الكعك، يصرّها ويأخذها إلى صاحبته فوزية، ويُبقي لي منها ما يكفي لغدائي، ويكفي أيضاً لإطعام الحاجّ مبروك الذي يصيح به:

- لا تنس حصّة المعلّم يا ولد!

مرّت شهور على ذلك. كان الغذاء الجيد، ورياضة عجن الطحين، وتقليد عبدوش في ارتياد المقاهي والخمارات، قد حوّلتني من فتى إلى رجل ناضج. كان دخلي يكفيني، ففكرت أن أرسل مبلغاً صغيراً لوالدتي، لكن والدي كان قد تبرأ مني، بعد ما بلغه من سلوكي الشائن في اللاذقية وبانياس، فخفت أن يضربها نيابة عني، ويرفض أن يقبل نقودي، لذلك صرفت ما توفّر لي في استئجار غرفة، والإنفاق على صاحبة تدعى هدية، وصرت أعيش على كيفي، لا أحد يتدخّل في أموري، ولا أحد يحاسبني على ما أفعل.

أما عبدوش الداشر فكان داشراً تماماً. كان يدخّن، يسكر، يفرض نفسه على أصحاب المقاهي، والخمّارات، هكذا لم تكن المعارك، الصغيرة أو الكبيرة تنقصنا. ويوماً بعد يوم اعتدتها، بل صرت أحبّها، حتى أنني، إذا افتقدت من أتعارك معه، كنت أتحرّش بالآخرين، كي أثبت وجودي،

وأفرض هيبتي. فنصحني عبدوش بعدم الإكثار من الشرب والشجار، وقال لي: «نحن ثنائيّ نادر، يحمي أحدنا ظهر الآخر، ونتعاون في كل شيء، ونتساند في المعارك، إلا أن المدينة ضجّت منا، وكثرت الشكاوى بحقنا، وأصبح علينا أن نحذر قليلاً».

ضحكت. قلت له:

ـ احذر أنت ودعني وشأني.

ـ هكذا إذن!

ـ نعم هكذا.

لم يعجبه جوابي. حدّق فيّ بغضب دون أن يتجاسر عليّ. عرف أنني تجاوزته. صرت لا أبالي أكان معي أم لا. فأنا أدخل حيث أريد، أحرس الساحة والفرن، أمشي مزهوّاً وخيزرانتي في يدي، فارضاً نفسي، بكثير من التشوّف، على من لا يعجبه منظري، أو يعترض سبيلي.

عندئذ رغب عبدوش في اختباري. ظنّي أنه كان يتشوّق لمعرفة قوّة قلبي، فانتظر أن تقع معركة كبيرة، معركة بالسلاح، ليرى إلى مدى قدرتي على المواجهة، وثباتي أمام الخصم، كان متعجلاً. لاحظت ذلك، ابتسمت دون كلام، قلت في قلبي: «لينتظر وسيرى». وشاءت الصدف أن لا يطول انتظاره، ففي يوم جمعة، والفرن مغلق، كنا نجلس في المقهى، قرب الماء، حوالي العصر، عندما وقع ذلك الحادث الذي سأذكره طويلاً.

كان الزبائن كثيرين في المقهى، وبينهم عائلات من المدينة، وعلى طاولة عامرة، جلس بعض الضباط والجنود الفرنسيين. كانوا من فئة الشرطة العسكرية، «البريفوتة»، وقد شربوا من النبيذ كميات تكفي لتجعلهم سكارى تماماً، ولهذا راحوا يتصرّفون بعنجهية، ويتحرّشون بالنساء، فانسحب روّاد المقهى، خوفاً من الشر، ولم يبق سوانا: عبدوش وأنا على طاولة، وهم على طاولة مقابلة.

هكذا جاءت المعركة دون تأخير. طلب الفرنسيون مزيداً من النبيذ، وطلبوا «فطمة» وهو الاسم الذي يطلقونه على المرأة العربية. حاول صاحب المقهى أن يفهمهم، بالتي هي أحسن، أنه لم يعد لديه نبيذ، وليس ثمة «فطمة». عندئذ صفعه أحدهم صفعة قوية، ترنّح لها المسكين. كانوا ستة وكنا اثنين. وكانوا مسلحين وكنا عزلاً تقريباً. وكان مشهوراً عن البريفوتة ـ رجل الشرطة العسكرية ـ أنه مدرّب تدريباً خاصاً، فهو يجيد الملاكمة، وضربته، في أسفل البطن، قاضية، فماذا نفعل؟ فكرنا: «سمعة المدينة مهددة، سمعتنا أيضاً. لا بد من المغامرة، فالموت، على أية حال، نهاية الإنسان، وعلى هذا فقد وقفنا، واقتربنا من المائدة، حيث يقف صاحب المقهى، وعلامة أصابع حمراء على وجهه. حاولنا أن نبعده، أن نخلّصه، أن نصرفهم حتى دون دفع الحساب، لكنهم تمادوا، وعلى حين غرّة، تلقى عبدوش من أحدهم لكمة قوية في بطنه، تلوّى لها، لكنه لم يفقد توازنه. أسرعت إلى التدخل، ضربت بخيزرانتي ضربات قوية، في كل الجهات، وهكذا بدأت المعركة، بدأت معركة دامية دوّى فيها الرصاص وجرى الدم فبلّل الثياب، وأصبح التراجع مستحيلاً، فأقدمنا، دون مبالاة.

كانت معركة عنيفة. أعنف مما تصورت. عبدوش أثبت فيها أنه فتى عراك، لكنه، كما لاحظت، كان يحميني، يمنع أخذي غدراً، من خلف، ويستعمل «البونية» في ضربات قوية على الخاصرة. «البريفوته» كانوا يقاتلون بنصف قوتهم، النصف الآخر أضاعه السكر، وهذه نقطة لصالحنا، لكن «البريفوته» كانوا فرنسيين، وأن يقاوم واحد من أبناء البلد فرنسياً، فهذا معناه الموت، إذا ما عمد الفرنسي إلى إطلاق الرصاص عليه. نعم! هذا ما صار، أطلق أحدهم علي من مسدسه، فلامست الرصاصة لحم زندي الأيسر، وبعدها ترنّح تحت ضربة محكمة من خيزرانتي التي تجعل الجمل يتلوى من الألم.

ركض الناس على صوت الرصاص. تدخّلوا في المعركة، لم يسألوا لماذا وكيف. أبناء البلد في معركة مع الفرنسيين: كل شيء إذن واضح، وكل شيء يصير، حتى لو كان الخلاف على شيء تافه، أو كانت المعركة بين سكارى. الفرنسي محتلّ، هو عدوّ إذن، ومقاومة العدوّ واجب، لكن المعركة لم تطل، حسمها تدخّل قوّة من الجند، ولم تسفر عن قتلى: جرح عميق في الجانب الأيمن من رأس عبدوش، جرح في زندي، وجروح مختلفة في الفرنسيين. بعد ذلك بدأت الاعتقالات. قبضوا على عبدوش وأفلتُّ أنا. فُتح أمامي باب فدخلته، ومن هناك هربت عن السطح، وحاول رجال الشرطة الدخول بين البيوت، لكن النساء رمت عليهم تنكات الزهور، وكل ما وقع تحت الأيدي.

في اليوم التالي أُضْرِبت المدينة. أغلق الحاج فرنه، قامت مظاهرة. خاف الفرنسيون أن تكبر الشغلة، فسفّروا الذين قبضوا عليهم إلى سجن اللاذقية، وبقيت مختفياً في بانياس، تحت الملاحقة.

في تلك الأيام، وأنا أنتقل من بيت إلى بيت، عرفت معنى كلام إبراهيم الشنكل عن مقاومة المحتلّين. الروح الوطنية، الحماسة، الاندفاع، التضامن، الحقد في العيون والأفواه والأيدي، الحقد على كل ما هو فرنسي، وكل متعاون مع الفرنسيين من الملاّكين والأغوات، ومن الزلم، ضعاف النفوس والوجدان. أما الذين خاضوا المعركة وأفلتوا من الاعتقال، فقد كرّمتهم المدينة وكرّمتني معهم، أنا الذي كنت في وارد، ووجدت نفسي في وارد آخر، أنا الذي صار وطنياً، دون أن يفهم معنى الوطنية، كما يفهمها غيره، من الذين أنعم الله عليهم بالوعي والشجاعة.

بقيت أعيش متخفياً ثلاثة أشهر. تعرفت أثناءها على لبيبة، المرأة التي وضعتها الأقدار في طريقي، وكتب عليها أن تمشي معي الطريق كله، وتتحمل في سبيلي المصاعب والآلام.

جرى ذلك صدفة. هذا ما حسبته في البداية. لكن لبيبة قالت لي حين ألِف واحدنا الآخر:

- كنت أراقبك، كنت أعرفك.
- رأيتني في المعركة؟
- رأيتك قبلها وبعدها.. شيء ما جذبني إليك.
- ما هو؟
- الإعجاب. أنت رجل حقيقي. أنت رجلي.
- ولكنني ملاحق.
- لا يهمّ!
- وقد أُسجن غداً.
- لا يهم أيضاً!

لم يفتح الله عليّ بأي كلمة غزل. أحسست فقط أنني معجب بلبيبة بدوري، ومع الأيام انقلب الإعجاب إلى حبّ، إلى حب جارف، تبادلناه معاً، وتذوقناه معاً، دون أخذ وعطاء، دون أن نحكي كما يفعل المحبون، ودون أن نجنّ كما يفعل العاشقون. كان حباً صامتاً، حقيقياً، بين امرأة غير صالحة، ورجل غير تقي، بين قلبين وعقلين، وأربع أذرع، تركنا لها الكلام حين كانت تتشابك، وكنا نعرف كيف نشبكها، هي الأنثى المجربة، وأنا الذكر الذي سكب كل رجولته في فحولته، فرضي وأرضى.

مع ذلك أضمرتُ أن أروّضها في الفراش. وهي، من طرفها، أضمرت أن تروّضني، فمارسنا الحب بجنون. كانت شهقاتها تعبر عنه، حين أقع عليها، أو تقع عليّ، وحين أعتليها أو تعتليني، في نزوة شباب له عمر متقارب.

كنت أقول لها:

- يا بنت أمك، سأموت في حضنك.

تضحك:

ـ حضني لا يميت حبيبي، يحييه.

ـ لكنني أموت كل مرة نمارس فيها الحب.

ـ هذا ما يجب. ألاّ يموت الرجل والمرأة، يعني أن يكونا زوجين.

ـ كيف؟ الأزواج لا يموتون؟

ـ يموتون في أول الأمر، ثم ينتهي الموت وتبدأ حياة العادة.

ـ العادة؟ كيف؟

ـ نعم العادة. مثل الأكل والشرب، مثل النوم والمشي والذهاب إلى العمل والعودة منه.

ـ ـ قارحة!

ـ أنت أقرح مني. لكنك قليل التجارب، ستتعلم في فراشي. قم..

ـ تقولها وتتعرى، ترمي ثيابها قطعة قطعة، تحت كل قطعة كنز، تحت كل ثوب جسم بض، مورد، ملتهب، وكنت أرتجف وأنا أرى كنوزها، تركبني الحمى، يخطفني الشيطان، يغمى عليّ فلا أفيق إلا وقد تراخى جسمي من التعب، وانحلّت أوصالي من الإجهاد، وعندئذ تقول لي:

ـ استرح، أنا لك ولن أطير.

ـ لا تأتيني الراحة وأنت أمامي.. أشتهي أن آكلك.

ـ تأكلني؟ أنا فطيرة؟

ـ أنت لحمة بالعجين. أنت لحم بغير عجين.

ـ وأنت وحش؟

ـ ولماذا أسموني مفيد الوحش إذن؟

ـ لكي تأكلني؟

ـ آه لو استطعت أن آكلك.

ـ ولكنك تأكلني.

ـ ليس بهذا الشكل، ليس بهذا الشكل.

ـ بأي شكل تريد؟

ـ لا أعرف.

ـ أنا أعرف. نحب بعضنا بهدوء، ونعيش بهدوء، وتغير سلوكك، تصبح مفيداً بغير وحش.

وأقول صادقاً:

ـ هذا ما يجب. هذا ما أريد، أنا لست وحشاً. أكره الوحوش، أرغب أن أكون نافعاً، وسأكون نافعاً، لولا أن الظروف تعاكسني، تضعني كل مرة في طريق الشر.

ـ أنت الآن في طريق الخير.. ألا يكفي أنك أنقذتني من حياتي السابقة؟

ـ هذا لا يكفي، أريدك لي، لي وحدي، ستّ بيتي، تاج راسي..

فتقاطعني ضاحكة:

ـ وأخيراً انحلّت عقدة لسانك، صرت تتكلم. انتبه! لا تخرج نهاراً، إنهم يبحثون عنك، هذا ما عرفته من الجيران.

آسفاً. لم أنتبه. أخذت أخرج ليلاً، وغامرت فخرجت نهاراً، وكنت أعتقد أنهم غير قادرين على إمساكي، ومن المستحيل أن يتوصّل ابن عاهرة إلى وضع الكَلَبْشة(1) في يدي. غير أن أولاد العاهرة تمكّنوا من إمساكي، ومن تقييدي، وسَوْقي إلى السجن باللاذقية. وفي هذا السجن رأيت عبدوش، تعانقنا، تذكّرنا معركتنا، دون أن يعرف الندم طريقه إلى قلبينا. كنا، هو وأنا، مزهوَّيْن، لأن ما فعلناه كان ضرورياً، كان مشرّفاً، فهو ضد أعداء الوطن، وفي سبيل ردّ الظلم عن مُواطن اعتدوا عليه.

(1) القيد.

في التحقيق معي كنت جريئاً. اعترفت بأنني اشتركت في المعركة، ونفيت أن أحداً دفعني إليها. كانت الشرطة السرّية المدنية قد تحرّت عني. عرفتْ ماضيَّ كله، من حكاية الشقاوة في القرية، إلى التيّسنة في المدرسة، إلى قطع ذَنَب حمار عبّود، إلى الطرد، فالذهاب إلى اللاذقية، والعودة إلى بانياس، ثم التعرّف بإبراهيم الشنكل، والعمل في الفرن.

في البدء اشتبهوا بميولي السياسية، لكن التحقيق الإضافي أثبت أنني لا أفقه في السياسة شيئاً، وأنني مجرَّد قبضاي وزميل عبدوش ذي التاريخ العريق والسوابق العديدة، وهذا ما جعلهم يقلّلون من الخطر الذي أشكّله، ويحصرون التهمة الموجهة إليّ بالاعتداء على «البريفوته»، وخلع كتف أحدهم بضربة خيزرانة.

أذكر أنني، في اليوم الأول لتوقيفي، وحين كنت مع السجناء بعد، أمسكت بباب القاووش الحديدي وهززته لأمتحن مقاومته، ثم اعتليت كتفي سجينين وفعلت مثل ذلك مع حديد النافذة، ولو طال مكوثي في القاووش، لخلعت ذلك الحديد اللعين، ونظمت هرباً أصولياً للسجناء. وحين تحدّاني سجين كان يعتدّ بقوته، طلبت من سجينين معافيين، أن يتعلّقا برأسي وأنا مقرفص، ونهضت بهما دون أن تنثني رقبتي، أو يميل رأسي عن استقامته.

لم يكن السجن غريباً عليّ. غير أن رأسي، هذه المرة، كان مرفوعاً. قلت في نفسي: «انتهت أيام الولدنة والمشاغبات يا مفيد». وقد كنت في الحقيقة، أريد إنهاء هذه الولدنة والمشاغبات، لكن الظروف تتدخّل، تفرض عليَّ نفسها، تجعلني أحيد عن الطريق القويم، كأنما هناك قوة خفية توجّهني، تدفعني، دون رغبتي، إلى حيث تريد هي، لا إلى حيث أريد أنا. الآن، وبعد أن أحببت لبيبة، قرّرت، بكل إرادتي، أن أقطع مع الماضي، خاصة بعد أن لحقت بي لبيبة إلى اللاذقية، وتابت على يدي، ووجدت عملاً في

شركة الريجي(١)، فاستأجرتْ غرفة صغيرة وملحقاتها، وعاشت باستقامة، كان حبّنا قد صنع منها امرأة جديدة، شريفة، متفانية في سبيلي، وتحرص على أن تعبّر لي عن ذلك بالزيارات، وبالطعام واللباس اللذين حملتْهُما إليّ، مضحّيةً على هذا الشكل ببعض حليها، التي باعتها في سبيلي، وأرغمتني، في إحدى الزيارات، أن أقبل منها مبلغاً صغيراً زعمت أنه دين لا صدقة ولا مِنة.

جرى كل شيء على مايرام حتى انتهى التحقيق معنا. بعد ذلك ساقونا، عبدوش وأنا، مقيّدين في سيارة يقودها ويحرسها «البريفوتة» خوفاً من فرارنا، إلى سجن حلب، وهناك قدّمونا إلى المحكمة المختلطة، بتهمة الاعتداء على أفراد من الشرطة العسكرية الفرنسية. في المحكمة كرّرنا إفادتنا، قلنا إن «البريفوتة» كانوا البادئين بالاعتداء، وإنهم ضربوا صاحب المقهى وطلبوا منه أن يعرّص لهم، وإننا دافعنا عنه وعن أنفسنا فقط. وتطوّع أحد المحامين في الدفاع عنا، فلم أفهم من كلامه سوى أنه يطلب براءتنا، لأننا كنّا في موقف الدفاع عن النفس. وبعد أخذ ورد حكمت علينا المحكمة المختلطة برئاسة قاضٍ عسكري فرنسي بالسجن، فشدّدت العقوبة على عبدوش، لأنه الأكبر سنّاً، ولأن له سوابق، فكان جزاؤه ثلاثة أعوام، وكان جزائي عامين، وفرضوا علينا أن نقضي هذه العقوبة في سجن حلب لا اللاذقية.. أبعدونا قصداً عن اللاذقية، وهذا ما أخنقني، وما جعلني أثور فألعن وأشتم في الأسابيع الأولى لوجودنا في السجن، حتى اعتدنا، وانسجمنا، وسررنا مما لقيناه من حفاوة السجناء الحلبيين، الذين عاملونا على أننا من السجناء السياسيين.

«حلو - قلت في نفسي - أنت سجين سياسي يا مفيد. سجنوك لأجل السياسة وأنت لا تعرف عنها شيئاً، إلا ما قاله لك إبراهيم الشنكل.

(١) شركة حصر التبغ والتنباك.

مصادفات! يا ربي كم لعبت بي المصادفات! وكم أدرت الدفة في اتجاه، ودفعتني الأمواج في اتجاه آخر، كأن البحر تواطأ مع شختورتي عليّ».

قلت لعبدوش، وقد بدأت أنظر إليه، بعد المعركة، بحجم أصغر من حجمي:

ـ اسمع ياابن أمك! اقلب الصفحة. اطوِ صفحة الماضي. افتح في دفترك صفحة جديدة.

قال آسفاً:

ـ انطوت يا مفيد الصفحة من تلقاء نفسها.. حين فتّشوا الفرن صادروا كل ما كان عندي.

ـ وماذا كان عندك ماشاء الله؟

ـ نسيت تلك الأشياء؟

ـ تقصد تلك الخردة والجمجمة؟

ـ وهل كل تلك الأشياء التي أنفقت عليها نقودي خردة؟

ـ ما هي إذن؟ «متحف حربي» كما قلت؟ اللعنة على تلك الجمجمة، لا تذكرها أمامي بعد اليوم، فهمت؟

ـ ومن أنت حتى أفهم منك؟ نسيت أنني أنا الذي..

قاطعته:

ـ ساعدتني، شغّلتني في الفرن، حميتَ ظهري في المعركة، أعرف كل هذا، لكنني أقول لك إنسه، إنس الماضي، نحن أولاد اليوم، نحن سجناء سياسيون. العمى! تريدنا أن نتبهدل؟

لم يرتح عبدوش لحديثي. صعب عليه تمرّدي. كان يحسب أنه وضعني تحت باطه[1] وسأظل هناك. لا يا صاحبي. مفيد لا يوضع تحت الباط ولا

(١) إبطه

في العبّ أو في الجيب، مفيد هو الذي سيتقدم عليك بعد اليوم، يتقدّم لأنه لائق بذلك، ويكفي أنه يكتب ويقرأ. كنت، فعلاً، قد أخذت بنصيحة إبراهيم الشنكل، وتابعت قراءة الصحف، وأفادني ما تعلمته في المدرسة، فصرت أقرأ وأكتب بسهولة. زد على ذلك أنني كنت محظوظاً، فقد كان في السجن معنا سجين اسمه عبد الجليل، هو من جماعة الشنكل الله أعلم، وكان طيّباً، خلوقاً، ومحسوباً من السجناء السياسيين مثلنا، وسرعان ما ارتبطت معه بصداقة متينة، فراح يساعدني، يرشدني، يفسّر لي الكلمات التي لا أفهمها، ولا أستطيع حل لغزها وحدي. بعد ذلك خضّني كما يخضّون اللبن، ليعرف إذا كان في لبني زبدة، أي عندي فهم سياسي. من سوء الحظ كنت جاهلاً بهذه الأمور، ومع ذلك لم يقطع صلته بي. ظلّ على مودته، وحذّرني من مشاكلة السجناء، المجرمين خاصة، هؤلاء الذين كان تحت وسادة أو فراش كل واحد منهم «يطقان»[1] مثل ساطور القصاب.

قال لي يوماً:

ـ يا مفيد، يا ابني، أخلاق السجن غير أخلاق المدينة. عدّ على أصابعك: واحد ـ لا تعلك وأنت في السجن، ٢ ـ لا تتولدن، ٣ ـ لا تدخّن..

قاطعته:

ـ أنا أدخّن!

ابتسم:

ـ أعرف أنك تدخّن، ما أقصده لا تدخّن الحشيش.

أضاف:

«٤ ـ لا تقترب من القمار، ٥ ـ لا تستفز السجناء ولا تتركهم

(١) سكين كبّاس.

يستفزونك، ٦ ـ لا تعدّ أيام السجن ولا تفكر كثيراً بما هو خارجه، ٧ ـ لا تتعاط النميمة أو الكذب أو التدخل في مالا يعنيك، كن رجلاً، السجن يحب الرجال.

سألته بشكل غير مؤدب:

ـ انتهت الديباجة؟

نقز. لكنه ضبط أعصابه. قال بهدوء:

ـ هذه ليست ديباجة. نحن لا نكتب رسالة. هذه تجارب، تجارب مفيدة، تعلّمتها ودفعت ثمن تعلمها.

خجلت:

ـ العفو أرجوك، لم أقصد . .

قاطعني:

ـ هوّن عليك . . إذا كنا نستطيع تجنب الأخطاء فلماذا نقع فيها؟

قلت:

ـ الأخطاء تنزل أحياناً مثل الحجارة على رؤوسنا.

ـ هذه تكون أخطاء غير مقصودة، لا حيلة لنا فيها.

ـ أنت لا تقع في الخطأ إذن؟

ـ لا أحد معصوم، كلّنا نخطىء

ـ بعد كل هذه التجارب؟

ـ التجارب لا نهاية لها . . كل يوم جديد تواجه تجربة جديدة.

قال ذلك وأشار إلى سجناء يقرأون في كرّاسة:

ـ ما رأيك أن تتعرف إليهم؟

ـ هل هم من أصحابك؟ من جماعة السياسة؟

ضحك:

ـ ومن جماعة التجارب أيضاً.

نَدَه عليهم. جاؤوا إليه. كانوا يحترمونه ويقدّرونه ويطيعونه أيضاً، فقام بتعريف بعضنا على بعض. أثنى عليّ أمامهم، رفع من شأني باعتباري سجيناً «سياسياً».

هؤلاء السجناء، الذين كان عبد الجليل مقدّمهم، حازوا على مودّتي واحترامي. كانوا كلهم محكومين لأسباب سياسية تتعلق بمقاومة الاحتلال الفرنسي، وكانوا منضبطين في تصرفاتهم، إلا إذا تعلق الأمر بالوقوف في وجه إدارة السجن حين تسيء معاملة المساجين.

لقد أدهشتني صلابتهم. تفانيهم في الدفاع عن حقوق السجناء، وقد شهدت، بعد شهور من وجودي في السجن، إضراباً قاموا به، وحرّضوا عليه، وحقّقوا ما أرادوا من مطالب.

ففي أحد الأيام وجدوا فارة في الفاصوليا المقدمة طعاماً للسجناء، وعندئذ رفضوا تناول الطعام، وقلبوا سطول الفاصوليا، ونظموا عريضة. رفض مدير السجن العريضة وعاقب الذين جمعوا التواقيع عليها، وكان عقابه شديداً، إذ رقع عبد الجليل فلقة، كتلك التي ذقتها في بيت المختار عندما قطعت ذنب حمار عبّود.

حسبنا أن المسألة انتهت عند هذا الحد، لكن عبد الجليل أوصى السجناء بمواصلة الإضراب عن طعام السجن، حتى يُفتح تحقيق بالقضية. لم يكتف بذلك، بل دبّر أمراً، وأبلغه إلى جماعته. وحين خرجنا للتنفّس كالعادة، انتظر عبد الجليل حتى مرّ مدير السجن من الساحة، وعندئذ وثب عليه. وانتزع الكرباج من يده، وهات يا ضرب. صرخ الدرك، هدّدوا، توعّدوا، خرطشوا البنادق، لكن المعركة كانت قد بدأت، وآجر فيها

السجناء الممتلئون حقداً، فمسألة وجود الفأرة في الفاصوليا كان معناه سوء الإدارة، وغشّها، وسرقتها للحم، ووضع الجرذان بدله. أما من جهتي فقد كانت المعركة فرصة طيبة لي، فرصة ثمينة، لا لأنال الإعجاب في عيني عبد الجليل وحده، بل لأفهم أصحاب «البطقانات» من هو مفيد الوحش.

باختصار أُطلق الرصاص في الهواء، وسال الدم، وجاءت قوة درك إضافية، وجاء ضبّاط فرنسيون فأعلنوا أن ما وقع كان تمرّداً. غير أنّ الصحف نشرت قصة الفاصوليا والفأرة، وكانت حلب، ويقولون لها الشهباء للتباهي، تنتظر، واقعة كهذه، وسبباً كهذا، لتعلن نقمتها على الدرك وإدارة السجن، وفي النتيجة، وهذا هو المرام، على الفرنسيين، فنُظّمت العرائض، وقامت الاحتجاجات، وعُقد اجتماع تقرّر فيه الإضراب، أو يجري تحقيق ويُحاسب مدير السجن.

ماذا أقول؟ انتهى كل شيء بانتصار رائع. بدّلوا مدير السجن، وأشاعوا أنهم أوقفوه، وهذا كذب، وطلبوا وفداً يمثّل السجناء، ترأسه عبد الجليل، واشترك فيه رجال يمثّلون كل الفئات والأحياء، وضم عدداً من «المنافيخ» الذين يكنون بأبي قاسم وأبي قعود وغير ذلك، فقابلوا المدير الجديد الذي أعطى أمامهم الأمر بإخلاء الزنزانات من الذين حُبسوا فيها بسبب المعركة، ووعد بتحسين الطعام، وعدم تكرار ما جرى.

هذا الحادث أسعدني. لن أقول ما فعلت خلاله، ولكن سأذكر أن عبد الجليل نفسه قبّلني. فقد كنت ظهيره، وتوحّشت في المعركة، ولم يقصّر عبدوش، ابن أمه، الذي كان في قاووش آخر، وكنا نلتقي في أوقات التنفّس، لكنه كان يسلك في السجن سلوكاً معيباً، فقد صار زلمة أحد البلطجية، واعتاد على التحشيش والقمار، ومارس كل رذائل السجن، هذه التي حميت نفسي منها، بفضل نصائح عبد الجليل، وكلماته الطيّبة ولكن غير المفهومة، فقد كان يتحدث عن أشياء تدوّخ الرأس ورأسي لا يحتمل مثلها.

بعد التنفّس، في أحد الأيام، ونحن ننتظر الطعام، فتح دركيان باب القاووش علينا وأدخلا رجلاً بثياب مهندمة. بنطلون وجاكيت، تحته قميص وكرافات. وقف الرجل، وكان عمره في حيطان الأربعين، في باب القاووش يبحث عن مكان له. لكن أحد الدركيين صاح وهو يقف في الباب والمفتاح في يده:

ـ يا عبد الجليل! هذا واحد من جماعتكم، دبّروه معكم.

قالها وأغلق الباب، أدار المفتاح في القفل وابتعد، وحين غاب وقع أقدامه، عادت الضّجة إلى القاووش. قام السجناء فشكّلوا ما يشبه الحلقة حول السجين الجديد، وكل منهم يريد أن يعرف من هو؟ ما قصته؟ ولماذا قال الدركي إنه من جماعة عبد الجليل؟ بقيت جالساً، أراقب المشهد من بعيد، منتظراً ما سيفعله عبد الجليل، الذي نهض من فوره فشقّ الحلقة، وتقدّم من الرجل وقال له، وهو يشير إلى مكان في أقصى القاووش:

ـ إلى هنا، إلى هنا يا أستاذ ماهر.

قال الأستاذ ماهر:

شكراً يا عبد الجليل، يمكن أن أجلس في أيّ مكان فارغ.

ـ قال عبد الجليل:

ـ مكانك مكاني.. أهلاً وسهلاً، استرح.. سأعدّ لك فنجان قهوة. استرح أولاً، وبعد ذلك نتكلم، لدينا، هنا فراش زائد.

مشى الأستاذ ماهر هادئاً، واثقاً، بعد أن ألقى السلام على السجناء، فردّوا عليه سلامه، وعاملوه باحترام، لمجرد سماعهم أنه «أستاذ»، وأنه من جماعة عبد الجليل، قائد الإضراب الذي تحدى مدير السجن السابق، وفرض على الإدارة أن تحسّن الطعام، وتحذّر أن تغشّ فيه مرة أخرى.

حدث كل ذلك وأنا ملطوع في مكاني. تهيّبت الاقتراب من الأستاذ، أو مباشرة الكلام معه، حتى يندهني عبد الجليل، الذي صار في نظري ونظر

الجميع مسؤولاً عن القاووش، لا يُردّ له طلب، ولا تنزل كلمته على الأرض.

وحين جاء الطعام، قام مصطفى الدق، السجين الذي يبيع الشاي والقهوة والمكلّف بسكب الطعام في الصحون، وقال بصوت عال:

ـ السكبة الأولى لضيفنا، للأستاذ، هاتوا صحناً.

قام واحد من جماعة عبد الجليل مسرعاً، حاملاً أفضل صحن، فأخذ حصّة الأستاذ، وذهب بها إليه، لكن الأستاذ قال بصوت عال:

ـ أعطوا حصّتي لغيري. أنا غير جائع. يكفيني فنجان القهوة.

قال عبد الجليل:

ـ احتفظوا بحصّة الأستاذ جانباً، ربما جاع في الليل.

احتفظوا بالصحن، غطّوه برغيف خبز أسمر، وبعد ذلك بدأ توزيع الطعام، فلم أبرح مكاني، كنت لا أزاحم عند توزيع الطعام. تعلّمت هذا من عبد الجليل، صرت أقلّده في تصرّفاته، صار من أقرب الناس إليّ، وبادلني هو المودّة، بعد أن عاين فعلي في المعركة مع الدرك، وعرف، كما قال: «شجاعتي وطيبتي».

ولأنه لا بدّ من الطعام، نهضت أخيراً، وأخذت حصتي. حملتها إلى مكاني، جلست على طرف الفراش وبدأت آكل. لكن عيني ظلّت على الأستاذ ماهر وعبد الجليل، فقد انفردا، في شبه خلوة، وابتعد عنهما السجناء، وحتى المساجين من جماعة عبد الجليل أكلوا معاً في طرف آخر من القاووش، تاركين رفيقيهما المستغرقين في حديث طويل، دام حتى أطفأت إدارة السجن الأضواء، واستمر على ضوء الفانوس الذي أشعله مصطفى الدق، وعلقه على الجدار.

نمت، تلك الليلة، وأنا أفكر بالقادم الجديد. سحرتني كلمة «أستاذ».

قدرت أنه شغلة(١). قلت في نفسي: «إذا كان عبد الجليل تواضَعَ أمامه هذا التواضع، فما يفعل بقية الجماعة؟ وماذا كان يفعل قريبي إبراهيم الشنكل لو كان معنا؟ بل ماذا أفعل أنا؟ أتكلم مع أستاذ؟ وكيف يتكلم الأساتذة؟ وما قصته؟ ماذا فعل؟ ماذا يعمل؟ وبقيت أطرح على نفسي السؤال بعد السؤال، حتى غلبني النعاس، فنمت مثل القتيل.

أفقت فرأيت الأستاذ ماهر جالساً على فراشه، وإلى جانبه عبد الجليل. لم ينته حديث المساء. عدت أتساءل: «عم يتحدثان؟» وقلت في نفسي: «عبد الجليل يستفسر من الأستاذ عن أخبار الدنيا. غداً نعرف من عبد الجليل ماذا صار بعدنا. ما يدور في البلد. ما هي أخبار الفرنسيين؟ كيف الشغل والأسعار؟ كيف يعيش العباد؟ سيقول لنا كل شيء، فنحن، منذ دخلنا السجن، انقطعت عنا الأخبار، كأننا في جورة، كأننا في بئر، في قبر، لا نرى من حولنا سوى الأسوار والأسلاك الشائكة، وإذا رغب أحدنا أن يرى ما هو خارج السجن، تعلّق بقضبان النافذة الضيّقة، العالية، ويحلق بعينين فارغتين، جائعتين، إلى كل ما يمتد إليه نظره، ثم يأتي من ينزله من مكانه، لأن الفرجة على الدنيا، من طاقة القاووش بالدور.

خرجنا، بعد الاغتسال والإفطار، إلى التنفّس. الأستاذ لم يخرج. عبد الجليل بقي معه، دفعني الفضول إلى الترصّد، وجدت أن جماعة عبد الجليل بقوا كلهم في القاووش، قدرت أنهم يعقدون اجتماعاً. حلوا في الخارج لا يستطيعون الاجتماع، بسبب الملاحقة، فيعقدون اجتماعاتهم في السجون. هنا لا أحد يستطيع اعتقالهم. لا أحد يستطيع منعهم من الاجتماع. يأخذون حرّيتهم. هل تكون الحرية في السجن، بالنسبة إليهم، موفورة أكثر مما هي خارجه؟

(١) مُهِمّ.

عند العصر ندهني عبد الجليل، طلب من مصطفى الدق قهوة لنا نحن الثلاثة، الأستاذ وهو وأنا. كانت كبيرة عليّ، ندهة عبد الجليل لفتت انتباه المساجين. حسدوني ربما. أنا الذي «لا في العير ولا في النفير(١)»، أحظى، قبل الجميع، بجلسة مع الأستاذ، وفوقها فنجان قهوة. تساءلت: «ماذا هناك؟ يحمل لي رسالة من لبيبة؟ هو لا يعرف لبيبة. هذا غير وارد. يتحدث معي عن المحكمة؟ وماذا في المحكمة؟ أصدرت حكمها عليّ وانتهى الأمر. يحكي لي حكايته؟ من أنا حتى يكشف لي سرّه دون سائر المساجين؟ كل هذه الظنون غير واردة. الأرْجح أنه يريد أن يوشّ في أذني كما فعل إبراهيم الشكل وعبد الجليل».

ـ اقتربت. جلست. تأدبت. تعلقت الابتسامة بين شواربي وشفتي. أمسكت حتى يبدأ هو الكلام. منظري مضحك ولا شك. أنا العتريس(٢) يجلس جلسة التلميذ. وأمام من؟ أمام أستاذ كبير بهذا الوزن. قررت أن أسمع ولا أتكلم. إذا تكلمت فضحت نفسي. ماذا أقول؟ أنا الذي قطع ذنب الحمار؟ لا، هذا سرّ، لا يعرفه إلا عبد الجليل في السجن كله.

جاءت القهوة. قدم لي سيكارة، أشعل واحدة لنفسه. تمهّل، تملاّني. راقبني من طرف عينه. رازني. مضت دقائق قبل أن يأتي الفرج، قبل أن يفتح فمه ويسألني:

ـ حكموا عليك بعامين في السجن إذن؟

قلت:

ـ هذا الذي صار.

ـ لا بأس! السجن للرجال.

---

(١) لا قيمة له.

(٢) الرجال الضخم المشاكس.

ابتسم وأضاف:

ـ عبد الجليل يقول: السجن للنساء أيضاً. إنه من أنصار المرأة. ما رايك أنت؟

ـ أعوذ بالله! الرجال لا يتحملون السجن، فكيف النساء؟ هذه باطلة.

قال عبد الجليل:

ـ عرفت نساء سجينات؟

قلت:

ـ لماذا؟ هل لأنهن مثلك، مثلنا، ضد فرنسا وضد الظلم؟

ـ هذا هو السبب.

ـ إذا كان هذا هو السبب فأنعم وأكرم.

قال الأستاذ ماهر:

ـ دعونا من النساء. لنتكلم عن الرجال. عن معركتهم مع الدرك.

قلت متجاهلاً:

ـ أيّ معركة هذه؟

ـ معركة الطعام. عبد الجليل حدثني عن كل شيء. حدّثني عن شجاعتك، وعن سبب سجنك، وعن اجتهادك في تحسين حالك، أعني من ناحية العلم، قال لي إنك تدرس.

ـ أحسّن قراءتي وكتابتي بمساعدته.

ـ هذا جيّد. غداً تخرج متعلّماً. هذا أفضل من قتل الوقت بما لا يفيد.

ـ حين أخرج سأبحث عن اللقمة.

قال الأستاذ ماهر بحسم:

ـ كلنا نبحث عن اللقمة.

أضاف:

ـ اللقمة هي رأس المشكلة!

ـ قلت:
ـ مشكلة من؟
ـ مشكلة الناس طبعاً.. حين تتوفر اللقمة للجميع نكون قد أصبحنا بخير.
ـ ولكن لا أحد يموت من الجوع.
ـ وأيضاً لا أحد يشبع.. قصدت أبناء الشعب، الفقراء خصوصاً.
ـ فهمت. أنتم هنا من أجل ذلك.
ـ وأنت أيضاً.

دهشت:
ـ أنا؟ ماذا فعلت أنا؟
ـ قاومت الفرنسيين، وإلا لماذا أنت هنا؟
ـ هذا لا شيء. معركة بين سكارى.
ـ المسألة غير ذلك. حكموك لأن المسألة غير ذلك. أنت وقفت في وجه الفرنسيين. قاومت «البريفوتة»!
ـ هذا ما حصل، ولكن ما علاقته بلقمة الناس؟
ـ هناك علاقة، لكن لنترك الكلام عليها.. ماذا تنوي أن تفعل بعد الخروج من السجن؟

تدخّل عبد الجليل في الحديث. كان صاحب نكتة. قال:
ـ سيبحث عن حمار آخر يقطع ذَنَبه.

قلت خجولاً:
ـ هذه كانت ولدنة.

قال الأستاذ ماهر:
ـ كانت احتجاجاً.. أنت غير راض، تريد أن تحتجّ ولا تعرف كيف.
ـ أنا لم أحتجّ على شيء.. وعلام أحتجّ؟

ـ على ظروف الحياة، في الضيعة مثلاً؟
ـ ظروف الحياة هي التي أوصلتني إلى هنا.. ولا أدري إلى أين ستوصلني بعد.

قال الأستاذ ماهر:
ـ حاول أن تصلح نفسك.

قلت:
ـ كيف؟ كلما نويت أن أغيّر طريقي أجد نفسي في نفس الطريق.

قال الأستاذ موافقاً:
ـ هذا صحيح.. طريق الشرّ واسعة. باب الشرّ واسع.

أضاف:
ـ فتّش عن الباب الضيّق. باب الاستقامة ضيّق، ولكن جرّب أن تدخل منه.

قلت:
ـ سأفعل. أنا لا أريد الشرّ، ولكن الشّر يتبعني.
ـ هذا مفهوم.. مع ذلك جرّب،أنت قوي، وتستطيع أن تعمل في أيّ مكان. في الميناء مثلاً. ألست من الساحل؟
ـ أنا من هناك، ولكن دخول الميناء صعب.
ـ لا شيء صعب مع الإرادة.
ـ أنا أريد العمل في البحر.
ـ هذا أفضل.. سافر، السفر ممتع ومفيد.
ـ سأبحث عن مركب أعمل عليه.
ـ هذا ما يجب. لا تعد إلى حياتك السابقة.

وعدته:
ـ لن أعود إلى حياتي السابقة.

نظر إليّ نظرة مودة. نظرة ارتياح. نهض فخرج من القاووش. بقيت مع عبد الجليل. لمته. سألته: «وماذا قلت عني للأستاذ؟».

أجاب:

ـ كل خير..

ـ ومسألة ذنب الحمار؟ والمعركة مع البريفوتة؟ والمعركة في السجن؟ وحياتي السابقة؟

قال:

ـ هو طلب أن يعرف عنك كل شيء. اهتمّ بحكايتك أكثر من اهتمامه بحكايات السجناء الآخرين.. قلت له إنه يعرف إبراهيم الشنكل، وأن إبراهيم قريبه، وأنه شجاع.. أما مسألة المعركة مع «البريفوتة» فهو يعرفها، كتبوا عنها وعن الإضراب في الجرايد.

ـ أيّ جرائد؟

ـ الجرائد الوطنية.

قلت:

ـ وماذا يكتبون في الجرائد الوطنية؟

ـ أشياء ضد الحكومة.

ـ وما دخل الحكومة؟

ـ الحكومة صنيعة فرنسا.. وفي هذه الجرائد كتابات ضد فرنسا.

سألت متلهفاً للمعرفة:

ـ ومن الذي يكتب هذه الكتابات؟ الأستاذ؟

ـ الأستاذ محامٍ.

ـ كيف؟ محامٍ وفي السجن؟ المحامون يدافعون عن السجناء، ولا أحد يستطيع أن يسجنهم.

ال مبتسماً:

ـ بلى! يستطيعون.

ـ هذه لا تدخل عقلي..

ـ ستدخل عقلك في المستقبل. لا تتعجّل. أنت قوي، شجاع، جرّبْ، ما قال الأستاذ، أن تكون نافعاً لنفسك وللآخرين.

قلت مستفهماً:

ـ أنفع نفسي هذا واضح، هذا لمصلحتي، ولكن كيف أنفع الآخرين؟

ـ ستتعلّم ذلك. ستجد أناساً يعلّمونك.

ـ أين؟

ـ في كل مكان. ابحث عنهم تجدهم. كن شريفاً فهيماً وستجد أنهم هم الذين يبحثون عنك. لا تفسد حياتك، لا تهدر قواك، اذكر دائماً أن الحياة كفاح، وأن الإنسان مكافح، وأنه يملك العقل الذي يهديه. وهذا ما يميّز الإنسان عن الحيوان.

قلت معترفاً:

ـ أنا حيوان!

قال:

ـ حاشاك. أنت إنسان.

قلت:

ـ أنا صاحب سوابق، وأنت تعرف موقف الناس من أصحاب السوابق.

أكّد:

ـ مهما يكن، مهما يكن.. لا تعد إلى ما كنت عليه.

قلت مصمماً:

- لن أعود إلى الشيطنة أو الرذيلة أو السرقة، ولكن ماذا لو انسدّت الدروب في وجهي؟ ماذا أفعل عندئذ؟ ألا أعتمد على زندي؟

أضفت بعد وقفة:

- بل سأعتمد على زندي، سآخذ حقي بالقوة. أنا قويّ وسأعتمد على قوتي، ولن أسمح لأيّ إنسان أن يدوس على رجلي، أن يمنع عني اللقمة، ألم يقل الأستاذ ماهر «إن رأس المسألة هي اللقمة»؟

لم يجبني عبد الجليل بشيء. وحين عاد الأستاذ لزم الصمت. أدركت عندئذ أن جلستي طالت، وأن عليّ أن أنسحب، فاعتذرت وخرجت من القاووش إلى الباحة. . فكرت بما سمعت، أثارتني مسألة الجرائد الوطنية أكثر من كل المسائل الأخرى. قررت أن أبذل ما في وسعي كي أتعلّم، وكي أقرأ تلك الجرايد، إذا وقعت في يدي يوماً من الأيام.

قضيت ما تبقّى من محكوميّتي بالاجتهاد. بقيت على علاقة طيبة بعبد الجليل والأستاذ. كنت في كل يوم، أسمع كلاماً جديداً، وأكتشف أشياء جديدة وحين جاء يوم الإفراج عني، تقدّمت مودّعاً الأستاذ ماهر، مددت يدي فقط، لكنه شدّني إليه، أخذني بين ذراعيه وقبّلني، كذلك فعل عبد الجليل، وبعد ذلك خرجت من السجن لأواجه الحياة من جديد.

كانت معي نقود قليلة، كانت الدنيا في عزّ الصيف. اشتريت بنطلوناً وقميصاً، دفعت أجرة الباص إلى اللاذقية. هناك رحت أبحث عن عمل، قرّرت ألاّ أبحث عن لبيبة. حالتي لا تسرّ لبيبة، وأنا لا أريد أن أتسبّب في حزنها. تشرّدت، نمت على الشاطىء، فراشي الرمل وغطائي السماء، جعت. لم أحصل على اللقمة. تذكرت الأستاذ ماهر وحكاية اللقمة. تذكرت عبد الجليل ووعدي له بعدم الرجوع إلى السرقة. لم أمدّ يدي إلى مال غيري، لم أسرق، لحقت الصيّادين، تعرفت بالرّيس بكري الغطّاس

صاحب مركب الصيد، رجوته أن يأخذني على مركبه، أكّدت له أنني ابن بحر، وأنه لن يخسر إذا قبلني على مركبه، وافق. . هكذا كانت البداية، هكذا بدأت العمل، وكنت مسروراً إلى درجة لا تصدّق.

كنا، في الأماسي، ننطلق إلى عرض البحر، حيث نلقي المرساة، ونفرد الشباك، ونرمي صنانير التلويح، وننعم بالسهر، على ضوء اللوكس، بينما المركب يهتزّ تحتنا، والموج، في حركة إيقاعية، متواصلة يصطفق على جوانبه، والرّيس بكري يقدم لنا السكائر، وتدور القهوة المرّة، ونصغي إلى حكاياته عن الصيد والصيادين، والبحر والبحارة، والمرفأ، وعماله. في مثل هذه الأوقات، كان يطيب الصيد، يحلو كثيراً ويكون السمك وفيراً في الليالي المقمرة، وكان معنا فلوكة إلى جانب المركب، وقد تعلمت التجذيف بسرعة، وصرت أدير مجذافين، وأنا ألبس قميصاً وكلسوناً من شيت أزرق مربع، وأعتمر قبعة قماشية زرقاء، وأتقدّم في المهنة، منتزعاً رزقي ورزق رفاقي الصيادين من أعماق البحر، في تضامن كامل بيننا، وطاعة واجبة للريّس بكري الغطّاس.

وبعد أن نلقي الشباك، ونلوح الصنانير، لصيد الأنتياس، كنا نأخذ فترة راحة، نتناول خلالها عشاءنا، وندخن، ونصغي إلى صمت البحر، هذا الصمت الحبيب إلى قلبي.

لم أكن أفتقد سوى المشروب، فالريس بكري يحرمه على مركبه. هناك، في قلب البحر، وأنا أستلقي في المركب أو قاع الفلوكة، بانتظار الفجر، كنت أسرح مع خيالي. أنا لم أكن خيالياً يوماً، لكن من كتب عليه أن يكون صياداً أو بحّاراً، يؤاتيه الخيال. يشطّ به بشكل لا يستطيعه من يكون على البرّ. كان خيالي يكبر ويكبر، حتى صار بحجم السماء والبحر، فإذا نترت فلّينة صنارة ما، كنا نسحب الخيط، ومن سحبه نعلم ما إذا كانت السمكة العالقة كبيرة، وما هو حجمها وجنسها، وكنا مجهّزين

بالمخابيط، والسكاكين، ولدى الريس مسدّس، بسبب أن مواقع الصيد معروفة، وأحياناً يقوم نزاع عليها بين الصيادين، وبين الرياس وأصحاب الفلائك، وكان علينا، في قلب اللّجة، أن نكون حذرين، لئلا تتداخل الشباك، أو تختلط الصنانير، خاصة إذا سحبتها الأسماك الكبيرة العالقة، كما كان علينا أن نكون مستعدين للدفاع عن منطقتنا، وعن شباكنا وصنانيرنا، وأن ندخل معركة، عند اللزوم.

في رحلات الصيد، ولياليه المظلمة، أو المقمرة، كان الحديث يطيب، وكل بحار يروي ما جرى معه، وقد حكيت لهم قصة حياتي كلها، وكان الريس بكري يبدو مسروراً من شجاعتي، وصار يناديني، اختصاراً «بالوحش» وبذلك اختفى اسمي الأول مفيد، كما اختفى قبله اسم عائلتي، وليلة بعد أخرى صرت مقرباً من الريس بكري، وصار يعتمدني في المهمات الصعبة، عند سحب الشباك، أو الغطس في البحر، أو الوقوف في وجه من يتجرأ ويتحرش بنا. فهمني الريس أكثر من سواه، وقدّر إمكاناتي البدنية، وزاد فوعدني أن يبقيني معه، وأن يحسّن حالي، ويزوجني.

سألني، ذات ليلة، وكنا نجلس معاً وندخن: «كيف حالك مع النساء؟» قلت: «المرأة، يا ريّس، تحتاج إلى رجل ينفق عليها، وأنا، كما ترى مفلس، ما يأتيني من الصيد لا يكفي للكأس واللقمة» قال: «أليس عندك صاحبة ؟» اعترفت : «نعم كانت عندي صاحبة، وكنت أحبها ، لكننا افترقنا بعد أن دخلت السجن ». قال: «في مرافئ العالم، لو تعرفت بامرأة ما، وكنت شجاعاً، تعرف كيف تحميها، تحبّك من أعماقها، وتنفق عليك بدل أن تنفق عليها». قلت: «أنا يا ريس لم أخلق لأحبّ البغايا، ولا لحمايتهن. لا أطيق أن تكون لي امرأة، وتكون لغيري في نفس الوقت. أقتله أو أقتلها إن ضبطهما معاً.. أنا رجل،

فحل، وأنت، بخبرتك الكبيرة، تعرف معنى الرجولة والفحولة» فابتسم وأجاب: «عشت يا وحش، هكذا يكون الرجال، أنت هنا من رجالي».

لكنني لم أبقَ من رجاله. كان ذلك مؤسفاً، وقد افتقدت هذا الريّس الكريم، الذي يقدر رجاله المخلصين، ويعرف كيف يشجعهم، يدفعهم إلى العمل، يؤاخي بينه وبينهم. الشتاء فرّق بيننا. كان شتاء قاسياً، تواصلت فيه العواصف، وهبّت الأعاصير وشحّ الرزق، فالصيد له مواسم، وفي الشتاء يتوقّف الصيد أحياناً. لا يقلع المركب، يصبح الصياد بلا عمل، وقد استاء الريّس بكري من هذه الحال، فباع المركب، ووجدت نفسي، من جديد، بلا عمل، وعدت إلى التشرّد والبحث عن اللقمة.

حوالي السجن، في اللاذقية، وفي منطقة الرمل، كانت هناك بساتين، وكان في أحد هذه البساتين كوخ يشبه الوكر، استأجرته بليرتين في الشهر. وضعت في وكري هذا سريراً عتيقاً، اشتريته من البازار، وجئت بفراش ولحاف، وحصلت، بعد مدة، على بابور كاز وبعض الأغراض الضرورية، للطعام والشاي والقهوة. لطيت في هذا الكوخ كأني هارب من وجه العدالة. قلت في نفسي: «الحال مستورة يا مفيد. هذا أفضل من العودة إلى الماضي. هذا هو الباب الضيق الذي وراءه الطريق المستقيم، وبهذا الطريق المستقيم أوصاك الأستاذ ماهر».

لا أعرف كيف مرّ ذلك الشتاء. كنت أنزل أحياناً مع فلائك الصيد، وكنت أصطاد بالقصبة حين لا يكون هناك صيد في البحر، وكانت أيام الحرب العالمية الثانية صعبة، زادت من صعوبات الحياة، ومع ذلك تحمّلتها بصبر، إلى أن التقيت في أواخرها صديقي ورفيق دربي عبدوش الداشر، ففرح أحدنا بالآخر، وسألته عن أمره، عن حياته، وعلمت منه أنه بعد خروجه من السجن لم يأت إلى اللاذقية. قال: «ماذا في اللاذقية؟»

أضاف: «ذهبت إلى بيروت، وهناك تدبّرت أمري، عشت ثلاث سنوات، وأخيراً عدت منذ شهور».

كنا نجلس وحيدين في كوخي. كان عليّ، بعد هذا الفراق، أن أولم له وليمة، لكن الحال لا تسعف، فشويت له بضع سمكات، وشربنا عرقاً، وسألته:

ـ ماذا تعمل في اللاذقية؟
ـ لا شيء. أنا عاطل عن العمل.
ـ ومن أين تأكل وتشرب؟ كيف تدبّر أمورك؟
ـ اتعيّش من الميناء.

فهمت فوراً. عاد عبدوش إلى أعمال الشقاوة. لم يحتمل ما احتملتُ. جازف. مشى في طريق الخطأ. قال لي:

ـ لم أجد طريقاً آخر. أنا لست ولياً. أنا إنسان وأريد أن أعيش.

قلت بتسليم:

ـ لا ألومك.
ـ وأنت؟ سألني.

رويت له ما مر معي. عملي على مركب الريس بكري الغطاس. بيع المركب. التشرد. الجوع، الطلوع مع فلائك الصيد. العيش كالجرذون في هذا الوكر. الضيق بالحياة. التفكير بأن أرتكب حماقة. التردد في ارتكاب أيّ حماقة. وقلت له أخيراً:

ـ طلعت روحي يا عبدوش. لم أعد أستطيع الصبر.

قال:

ـ تعال معنا إذن. انضمّ إلينا.
ـ إلى عصابة للسرقة؟ لا، لن أعود إلى الماضي.

ـ مت إذن من البرد والجوع.
ـ أنا راضٍ بقسمتي. لا تُغْرني بالعودة إلى السرقة.
ـ نحن لا نسرق. في الميناء خير كثير، ومن هذا الخير نأخذ ما يطلع لنا.
ـ يعني تسرقون؟
ـ قلت لك لا نسرق. الحرب في عامها الرابع. الشغل عاد إلى الميناء. الحركة فيها كبيرة. مراكب، سفن، تحميل. تفريغ، سفر في البحر، كل ما تريد.

في اليوم التالي عاد إليّ ومعه شخص يدعى حليش. عرفني به. قال:

ـ هذا زميلي في الشغل.

ضحكت. أي شغل هذا؟ سرقات صغيرة. خدمات صغيرة. التقاط أي شيء تطاله اليد. تحشيش، وربما تهريب حشيش، وهذا كله أعرفه، فقد سمعت بمثل هذه الأعمال.

سألني عبدوش:

ـ ما رأيك أن تنضمّ إلينا؟
ـ أنضمّ إلى ماذا يا ابن أمك؟ من هذا حليش؟ أحك.. قل لي ماذا عليّ أن أعمل؟ كل شيء إلا السرقة.
ـ حليش يعمل معي. حدّثته عنك. عن قوّتك. وشجاعتك. فرح بك. سألني: «لماذا لا ينضم إلينا ونقوم بعملية كبيرة؟»

كنا نتكلم على انفراد، نتهامس. وكان حليش يشرب الشاي ويدخن. كان ضئيلاً، قميئاً، له هيئة ثعلب، ويصلح لأن يكون قوّاداً، أكثر مما يصلح لعملية كبيرة.

عاد عبدوش يسألني:

ـ مارأيك؟ تنضم إلينا؟

صحت به:

ـ أنضمّ إلى من يا عبدوش؟ من أنتم؟ عصابة؟ شركة؟ أصحاب عمل؟

ـ نحن نسطو على البضائع في المرفأ. حليش عنده فلوكة، ننزل بها في الليل، وفي الظلام نجذف بهدوء، ونستولي على أيّ شيء يقع في يدنا. السلامة مضمونة.

نبرت:

ـ أنا لا أسأل عن السلامة. أنت تعرف أنني لا أسأل عن السلامة. ولكن هذه الشغلة لا تؤاتيني. مع السلامة!

انصرف عبدوش وحليش. وعد عبدوش بزيارتي كلما استطاع. شكرته. رفضت أن آخذ منه أيّ شيء. كبريائي لا تسمح. أجوع ولا أمدّ يدي. ولكن ماذا بشأن العملية؟ ما وعدت به عبد الجليل هو ترك السرقة. وسأفي بوعدي. هذا لصالحي. عشت مستقيماً ثلاث سنوات. لكنني عشت شبه جائع، شبه عار، ولا أستطيع الاستمرار. للصبر حدود. لا بد من الاعتماد على الزند. قلت لعبد الجليل: «عند اللزوم سأعتمد على زندي، سآخذ حقي بيدي» وهذا ما سأفعله الآن. قبلنا بالباب الضيق، ولكن الباب الضيق لم يقبل بنا. ضاق جداً. انسدّ، فما العمل؟

سألت عبدوش حين عاد لزيارتي:

ـ من أهم أصحابك في الميناء؟

ـ لا أصحاب لي في الميناء. أعمل مع حليش وحده، وحليش يتدبر أمر مع جماعته.

ـ أنت تعمل من بعيد إذن؟

ـ من بعيد جداً.

ـ لا تذهب إلى الميناء.

ـ في الليل فقط. في النهار أبتعد.

ـ ومقهى الميناء؟

ـ لا أدوسه. الأفضل أن أبقى مجهولاً.

قلت:

ـ وأنا كذلك. فكرت بالعملية التي تقول عنها. أنا موافق على شرط: ان أدرس الموضوع على مهل. أن أفكر فيه على أقلّ من مهلي. أريدها عملية كبيرة خارج الميناء. في البحر.

ـ كيف في البحر؟ نهاجم السفن؟

شزرته بنظرة. سألته بغير انفعال:

ـ تخاف؟

صاح:

ـ أنا أخاف؟

ـ لماذا ارتبكت عندما ذكرت لك البحر؟

ـ لأن كلامك غير معقول. نحن نتعيش على أطراف الميناء.

ـ أنا لا أحب التعيّش على أطراف الميناء. شغلنا سيكون في البحر، هذا هو شرطي. إذا كنا سنلوّث أيدينا، فالأفضل أن نلوثّها بشغلة محرزة.

ـ أوضح لي الخطة!

ـ الخطة بسيطة. نهاجم أحد المواعين الراسية في البحر، قرب أي مركب أو سفينة.

ـ وإذا علم بنا صاحب المواعين. إذا علم بنا العجوز؟ ألم تسمع به؟

ـ سمعت. لذلك أريد أن أستخرج لقمتي من حلقه.

ـ ولكن هذا خطير! هذا خطير جداً! إذا اعتدينا على ماعون فكأننا اعتدينا على العجوز، ومصير من يعتدي عليه الموت. ألا تسمع بالذين يقتلون، أو يجري إغراقهم في البحر؟

ـ أسمع. ومن أجل ذلك أقدم.

ـ ـ مسألة تحدّ؟
ـ شيء من هذا القبيل.
ـ ـ هذه عملية سطو . .
ـ إذا غامرت فسأغامر لأجل شيء يحرز. أنا لن أعود لصّاً مثل حليش سأقوم بالسطو على المواعين، سآخذ حقّي بيدي. وهذا آخر الكلام.
ـ وإذا رفض حليش؟
ـ هو حرّ . .
ـ إنه لئيم. قد يلعب بذنبه.
ـ عندئذ أغرقه هو وشختورته. قل له هذا عن لساني.
ـ تبدو قاسياً أكثر من قبل.
ـ الظروف هي التي اضطرتني إلى القسوة.
ـ حتى معي؟
ـ معك لا . . أنت رفيقي.
ـ وهذه اللهجة العنيفة، المتعالية، من أين جئت بها؟
ـ وتسأل أيضاً؟ أنا غير عنيف. لا أتعالى. أنا صلب، تعلّمت الصلابة من المعارك. نسيت المعركة مع «البريفوته»؟ والمعركة في السجن؟ ثم أسألك: إذا كانت الحياة قاسية، فماذا أفعل أنا؟ أضع ذنبي بين رجلي وأهرب؟ استعطف الظروف، هذه القحبة؟
ـ ثلاث سنوات، كما تقول، وأنت تستعطفها، فماذا جرى الآن؟
ـ الذي جرى هو أنني التقيت بك ثانية. [illegible] اشتدّ ساعدي، أليس هذا ما تريد أن تقوله؟
ـ أنا أسأل لأعرف.
ـ وأنا أجيبك لتعرف.

خرج عبدوش نصف راضٍ نصف عاتب. قال لي بعد ذلك: «فكرت

أن اقطع معك. أن أتركك نهائياً بعد عشرة العمر الطويلة، بعد الخبز والملح والسجن، وكل ما كان بيننا، غير أنني فكرت: «هذا الموقف المتشدّد مقصود به حليش لا أنت يا عبدوش. أرادك أن تنقل إلى حليش ما سمعت. تعذب مفيد طويلاً. ثلاث سنوات وهو على الكفاف، في هذا الوكر القذر، والدنيا من حوله ظلام. أظلمت الدنيا في عينيه. وصل إلى حافة اليأس. ومع ذلك رفض أن يعود إلى السرقة، الريح دفعت مركبه في الاتجاه المعاكس. هو يريد معاكسة الريح. هذا عندٌ، هذا صراع مع الظروف، وإذا كان قد وافق على العمل الآن، فهو يريد أن يصوّر لنفسه أن الاغتصاب غير السرقة. هذا أخذ للحقّ بالقوة. ولكن الحق ممن؟ من عجوز الميناء؟ من الميناء نفسها؟ من فرنسا؟ من المجهول؟ ربما. وربما يريد أن يوهم نفسه أنه غيري وغير حليش، ومن هنا حرصه على أن يبدو بيننا كإنسان مختلف».

لم يقطع عبدوش معي. تفهّم ظروفي، تفهم [illegible]، أدرك أنه بمفرده سيبقى كما هو، بينما معي سيكون في وضع أحسن. تغلب في نفسه دافع أن يكون معي، على دافع هجري، فذهب إلى حليش وأبلغه ما قلت، بعض ما قلت، وأغراه بالعملية، وبأنني سأكون مسؤولاً عنها، وسيكون الغنم لنا نحن الثلاثة، والغرم عليّ وحدي.

وافق حليش. قرر وضع فلوكته تحت تصرف، وحين اجتمعنا في إحدى الخمارات ليلاً، عرض علينا، عبدوش وأنا، أن يسلحّنا. كانت خيزرانتي معي، وكان مع عبدوش «البونيه» ومع حليش مسدس، وهذا كل سلاحنا، وهو يكفي. قد آخذ المسدس عند تنفيذ العملية، ماعدا ذلك لا حاجة لي به، وسأعيده إليه. حليش نذل. لصّ صغير، وهذا المسدّس معه للتباهي. . عليّ، منذ الليلة، أن أجعله يفهم أنني اعرفه، وأنني لا أتعامل

مع شبح، أو رجل ملفع بالعتمة. قلت له، قبل أن نوغل في الشرب، ويدور رأسنا:

ـ أنت موافق على العملية يا حليش، وتضع الفلوكة تحت تصرفنا؟

تفاجأ. كان، العرص، يتشوّف علينا بفلوكته. يعتبر نفسه الرأس الأول بيننا.

قال:

ـ العملية شيء والفلوكة شيء آخر.

قلت بصبر:

ـ كيف؟

قال:

ـ فكرة العملية هي فكرتي في الأصل. منذ زمن وأنا أفكر بالسطو على أحد المواعين. وبما أن تنفيذ هذه الفكرة يحتاج إلى مساعدين، فإنني قبلت أن تساعدني أنت وعبدوش، تساعداني فقط. انتبه! لا تغلط معي. الفلوكة لي، تتحرك بأمري، والعملية أنا رأسها.

ـ ونحن ذنبها؟

ـ لا رأس ولا ذنب. تنفذان ما أشير به أنا.

سألته هادئاً:

ـ ومن أنت عدم المؤاخذة؟

ـ ألم يحدّثك عبدوش عني؟

ـ حدّثني، وسألته عنك، عرفت من انت، والامور واضحة.. أنت والفلوكة وعبدوش تتحركون وفق إشارتي. أنا صاحب العملية ومنفّذها، ولا أريد كثرة كلام في هذا الموضوع.

قلت ذلك ونهضت. اكتفيت بما شربت. أردت أن أعرف ردّة فعل حليش، لذلك تركت عبدوش معه وانسحبت. فار حليش. أرغى. أزبد،

قال كلاماً فيه تفشير، وفيه تصغير لشأني. فانبرى له عبدوش، أرغمه على الهدوء، وعلى طرح فكرة «الرأس والذنب» ونصحه أن يسلك معي سلوكاً جيداً، وكل شيء، بعد ذلك، سيكون على ما يشتهي.

حليش ركب رأسه. عندما جاءاني، في اليوم التالي، تعنتر حليش، تنفّش، صار مثل الديك الرومي، وبعد أن استمعت له حتى أفرغ كل ما في معدته من كلام يشبه قيء السكارى، زورته في عينيه. حدقت فيهما، وضعت يدي على كتفه، ضغطت، وعندئذ حاول النهوض، لكنني أرغمته على الجلوس، قلت له: «جاء دوري في الكلام، وعليك أن تسمع، وأن تضع ما تسمعه خرزة زرقاء في أذنك».

صاح في وجهي:

ـ ومن أنت، حتى تتصرّف معي بهذا الشكل؟

قلت:

ـ أنا مفيد! ويلقبونني بالوحش. هذا غلط. أنا إنسان طيّب، كيّس، رقيق، لكن ما أريده لا بد أن يصير. هذه العملية ستتمّ، معك وبدونك ستتمّ، وإذا أردت أن تعارض، أو تتكلم، أو تلعب بذيلك، ستجني على نفسك. أنت لست الرجل الذي يقف في وجهي.

ـ لكنني حليش، اسأل عني تعرف.

سألت وعرفت. أنت، يا ابن أمك، جرو صغير. حتى نباحك صغير، وأنت لا اهمية لك مطلقاً، لا في الميناء ولا خارجها. أنت لصّ، لصّ لا أكثر، تسرق ليلاً أشياء تافهة. تبيعها بواسطة غيرك، وتبصبص، بذنبك، مثل كلب، حول كل ابن ساقطة. باختصار أنت وغد، تافه، وتريد أن تتقوّى بنا، أن تضعنا في بوز «المرتين»، فإذا قُتِلْنا انتهى أمرنا، وإذا قَتَلْنا ذهبنا إلى السجن. نحن في نظر أمثالك صعاليك، وسنبقى كذلك حتى نثبت لك وللأولاد الخائبة من جماعتك أننا رجال، فهمت؟

قال حليش وقد امتعض من كلماتي وأوصافي:

ـ احترز من طول اللسان، ليس معي فقط، مع الآخرين. إنني لست وغداً، وافترضْ أنني كذلك، فمن تكون أنت؟ حين تكلمني، مرة أخرى، تجنّب الكلمات البذيئة، إنني حليش. والمرفأ يعرفني، ولست بحاجة لأن تبدأ معي، فالشغل يسير، معك ودونك.

تدخل عبدوش في الحديث محاولاً تلطيف الجو، تقدم باقتراح أن نجرّب، وأن نترك الشتائم، فإذا وافقنا العمل واصلناه، وإلا انفصلنا عن بعضنا بكل بساطة.

وافقتُ على كلام عبدوش. قلت:

ـ التجربة هي المحكّ.

قال حليش:

ـ أقبل بهذا الكلام.

قال عبدوش:

ـ قوموا إلى الخمارة إذن. سنشرب كأس اتفاقنا.

دخلنا خمارة صغيرة، قرب ميناء الزجاج. شربنا، تحدثنا، راق مزاجنا. لم أعد إلى تحقير حليش، قلت في نفسي: «مغطس اليوم يكفي». خرجنا من الخمارة بعد منتصف الليل. حليش وعبدوش ذهبا في طريق، وذهبت في طريق آخر. جعلت السجن عن يميني. انحدرت في الدرب الرملي الممتدّ في أرض ليس فيها غير شجر التين. صار المبغى عن يساري، من جهة البحر، ولما اقتربت وصلتني أصوات وأغان وضحكات فاجرة. لم أكن غريباً عن هذه الأجواء، لكنني رفضت الدخول. تابعت السير دون هدف، على مقربة من الشاطىء. كانت المنطقة موبوءة، خالية من البيوت، فليس هناك سوى السجن، يقابله المبغى، وبعد ذلك رمال، وبساتين تين،

وصخور واطئة، بمستوى الأرض، ذات نتوء، يغمرها البحر، وتنتشر منها رائحة زنخة، بسبب من أن مجارير المدينة تصبّ فيها.

مشيت ساعة أو أكثر. هدأت روحي. قرّرت العودة إلى وكري، اتجهت نحو البساتين. كان الهواء لطيفاً، بينما تنتشر، في السماء، غيوم متفرّقة، وتبرز، بين مزقها، نجوم ناعسة، وكل ما حولي مقفر، موحش، صامت، سوى هدير البحر القريب، بأمواجه التي ترتطم على الصخور، وشاطئه الذي أعرفه، وعليّ أن أعرفه أكثر، أن أدرسه كالأبجدية في كتاب القراءة الذي تعلمت فيه أيام المدرسة والضيعة.

أية أفكار تراود الإنسان حين يكون متشرداً، متسكعاً، تلفّه الظلمة، وتلتصق به الريح، ويمشي على شاطىء مهجور، تطوف به خيالات موحشة، وتمتدّ فوقه، كالبساط المنسوج من وبر الماعز، عتمة تنطوي على كل أشباح البر والبحر؟

أنا كنت الليلة متشرّداً، متسكّعاً، كنت مهجوراً على شاطىء مهجور، أمشي في الظلمة، كلصّ، كقاتل متخفّ، كهارب من شيء يحاصره، مع أنه لا شيء من ذلك يتهدّدني، فأنا مقبل على أيام مجهولة، تنطوي على كل المخاطر، وتبدو مظلمة كهذا الليل، وسأكون في وضع القاتل أو المقتول، سأكون مطارداً بإحساس غريب، ليس إحساس الخوف، ولا إحساس الشجاعة، لكنه إحساس لا أعرف كيف أصفه. إنني أغامر. أعود إلى المغامرة. ولن أعيش حراً، مطمئناً، ولن أنظر إلى النجوم، نظرة الذي يستمتع بها، كقناديل مضيئة، بعيدة، مؤنسة، وسيكون عليّ أن أكره أي فجوة تلوح بين الغيوم، ويشرق منها ضوء القمر، لأن الليل سيكون بطانة جسمي، ألتفّ به وأحاذر الأعداء والشرطة وزعران المرفأ، وكل أولئك الأوغاد الذين يكرهون أن يروا منافساً لهم، ولو كان يريد عملاً شريفاً.

جلست على صخرة قرب ميناء الزجاج. الخمارة قريبة، ولديّ ما أشرب

به، لكنني لن أفعل، يكفي ما شربت اليوم، يجب أن أفكر، حتى ولو لم أعتد التفكير، يجب أن أتخذ قراراً، قبل أن أدخل في طريق مسدود، لا عودة فيه، ولا تراجع عنه.

أنا واثق من نفسي. واثق من زندي. لي زند قوي، وقلب قوي، ورأس ضخم كرأس الثور، بل هو أشدّ صلابة. أعرف هذا الرأس، وأعرف أنني إذا ضربت به، أو نطحت حيطاً، فتحت فيه فجوة. هذا الرأس خلق للنطاح. من الخير أنه بغير قرنين، لا أحب أن يكون بقرنين. هذا يعطيني معنى سيئاً. القرنان في رأس الثور غيرهما في رأس الانسان. القرنان في رأس الثور سلاح ضد ثور آخر، ضد أي وحش. إنهما زينة الثور، سلاحه، رمز فحولته، لكنهما ليسا كذلك بالنسبة للإنسان. القرنان يليقان بالقواد، وأنا لا أصدق أن رجلاً، كامل الرجولة، يكون قوّاداً. القوّادون مخنّثون. تفو! اللعنة على جميع القوّادين في الدنيا كلها.

الليلة اتّخذت قراري. أعطيت موافقتي. ارتحت. الحمد لله أنني وافقت فاسترحت. الحيرة معذّبة، حين أتردّد وأتشرْبَك، أعلق من رأسي لا من رجلي، فخّ القلق يطبق عليّ كما يطبق على الواوي.

نهضت عن الصخرة. وقفت قبالة البحر. الظلمة مثل ثوب الحزن. لماذا يكون الحزن أسود؟ لماذا يلبس الحزين أو الحزينة السواد؟ أنا لا أحبّ السواد. أكرهه. أحبّ البياض. تتفتّح له نفسي، بينما منظر السواد، حتى في النهار، يخرج الدنيا من عيني، أصير قابلاً للزعل وسوء الخلق.

البحر، الليلة، كان أسود. السواد يمتدّ إلى بعيد، إلى ذلك الفانوس التائه في عرض البحر، ومن حولي جلد قطّ أسود، يلفّ كل شيء ويلفّني، لا أرى حتى نفسي، لا أسمع إلا هدير الموج، الهدير الأجشّ، كأنما اختبأ غول في البحر، في الماء العنيف، المتدافع.. الغول يخرج رأسه، يرسل فجأة ذلك الصوت الغاضب، صوت الكلب الذي يعوي بالمقلوب.

«لا بأس: - قلت في نفسي - أنا أعرف هذا الصوت، سمعته وأنا على مركب الريّس بكري الغطّاس. حين كانت الريح تعصف، تصفّر، تضرب الموج، فيشرئبّ ويعانقها، يصفّر معها، يغدو الصوت عزيفاً مجنوناً، نواحاً، عواء كَلْب كَلِب، ينطلق من آلاف الأشداق، دفعة واحدة».

كنّا، في هذه الحال، لا نرمي الشباك، فإذا رميناها عدنا نسحبها بسرعة، بكل ما لدينا من قوّة. نتجمع مبلّلين في بطن المركب، حول الريّس، الذي كان يقول، كأنما يعتذر: «خدعني الجوّ. ما كنت أتوقّع هذه العاصفة اللعينة، وإلا ما خرجنا إلى الصيد الليلة. تماسكوا، ارفعوا الباطر، دعونا نجوّن[1]. العاصفة شديدة، إذا سحبتِ المركبَ إلى الشاطىء ضربتْهُ على الصخور، جعلتهُ ألفَ قطعة». كنا، في هذه الحال، نصمت، نرتجف، نطلب العون والسلامة من الله، بينما المركب كجوزة هند كبيرة، فارغة، مستطيلة، خفيفة، تدور كالريشة، إلى يمين، يسار، فوق، تحت، ونحن في قاعها، على أطرافها، نتمسّك بالحبال، بالأوتاد، والأخشاب، وكل ما تحت أيدينا.

هناك، في قلب هذا الجحيم، كنا ننذر أنفسنا للتوبة. من العاصفة تعلّمت التوبة والصلاة والاستغفار وطلب الرحمة، العاصفة تعرف كذبي، تعرف كذبنا جميعاً، تعرف أننا لن نتوب، وسنعاود الكرّة، وسننزل من جديد إلى البحر، لأن رزقنا في البحر. ما أصعب أن تستخلص رزقك من البحر! قل من الجحيم، الذي ماؤه لا يحرق ولكن يخيف إلى درجة البكاء. ومع ذلك عليك أن تخاف ولا تبكي. عيب أن تبكي. الرجل لا يبكي. البحّار لا يبكي، يتلقّى كلّ بلاء العاصفة، كلّ هوجتها، كلّ هولتها، كلّ عصفها المجنون، وهو ساكت، يسلّم أمره لله، يروح ينتظر النجاة أو الموت، وقلبه يتفطّر أسى.

(١) جوّن المركب: دخل عميقاً في البحر.

«كفى!» قلت في أحد الأيام، حين شحّ الرزق: «سأترك البحر، أغادره إلى الأبد» ولكن هل غادرته»؟ لا. أنا كنت أكذب. البحر امرأة. هل تستطيعُ أن تغادر امرأة فلا تعود إليها أبداً؟ الراهب يفعل ذلك، ولكن الراهب مخصيّ، وأنا فحل. أنا أدفع عمري في سبيل امرأة، وادفعه في سبيل البحر، لذلك أنا عبد، لا يفكّني من عبودية المرأة والبحر سوى الموت، هذا العاهر الذي لا يأتي حين تريده أن يأتي، فإذا خفته جاء، كأنما، العرض، شغلته المشاكسة، وقد تعلمت باكراً أن أشاكس الموت، لذلك يهرب من وجهي، أتحدّاه فيهرب، فإذا تقابلنا، وحدّق أحدنا في الآخر، خفض رأسه وطار مع الريح، ولكم أودّ، يوماً، أن أقبض عليه في الريح.

شبعت من تأمّل البحر. انتشيت من هديره، أدرت له ظهري. أستغفر الله، هذه الكلمة لا تقال للبحر. هذه خطيئة، أن تديرُ ظهرك للبحر خطيئة، عليك أن تستودعه. استودعته. مشيت قاصداً وكري، ورياح الخريف تلطم صدري المفتوح، العاري، وأنا أبتعد عن الشاطىء المهجور، لعلمي أن ألف ابن زانية يعيش هنا، بين الصخور، وفي الكهوف، يمارس اللواط، والجنس، والقذارة، ويعطي نفسه، بحكم العادة، لحياة لعينة كحياتي الآن، أنا المشرّد، الذي عليه أن يعود إلى ثقبه، وينام كجرذ حتى الصباح، ثم يذهب لمواجهة القدر، وتقبّل ما هو مكتوب على الجبين.

حين أفقت كانت الشمس قد صارت عالية في السماء. نمت نوماً عميقاً، مريحاً، حلمت بما لا أدري من أشياء حلوة. كانت هناك، في الحلم، امرأة. أنا ليس لي في الحياة من امرأة سوى لبيبة، ولبيبة بعيدة، لذلك عليّ أن أكتفي بالحلم. المرأة غير مهمّة، في الوقت الحاضر على الأقل. المرأة قيد ولن أضع قيداً في يديّ. سأبقيهما طليقتين لأنني سأحتاج إليهما. لبست

البنطال والقميص، غسلت وجهي، نشفته بخرقة، خرجت دون قهوة، دون إفطار. دخّنت على الرّيق، مشيت على الشاطىء، ألقيت على البحر تحية الصباح، سررت لدفء الشمس، الدفء شيء لذيذ. أنا محروم من دفء الأمّ والعائلة والمرأة. لذلك أحس ببؤس أخفيهِ في أعماقي. غداً أو بعده نبدأ العمل، سأقترح على حليش أن نبدأه اليوم بالذات. حين أعتزم أمراً أريد أن أصير في قلبه من فوري. لنبدأ أيّة عملية، وعندئذ يتقرّر مصيري. أخطو الخطوات الأولى، وبعد ذلك أعتاد الطريق. أستقرُّ على حال. يصير لي عمل، كسائر الناس، ولن أكون ذنباً لأحد. أنا رأس! رأس! رأس! وسيفهم حليش، ابن أمه، هذا، سيفهمه بالتجربة، لكن ذلك يحتاج إلى وقت، وأنا غير مستعجل.

كنا قد اتّفقنا على اللقاء، قبل ظهر اليوم، في فجوة تشبه المغارة على الشاطىء، وصلت متأخراً قليلاً. كان عبدوش وحليش هناك بانتظاري. تقاسمنا أدوار العمليّة، بعد أن حددّنا السفينة والماعون الذي سنسطو عليه: حليش يجلب الفلوكة، عبدوش يجذّف، وأنا أصعد إلى الماعون فأقوم بالعمل اللازم، وحين نعود إلى الشاطىء، يكون هناك من يتسلّم البضاعة منا، بالاتفاق مع حليش الذي يعرف الذين يدفّرون[1] مثل هذه الأشياء، ويدفعون الثمن فوراً.

تواصينا بالكتمان.. بالغياب عن المقاهي، وخاصّة مقهى الميناء، وبعد ذلك تفرّقنا. ذهب كل منا في سبيله، على أن يكون اللقاء في ساعة معيّنة، وبإشارة معيّنة، عند مقهى العصافيري. كنت أقدّر مدى الخطورة في الدور الذي سأقوم به. لكنه دور ملائم لي، مادام خطيراً إلى هذا الحدّ. فلوْ كان الماعون محروساً، وسيكون محروساً على الأكثر، فإن رصاصة تكفي لتقضي

(1) المدفّر: من يبيع المسروقات.

علـيّ، وفور إطـلاق الرصـاص يفرّ حليش وعبـدوش بـالفلوكـة، ينقـذان جلديها ويتركاني لمصيري.

كنت أعرف الميناء، والحوض البحري، وعجوز المرفأ القويّ، وكـلابه التي تنهش، ورجـاله المسلّحين، المدرّبين جيّداً، والخطر الكبير، الماثل. لكنني كنت أعـرف نفسي أيضـاً، وأثق بقـوّتي، وهـذا مـا أرضى حليش، وأطمعه في استغلالي. لصّ الميناء هذا له طرائق غاية في السرّيّة، وغـاية في النذالة، وهو يعرف، مثلي، أن السفن تقف في عرض البحر، لعدم وجـود المكسر بعـد، وقبـل أن تبنى الأرصفـة. كـان يسرق أيّ شيء، مهـما يكن تافهاً، ونادراً ما يجرؤ على الاقـتراب من المواعـين، سواء كـانت راسية عـلى جوانب السفن، أم على رصيف الميناء العتيق. فهو يخاف رجال الجـمارك، والحـرّاس، وعمال المرفأ، ويـرضى بالفتـات، كي يتجنّب المخاطـرة كما في العمليّة التي اتفقنا عليها اليوم.

لم أشرب هذه الليلة، لا خوفاً من السكر، بل كي أحتفظ بكامـل وعيي وقـوّتي. وفي السـاعـة الثـالثـة، بعـد منتصف الليـل، وصلت الفلوكـة إلى الصخـرة التي أقف عليها، قـرب مقهى العصافـيري، فوثبت إليهـا، وبدأ التجـذيف خفيفاً، متـواتراً، بـاتجاه سفينـة ترسـو خـارج الحـوض، قبـالـة الكازينو، تحمل البنّ والسكر والشاي. راقبنا المواعين التي تفـرغ بضاعتهـا فيها، ورأينا ماعوناً مليئاً بـالأكياس والصنـاديق، ظلّ إلى جـانب الباخـرة، كي يستكمل حمولته في الصباح، فيأتي «اللنش»(١) ويقطره إلى الميناء.

اللصّ عـدوّ القمر، والقمـر عدوّ اللصّ، وكنت أحبّ القمـر، وضـوءه الذي لا أعرف كيف أصفه، لكنني أحسّه، أتذوّقه، أفرح به، وأستطيع أن أجلس طوال ليلة مقمرة أمام الباب، كما في القرية، أو على صخرةٍ، كما في

(١) اللنش: الزورق البخاري

اللاذقية، حيث البحر والقمر والطبيعة. وقد حذّرت حليش من شتم القمر والبحر. قلت له ونحن في الخمّارة قبل أيام:

ـ اسمع يا ابن «الأصبع الرخو» أنت خفّاش..

صاح:

ـ لا تحاول إهانتي.. أحذرك.. أنا لست خفاشاً.

ـ ولماذا تحبّ الظلمة وتكره القمـر إذن؟ هل هـذا لأنـك لصّ، لأنّـك وطواط(١)، ولأنك حشرة ليلية؟

ـ لأن القمر فضّاح.. وشغله مع العاشقين وليس مع أمثالنا.

ـ أنا لست عاشقاً ومع ذلك أحبّ القمر.

ـ حين يكون هناك قمر لا يكون هناك شغل.

ـ طزّ في الشغل!

ـ وطز في أمثالك من الخياليين!

ـ يا ابن القملة.. أنا من سيؤدّبك.. انتظر.

رفعت يـدي مازحـاً، فهرب حليش كقطّ رفسته برجلك عـلى بـطنه. ضحك عبدوش قائلاً:

ـ كفى! خلّونا في الجدّ.

الليلة هي ليلة الجدّ. كانت الظلمة حالكة. كـانت على مـزاج حليش، ولكن حليش كان يخاف حتى في الظلمة. عبـدوش الداشر كـان من صنف آخر، لا يخاف مثله، لكنه يرتزق منه، ولهـذا يقف إلى جانبـه ضمنـاً. كـان عبـدوش يحب أن يكسب قليلاً، وهـذه أوّل مغامـرة له، لـذلك مـا ينفـكّ يـطلب إلينا الصمت، ويجـذّف بمهارة، دون أن يـدع المجذافـينْ يلامسـان سـوى وجه البحر. كان، العـرص، ابن بحـر متمـرس، وضـارب سكـين

(١) طير ليلي بلا ريش لا يظهر إلا في الظلام، وهو الخفّاش نفسه.

و «بونيه» لا يخطىء، وقد انتهرتُه، فأغلقَ فمه، وهكذا فرضت عليهما الطاعة، فأطاعا مُرغمينْ.

درنا حول الباخرة نستكشف. كانت معنا شبكة وعدّة صيد. إذا ضبطنا أحدٌ تظاهرنا بأننا نصطاد، لكن كل من في الميناء يعرف أن حليش لصّ، وقد تنطلي هذه الحيلة لأننا معه، ولأننا غير معروفين بعد، ومهما يكن فقد كنت، كعادتي، غير مبال، وقادراً على الابتسام، وحتى على القهقهة، فما من شيء في هذه الدنيا قادر أن يبثّ الرعب في قلبي. إنني في رحلة قنص، أنا صيّاد جميع الحيوانات البشرية، إنني لا أسرق، بل أغتصب، وأعلم أنني أغتصب ما هو حقّي، هذا الذي حرمني المجتمع منه كما قال ابراهيم الشنكل، وهذه الليلة لي، إنها ليلتي، وسأفرض، بقوة شجاعتي، هيْبتي على النغليْن اللذين معي، وأملأ هذه الفلوكة بالبضائع، حتى لوْ دفعت ثمناً لذلك حياتي.

عاينت المنطقة جيداً: أنوار الباخرة ساطعة، لماذا، بحقّ الله، يُبقون أضواء الباخرة ساطعة على هذا النحو؟ نحن لا نستطيع دخول منطقة الضوء، والماعونة ترسو على الجانب الأيسر من الباخرة، وفيها حارس لا شكّ، وستكون مجازفة، كما قال حليش، أن نقترب منها دون احتراس.

قلت له وهو يكرّر كلمة «الاحتراس»:

ـ أيّ احتراس هذا؟

ـ عدم المغامرة.

ـ لماذا خرجنا إذن؟

ـ خروجنا كان خطأً..

ـ وأين الخطأ؟

ـ أن نرمي بأنفسنا إلى التهلكة.

ـ تفو. أنت امرأة في ثياب رجل.

ـ وأنت؟

ـ أنا لن أعود قبل أن أفوز بما جئنا لأجله.

صاح:

ـ ولكن كيف!؟

ـ هذه شغلتي.. من يخالفني أُلقي به في البحر..

ـ ولكنني أنا المسؤول وأنا صاحب الفلوكة.

ـ سأدخلك في فجوة أمك ثانية قبل أن تفتح فمك عن المسؤولية والفلوكة.

ـ سفيه!

ـ وأنت؟ من أنت؟ افتح فمك ترَ. أنا هو المسؤول، وأنا من يأمر، وعليك الطاعة، وعلى نعلي شختورتك كلها.

قال بصوت أقرب إلى البكاء:

ـ لكنني عدلت عن فكرتي.

فتحت يديّ على شكل كمّاشة، أمسكت برقبته وضغطت عليها. راح يتخبّط. أحسّ بالاختناق، رفعته إلى أعلى، حدقت في عينيه الجاحظتين، ثم سألته:

ـ والآن؟

لم يقوَ على الجواب. احتبس لسانه في حلقه. استسلم بنظرة استعطاف. قال عبدوش الداشر:

ـ خنقته. دعه!

ـ سأخنقه وأخنقك معه.. أنا هو المسؤول.. فهمت؟

لم يردّ عبدوش. بلع لسانه، ألقيت حليش في قاع الشختورة، حيث راح يتلمس آثار أصابعي على رقبته، ولم يلبث أن بكى. ابن العاهرة بكى. صّ القذر بكى، تركته يبكي. تركت عبدوش الداشر يرى دموعه

ويتّعظ، فقد قررّت، منذ ليلة أمس، أن أشارك في العمليّة، وحين أقرّر فما من قوة تثنيني، لكنني قررت أن أكون المسؤول، وسأكونه، وبهذه الوحشية سأعامل من يشتغل معي، ومن يعجبه أهلاً وسهلاً، وإلا إلى الجحيم، إلى الجحيم بكل أولاد الكلبة.

كنت أصرخ بهذه الكلمات دون صوت. كان صراخي داخلي. لقد اهتجت. أهاجني حليش القذر، أنا أتحمّل كل شيء إلا القذارة، إلا الجبن، إلا النذالة، ولن أعود إلى الشاطىء قبل إتمام العملية، ولو أردوني قتيلاً. على حليش وعبدوش أن يعرفا ذلك، أن يخضعا، فأنا لا العب، ولا أحبّ اللعب في وقت الجدّ، في وقت الخطر.

آه كم اشتهيت السيكارة في هذه اللحظة. كم وددت أن أجلس على حافة الفلوكة وأدخّن. الدخان وحده، حين يمتلىء به صدري، وأنفثه من فتحتي منخاري، وأتلذّذ به، يشفي غليلي ويعيد إليّ هدوئي، لكن إشعال السيكارة، في مثل هذه الظلمة، ومثل هذا الموقف، تهوّر مرفوض. إذن عليّ بقرض شعرات شاربي. قرضتها بأسناني التي من عظم يشبه الحديد. كان عليّ التنفّس عميقاً، والدوران حول الباخرة، في منطقة الظلّ، قبل أن أقدم على القيام بما اعتزمت القيام به.

طلبت من عبدوش أن يوجّه الفلوكة باتجاه الماعونة. أطاع بغير نقاش، ثم وجّهته نحو جانبها الأيمن، الذي يحجب الأضواء عنّا، ففعل. ولما صرنا لصق الماعونة وقفت وأمسكت بحافتها الخشبية، ثم وثبت بجسمي إلى أعلى، فصرت داخلها. تريّثت وقد أرهفت السمع، فلم يكن من صوت سوى ارتطام الموج على جانب الماعونة. كان يرتطم بانتظام، بإيقاع موزون، وكان البحر من حولنا بنفسجياً ساكناً، يترنّم بأغنيته الدائمة، الحلوة، وقد نام الموج، ونامت النوارس، ونامت المدينة، وبحارة السفينة، ولم تبق سوى الأضواء البعيدة، في الشوارع والقلعة وحوض المرفأ، وسوى

النجوم الملتمعة كعيون القطط في الظلمة، قابعة فوق، في القبة العالية، وليس سوى رائحة البحر وقطران الماعونة، والأكياس الخيشية من حولي، وشيء ما يهيّج الرجولة، حتى تمنيت لو كانت معي امرأة، بعيون خضر، وعنق أبيض، وفستان مخمل، وعلى فمها ابتسامة مزهرة، مسكرة، إذن لعرّيتها، قطعة قطعة، وقبّلتها، وخاصة سرّتها، ومسحت بشفتي الغليظتين كلّ جسدها الأبيض، العاري، ودفنت رأسي بين نهديها، وركبتها فوق كيس من السكّر، ومصصت ريقها الأطيب من السكّر.

الآن أنا على ظهر الماعون، لطيت وراء الأكياس ورحت أراقب. كان عليّ أن أفكر في الخطر من حولي، لكن فكري شرد مني، راح وراء المرأة، وفي أيّ وقت؟ هل أنا مجنون؟ لماذا خُلقت على غير ما خلق عليه الناس؟ في صدري عاطفة رقيقة، وفي قبضتي مطرقة من رصاص. إنني لست، في أعماقي، شريراً، ولكن عليّ، كي أعيش، أن أسلك طريق الشرّ، ولست، في مُهجتي إلا طفلاً، فلماذا جعلت من قامتي شجرة بلّوط، تعافها حتى أوراقها في الشتاء؟ أنا لا أرغب في الجنة، وأعرف أنني لن أدخلها، ولكن لماذا قلبي قلب ملاك في حين، وقلب شيطان في حين آخر؟ لن أتوب. أقول لك لن أتوب. عاقبني يا ربي إذن، لكنْ عاقب الجسد لا الروح، فروحي هي روح ابن تلك القرية التي فيها أمّ تنتظر، وسأعود إليها يوماً، نعم سأعود إليها، لكن من يدري كيف أعود؟ أنت، يا ربي! تعرف، وهذا شغلك، وأنا لا أعترض.

مضت دقائق وأنا خانس. الوحش نفسه، لو كان في مثل موقفي، لخاف، لتأثر برهبة الموقف. أيّ إنسان غيري كان يحسب حساب الموت والسجن والتعذيب، أما أنا فقد نسيت كلّ ذلك، أو لم يخطر على بالي شيء من ذلك، سرقتني خواطري التي أثارها الليل والبحر والريح الرهوة، بينما حليش وعبدوش ينتظران على ناره «انتظرا يا أولاد الأرنب، ارتجفا مثله،

تلاوطا. إنني في عالم آخر، عالم يليق بي وحدي، أنا مفيد الوحش، الذي يترصّده الموت، وهو يتأمّل النجوم، ويسترخي قبل أن يبدأ العمل، قبل أن يزيح من عقله الإنسان جانباً، ويعود وحشاً، في دنيا لا تطيب إلا للوحوش».

كان حارس الماعونة ينام. بماذا يحلم هذا المسكين؟ بزوجته؟ بأولاده؟ بطفولته؟ ليحلم على هواه. إنه مطمئنّ. هذه هي الميناء، وهذه الميناء تحت رحمة ذئب عجوز، وهذا العجوز بطّاش إلى درجة يخافه معها حتى الجسور، إذن فلا عجب إذا اطمأن هو، وأزلامه، وحراسه، وعماله، وكل من يدخل الميناء ويخرج منها. لن يفكر أحد منهم أن هناك من يتجرّأ على تعكير الجوّ، وإلقاء حجر في البحيرة الساكنة. والآن، إذا ما قاوم هذا الحارس وقتلته، ستقوم غداً قيامة عجوز الميناء، وسيثأر، لكنه أبداً لن يفطن إلى أنّ نذلاً صغيراً مثل حليش يقدم على فعلة كهذه.

زحفت باتجاه الحارس النائم. إنه ليس أكثر من حمّال فقير، فرضوا عليه أن ينام، لكي يقال إن البضاعة محروسة. ولقد عزّ عليّ، وأنا أزحف نحوه، أن أقتله. عزّ عليّ لأنه فقير، ولأنه جار البحر، وأنا لا أقتل الفقراء ولا جيران البحر. الموجة التي ترتطم على جسم الماعونة، كانت معزوفة رقيقة لامست قلبي، عادت به إلى طفولته، إلى براءته، إلى ضميره الذي لم يتلوّث كما تلوّثت اليدان. هناك، في الصدر، يعيش بحر آخر، أزرق، جميل، فاتن، يغسل القلب، ويجعله رقيقاً، حتى لو كان صاحبه قاتلاً. إنني قادر على القتل. من لا يريد أن يقتل عليه أن يبتعد عن طريقي، على هذا الحارس أن يظل نائماً، أو يتظاهر أنه نائم، وبذلك يسلم. لكنه لو قاوم، فهل أستطيع قتله؟ هل أقتله في مثل هذا الجوّ الرائع، بين السماء ذات النجوم، والأمواج ذات الإيقاع؟ «لا ـ قلت في نفسي ـ لن أقتله، كرامة للبحر لن أقتله، وكرامة للنجوم لن أقتله، وكرامة للنسمات العذبة لن

أقتله، أنا وحش، أفترس الذئب، وها هو البحر يفترسني، البحر يلجم الشرّ في نفسي، فتأمّلوا هذا الجحش، هذا الأهبل، هذا المغتصب الذي هو أنا. لا يرجع ولو واجه الموت، ولا يخشى ولو قامت الميناء كلها ضده، وهو بلّوطة في ضخامته، وخشبة في عواطفه، ويهيم يأكل حتى لحم الإنسان، ثم يضعف، بسبب من هذا البحر اللعين، فيصير عاجزاً عن ارتكاب جريمة، إذا تردّد حيالها، قد يكون ضحيّتها، وكل ذلك لأن الموجة، في إيقاعها عند هذا السحر، تقول له، بلغتها الخاصة: «لا تقتل! لا تقتل!»

«حسناً! لن أفعل. لن أقتل. البحر، هذا الحصان الأزرق، لا يريدني أن أفعل، ولن أفعل. وغداً أو بعده، سيكافئني البحر، وحتى إذا غدر بي، فسأسامحه. محال أن أزعل من البحر، ومحال أن أقتل وأنا في حضنه. الرجل، أمام عشيقته، يقتل رجلاً آخر، يقتله لأجلها، أو لأجل إثبات رجولته أمامها، أو كيْ يخيفها، لكن أمام البحر لا يبقى الرجل رجلاً، البحر رجل الرجال، وأمامه فقط أحني رأسي، أو أركع على ركبتيّ وأصلي».

تابعت زحفي بحذر، ولما صرت فوق الحارس، فتحت كمّاشة يدي، وأمسكت به من رقبته. أفاق المسكين مذعوراً، فتح عينيه وبحلق بي، وضعت إصبعي على فمي، أدعوه إلى الصمت، وعدم المقاومة، لكنه قاوم. هو أيضاً ابن بحر، وابن ميناء، ورجل من رجال العجوز، فما كان مني إلا أن أهويت بقبضتي على رأسه، بالقوة التي تجعله يفقد الوعي ريثما أتدبّر أمري معه. كان يلفّ رأسه بشملة، فنزعتها وحشوت بها فمه، وتناولت حبلاً، أو طرف حبل، وربطت يديه، وقلت له في سرّي: «ابق الآن ساكناً. أنا لن أقتلك، أنا في هذا الجوّ لا أستطيع القتل. استفد من رقّتي الملعونة، انجُ بنفسك ودعني آخذ ما أريد أخذه، فلن تخسر شيئاً».

نهضت وعدت إلى حافة الماعونة. أشرت إلى حليش وعبدوش أن

يستعدّا، رفعت بين ذراعي كيساً لا أعرف ما في داخله. لم يكن الكيس خفيفاً، ومن ملامستي حزرت أنه كيس بُنّ، وكان هذا جيّداً. وضعت الكيس على حافة الماعونة، وأمسكت به من قرنيه، فتدلّى إلى أسفل، حيث التقطه حليش وعبدوش وهما يشيران إليّ أن أستعجل. لم يعرفا ما جرى، وقد ضاقا ذرعاً ببطئي، لكنني كنت كما يروق لي أن أكون، هادئاً، بارد الأعصاب، طويل البال، أنتقي الأشياء على كيفي، كأنني أنا صاحب البضاعة. ولما امتلأت الفلوكة، بأكياس البنّ والسكّر وصناديق الشاي، هبطت إليها، ورحنا نجذف عائدين إلى الشاطىء، في النقطة المحددة بين الصخور، إلى الشمال من مقهى العصافيري، وقمنا، عند وصولنا، بإفراغ الحمل، وتسليمه إلى ثلاثة رجال، لم أميّز وجوههم في الظلمة، لكن حليش كان يعرفهم، ويتعامل معهم، وقد أراد، كعادته، أن يتسلّم المال، أو دفعة على الحساب، فنعرته في صدره، وتسلّمت المال، ثم تسلّقت الصخور. اتفقنا على اللقاء عندي. مضيت إلى وكري، كأنما كنت في نزهة بحرية، وأنا أعود رائق المزاج، سعيداً، خليّاً كسائر عباد الله.

بعد الظهر جاءا إليّ، كنت أغطّ في النوم فأيقظاني، لم يكن في وكري ما يشرب أو يؤكل، لذلك أوفدت عبدوش لشراء العرق والكباب والدخان، ولما شربنا، وأكلنا، ودخنّا، قال حليش متلهفاً:

- أين المال؟
- تحت الوسادة.
- هاته.
- لماذا؟
- لكي أعطي كلاً منّا حصّته.
- يعني نتقاسم!؟
- المال لي، ولكل منكما حصّته.

ضحكت واستلقيت على فراشي. هل جُنّ حليش أم أنه يستغفلني؟ إنه يستعجل الحصول على المال، كأنما هو صاحبه. هذه السمكة الغريبة، الحقيرة، نسيتْ أنها تتعامل مع حوت. أراهن أنه بال في سرواله ليلة أمس. وهو يريد المال كي يأخذه ويختفي. هذا سلوك اللصّ، ولن يتبدّل. يسرق أيّ شيء تطاله يده ويتوارى، وبذلك يلفت النظر إليه. يقع في الحفرة كالأعمى الذي ضاعت عصاه.. إن له عصابته من الفتيان، ومن الذين يؤجّرون أقفيتهم، وعليه أن يعطيهم شيئاً ما. هذا سيصير، سأعطيه حصّة ما، حصة مرضية، على شرط أن أكون أنا من يعطي وهو من يأخذ. وقع ابن الخائبة في قبضتي، صار تحت رحمتي، ولن تفيده في شيء شطارته. أعرف أنه قد يَشي بي، أو يهاجمني مع غلمانه، أو يدبّر لي مقلباً، لكن من دخل الميناء من الباب الواسع، لا يخيفه الباب الضيق، هذه عمليتي الأولى، ليلتي الأولى في الشغل، والشغل كثير، فلماذا العجلة يا حليش؟

سألته:
- من هم الذين تسلّموا البضاعة؟
- وما شأنك معهم؟
- أريد زيارتهم.. التعرّف إليهم، فهل هذا حرام؟
- لم أقل إنه حرام، ولكنهم لا يريدون ذلك، أنا الواسطة بيننا وبينهم.
- لماذا؟
- كي لا ينكشف السر.
- أنا من يكشف السر؟
- لا، ولكن التعامل معهم يتمّ بواسطتي.
- انتهت وساطتك.
- أنت تمزح.

ـ وإذا كنت جاداً؟

ـ لن تلعب هذه اللعبة مع حليش. أنت لا تعرفه جيّداً، حدِّثه عني يا عبدوش.

قال عبدوش متثعلباً:

ـ سيعرفك على حقيقتك مع الأيام. اطمئنّ، سيكون كما تريد.

رفعت رجلي ورفست عبدوش في صدره. تدحرج ونهض. كان، كما عرفته، جريئاً، يده والسكين، غير أنني رفعت الخيزرانة وتأمّلتها بأكثر ما يكون من البرودة. مضى زمن الفرن في بانياس، وزمن الولدنات والأشياء الصغيرة. إننا، الآن، لا نلعب، لا نسرق، نحن نغتصب، نضع يدنا في فم الذئب، نسطو على المواعين، وسنحاسب على أفعالنا، عندئذ لن تنفع عبدوش السّكين أو «البونية»، ما ينفع هو قوّة القلب، دخول وكر الذئب، ـوت دون أن يرفّ الجفن، وهذا الموت آتٍ. لست غافلاً عنه، أعرف ـسيري: المشنقة بانتظاري! أو الرصاصة بانتظاري! سيّان، فما دام الموت هو ـت، على أية صورة جاء، فإن لي حقاً في الحياة، وسأنال هذا الحق على ـ يقتي، وسيعرف عجوز الميناء، أيّ حوت دخل مياهه، وستهرب كل ـسماكه» مذعورة أمامي. إنني في وارد التحدّي، أما حليش ففي وارد ـلخنوع، وفي أفضل الأحوال، سيقبل نعل العجوز إذا انكشف، أو لاحت أوّل فرصة أمامه لتقبيل هذا النعل.

قلت لعبدوش بصوت حازم، كي يسمع حليش ويفهم جيداً ما أقول:

ـ عليك، بعد اليوم، أن تتعامل معي بشكل آخر يا عبدوش. أنا من يُطاع لا من يطيع. لا تتهَوّر عليّ بالسكين أو «البونية» فقد جرّبتها معي، وجرب «البريفوته». أحزمتهم ومسدّساتهم، وكانت النتيجة بعض الجروح وعامين من السجن. حدّث حليش عني، قلْ له من أكون، قل له إنني مفيد الوحش، قاطع ذَنَب الحمار حين كنت ولداً، فكيف الحال وقد صرت

رحلا، ودحلت السجون، وفمـ هـذه الليله بهـ، "العمـ..ـه؟ لنتفاهم إذن! هذا أفضل، وسأعرف، ـطريقتي، الدي تسلّمو ‏ـصاعة، وسأرغمهم على الدفع، وأمرغ أنوفهم في الوحل إذا رفضوا ‏ هـ. لنشرب ما تبقى في الزجاجات، وسأعطي كل واحد حصته، وعلينا، ـعد قليل، أن نكون في مقهى الميناء، كيلا يلفت غيابنا الأنظار

لم يقـل حليش شيئاً، وجـاراه عبـدوش في الصمت كـانت كلماتي واضحة، حاسمة، صادرة عن ثقة لا تُحدّ بالنفس. حى أن عبدوش، وهو أكبر مني سناً، عجب من لهجة الوثوق والسيطرة التي تكلمت بها، وخضع لها. طبعاً لم أقـل لهما ما جرى معي فـوق الماعـونه. فذلك شيء يخصّني وحدي، وقد تعلّمت من تجارب الحياة والسجن. أ... حفظ لساني، إضافة إلى أن شيئاً من ذلك كان في طبعي

يجب أن يعرفا ما أريد أن يعرفا فقط قمـ ـعمليه سيـطة، سهلة، لن ينتبه إليها أحـد. حكاية حارس المـاعون ستظل سري، ولن أبـوح بهـذا السرّ، لأنني لا آمن أن يفشيه حليش، إذا هدّده العجور بمجرد تهـديد. كـل ما يجب أن يعرفه، هذا النذل، أننا حصلنا على ـعض الأشيـاء، أما ضرب الحارس وتكميمه فهو من عمل غيرنا هذا قراري السكـوت التامّ. أخـذ مـا أُعطي. العمـل بما أقـول. تفهيم عبدوش وحليش أنني قـادر أن أحوّل كلامي إلى عمل، وفي كل وقت، وتركهما يخمّنان مصد فوتي، ويحاران في انقلابي، خلال يـومين، من اللين إلى الشـدّة، مـ مسـ د خامـل إلى إنسان بطّاش، له الكلمـة الأولى التي لا تردّ، وليـذهـ بهما الـظنّ حيث يذهب، حتى لو خُيّل إليهما أنني محميّ من جهة ما، أو أنني ... لم عجوز الميناء، أو أتعاون مع أعدائه، أو من ذوي الصلة برجال الأمـ . الجمارك

الأمر، على هدا النحو، أفضل أن نكون حصـ ـمى أن تكون مُبهماً. كلما أحاط المرء نفسه بالغموض اكتسب الهيبه .ـوف . لي قـريبي إبراهيم

الشنكل، في أول حياتي، عندما كنت غرّاً، وأعمل في الفرن مع عبدوش في بانياس: «لا تكن ورقة مفتوحة!». لم أفهم. عن أية ورقة يتحدّث إبراهيم؟ سألته فأجاب: «الورقة هي القلب، لا تفتح قلبك إلا لمن تثق به، وباحتراز شديد. احتفظ دائماً بأفكارك التي لا فائدة للناس فيها. صُن الأشياء التي قد تندم لأنك كشفت الستر عنها». وقد تذكرت، بعد ذلك، هذه الأقوال كثيراً، وأفادني تذكري لها كثيراً، وسيكون عليّ بعد اليوم، وأنا في الميناء، في غابة الذئاب، أن أتذكّرها جيداً أيضاً، أن أعلّقها حلقاً في أذني، وألبسها خاتماً في إصبعي.

دفعت جزءاً من المبلغ الذي قبضناه إلى حليش وعبدوش. دفعت بسخاء وبأكثر مما تبقّى لي. كنت كريماً بالفطرة، والآن عليّ أن أكون كريماً بالفعل. لا تمتلك قلوب الناس إلا بالمعروف، ولا تخضع من حولك إلا بالأريحيّة والشجاعة. ومهما كان حليش نذلاً فإن فيه شيئاً ما ينفع. عليّ أن أستغلّ حتى نذالته، ولكي يكون كلباً يعوي معي وليس عليّ، لا بد من إلقاء عظمة له. أما عبدوش فهو شيء آخر. ليس نذلاً، ولا جباناً، لكنه قليل الحيلة، يحتاج إلى رأس ليكون هو ذنباً له، وهذا الرأس هو أنا، أو يجب أن يكون أنا، وليس من سبيل إلى الرياسة سوى بالكرم والجسارة.

تواعدنا على اللقاء عصراً في مقهى الميناء، خبّأت حصتي من المال في مكان أمين. بقيت في ثيابي ذاتها، وعلى هيئتي، هيئة المتشرّد ذاتها، ولم أحمل سوى مبلغ قليل، وكان ظهور حليش معي في المقهى ضرورياً، فابن الضفدع هذا لا يصلح سوى للنقيق، ولن يفكر أحد بأنه شارك في عملية كالتي قمنا بها، وإذا ما ظهر معي في الميناء، فسيحسبونني من جماعته، من لصوص الميناء الصغار الذين يخافون من ظلّهم. هكذا نبعد الشبهة عن أنفسنا. وزيادة في التمويه، خفّفتُ من عنجهيّتي، فلم أدخل المقهى مزهوّاً. دخلته بسيطاً، لاجئاً تقريباً، واستأذنت في تناول كرسيّ من حول

إحدى الطاولات، ولما جاء حليش وعبدوش طلبنا ورقاً ولعبنا الباصرة.

طبعاً لم تهبط الحكمة عليّ بين يوم وآخر. لم أبدّل جلدي بسهولة، غير أن تجاربي السابقة نفعتني. سيأتي اليوم الذي أظهر فيه على حقيقتي، أنا واثق من ذلك، أمّا في الوقت الحاضر فالاحتراس واجب. أجلسُ متواضعاً. لا أرفع صوتي عالياً. ألعب الباصرة وأراقب. لا أدفع بقشيشاً، بل أترك حليش يدفع عني، وأجهد لكي أبدو واحداً من زمله، فأضع، على هذا النحو، قدمي شيئاً فشيئاً في المرفأ.

لعبنا دوراً أول فخسرت. كان أحد معارف حليش قد جلس قربنا يتسلّى، فلما انتهى الدور طلب أن يشاركنا اللعب، وأن يكون شريك حليش، بينما يكون عبدوش شريكي. وافقت وأنا أبتسم. لا أستطيع إلا أن أبتسم، وعندئذ ترتفع ذقني المشقولة إلى أعلى. كنت خالياً حقاً، وانسجمت في هذه اللعبة التي تعلّمتها من عبدوش ولا أجيد غيرها. لم أقامر، لم أغرم بالمقامرة. ما عرفت الحب الذي يقولون إنه يجعل صاحبه يبكي. أحببت لبيبة في بانياس، بعد المعركة مع «البريفوتة» غير أن حبي بقي في قلبي، ولم أبح به لأحد، لم أتلوّ لم أسهر، لم أنتظر تحت نافذة الحبيبة أو بلكونها.

وحين لحقت بي لبيبة إلى اللاذقية تفانت في حبي. كنت في السجن، وكانت هي خارجه، ولكن القضبان لم تمنع أن نرى بعضنا، وأن نفهم بعضنا أكثر. أنا واثق من حبّها وأبادلها حباً بحبّ، وإذا كنت قد فارقتها فهذا بسبب الظروف. الآن ظروفي تغيّرت، وستتغير مع الأيام، وأصبح عندي بعض المال، وسأزورها وأعطيها شيئاً منه. لا أعلم أين تسكن، لكنني أعرف أنها كانت تعمل في الريجي، وحين أطمئن سأذهب وأسأل عنها. سأفتش عنها وأفتح لها بيتاً لائقاً.

انتهى الدور الثاني من اللعب. خسرت أنا وعبدوش. ما كنت أدقّق

كثيراً في الورق ولم يهبني الله القدرة على الحساب، ولهذا ألعب بشكل عبيط، وأعطي الباصرة تلو الباصرة، فكانوا يضحكون من غبائي، وأضحك معهم، فالمهم عندي أن أتسلّى، وعندما توقّفنا عن اللعب، ودفع عبدوش هذه المرة ثمن المشروب، فتح الشابّ الذي لعب معنا فمه كالغراب، فسقطت الجبنة دون أن ننتظر. قال الزلقوط، وهذا اسمه، أو لقبه، لا أعرف: «الميناء في حالة غليان، والعجوز لا يقرّ له قرار، وقد أقسم أن يخرب بيت الذي فعلها معه ليلة أمس».

سأل حليش بحشرية ولهفة:

ـ ماذا فعلوا معه؟

ـ لقد سرقوا البضاعة من أحد المواعين.

أضاف بعد وقفة:

ـ سرقة البضاعة، على ضخامتها، لا تعني شيئاً بالنسبة للعجوز، ولكن أن تجري العملية في بحر المرفأ، وأن يُضرب الحارس ويُكمّم وتقيَّد يداه، فهذا تحدّ مباشر للعجوز.. هذا تحرّش به، جزاؤه الموت.

قال حليش مراوغاً:

ـ لا بد أن الفاعل ابن ابيه، وإلاّ ما تجرّأ.

ـ ليس ابن أبيه ـ صاح الزلقوط ـ ابن أمّه، وأمه زانية.

قال عبدوش:

ـ هذه فعلة رجل متهوّر أو شجاع إلى حدّ الجنون.

ـ لا، هذه فعلة جماعة الشيخ ضاهر.

كانت العداوة، بين رجال الشيخ ضاهر ورجال الميناء معروفة، وقد اشتدّت في الآونة الأخيرة، وكان هذا من حظّنا، وكان الزلقوط ثرثاراً، فتناولتُ الورق وتظاهرت بالتفرّج على صوره، وأرهفت، ككلب الصيد،

اذنيّ، أسمع ولا أتكلم. لا أعلّق على الحديث، أراقب حليش وعبدوش، والكزهما بقدمي، أو أغمز لهما بعيني، إذا اشتطّا، أو أخطآ[١] في الأسئلة، بينما راح الزلقوط يثرثر، قائلاً إن العجوز يعرف كل من في الميناء كما يعرف أصابعه. هناك الغلمان، وهؤلاء يلاط بهم، وهذا مصدر كسبهم، وهناك القوّادون، وهؤلاء من الخساسة بحيث تركل أحدهم على قفاه فيقبّل يدك، وهناك العمّال، وهم جماعات، ولكل جماعة معلم، أيّ مسؤول، وهناك اللصوص، مثل حليش وجماعته.

قاطع حليش متمسكناً:

ـ بالنسبة لي، تُبت إلى الله، توبتي نصوح والحمد لله، فأنا لم أعد أسرق، والعجوز راضٍ عني، فأنا من خدمه.

قال زلقوط مستهيناً بحليش، ومنتفشاً أمامي:

ـ أنت، يا حليش، لست أكثر من إصبع في قدمه.

قال حليش:

ـ وماذا يهمّ؟ هذا يشرفني!

أضاف:

ـ نحن في الميناء، كلنا مثل أصابع العجوز.. بعضنا مثل أصابع يده، وبعضنا مثل أصابع قدمه، وأنا من الصنف الأول.

ـ خسئت! أنت من أصابع قدمه..

انكمش حليش. تابع زلقوط:

ـ ولست من أصابع قدمه، بل أنت قدمه، أنت نعله، وأستطيع الآن أن أجرّك إليه ليضع صرمايته»[١] على رقبتك.

---

(١) الخف أو الشحاطة.

تساءلتُ في سرّي: «هل هذا تحرّش أم تصفية حساب؟» قررتُ ألّا أتدخل. دست على قدم حليش محذراً، فقال:

- أنا لم أُسيء إليك في شيء يا زلقوط، فلماذا هذا الكلام؟

قال زلقوط:

- بل أسأت.. وانت تعرف.. تنتفع ولا تنفع غيرك.. تسرق وتأكل الدرّاقة وقشرتها.. أين حصّتي؟
- أيّة حصة هذه؟
- حصتي الأسبوعية.
- أنا لم أشتغل منذ شهر.. قلت لك إنني تبت، والعجوز يعرف ذلك.
- أنت كاذب.. تحدث عن توبتك إلى سواي.. قل هذا الكلام لغيري.. أنت تسرق، وأريد حصتي الآن، في هذه اللحظة.

غمزت حليش أن يدفع. زلقوط قادر أن يصنع لنا فضيحة ليس هذا وقتها. ومع أنني لن أتدخل في العراك لو حصل، فإن هذا العراك يجب ألّا يحصل، وعلى حليش أن يدفع كما اعتاد، فوراء الزلقوط عصابة.. ناب الذئب هذا يعرف أن حليش ليس أكثر من خروف أمامه، وسيأتي الوقت الذي أقلع هذا الباب بضربة على الفك، غير أن المسايرة، في بعض الظروف، حلوة وضرورية.

دفع حليش من حصّته في عملية الليلة الفائتة. رفض الزلقوط صائحاً:

- ما هذا المبلغ التافه!؟
- إنه نصف ما أملك.
- أنا لا يهمني كم تملك بل كم تدفع.
- دفعت ما أستطيع، رغم أنني لم أحصل على «بارة»[1] واحدة منذ شهر.

(١) قطعة نقد صغيرة. الكلمة تركية.

- هذا لا يهمّني أيضاً.. أريد كل ما معك.

نظر إليّ حليش مستنجداً. تحفّز عبدوش للمعركة. تمادى الزلقوط كثيراً. لو نظر هذا السافل إليّ نظرة واحدة لأدركَ من الشرّ في عيني أنني قادر أن أهرسه بضربة من قبضتي على رأسه. فكرت بذلك وأنا أتابع الحديث متظاهراً أنه لا يعنيني. تمنّيت أن أخبط الورق في وجه الزلقوط، وأفتتح أول معركة لي في المرفأ. لو كنت في مكان غير هذا المكان، ووقت غير هذا الوقت، لكان هذا ما أفعله، أما الآن فليس أمامي سوى الصمت. تابعت صمتي، ومن طرف خفيّ غمزت حليش أن يدفع. لكل شيء حسابه، ندفع الآن ويُدفع لنا غداً. المهمّ ألا تنشب معركة، ولا يقبض على حليش، ويُستجوب حول ما فعله ليلة أمس، ومكان تواجده. لقد تبدّلت سحنتي. غابت الابتسامة. الموقف جدّ، فهذا الزلقوط مخلب قطّ، ولن أدعه يخرمشني قبل الأوان. فهمني عبدوش، فهمني حليش قليلاً، توجه الزلقوط إليّ بالكلام قائلاً:

- أنت ما اسمك؟ لماذا لا تقول شيئاً؟
- أنا خارج هذه اللعبة.
- كيف؟ ألستَ من جماعة حليش، إنصحه إذن أن يدفع.

قال حليش:

- دفعت، لكنك طمّاع، تريد كل ما معي، وبعد ذلك؟ فكّر أنت، كيف أعيش؟
- هذا لا يعنيني.. اقبض منك لأدفع لسواك.. هناك من هم ورائي.. وأنت تعرف.
- سأدفع نصف ما تبقى معي، وهذه كلمتي الأخيرة.
- هات!

دفع حليش نصف ما تبقّى معه، فسأله الزلقوط:

ـ ألا تخبىء هناك، في استك شيئاً؟

ابتسمت رغماً عني. هذا الزلقوط ظريف. إنه قطّ، وحليش فأر، وهو يلعب به، يشتمه بلامبالاة، كاشفاً عن ناحية كنت أعرفها وأتجاهلها. أنا أعرف أن في المرفأ عصابات، أسماكاً كبيرة تأكل الأسماك الصغيرة، وهذه تأكل بدورها من هو أصغر منها. حليش يسرق ليدفع إلى جماعته، والزلقوط يأخذ إتاوات من اللصوص الصغار، ليدفع إلى اللصوص الكبار، واللصوص الكبار لا يسرقون فقط، بل يقتلون أيضاً، وبين هؤلاء القتلة عداوات وثارات، والتوازن الذي يحفظ البناء كله بيد العجوز، فهو القبّة، وهو العقد، وهو المرجع إذا تضاربت المصالح واحتدم الخصام. كلمة واحدة منه تميت، وكلمة أخرى تنقذ، لكن هذه الكلمة لا تقال إلا عندما تصل الأمور إلى مرحلة الانفجار.

أنا الآن من جماعة حليش ولو ظاهرياً، وعليّ أن أنتظر كي أرتقي إلى جماعة الزلقوط، وأنتظر من جديد كي أتجاوز الزلقوط إلى من هو أعلى منه، وأنتظر هذا الأعلى كي أصل إلى من هو فوقه، وقد تمضي أعوام قبل أن أصل إلى العجوز، وأصبح من دائرة المعروفين منه، ثم المُقرّبين إليه. الحلقات هنا سرّية، معروفة وغير معروفة، متداخلة، متشابكة، متعادية، يخون بعضها بعضاً، وينهش بعضها بعضاً، وفي كل حلقة عين للحلقة الأخرى، وكلّهم لصوص وقتلة وعيون، وفي وسط هذا الجحيم، على العامل الشريف في الميناء أن يأكل خبزه بعرق جبينه، وأن يأكله مجبولاً بالألم والحسرة. الفساد عامّ، عنكبوتيّ، له أوكار، وأعشاش، ومغاور، وكهوف، وفي كل منعطف سكين، ومسدس، وخيزرانة، وحفرة مُموّهة، تسقط فيها بغتة، دون أن تدري، ودون أن تكتشف الفخّ إلا وقد أطبق عليك كما يطبق على الفريسة.

انصرف الزلقوط وحليش يكاد يبكي. لقد أُرغم على الدفع، وعلى ابتلاع الشتيمة، وعلى الانكشاف أمامي، وهذا كله لصالحي. سيصبح الآن تحت رحمتي تماماً. لكن هذه الرحمة على قدر القوّة، وبسعتها وحجمها، ولكي يخضع لي، هو اللصّ الصغير، يجب أن يرى بعينيه، كيف يخضع قبله اللص الذي هو أكبر منه، ولكي يسدّ عبدوش فمه ويخرس، لا بدّ أن يرى كيف أقوى على أن أجعل الزلقوط يسدّ فمه ويخرس. إنها طريق طويلة إذا ما أردتُ أن أقطعها خطوة خطوة، فماذا أفعل كي أصل بسرعة؟

كنت، قبل الآن، ألهو. كنت ألعب. ما قمت به لا يعدو اللعب. كنت صبيّاً في ثياب شابّ، وكنت شاباً في ثياب رجل، وكنت رأساً فارغاً عليه الآن أن يمتلىء، ففي الميناء لا مكان للهو واللعب والاستهتار أو الكلام الفارغ. هنا الشجاعة وحدها لا تكفي، والتهوّر يقود إلى التهلكة، والمروق بين الحلقات كالمروق من الزرد، أو كالسير على المسامير دون أن تدمى القدمان. كنت وحشاً بغير عقل، وجسوراً بغير فكر. والعيش في الميناء، والثبات على أرضها، يحتاج إلى الجسارة والعقل والفكر، وحين يأتي دور البطش، عليّ أن أبطش بأعدائي دون رحمة، أو يبطشوا بي بغير رحمة.

خرجنا من المقهى وأنا محزون. عمليّة أمس قد تمرّ بسلام، وقد تنكشف، ولكن ماذا بشأن العمليات القادمة؟ هنا مربط الفرس، هنا، يا ابن أبيك، يا مفيد الوحش، عقدة النجّار، وأنت لم تكن خيّالاً ولا نجّاراً ولا محتالاً، أنت لم تقتل حتى الآن، ولا ترغب في القتل، ولم تجرم، وتكره الإجرام، لكنك أمام واقع لا خيار لك فيه: إما أن تتراجع، أو تتقدّم بين الأشواك.

دفعت لحليش بعضاً من حصّتي. وعدته بتعويضه ما فقد عندما نقبض ما تبقّى لنا من الذين تسلّموا البضاعة ليلة أمس. وبانتظار ذلك عليه أن

يغرب من وجهي، أن يذهب إلى الجحيم، أن يعمل لحسابه الخاص، ويعود إلى سرقاته الصغيرة في الميناء، لكن عليه أن يطلعني على كل شيء، وأن يبقى تحت نظري، ولا يأتي على ذكري، ولا يحاول أن ينقذ جلده على حسابي. أفهمته هذه الأشياء قبل أن نفترق. لم أوجّه أيّ كلمة إلى عبدوش، لأن وضع هذا يختلف، إنه معي، وهو ساعدي، وإذا كان أكبر مني، ومن الشراسة بحيث يرتكب أية حماقة في أي لحظة، إلا أنه يعرف من أكون، ولن يفعل ما هو خارج إرادتي، وخارج مصلحتنا المشتركة.

بقيت في وكري ثلاثة أيام. عبدوش كان يتردّد على مقهى الميناء. كان يلتقي حليش فيلعبان الباصرة، وخلال ذلك لم يسأل أحد عني، لم ألفت نظر أحد. ولم يعرف الزلفوط اسمي، ولا اكترث بي. كان همّه أن يقبض، وقد قبض، وفي الليلة الثالثة جاء حليش، فأرسلته ليأتي ببقيّة حساب البضاعة. أوصيته:

ـ تقبض الثمن كاملاً، وإلاّ فعدْ إليّ..

ـ وإذا لم يدفعوه كاملاً؟ أو إذا قدّروا ثمن البضاعة بأقل مما قدّرناه نحن؟

ـ خذ الثمن حسب تقديرهم. هم أيضاً يخاطرون. هم أيضاً شركاء في العملية، ونحتاجهم مستقبلاً. اتفق معهم على المبلغ، وطالب به كلّه، وعد به إليّ.

ـ ظنّي أنهم لن يدفعوا المبلغ كاملاً.

ـ في هذه الحال ارمِ الفلوس في وجوههم وتعال إليّ.

ـ أليس في هذا مخاطرة؟

ابتسمت استخفافاً. هذا اللصّ الصغير حليش لن يكبر أبداً. خُلق حقيراً وسيموت حقيراً. إنه يخاف. وماذا أفعل لأجعله شجاعاً؟ بأيّ طريقة أنزع الخوف من قلبه؟ كيف أجعله مثل عبدوش على أقل تقدير؟ لقد بدأ

حياته في عصابة للفتيان، همّهم أن يسرقوا شيئاً من الحنطة أو العدس أو السمسم. هو قال لي ذلك، وشرح لي الطريقة التي كانوا يتبعونها فضحكت عليه. كان الواحد منهم يركض وراء الطنبر، المحمل بأكياس القمح، ويغرز ماسورته التنكية أو الحديدية في أول كيس يصل إليه، فينزل القمح عبر الماسورة المجوفة، وبهذه الطريقة يمتلىء الوعاء الذي يحمله، فيسحب الماسورة ويهرب. أحياناً يتسلّلون إلى الميناء، يختبئون وراء الأكياس ويقومون بنفس العملية. أحياناً أخرى يسطون على السيارات المحمّلة، المتروكة أمام المرفأ، وعندما يجتمع لديهم نصف كيس من القمح أو الشعير أو غيره، يأخذونه إلى باعة «مال القبان»(1)، فيعطونهم شيئاً من النقود يتقاسمونها، وينفقونها في شراء الطعام، والسكاير، والدخول إلى السينما، ثم يبيتون، في أيّ خرابة، أو غرفة قديمة، وغالباً ما ينامون، في الصيف، في كهوف المرفأ، أو بين المغائر الصخرية على الشاطىء. إنهم من المتشرّدين، الذين يفرّون من أهلهم، لأسباب عديدة ذات حكايات طريفة أو فاجعة، ومنهم يتشكّل لصوص الميناء الصغار، الذين يأتون في آخر سلّم فتيان المرفأ، ويعطون صورة عن قاعه الملوّث بحثالة الغلمان، هؤلاء الذين يتخرّجون من مدرسة اللصوصية والإجرام، ليصبحوا، عندما يكبرون، من نزلاء السجون، ومن فئات السكارى، والقتلة، واللواطيين، وكل أصناف المغامرين المتسكّعين في الميناء وعلى أطرافها.

حليش كان من هؤلاء. طلّق أبوه أمه وتزوّج بأخرى. قَسَت الخالة على أبناء الأب، وكان حليش أكبرهم، ففرّ من البيت.. تلقّفته الأزقّة، وقع بين أيدي اللواطيين، نام على الأرصفة، تعرّف بغيره من المتشردين، راح يسرق ما تطاله يده. بعد ذلك قُبض عليه وسُجن، وفي السجن، بين القتلة والمجرمين، تعلّم ما كان ينقصه، ثم سلك طريق المرفأ، وانضمّ إلى

(1) باعة الحبوب مثل الحنطة والشعير والذرة والفول

عصابة من أمثاله، وراح يسرق الحبوب، وعندما كبر تدرّب على سرقة أشياء أكبر، وقُبض عليه أكثر من مرة، ودخل السجن وخرج، وصارت له عصابة، لكنه أبداً لم يتوصل إلى أن يكون من رجال المرفأ، أوْ يرتفع قليلاً. ظلّ في القاع، لصّاً صغيراً، جباناً ونذلاً.

طريق عبدوش تشبه طريق حليش، وكذلك الزلقوط، وإلى حدّ ما طريقي. نحن مثل جميع الّذين يتسكّعون صغاراً، وعندما يصبحون رجالاً تختلف سبلهم، لكنها لا تخرج عن هذه الدائرة، وأنا أعي هذا الواقع، وأريد أن أفترق عن مصير حليش، وقد صمّمت على أن أكون شيئاً في المرفأ، رجلاً قوياً، مطاعاً، أو أُقتل فأموت. وسواء لديّ الموت على الخازوق أو حبل المشنقة أو برصاصة «عزرائيل»، في كل حال، لن يعثر عليّ، فأنا لا أترك له عنواني.

عاد حليش يسألني:

ـ أليس في تحدّي الذين نتعامل معهم مخاطرة؟

نظرت إليه بازدراء هذه المرة. إنه لم يتعلّم شيئاً من كل ما مرّ معه. يسأل عما إذا كان في المواجهة خطر، وأيّ شيء ليس فيه خطر؟ نحن الخطر، حياتنا الخطر، وما همّ؟ ليكن الخطر في بيتنا، في طريقنا، في مأكلنا ومشربنا، وفي النسمة التي نستنشقها، وإلى الجحيم بكل خوف، وكل حذر، وكل بحث عن سلامة تجعل من الرجل عبداً، أو نذلاً، أو شحاذاً. إلى الجحيم بمثل هذه السلامة التي فيها الذلّ، وفيها الاستكانة، وفيها، فوق ذلك، ما يُطمع الموت بنا. الموت لا يخاف إلا ممن لا يخافه، الموت جبان، ونحن الذين نجعله شجاعاً، حين نصبح أمامه جبناء.

قلت لحليش:

ـ أريدك أن تأتي بالمبلغ كلّه، ودفعة واحدة، وإلا فدعْ لهم كل شيء. قل لهم، إذا لم يدفعوا، إنني سأجعلهم يدفعون، ويقبّلون نعلي فوق ذلك، ولن نتعامل معهم بعد الآن. قل لهم هذا عن لساني، لكن لا تذكر اسمي، إيّاك أن تذكر اسمي.

ذهب حليش وتركني أدور في الوكر مجنوناً لشدّة هياجي. لقد اعتدت الّا اهتاج أمام أيّ تحرّش أو استفزاز أو خصام، لكنني أكره الضراعة، والنذالة، وكل أشكال المسكنة والتردّد. «كن أنت أنت ولا أحد غيرك» هكذا قال لي عبد الجليل في السجن. كان رجلاً من طينة غير طينتنا. كان مثل ابراهيم الشنكل، في رأسه أفكار عن العدل والمساواة، وهو يقاتل في سبيلها. ليكن. لكلٍّ منّا هواه، وهوى عبد الجليل مقاومة فرنسا، والاقطاع، والأغنياء، وكل المحتلين والمتعاونين معهم. أفكاره لم تبق في رأسي. بقي الذي استطعت أن أفهمه فقط. لكن ما أعجبني بعبد الجليل هو إيمانه القويّ بأن ما يتعذّب لأجل تحقيقه سيتحقّق. كان شجاعاً، وكانت نقطة ضعفي أنني أحبّ الشجعان، ولهذا أحببته، وكرهت ما يكرهه، وخاصّة المحتلّين الفرنسيين.

كمْ حاول عبدوش إنقاذي من لعنة الأفكار، صرفي عنها نهائياً، لكنني، بعد اليوم، سأتعامل معها.. لا بد أن أحشو رأسي الفارغ بشيء ما، وأفضلُ هذه الأشياء ما أمرّ به من تجارب، وما أتعلّمه من الناس، سواء في السجن أو المرفأ أو المدينة أو هذا الوكر. وقد تعلّمت أن أصغي، وهكذا رحت أصغي إلى عبدوش، الذي نقل إليّ ما سمعه من الزلقوط.

«في الميناء، قال عبدوش، القيامة قائمة. وقف العجوز في الباحة وصاح: «الذي سرق الماعونة، واحد من أولاد الكلب الذين يعملون هنا، ولو اقتصر الأمر على السرقة، قلنا فيها وما فيها، شغلة واحد من الأرذال، يريد أن يكسب قليلاً ويعيش، ومع أن عقوبة السرقة، من أحد مواعيني، مسألة خطيرة، لأنها تعني التحدّي لنفوذي، فإنّ مسألة تكميم الحارس، وربط يديه وقدميه، جريمة أكبر من السرقة. إنها تمسّني مباشرة، تمسّ الميناء، وشرف الميناء، وتجرحني

في الصميم. لذلك أريد الفاعل! أريده مهما كلّف الأمر، وإذا لم أجده فإنني أتّهمكم كلّكم، وسأحاسبكم كلّكم، وسيكون حسابي عسيراً. سأبقى في الميناء ولن أغادرها. سأبقى حتى أقبض على ابن الفاعلة، وإلا فإنّ ذنبكم على جنبكم، وقد أعذر من أنذر، اذهبوا يا عرصات، غيبوا، انقبروا، اغرقوا في البحر، طيروا في الفضاء، فتّشوا الهواء، ولا تظهروا أمامي إلا والمجرم تحت شحّاطتي».

كان العجوز يلثغ. كان مهتاجاً، كان مخيفاً، فهو يعني ما يقول، وإذا لم يظهر الفاعل فإن الشبهة تقع على الجميع، والمراقبة ستطال الجميع، ولن يخرج العجوز من الميناء. إلا بعد أن يدوس بشحاطته على رقبة الفاعل، ثم يدعه لرجاله، فإذا لم يقتلوه فإنهم سيجعلونه يشتهي الموت.

سألت عبدوش:

ـ وما رأي الزلقوط؟ بمن يشكّون، هناك، في الميناء؟ ومن سيدفع الثمن؟ وكيف حكى لك الزلقوط كل شيء؟ هل أصبح يطمئن إليك؟

ـ سايرته. جعلته يطمئنّ. تمسّكنت أمامه. قلت له نحن نتعيّش من حليش. شتم حليش صائحاً:

ـ هذا البرغوث، صاحب التكة الرخوة، ليس من يحسب حسابه. كل ما يستطيع هو أن يسرق أشياء صغيرة من الميناء. إنه جرولا أكثر. وأنتم مثله. أنت وصاحبك ذاك، ما اسمه؟ إنكم جراء صغيرة لا أحد يفكّر بأمثالكم. الفاعل مجرم خطير. رئيس عصابة، أو مدفوع من عصابة خطيرة. كل العصابات في الميناء خطيرة، وكل واحد، من رؤسائها أو أعضائها، في رقبته أكثر من قتيل، ولا بدّ أن يكون للمجرم صلة بأحد ما، خارج الميناء، أنا لا أعرف ما يدور في رأس العجوز، لكنه يفكر في «الشيخ ضاهر»، أعداؤه الحقيقيون هناك، هم الدافعون، ولا بد من الانتقام.. الآن ستكثر الاتهامات، والوشايات، ستحدث تصفيات أيضاً. سيقتتلون كالذئاب الجائعة، سينهش بعضهم بعضاً. في الميناء كثير من الذئاب، وكثير

من الكلاب، وكثير من الخراف أيضاً، وستكون معركة، بل معارك بينهم، الكلاب ستعارك الذئاب، وهذه ستأكل الخراف، والله يستر.

سألت عبدوش:

ـ هل عرف الزلقوط اسمي؟

ـ قلت له إن اسمك مفيد.. وإنك من بانياس، وكنت تشتغل أجيرا في فرن هناك.

ـ هل قلت إن اسمي مفيد أم مفيد الوحش؟

ـ قلت إن اسمك مفيد فقط.

ـ هذا جيّد..

وبعد تفكير أضفت:

ـ حاول أن تقلّل من شأني أمام الزلقوط. أن تنقص من شجاعتي. اشتمني أيضاً. قل إنني فقير، أعيش من صدقات حليش، ولا تذكر أيّ شيء عن ماضينا، وخاصّة عن معركتنا مع «البريفوته» والسجن.. سمعت؟

ـ سمعت.. وأعرف هذا قبل أن تقوله لي. إنني حذر بما فيه الكفاية.

ـ حذرنا لن يدوم إلى النهاية. سأكشّر عن نابي يوماً، ولكن ليس الآن. لندع العاصفة تمرّ بسلام. لنذهب غداً صباحاً إلى المقهى. إبحث عن حليش وقل له عن لساني أن يأتي غداً قبل الظهر إلى المقهى، وسنلعب الباصرة، وسترحب بالزلقوط ومن معه إذا جلس إلى طاولتنا.

ـ أراك شديد الحذر.. تخاف؟

حدّقت في عينيْ عبدوش وابتسمت. تركته يستنتج من ابتسامتي ما يشاء. لكنه فهم. ابن أمّه فهم. قال لي:

ـ أنت داهية.. ولكن منذ متى صرت داهية بهذا الشكل؟

ـ منذ تخرّجت من السجن. . تعلّمت هناك بعض الأشياء.

ـ أنا أيضاً كنت في السجن، كنت فيه عدة مرات، مثلك، ولم أتعلّم شيئاً.

ـ أنت حمار. .

نبر في وجهي:

ـ لا أريد مسبّات.

ـ أنا أمزح معك. . أنت داهية أيضاً. أنت لعنة مُكرّرة.

ـ وأنت لعنة مصبّرة.

ضحكت. قهقهت. أردت المداراة. أنا بحاجة إلى عبدوش. بحاجة إلى حليش. بحاجة إلى سكوتهما على الأقل. وسأكون تيساً إذا تركت نفسي أنكشف منذ العملية الأولى. لا بأس بقليل من المسايرة، ولو على حسابي. سيأتي اليوم الذي يعرف فيه حليش وعبدوش، بل يعرف العجوز كل من في الميناء من أكون.

أخرجت فلوساً ودفعتها إلى عبدوش:

ـ خذ هذه الليرات. . اذهب واشترِ لنا عرقاً وكباباً.

ـ احتفظ بليراتك. . معي ما يكفي.

كان كريماً وشهماً هو الآخر. كان كفوءاً إليّ. وقد عجبت كيف روّضته، وكيف أخذ يطيعني، وسيأتي اليوم الذي ينفصل فيه عن حليش وعني. سيشتغل لحسابه الخاص. عبدوش لا تنقصه الشجاعة. ما ينقصه هو الذكاء. إنّه غبي، بل أكثر مني غباء. الفارق بيننا أنني أتعلّم من تجاربي، بينما يظلّ هو ثوراً بقرنين، لا يصلح إلا للمناطحة.

قلت له بعد أن شربنا وأكلنا:

ـ اسمع يا عبدوش. حليش قال لي إنك لوطيّ، هل هذا صحيح؟

ضحك. سألني:

ـ وهل صدّقته؟

ـ أنا أصدّقك أنت. أجبني.

قال:

ـ جرّبت ذلك مرة.

غضبت. صحت به:

ـ اللعنة عليك إذن. اغرب من وجهي. لا تتحدثْ عن ذلك مرة أخرى. أنت نجس، وأنا لا أطيق الأنجاس. لا أطيقهم لأنهم أولاد عاهرة، سمعت؟

ـ سمعت، ولكنني ابن امرأة شريفة. لا تشتمني. قلت لا تشتمني. احذرك. نحن صديقان، لا تخرب صداقتنا. دعني وشأني. لك حياتك ولي حياتي.

ـ لكنها حياة قذرة.

ـ وهل حياتك نظيفة؟ قل أنت.

فكرت. . أفحمني عبدوش. اكتأبت. الناس يشربون لينسوا. . إذا سكروا نسوا. أنا أسكر لأتذكر. وحين يحصل لي ذلك انكّد على نفسي بغير داع. أفكّر. التفكير مصيبة. كم كان الإنسان سعيداً بغير تفكير؟ يصبح عندئذ حيواناً. ما أبسط حياة الحيوان! لا يفكر من أين جاء، أو إلى أين يرحل، أو متى يرحل. والدي كان يقول لي: «أنت حيوان» أخطأ والدي. يبدو أنني لست حيواناً. أنا وحش في المظهر، في الجلافة، لكنني لست قاسي القلب. منظرُ أمّ على جانب الطريق، تستعطي وفي حضنها رضيع، يجرح قلبي، يدميه، يجعلني، لو ملكت مالاً، أضع شيئاً منه في يدها الممدودة وأهرب. لا أقول ذلك لأحد. أخجل. ثم لماذا القول؟ لماذا أفضح نفسي فأقول لهذه الحثالة من حولي إنني رقيق القلب. يكفي أن

أرتاح. أفعل ذلك لأرتاح. الوحش، داخلي، يرتاح، النجم يرى، والبحر يعرف، والريح تشهد، وهذا يكفي. تكفيني الراحة، أنا المعذّب بآثامي، الذي يحسبه الآخرون يلتذّ بهذه الآثام، بينما أنحني تحت ذنوبي كأنها جبل على ظهري. لم أكن كذلك في صغري أو فتوّتي. في شبابي كنت طائشاً، وها أنا، في الرجولة، أفكّر. الفكر بليّة، عليّ أن أتخلص من هذه البلوى، لا بد أن أتخلّص منها. عبدوش على حقّ. حياتي مثل حياته. قذرة، كلّنا قذرون. جميع المتشرّدين، واللصوص، والقتلة قذرون، ولماذا أكون شاذّاً؟ لماذا أستطيع القتل، ولا أستطيع أن أتحمل دمعة طفل جائع؟ يا للمصيبة! هذا هو الفساد بعينه. أنا فاسد دون أن أدري. أنا في حيرة. أتخبّط في ظلمة، لكن الفجر يروق لي. يسحرني. قلت ذلك للأستاذ ماهر في السجن، فأجابني: «أنت لا تعرف نفسك.. لستَ سيّئاً في داخلك، ولكن الحياة سيّئة من حولك» كان صادقاً، كان يدرك ما في أعماقي، هذا الذي لا أدركه أنا.

لاحظ عبدوش اكتئابي فقال:

- لا تزعلْ من الحقيقة.. حياتنا قذرة ولا فائدة.
- تظنّ ذلك؟

ضحك عبدوش وأجاب:

- أظن ماذا؟ ألا تعرف هذا حتى الآن؟

تنهدت.

- أعرفه! ولكن لا أحب من يذكّرني به.. أريد أن أنسى.
- إذن لنشرب.. لا يجلب النسيان مثل الشرب.

شربنا ولم أنس. عاد حليش بالمبلغ المتّفق عليه. فعل كما أوصيتهُ. حين أرادوا إنقاص المبلغ رمى النقود في وجوههم. تعنتر ابن أمّه. هذا ما يجب. تكلّم بلساني، ولساني لا يرحم. مغامر أنا، الكلّ أو لا شيء، لست سمكة

غريبة، ولا سمكة صغيرة. أنا حوت، وعظم الحوت لا يؤكل، وسيعرف الزلقوط، الذي يسأل عن اسمي، أن اسمي، مثل، جسمي، مخيف، ومن يدري، قد لا أُخيف أحداً، لكنني، أنا نفسي، لن أخاف أحداً، حتى ولا عجوز الميناء.

قبل ظهر اليوم التالي كنت في مقهى الميناء. لم أبدل ثيابي. لم أشتر ثياباً جديدة رغم أن النقود لديّ. يجب أن أبدو بائساً، مسكيناً. هذا مكر، ولكن المكر، مع الماكرين، ضروري. سأخدع الزلقوط، أزيد في يقينه أنني من جماعة حليش، ومن الذين يعيشون على حسابه. وسأطيع حليش أمامه. الطاعة عند الضرورة حكمة. أطيع اليوم وأتمرّد غداً. لست قُبّرة، وزمن النسر لم يأت، سأتغابى، فبعض الغباء مفيد، حتى لا ألفت الأنظار إليّ.

كان الجوّ في المقهى مكهرباً. المقهى مرآة الميناء. ما يجري في المرفأ تراه على رصيفه، تراه، على وجوه البحّارة والحمّالين وكلّ من يدخل ويخرج من تلك البوّابة العتيقة التي وراءها حصن العجوز. هناك تتجمّع الغيوم، وعلى غير توقّع تُمطر. هناك مكمن الأسرار، وفي المقهى تتفشّى كبقع الزيت في ماء الحوض. عليّ، إذن، أن أراقب، أن أصغي، أن أشمّ، أن أُبعد الشبهة عن نفسي، لا خوفاً، ولكن دهاءً، ففي الميناء من الدهاء بأكثر مما في المدينة كلّها، وفيها نتن يزكم أنوف طابور من العسكر، وفيها قذارة أسوأ من قذارة مجرور، وفيها نار تُحرق، ورصاص يَقتل، وغرق في البحر تغمض العيون عند رؤيته. أنا لن أُحرَق وأُقتل أو أُغرق في البحر بسهو
لقد قمت بالعملية، ولكن لست على استعداد لدفع الثمن، رخيصاً د
غالياً.

جاء عبدوش بعد قليل، ولم يتأخر حليش، لكن الزلقوط لم يظهر. جلسنا إلى طاولة منعزلة قليلاً، طلبنا شاياً وقهوة وورقاً للعب. كانت حـ

الريّاس، في مكانها المعهود. وكان هناك بحارة وحمّالون، وكان همس يدور. الجميع يتحدّثون عن العملية، وعن ثورة العجوز، في جوّ كهذا تكثر الشائعات، والوشايات، ويجد أبناء الزنى فرصتهم للوقيعة. حسناً ليُوقعْ من يشاء بمن يشاء، ولتبقَ العيون حمراء، وتظلّ السكاكين و الخيزرانات والمسدسات في الخصور أو وراء الظهور. وحتى لو تحرّش بي ابن ساقطة فسأتّقي الشر. سأضحي بحليش إذا وقعت شبهة ما عليه، أتركه لمصيره، ولن يكون مصيراً فاجعاً. سيُشتم، يُضرب، يُطرد من الميناء والمقهى، باعتباره لصّاً، وهذا شيء هيّن. إنه من حثالة الميناء وليس من رجالها. رجال الميناء أقوياء، قتلة، مجرمون، وحليش لصّ، وفي عملية كالتي قمنا بها سيفكرون بكل مجرمي المرفأ إلا بنا، نحن الثلاثة، ما دمنا على هذا القدر من بؤس المظهر، وما دمنا نلعب الباصرة ونتسلّى.

بعد ساعة أو أكثر دخل الزلقوط المقهى ومعه شابّان من جماعته. طاف بين الطاولات يسلّم، يتسكّع، يتملّق، يبحث عن فريسة. اليوم لا شغل بالنسبة لأمثاله، كلّ لصوص الميناء وقوّاديها ولوطييها في خوف. إنهم في المدينة، أو في الشوارع، أو الأوكار، مثل طيور البحر عند قدوم العاصفة. والزلقوط جائع، وفي بحثه عن طعام راح يدور على الجيف الصغيرة. إنه غراب من نوع خاص، وحليش جيفة من النوع نفسه، ولن يوفّره اليوم، لذلك أوصيته أن يسايره، أن يدفع له، أن يتمسكن إلى أقصى حدّ أمامه. لكن الزلقوط تجاهل وجودنا. كان في شغل عنا، فهو يتقن لعبة الحركة بين أطراف النزاع في الميناء، وفي جوّ كهذا، يفيد من الوشاية والنميمة والدسّ. يتظاهر أنه مع كل جماعة، ومع كل واحد، وهو ليس مع أحد، همّه أن يتقرب، ويتملّق، وينقل الأخبار، وينفخ في النار التي توشك أن تلتهب وتحرق الجميع. وليس مستغرباً، بل من المؤكد، أنه من أزلام العجوز، وأنه أخبثهم، ويستغلّ كل ذلك في توفير جوّ مناسب لسرقاته،

وفرض أتاواته على من هم أضعف منه، على من هم نفاية الميناء، أمثال حليش، هذا الجرو الذي يعتاش من الفضلات، وعمليته معي، كانت أوّل عملية ذات قيمة يشارك فيها.

تابعنا لعب «الباصرة»، وتابع الزلقوط تنقّله بين حلقات المقهى وطاولاتها. كنت أراقبه، وأسأل حليش وعبدوش عن تحرّكاته التي تقع وراء ظهري ولا أستطيع رؤيتها، دون أن التفت إلى خلف مرة واحدة. وحين شاهدته يخرج، أدركت أنه سينقل الآن ما سمع ويعود، سيأتي بأخبار الميناء كما ذهب بأخبار المقهى ومن فيه، إنه يجد في ذلك لذّته، يجد الماء العكر الذي يخوض فيه. لقد رآنا، ازدادت قناعتي أنه رآنا، وأنه سيعود إلينا، حين يفرغ جعبته، في حركته المكّوكية بين المقهى والميناء. استنتجت أن عدم اكتراثه بنا، يعود إلى نظرة الاحتقار التي ينظر بها إلينا، وهذا أفضل، فنحن، إذن في منجى، وخارج دائرة الاهتمام.

غير أن هذا الغراب، في تحويمه الملعون، في جوّ المقهى والميناء، كان حادّ الرؤية، والجيف الثلاث التي هي نحن، لم يدعها خارج حسابه، إنما تمهّل في الانقضاض عليها، لأن ثمة ما هو أهمّ منها، وأكثر جلبة للفائدة. . وعندما تفرغ لنا أخيراً، جاء ومعه الشابّان. وقف قبالتي، وراء حليش، وخبط بكفه على كتفه خبطة قوية وقال:

- عوافي!

رددنا نحن الثلاثة:

- الله يعافيك يا زلقوط، اجلس.

سحب كرسياً وجلس. فعل الشابان مثله فجلسا. مرّت فترة وهو يراقب اللعب. كان حليش، خلال ذلك، قد طلب شاياً للثلاثة، فترشّفوها، وأبدى الزلقوط ملاحظة أو اثنتين على لعبي السيّء، وانتهرني قائلاً:

- ليس هكذا يا غشيم، أعطيت «باصرة» مجانية.

قال حليش:

- دعه يخسر، هذا الغبيّ، الذي لا يصلح لشيء.
- ولماذا، إذن، تعلفه كثور، بماذا ينفعك؟
- إنه يبحث عن عمل ولا يجد.
- ولماذا لا يشتغل حمّالاً في المرفأ؟ إنه خُلق لهذه الشغلة.
- ساعده في تدبير عمل إذن، إنه بغل حقيقيّ.

قلت وأنا أضحك:

- لماذا تشتمني أمام الأوادم يا حليش؟ هل هذا لأنني غريب، ومحتاج إليك؟
- بل لأنك تستحق، ولا تعرف كيف تتعلم.

قال الزلقوط ساخراً:

- وهل صرت تعلم الناس يا حليش، أم أنّك تدرّبه على السرقة؟ دع هذا الدبّ وشأنه، سأتوسّط لتشغيله في الميناء. هناك سيكون نافعاً. إنه يحمل كيسين من القمح، دون أن يحني ظهره، صاحبك هذا، ما اسمه؟

قلت:

- مفيد..

قال:

- نعم مفيد.. تذكرت الآن.

قلت:

- متى تدبّر لي عملاً في الميناء؟

قال:

- وماذا كنت تعمل؟

- أجيراً في فرن.. أنا من قضاء بانياس.
- ابتعد عن حليش إذن، اسمع نصيحتي.. إنه مثقوب من أسفل.

قال أحد الشابّين:

- بل هو واسع من أسفل.

ضحك الحاضرون وقال حليش:

- بدأنا بالشتائم؟ كلنا، في الميناء، واسعون.

صاح الزلقوط:

- فشرت.. الواسعون هم أمثالك.. نحن رجال، أم تريد لطمة على الوجه؟ هات.. قالها ومدّ يده وهو يكرّر:
- هات نصيبنا من «الصيد».. لا وقت لدينا لطقّ الحنك، أم أنك تستغبينا؟

تباكى حليش:

- وأين هو الصيد؟ لم نستفتح منذ أيام، وأنا على الحديدة[1].
- أنت تصطاد حتى الغيم، لا تتبالهْ. إذا قطعوا يدك اليوم تفرّع غداً. تسرق من بيت أمك يا ابن الناقصة، وبعد ذلك تتمسكن؟ إذا لم تدفع سأضربك حتى يُغمى عليك.
- قلت لك ليس معي!
- يعني لن تدفع؟
- ومن أين أدفع؟ نهض الزلقوط وأمسك بحليش من ياقته. رفعه عن الكرسي وهبده[2] عليها، وبقبضة يده اليسرى ضربه على يافوخه. صفعه بعد ذلك عدة صفعات، وصاح به:
- ادفع!

---

(١) على الحديدة: مفلس في التعبير الشعبي.
(٢) هبده: خبطه.

ناح حليش.

- ليس معي شيء.. ارحمني.

- أرحمك؟ أنت يا ابن المائعة، لا تستحقّ الرحمة. ستدفع وإلّا قتلتك.

علت الضجّة في المقهى. اشرأبّت الأعناق. وقف بعض من فيها وتحلّقوا حول طاولتنا يحاولون تخليص حليش، لكن الزلقوط عاد يمسكه من يافته، ويجرّه إلى الخارج. كان حليش قد أصبح خرقة الآن. ارتمى أرضاً، وتابع الزلقوط جرّه بين الطاولات والكراسي، يمسح به الأرض، والشرر يتطاير من عينيه، فلما انتهى به إلى باب المقهى ألقاه خارجاً، وركله بقوّة، فتدحرج حليش واستقرّ على الرصيف مُعفّراً، ممرّغاً بالتراب، ونفض الزلقوط يديه وعاد إلى الداخل، يقول لمن تجمّعوا:

- ليذهب في داهية، ابن الكلب هذا، سأحرمه من دخول المقهى والميناء.

سأل أحدهم:

- ولكن ماذا فعل؟

أجاب الزلقوط:

- وماذا يفعل حقير مثله؟ إنه يسرق.

- سرقك؟

- تَنَمّرد عليّ.. لم يدفع مالي بذمّته.

قال آخر:

- ليس معه الآن، أمهله قليلاً، كدت تقتله.

- سأقتله، هذا اللعين، ولن أقبل شفاعة به.. المسألة بيني وبينه، دعونا.

تفرق الذين تجمعوا. أدركوا، بخبرتهم، أن الزلقوط يريد إتاوته من

حليش. هذا عرف في الميناء: على اللّص الصغير أن يدفع لمن هو أكبر منه، وعلى العصابة الصغيرة أن تدفع للعصابة التي هي أكبر منها. حليش لصّ صغير، ليس من يحميه، والزلقوط قويّ، أزعر، قاتل، ورجاله مثله، وهو يفرض الإتاوات بعلم الجميع، وكل من فرضت عليه إتاوة لا بدّ أن يدفعها، فإذا تأخّر، أو تمرّد، جرت تصفية الحساب معه، إلى أن يجد من يحميه، وعلى من يحمي أن يكون أقوى. هكذا يتربّص اللصوص والقتلة بعضهم ببعض، ويفتك بعضهم ببعض أيضاً، وفي حال كهذه، لا يتدخّل الآخرون، الذين ليس لهم علاقة، أو مصلحة، في المعارك التي تنشب في المقهى أو الميناء.

هدأت الضجة، عادت قرقرة النراكيل تتعالى من حلقة الريّاس، رجع كل إلى طاولته، شرعت الأصوات بصخبها المعتاد، تقاطعت الشتائم والكلمات البذيئة، وفي فضاء المقهى كان دخان النراكيل والسكائر ينعقد ويتكاثف، ورائحة عطنة تفوح من الأجسام، والثياب، والشباك، وقصبات الصيد، والسلل التي فيها سمك، أو كان فيها سمك، ومن كل الأدوات والأشياء البحرية، بما فيها المجاذيف والإطارات والأقفاص الحديدية، المركونة في الزوايا أو على أطراف المقهى، ومن البحر القريب، وعنابر المرفأ، التي تتكدّس فيها أكياس الحبوب وصناديق البضائع، وكذلك من كل ما تلف أو فسد بسبب المطر أو النوّ، مثل البصل والثوم والحنطة والشعير وغيره، ومن الذباب الذي يحطّ ويطير، ويكشّه الجالسون عن وجوههم بأيديهم القذرة ككل ما في مقهى الميناء ومنطقتها.

كل هذا لم يكن غريباً عليّ. ألم أكن صيّاداً؟ ألم أشتغل مع الريّس بكري الغطّاس في الصيد سنوات؟ ألا أعرف، ولوْعن بعد، المقهى والميناء؟ كيف تعاملت مع أمثال حليش إذن؟ صحيح أنني لم أكن أعرف الأشياء جيّداً، من الداخل، ولم أكن من رجال العجوز، ولا من اللصوص والقتلة،

وكذلك لم أعمل في الميناء، لكن ما سمعته يكفي، وها هي تجربتي تزداد، وهاأنا أشهد كيف يضرب الزلقوط حليش، وسأرى غداً من يضرب الزلقوط، وسأعاين ما يجري حولي من دسائس ومعارك وشجارات. هذا كله سيفيدني، سيزيد خبرتي، يجعلني أحسب خطواتي سلفاً، أعرف الأرض الصلبة من الأرض الرخوة تحت أقدامي، أحفظ توازني فلا أسقط. لكن الآن لا بد من الصبر، وبلع الإهانة، واحتمال الشتائم، وإظهار عدم المبالاة بينما حليش يُضرب أمامي، وقد أُضرب أنا، وقد يُضرب عبدوش، وسيحسبني الجميع رخواً، جباناً، ميّت القلب من الخوف، ولكن لا بأس، مادام الوقوع في الاستفزاز سيكشفني قبل الأوان.

صبرت. يا ربي كيف واتاني الصبر؟ كيف استجابت أعصابي للانضباط؟ كيف بقيت جالساً أتلهّى بخلط ورق اللعب؟ كيف تقنّعتُ بوجه غير وجهي؟ كيف لم أكشّر وتنقبض هيئتي؟ وكيف خدعت الجميع، بمن فيهم زلقوط، الذي عاد وجلس إلى الطاولة وهو يوجّه الكلام إليّ:

ـ رأيت ما جرى بعينك؟

ـ رأيت بعيني.. أنت رجل بحقّ.

ـ ألا يستحق حليش ما فعلته به؟

ـ إذا كان مفلساً حقاً فهو لا يستحقّ.

ـ لا تصدق أنه مفلس.. ثم أنا لا أهتمّ بإفلاس الأنذال أمثاله. عليه أن يدفع.

ـ سيدفع.

ـ نعم سيدفع. الآن سيذهب ويدبّر رأسه. سيحضر ما طلبته. سيظهر ما خبّاه. سيسرق.. ليسرق. ليؤجّرْ مؤخرته، لا يعنيني هذا. كل ما أريد هو حصّتي.. والآن ماذا تشرب؟

ـ لا أشرب شيئاً.

ـ إذا قلت لك اشرب فاشرب. أنا سأدفع الحساب. اترك ابن العاهرة هذا. تعال إليّ. سأدبّر لك عملاً، سأجعلك من رجالي. أنت قوي كثْور، وستكون نافعاً لي، وفي المقابل ستنتفع، أم أنك خرقة مثله؟

ـ لم أجرّب نفسي بعد.

ـ ستجرّبها. أمثال حليش لا ينفعونك في شيء، أقول لك.

قلت:

ـ وعدني حليش بتدبير عمل لي. أنا بلا شغل.

ـ أعرف. كنت بلا شغل فعلقت في شباك حليش. لا تنكر، أنا الزلقوط، أعرف دبيب النملة في الميناء.

قالها وصفّق بقوّة، فركض الكرسون.

ـ شاي للشباب.

شربنا الشاي، لعبنا الباصرة. انتفش الزلقوط كديك. انتهر عبدوش مراراً، أشبَعَنا مَرْجَلة. قال عن نفسه كلاماً كثيراً. كان دوري أن أبتسم وأهزّ رأسي موافقاً. وكان عبدوش يجاريني، تودّد إلى الزلقوط، لعب دوره بشكل جيّد، ولما توقفنا عن اللعب سأل الزلقوط:

ـ ألم تسمعوا بما جرى؟

أجبت متغابياً:

ـ في المقهى؟

ـ في الميناء.

ـ أنا لا أدخل إلى الميناء، ليس لي فيها شغل.

ـ ومن أين تسرقون؟ ألم تشترك، أنت وعبدوش، في أيّة سرقة؟

قال عبدوش:

ـ حليش لم يشركنا في أيّ شيء.

ـ إنه حذر كفأر ابن العائبة هذا.. سيجعلكم تسرقون مثله، وإلا لماذا يعلفكم؟

قال عبدوش:

ـ نحن لا نكاد نشبع اللقمة.. حليش سيدبر لنا عملاً معه، هذا كل شيء.

ـ وماذا يعمل هو؟ إنه يسرق، وسيجعلكم تسرقون مثله.. سيستغلّكم في سرقاته الحقيرة، ويوصلكم، في أقرب وقت إلى السجن.. هذا النغل.

قلت مستنكراً:

ـ أعوذ بالله.. السرقة؟ لا، وعدنا بالشغل في الميناء.

ـ ضحك عليكم. لا تصدّقوه، هذا اللصّ، لا تدخلوا الميناء معه، خاصّة في هذه الأيام.

ـ قلت: لماذا؟ جرت سرقة في الميناء؟

قال الزلقوط متباهياً بمعلوماته:

ـ سرقة؟ يا ليت. السرقات في الميناء لا تنقطع. ما جرى أكبر من سرقة. اعتدوا على المواعين. سرقوا ماعونة وهي في البحر، ربطوا الحارس وكمّموه، اعتدوا على هيبة العجوز.

ـ ولم يُعرف الفاعل؟

ـ لم يُعرف بعد.. إنهم أكثر من واحد.. لكنهم من الميناء، ومدفوعون من قبل أعداء العجوز.. دُودُ الخلّ منهُ وفيه، غير أن المسألة لن تمرّ على خير.. سترون بعيونكم، وتسمعون بآذانكم. لا تتدخّلوا بأيّ شيء، صمٌّ بكمٌ، هذا أفضل، أنتم على باب الله، ولا دخل لكم في شيء.

قال ذلك ونادى الكرسون فدفع الحساب، دفع حتى ثمن ما شربه حليش، وقام فمضى يتبعه الشابان كظلّه، وراح يوصوص، ويتنقل ويتفرّس في كل داخل إلى المقهى أو خارج منه. كان غارقاً في المشكلة، وربما أغرق نفسه فيها دون طلب من أحد، فهو حشريّ بطبعه، يحب العراك، وينتظر، بكثير من الغبطة والتلهف، أن تقع الواقعة، التي يوقد نارها دون كلل، دون أن يخشى أن تحرقه. فهو يتظاهر أنه مع كل طرف، مع أنه ليس مع أيّ طرف، ودوره أن ينقل ما يسمع إلى العجوز.

انصرفنا، عبدوش وأنا، بعد أن بقينا وحيدين. كنت مسروراً الآن. فالشبهة بعيدة عنا. بعيدة عن حليش والحثالة التي من أمثاله. لكن علينا ألاّ نغيب عن المقهى، فوجودنا فيه يجعلنا آمنين. ذهبنا إلى البيت. وجدنا حليش ينتظرنا، كان لا مبالياً بما وقع له. حدّه اعتاد على اللطم، لكنه كان عاتباً، لأنني لم أدافع عنه، وقد توهّم، كالآخرين، بأنني جبان، ورغب أن يخرج عن طاعتي، فاكتشفت ذلك من نبرة صوته، ومن حركاته، وتعمدت إغاظته فقلت:

ـ لماذا خفت من الزلقوط إلى هذه الدرجة المقرفة؟ كان عليك أن تقاوم. قاوم مادمت قد قرّرت ألاّ تدفع.

نبر في وجهي:

ـ وأنت، لماذا لم توقف الزلقوط عند حدّه؟ خفت؟

قلت ساخراً وهادئاً:

ـ نعم خفت. هذه هي الحقيقة يا حليش.. ومن أنا كي لا أخاف؟ إنهم، في المقهى والميناء، رجال، ونحن جراء.. أنا جرو مثلك يا حليش.. الجرو لا يدافع عن جرو. صحيح ما أقول؟

ـ إذن أنت تعترف؟

ـ نعم أعترف.

ـ ولماذا تتمرجل علينا؟

ـ لأنني لا أجد غيركم من أتمرجل عليه.

ـ في هذه الحال سنفترق.

- لكن ليس قبل أن ننجو بجلودنا. . والآن اذهب واشترِ لنا ما نشربه ونأكله.

- اذهب أنت. . لست عبدك.

قال عبدوش:

- أنا أذهب.

صحت به وقد أوشكت على الانفجار:

- بل هو الذي سيذهب.

قال حليش:

- قلت لك لن أذهب، لست خادم أبيك.

- أبي لا دخل له في الموضوع، إياك أن تذكره مرة أخرى. . اذهب وهات ما طلبته منك، إذا أردت ألّا أكسر نيعك[1].

- أنت لا تجرؤ أن ترفع يدك عليّ.

قال عبدوش:

- لماذا هذه الملاسنة؟ تريد أن تعارك يا حليش؟ في هذه الحال اجعل حديثك معي. أنا، لا مفيد من سيجعلك تذهب، ورجلك فوق رأسك.

- سأذهب ولن أعود.

قلت وأنا أقترب منه:

- بل ستعود. . أنت تعرف أن عليك أن تعود، وأن تطيعني، وأن تخرج من رأسك الوهم، لأنني إذا جدّ الجدّ، سأجعلك تستغيث بالإنس والجنّ.

لم يستغث بأحد. أطاع أمري. كان خرعاً بأكثر مما ظننت. أنا لن أضربه، لا يجوز أن أضربه وأنا بحاجة إليه. إذا ذهب ولم يعد وقعنا في ورطة. قد يشي بنا، أو يذهب إلى عجوز الميناء ويعترف له بالحقيقة. يخرج

(١) النيع: الحنك.

نفسه من العملية ويوقعني فيها. لذلك غمزت عبدوش، فتدخّل بيني وبينه قائلاً:

- نحن شركاء، رجلنا في الفلقة معاً. إذا دبّ بيننا الخلاف هلكنا جميعاً.

عاد حليش، وقد استقوى قليلاً، ينبح عليّ:

- أين كانت هذه المرجلة والزلقوط يضربني؟

- قلت لك إنني أخاف من الزلقوط.

قال عبدوش:

- فشر الزلقوط. مفيد جنّب العراك لتتجنّب الفضيحة. . أم أنك غبيّ؟

- أنا لست غبياً.

- افهم إذن. وإذا كنت لا تستطيع أن تفهم أطعْ. اذهب وأحضر ما طلبه منك مفيد. هات لنا ما نأكله.

أذْعَنَ حليش فذهب. ضحك عبدوش وقال:

- أفزعته. كاد يبول في سرواله. . خذ حذرك منه. الجبان خائن.

- ولهذا لم أضربه. مثّلت عليه. أخفته كي يظلّ تحت جناحي، أما عندما تنتهي المشكلة فسأجعله يندم على ما قال. . ناولني الزجاجة.

أعطاني الزجاجة فشربت ما بقي فيها. شربته دفعة واحدة، مسحت فمي بقفا كفّي، جلست على الفراش أفكر: «الشيلانة»[1] التي هي أنا، عليها أن ترعى في حوض المرفأ، دون أن تعلق بأيّ صنّارة. الشبهة بعيدة عني حتى الآن، ولكن أيّ غلطة تقضي عليّ. يمكنني أن ألعب مع الجميع إلا مع العجوز. هذا الداهية لا لعب معه. عينه عين باشق. يقفر[2]

(١) سمكة البوري الكبيرة.

(٢) يميّز.

الرجل من نظرته إليه. إذا رآني كشفني. يجب ألاّ أظهر أمامه، ويجب ألا أغيب عنه. أنا في موقف صعب. وصعوبة الموقف أنني أمثّل دور النعجة بين ذئاب. الزلقوط ثعلب. ثعلبته مخيفة، يعرف كل شاردة وواردة، وإذا فطن إلى أنني «دجاجة» انقضّ عليّ. عندئذ لا يبقى مجال للتردّد، لكن ماذا أفعل بمفردي؟ لنفرض أنني ذئب، ولكن ماذا أفعل مع كل ذئاب الميناء؟ أقاتل واحداً، اثنين، ثلاثة، وبعد؟ مصيري معروف: القتل. سيقتلونني لا محالة، سيمزّقونني بأنيابهم، وهكذا أضيع وأنا في أوّل الطريق، أموت ميتة رخيصة، ميتة كلب.

عاد حليش بالشراب والطعام. كنت قد استرخيت. لاطفته. صالحته. أطعمته بيدي، شربت نخبه، قلت له كلاماً حلواً، فتظاهر بالرضى، لكنه لم يرض تماماً. ظلّ على قناعته بأنني جبان، وأن الزلقوط أخافني. في هذه الحال لا ينفع الكلام، ما ينفع هو الفعل، ودور الفعل لم يأت بعد. عليّ، إن تابع الخطة، أن أدفع من جيبي، أنا من سيدفع الإتاوة لا حليش، لكن بيده لا بيدي، سأدفع له، وأقنعه بأن يدفع للزلقوط، وبهذا فقط نبعد أذاه عنا. نصبح أصدقاء، وقد أصبح، كما قال، من رجاله. تأمّلوا هذه المهزلة: مفيد، الذي ما هاب «البريغوته»، يهاب الزلقوط؟ يصبح واحداً من أتباعه؟ مسخرة! هذه هي المسخرة، ولكن لا بد منها. الذهب، كما كان يقول والدي، يحتاج إلى النخالة. أنا لست ذهباً، والزلقوط ليس نخالة، إنه زبالة. مع ذلك لا بد من مسايرته، ولا بدّ من العودة إلى المقهى، اليوم بالذات، حتى لا ندع أيّ مجال للشكّ فينا. أكلت قليلاً، شربت قليلاً، لم آكل لحماً، بل الخبز المسقسق الذي تحت اللحم. تركت الطعام لحليش وعبدوش، نصحتهما بعدم الإكثار من الشراب، لأننا سنذهب إلى المقهى.

ـ المقهى!؟ هتف حليش

أجبته بهدوء وحزم:

ـ نعم، وأنت معنا.

ـ أنا لن أدفع إلى الزلقوط.

ـ لا تركب رأسك. ادفع ما سأعطيك إيّاه. دع فلوسك في جيبك. ادفع من كيسي. خذ، احتفظ بهذا المبلغ، وإذا طالبك ادفع، قل له إنك استدنت ودفعت.

ـ وأنسى ما فعله بي؟

ـ النسيان ضروري أحياناً.

قال عبدوش:

ـ هذا صحيح.. لو تذكّرنا كل شيء تعبنا.. رأي مفيد في محلّه.

مشينا على الشاطىء. تقدّمت في السير وتركت عبدوش يتفاهم مع حليش. عبدوش يعتمد عليه في مثل هذه الأمور. شجاع وذكيّ وصاحب حيلة. كان أكبر مني وكنت أقوى منه. هو يعرف ذلك، لهذا لا يشاكسني. نحن من طينة واحدة، وماضينا واحد، وأنا بحاجة إليه، أنا أقدره، أحترمه، أحترم شجاعته ووفاءه، لكنني أكره حَيْوَنَته أحياناً. إنه تيس، الله خلقه تيساً، فماذا أفعل، غير الانتفاع به للمناطحة؟ إذا وقعنا سيفرّ حليش، لكن عبدوش لا يفرّ، يموت ولا يفرّ، أعرف عناده، وهذه هي الخصلة التي ترضيني فيه، لهذا لا أجُور عليه، أكتفي بإيقافه عند حدّه.

دخلنا مقهى الميناء، جلسنا إلى إحدى الطاولات. لم يكن الزلقوط موجوداً، لكنه لم يلبث أن نبق. تقول طلع من الأرض؟ إنه ينسلّ كأفعى. جسمه جسم أفعى، وحتى رأسه مثلّث الشكل مثل رأسها، ويلدغ مثل لدغتها، ولا يتعفّف عن شيء: نحيل، طويل، على زنده وشم أزرق، وفي عينيه زئبق، وفي عبّه سكين. إنه فتى ميناء حقيقيّ، وفيه كلّ صفاتها، وهو خادم مطيع للعجوز، وهذا ما أنا بحاجة إليه. إذا شهد بي شهادة حسنة

يكفي، إنني بحاجة إلى مثل هذه الشهادة، إذا ماورد ذكري في المقهى أو الميناء تكفيني الشهادة.

وقف الزلقوط فوق رأس حليش وأمسك به وبرمه نحوه:

ـ هه.. أحضرت ما طلبته منك؟

قلت له:

ـ تمهّل عليه يا زلقوط. حليش سيدفع. استدان حتى يدفع.

قال حليش:

ـ نعم استدنت.. أنا لا أخافك، ولكني سأدفع لك.

ضحك الزلقوط:

ـ ليس المهمّ أن تخافني، المهمّ أن تدفع، هات.

دفع حليش نصف ما أعطيته من مال، غضب الزلقوط فأعاد المبلغ.

ـ أنا لا أطلب صدقة.

ـ هذه ليست صدقة.. إنها كل ما معي.

تدخّلت فوراً في الحديث:

ـ هذا كل ما معه يا زلقوط.. ترفّق به. سايره كرامة لنا، ألم نصبح أصدقاء؟

ـ نحن لسنا أصدقاء... أنتم تحت حمايتي، ويجب أن تدفعوا.

ـ سندفع عندما نشتغل.

ـ ولكن حليش يشتغل.. يسرق الكحل من العين، يسرقكم أنتم عند اللزوم.

ـ مع ذلك أقبل الآن هذا المبلغ، سيعوضــ حين يصير معه.

ـ أقبل على شرط!

ـ اقبل بأيّ شرط.. اجلس واشرب شايا معنا.

ـ لا أستطيع، لديّ شغل. القيامة قائمة في الميناء، ويجب أن أكون هناك.

قلت متباهاً:

ـ ماذا هناك لتقوم القيامة؟

ـ كيف ماذا هناك؟ ألم تسمع بالاعتداء على العجوز؟

ـ اعتدوا على العجوز نفسه؟

صاح زلقوط في وجهي:

ـ هل تخبّلت؟ من يجرؤ على ذلك؟ اعتدوا على ماعونة العجوز فقط، سرقوها، كتّفوا حارسها وكمّموه، وهذا يعني الاعتداء على هيبة العجوز نفسه، يعني التحرّش به وانتهاك حرمة الميناء.

ـ أعوذ بالله.. ادفع يا حليش إذن، الزلقوط مشغول اليوم.

دفع حليش. قبض الزلقوط المبلغ دسّه في جيبه وقال متوعّداً:

ـ هذا نصف حقّي.. هذه دفعة على الحساب فقط، لا تنس ذلك إذا أردت أن تنفد بجلدك يا حليش.

قلت مسروراً بتسوية الموضوع:

ـ حليش لن ينسى، وأنت تستحقّ.

ـ أنا ذاهب إذن.. العبوا أنتم «الباصرة»، لا تتدخّلوا بما يجري، تفرّجوا فقط، أو روحوا أجرّوا أقفيتكم.

قالها وانسرب بين الطاولات، يتبعه الشابان اللذان معه. وقال رجل خشن المظهر، نابت الذقن، يلبس لباس عمال المرفأ:

ـ لا ردّك الله.

التفتّ إليه وابتسمت. شجّعه ابتسامي فتابع يقول:

ـ لماذا دفعتم له؟

ـ كي نتّقي شرّه.. أما سمعت ما يقول؟

ـ سمعت، رأيت، هذه هي المسخرة بذاتها، هذه المسخرة تتكرّر كلّ يوم، ومع ناس كثيرين. . إنهم يستقوون على الضعفاء، يفرضون الإتاوات عليهم، ومن لا يدفع يحرم من دخول الميناء. أمثال الزلقوط كثيرون، وهم رأس البليّة، رأس الفتنة، أف. .

استدرت نحو الرجل. كان يجلس قربنا، وكان يكفي أن أستدير حتى أكون إلى جانبه. أخرج علبة تبغه ولفّ سيكارة. أصابعه ثخينة ومخشّبة، جوزة حنجرته ظاهرة، تتوسّط عنقه الطويل الملفوح بالشمس، وله عينان حلوتان، يترسّب فيهما شقاء السنين. قدّم لي علبة تبغه فشكرته. أخرجت علبتي وتناولت سيكارة «طاتلي سرت» ثخينة، ورحنا ندخّن، لم أتكلم، لذت بالصمت حتى لا أبدو متطفّلاً على الحديث الدائر بينه وبين رجل آخر، يبدو أنه من العمّال أيضاً، يجلس قبالته. سألني بصوته الأجش الصارم:

ـ من البحّارة؟

ـ قلت متواضعاً:

ـ لا، لم أسافر في البحر أبداً، وأنا عاطل عن العمل الآن

ـ أنت غريب كما يبدو لي.

ـ أنا من منطقة بانياس.

ـ وجئت تبحث عن عمل؟

ـ أبحث عن عمل في المرفأ.

ـ فهمت.

قال ذلك ونظر إليّ نظرة حادّة، مستقيمة، شاملة، كأنما يقيسني طولاً وعرضاً. كانت قامتي العملاقة وعرض كتفي، وجلافة مظهري، كفيلة بأن تجعل كلامي معقولاً، فأنا، من حيث الجسم، عامل نموذجيّ، ومن

الطبيعي أن أبحث عن عمل في المرفأ، ولم أخفِ رغبتي هذه، الأمر الذي جعله يطمئنّ إليّ، ويتباسط في الحديث معي.

قال بصراحة وطيبة:

ـ تبحث عن عمل شريف، أم تعرض نفسك للإيجار؟

ـ أفضّل العمل الشريف إن وُجد.

سأل العامل الآخر:

ـ وإذا لم يوجد؟ تسرق، تقتل، تؤجّر نفسك؟ أنت في الميناء، انتبه جيداً، هنا كل شيء ممكن، ليس بين الحلال والحرام إلا شعرة، ما اسمك؟

ـ مفيد المتوف. .

ـ اسمي محمد القرش، ينادونني: أبو العبد، وهذا جمعة أبو مصطفى.

قال جمعة:

ـ كنيتك غريبة: المتوف، هذا لقب؟

ـ إنه لقب جدّي، كان متوفاً تماماً، وكذلك والدي، وهذا أنا، كل عائلتنا متاتيف، نحن فقراء جداً، على الحصيرة.

ـ الفقر ليس عيباً. العيب ألاّ يشتغل الإنسان، وأن يضلّ الطريق. . ما علاقتك بالزلقوط؟ وهذا حليش الذي تجلس معه، أتعرف من هو؟

ـ لا أعرف، اجتمعت به صدفة، وعدني بتدبير عمل لي في الميناء، وأنا أنتظر. .

ـ حليش هذا ابن كلب. لصّ حقير، الزلقوط أحقر، خرّيج سجون، قاتل، وإذا مشيت في دربهما أصبحت لصّاً أو قاتلاً، احترس، كُلْ لقمتك بعرق جبينك.

قلت:

ـ هذه نصيحة غالية، شكراً.

قال جمعة:

ـ تشكرني على ماذا؟ النصيحة لوجه الله.

ـ لكن نصيحة الكبير تستحقّ الشكر من الصغير.

ـ هذا كلام مضبوط.

أضاف بعد وقفة:

ـ هل تعرف الميناء؟

ـ لم أدخلها بعد.

ـ والمقهى؟

ـ أعرفه قليلاً، منذ أسبوع أو أكثر.

ـ احذر إذن. انتبه. لا تغرق في شبر من الماء.

قال محمد القرش:

ـ هذا شبر ماء؟ هذا مستنقع، فيه جميع الزواحف.

أضاف بعد أن أشعل سيكارة:

ـ مررت بمستنقع قبل اليوم؟

ـ لم أمرّ بأيّ مستنقع، ولا أعرف ماذا تقصد.

ـ أقصد المقهى طبعاً. هنا يغوص الغريب في الماء والوحل.

قال جمعة:

ـ ولا يخرج سالماً. اسألني أنا.

قال محمد القرش:

ـ إذا صمّم الرجل على الخروج من المستنقع خرج.

قال جمعة:

ـ لكن ليس قبل أن تلدغه أكثر من أفعى.

قلت:

ـ هذا فظيع!

قال محمد القرش:

ـ وما هو الفظيع؟

قلت:

ـ المقهى طبعاً.

قال محمد القرش:

ـ المقهى هو الجورة التي تصبّ فيها مجارير الميناء.

ـ أعوذ بالله.

ـ استعذ بالله ثلاثاً. تعلّم ممن هو أكبر منك.

ـ ما أسمعه فظيع!

ـ أنت لم تر أيّ فظيع بعد.

ـ رأيت معاملة الزلقوط لحليش.

ـ هذا لا شيء.

ـ كيف لا شيء؟ أمس جرّه على أرض المقهى وألقاه في الشارع.

ـ وماذا في هذا؟ يكفي أنه لم يقتله.

ـ يقتله لأجل شيء تافه؟

ـ المال شيء تافه؟ اسمع يا جمعة.

قال جمعة:

ـ المال هو كل شيء. هنا، في المقهى، المال كل شيء.

ـ والأخلاق؟

ـ مرحباً أخلاق. هذه غير واردة هنا. علة باطلة.

ـ لكن الذين في المقهى زبائن عاديّون، منْ البحارة والعمال.

قال محمد القرش:
ـ هنا لا شيء عادي. هل تعرف هؤلاء الزبائن؟
ـ من أين لي أن أعرفهم؟ أنا جديد في المقهى كما قلت.
ـ معذور إذن. الزبائن هنا درجات. هناك الرّياس: هؤلاء، في البحر، درجة أولى، وهناك المعلمون، وهؤلاء، في المرفأ، درجة أولى أيضاً. بعد ذلك انزلْ إلى تحت، إلى العمّال، وأكثرهم طيّب، فقير، مغلوب على أمره. لكن العمّال، أمثالنا، لا يتواجدون في المقهى إلا قليلاً.

قال جمعة:
ـ وهناك البحّارة. هؤلاء أشدّاء، لكنهم شرفاء غالباً. ما عدا ذلك الكلّ وحوش. أتفهم ماذا أقول: الكلّ وحوش!

قلت في نفسي: «وأنا وحش أيضاً». ثم سألت:
ـ وحوش بأيّ معنى؟

ضحك جمعة وقال:
ـ أمّا حكاية! أمّا سؤال! أقول لك: «وحوش!» وتريد أن تعرف بأيّ معنى؟
ـ قصدت ألا يستطيع أن يتجنّبهم الإنسان؟

قاطعني:
ـ لا يستطيع أن يتجنّبهم. هنا وكر الشرّ. كل من يدخل هذا الوكر يصبح شرّيراً، ونادراً ما يخرج أحد سالماً برأسه.

قال محمد القرش:
ـ نعم! لا أحد يخرج سالماً برأسه.

قال جمعة:
ـ لكن الذي لا يريد أن يتعاطى مع الشرّ يسلم منه.

قال محمد القرش:
ـ هذا نادر. الذي يدعس الزفت تتلوّث قدمه، لا فائدة من المكابرة، تجنّب الزفت يا مفيد. المقهى مفروش بالزفت. كل الموجودين فيه أقدامهم ملوّثة.

سألت كمن يريد أن يعرف، وبكثير من السذاجة:
ـ ومن هم هؤلاء؟ كيف تَزَفّتوا إذا كانوا أوادم؟ أليس في المقهى أوادم؟

قال محمد القرش:
ـ نعم، في المقهى أوادم. يجب أن تعرف ذلك. ولكن الأكثرية غير أوادم. إنهم من المهرّبين والحشّاشين والقوّادين، واللواطيين، والذين يُلاط بهم، وهم غالباً من الفتيان. وهناك اللصوص، وكذلك المدقّرون، وأبناء الزنى. المهم أن تعرف كل شيء، وتحذر كل شيء، وتنسل نفسك، عند اللزوم، كما ينسلون الشعرة من العجين.. فهمت؟ بخاطرك! سنلتقي.. لا بدّ أن نلتقي.

قالها محمد القرش ونهض. نهض كذلك جمعة. خرجا من المقهى، بقيت فيه وأنا أفكر بما سمعت. لم يكن ما سمعته جديداً، لكن محمد القرش وجمعة أبو مصطفى كانا صادقين، صادقين وشريفين. كانا من العمال، من الفئة النظيفة فيهم، وقد تكلّما بصراحة. برغبة في توعيتي وإنقاذي.

ذهب عبدوش وحليش أيضاً. بقيت وحيداً. هفّت عليّ رائحة البنّ. طلبت فنجان قهوة. مزاجي لا يعدله سوى فنجان من القهوة أو نصفيّة من العرق. أحب هذا الجوّ. هذا جوّي. أنا أعرفه، وأحبه كثيراً، وقد ألفته منذ عملت صياداً مع الريّس بكري الغطاس، منذ عاشرت الصيادين والبحارة. هنا إذن عالمي، وهذا العالم لي، ولن يكون في وسع أيّ ابن عاهرة أن يحرمني منه، أو يخرجني من المقهى أو الميناء.

لا مبالاتي ذاتها، إهمالي ذاته، أفرح للخير وأكره الشر، لكنني أقع فيه برغمي. تجارب! الأستاذ ماهر قال لي في السجن: «على الإنسان أن يعيش حياتين، في أولهما يجمع التجارب، وفي ثانيهما ينتفع بما جمع من تجارب» بالنسبة لي، هذه حياتي الأولى، حياة الشباب، حياة جمع التجارب، أنا جامع تجارب، صيّاد تجارب. لذلك أُقبل على التجربة كما يقبل الفحل على المرأة. ولست، رغم رعونتي، دون عقل، مع أني لا أصغي كثيراً لما يقوله عقلي.

كان المقهى يزدحم بزبائنه، وفي جوّه ينعقد دخان السكائر والنراكيل، ويعلو اللغط، وطقطقة أحجار النرد، والسباب، والكلمات الداعرة، وليس هناك طاولة فارغة ولا كرسيّ للجلوس، وليس من يكلف نفسه أن يفسح لك الطريق، أو يتنازل لك عن كرسي، وتستطيع، من النظرة الأولى، أن ترى حلقة الريّاس، وحلقات البحارة وعمال الميناء، وأن تعاين كيف ينحشر اللصوص والمهربون في الزوايا، وينزوي المحشّشون في أقصى المقهى.

هذا هو السبب في أنهم نظروا إليّ بارتياب عند دخولي المقهى، ثم اطمأنّوا عندما رأوا الزلقوط يجلس معي، وربما استراحوا حين رأوني أتحدث مع محمد القرش وجمعة أبو مصطفى.

أنا لا أدري ماذا كان رأي هذين العاملَيْن فيّ بعد أن تحدّثا معي بقلب مفتوح. كان كلامي معقولاً. كنت أسمع أكثر مما أتكلم، كنت أتباله، حتى أنهما قد أشفقا عليّ حقيقة. هذا ما تأكّد لي من أقوالهما، من نصائحهما، برغم أن هيئتي كانت غريبة. الذي «ستر الطابق(١)» أنْ لا شيء يبدو غريباً في مقهى الغرائب هذا. لكن لماذا أنا مهمل إلى هذا الحد؟ لماذا

(١) تعبير شعبي يعني: سَتَرَ المسألة.

هيئتي كهيئة رجل الكهف؟ قامة طويلة، متينة، عريضة الكتفين، ورقبة ثخينة، ورأس كبير، فوقه شعر جعديّ، منتفش، لم يسرح منذ أيام، وعينان عسليّتان، واسعتان، وجبهة منبسطة، تحتها أنف ضخم، وفكّان ضخمان، وذقن مفلطحة، وصدر ينشقّ عنه قميص من شيت، لم يعرف الكيّ، وشعر الصدر أسود، بخلاف شعر الرأس الخرنوبي، وساعدان قويّان معضّلان، وزندان مفتولان، ينتهيان بكفين، أصابعهما بحجم قرن الموز، أستطيع بهما أن ألوي الحديد.

المرآة لا تكذب. رأيت نفسي في مرآة المقهى عند دخولي. حاولت عبثاً تسريح شعري بأصابعي. زررت قميصي من أعلى فقط. ولما لم تكن هناك طاولة فارغة، تناولت كرسياً جلست عليه، وطلبت «قهوة على الريحة»(١) بانتظار حليش وعبدوش، ورحت أترشّف قهوتي بتلذّذ، دون أن أكلّم أحداً، وحتى دون أن أُلقي التحية على الريّاس الذين يجلسون بقربي.

لم أفعل أيّ شيء بتقصّد. كانت حركاتي طبيعية. جلستي متلائمة مع هيئتي. لم أكن عبوساً، ففي وجهي عِرق من الانشراح دائماً. ورغم وحشية منظري، فإنني لم أكن قبيحاً، وهذا ما أعرفه، وهناك طيبة في وجهي تظهر من بين القسمات القاسية، شديدة القسوة بضمورها، وكان فمي على استعداد دائم للابتسام، بل وللقهقهة، وعندئذ تبرز أسناني البيض، من بين شفتيّ الغليظتين، وتحت شاربي المهمل، بخلاف الرجال الأقوياء، المعتدّين بقوتهم أو نفوذهم، الذين يفتلون شواربهم، ويعقفونها إلى أعلى، ليعلنوا عن أنفسهم، كعنترة زمانهم.

من هو عنترة زمانه؟ الوجاهة تعطي وجاهة، الغنى يعطي قيمة، صاحب المركب صاحب مركب، والريّس ريّس، أما أنا فلا شيء. أعرف

(١) قليلة السكّر.

أنني لا شيء. ولكن لينتظر أولاد الفخذيْن المفتوحين لكلّ عابر سبيل. لينتظروا قليلاً، أو فليبدأ الآن، الآن وليس غداً أو بعده. أعرف أنني أجرّ المتاعب على نفسي، فالمتشرد الذي كنته لا يسعى إلى وجاهة أو غنى أو رياسة أو مركب. كلّ ما يريده أن يثبت وجوده في الميناء والبحر. وربما كان يرغب في إثبات وجوده في المدينة، وهذا لا شيء، هذا بسيط: الموت أو دفع ثمن الرجولة. أنا سأدفع ثمن الرجولة، سأموت عند الضرورة. الموت بسيط. الروح نسمة وتذهب، ولا يعنيني أين تذهب. الجنّة وجهنّم خارج حسابي، أما الرجولة فهي الهدف. وهذا المتشرّد سيكون رجل البحر والميناء، وربما المدينة أيضاً.

صار المقهى أليفاً. لم يعد غريباً عليّ. ما كنت أتصوّره عنه وجدته فيه. المقهى مستنقع كما قالوا. مستنقع يغوص فيه من لا ينتبه إليه. إذا خرج منه سالماً بروحه، لا يخرج سالماً بجسده. الجسد لا بدّ أن يلدغ. من يمرّ بالزواحف السامّة دون أن يصاب بلدغتها؟ من يدوس على الزفت ولا تتلوّث قدماه؟ أيّ ثوب أبيض لا يتبقّع إذا تناثر عليه الوحل؟ حديث محمد القرش وجمعة أبو مصطفى كان صحيحاً. هذا مستنقع، ومزفتة، وأرضية تقوم وتدور عليها جميع الأنواع الخبيثة من المحرمات والجرائم والتلفيقات والاتهامات والشقاوات الصغيرة والكبيرة.

هذا هو المقهى.. إنه بهذه القذارة، فكيف هي الميناء إذن؟ هناك الجحيم بعينه، وإلى هذا الجحيم أريد الدخول، وعليّ أن أعرفه قبل الدخول إليه، أن أكوّن فكرة عن ناره قبل أن أحترق فيها، وفي هذا المقهى كثير من زبانية هذا الجحيم، ومنهم، وبمراقبتهم، وحتى بمصاحبتهم، يمكن أن أعرف، لكن عليّ قبل كل شيء أن أتخفّى، أن أتخفى حتى يصير جلدي من جلودهم، حتى يندبغ كما اندبغت جلودهم المحروقة كالبنّ.

قلت في نفسي وأنا جالس وحدي: «عليك يا مفيد أن تداوم على

هذا المقهى. قبل الظهر وبعده. عليك أن تصبح من زبائنه، ومن الوجوه المألوفة فيه، وعليك أن تضيع بين هؤلاء الزبائن، فتأخذ منهم ولا تعطي. حذار أن تعطي. ابلع لسانك، احسبه كأنه لم يكن، وابق في هذه الثياب، في هذه القيافة، تظاهر أنك تبحث عن عمل، مجرّد مسكين يبحث عن عمل».

معرفة الزلقوط، رغم كل خبثه، أفادتني. راديو مجانيّ، كل يوم أسمع منه نشرة أخبار الميناء، وكان الخبر الرئيسي في هذه النشرة: عملية الماعون! فالعجوز لن يقرّ له قرار قبل أن يكشف الفاعل، وهذا الفاعل دخل قميصه، دخلَ مقهاه، ومن المستحيل أن يبحث عن غريمه بين قميصه ولحمه. كل شيء إذن على ما يرام. في وسعي أن أحتمل الزلقوط، بل الزلاقيط، وأن أجلس معهم، وأسمع منهم، وأصبح قريباً من جوّهم، وأتعرّف، عن طريقهم، بالآخرين، كل الآخرين، من خبثاء وطيّبين.

في أحد الأيام جاء الزلقوط يسأل عن حليش. قال لي:

- ألم يأتِ بعد؟

قلت:

- سيأتي بعد قليل.
- حين يأتي أنا بحاجة إليه.

قلت: سأبلغه ذلك.

بعد انصراف الزلقوط، ناداني محمد القرش:

- مفيد!
- سرت إليه. سلّمت. دعاني للجلوس، سألني:
- ماذا يريد الزلقوط؟
- يسأل عن حليش.

قال رجل يجلس إلى جانبه:

ـ تأمّل هذا العرص، صار يسأل عن الناس ويستخدمهم.

قال محمد القرش:

ـ نذل! كان عليك ألّا تردّ عليه.

ـ قلت: أجبت على سؤاله فقط.

قال الرجل:

ـ خفت منه؟

ـ ولماذا أخاف؟

ـ أنت من اللاذقية؟

قال محمد القرش:

ـ إنه غريب من بانياس. اسمه مفيد، مفيد المتوف.

قال الرجل:

ـ ومن نتفك؟ هل أنت عصفور؟

قال محمد القرش:

ـ غريب ويبحث عن عمل.

قال الرجل:

ـ إذا كان عصفوراً فلن يجد عملاً. لا مكان هنا إلا للنسور وأسماك القرش.. تعرف ما هي سمكة القرش؟

قال محمد القرش:

ـ تمتحنه يا فاروسي؟

قال الفاروسي:

ـ أعامه. لو كان قلبه مثل جسمه لكان شغلة! خسارة.

قال محمد القرش:

ـ الغريب غريب يا فاروسي. انتظر وسيتعلم. لا تشدّ يدك عليه. ماذا تشرب يا مفيد؟

ـ قهوة.

نادى الكرسون وطلب لي قهوة. جلس معنا قليلاً ونهض. قال:

ـ لديّ شغل. الفاروسي باقٍ يا مفيد. اجلس معه. هذا أبو عبدالله. اسمه تميم الفاروسي.

ـ قلت: أنعم وأكرم.

أضفت:

ـ إذا أرادني أبو عبدالله في شغل فأنا مستعدّ.

قال الفاروسي:

ـ باركك الله فيك. أنت ولد خدوم. لا تيأس. لا بدّ أن تُفرج.

قلت:

ـ إن شاء الله. أنا مستعدّ للعمل، أيّ عمل، فقط لو أجد عملاً.

قال الفاروسي:

ـ ستجد عملاً، اصبر.

أضاف:

ـ ابحث عن عمل جيّد، لا عن أيّ عمل.

قلت:

ـ حين يكون الإنسان محتاجاً للعمل، يقبل بأيّ عمل.

استدار نحوي وسألني باهتمام:

ـ تعمل مع الزلقوط مثلاً؟

ـ وماذا يعمل الزلقوط؟

ـ اسأله..

ـ أريد أن أسألك أنت. أنت رجل طيّب. أنت صاحب محمد القرش.

ـ أنا ومحمد القرش نعمل في الميناء، من فرقة المعلم رضا.

ـ وماذا تعمل؟ عدم المؤاخذة.

- حمّال طبعاً. آكل خبزي بعرق جبيني. لست أزعر. ولا قاتلاً. ولا أؤجر نفسي لأعمال القتل. باختصار لست مثل الزلقوط.
- هل الزلقوط قاتل؟
- هذا النذل؟ إنه أقل من كلب. لا تشاكله، لا تأخذ وتعط معه. إنه حقير. إنه سمّ، هل تفهم؟
- أفهم، ولكن الزلقوط يحوم حولي.
- لا تتعامل معه. هذا يحوم حول الغرباء. يغريهم بالعمل معه. يعلّمهم السرقة والقتل والإجرام.

قلت:
- أعوذ بالله. لن أتعامل معه بعد اليوم، ولكن من يحميني منه؟

قال الفاروسي:
- مثلك لا يحتاج إلى حماية. ألا ترى صورتك في المرآة؟
- أنا ضخم. أعرف هذا. وأنا قويّ مثل بغل، ولكن الزلقوط من جماعة العجوز.
- هذا صحيح مع الأسف. أنت لا تستطيع مقاومته.. الزلقوط مدعوم. وراءه عصابة، وعصابته من الأنذال. الميناء مليئة بالأنذال. وهنا الصعوبة. أنت تحتاج إلى حماية.
- وكيف أحصل عليها؟
- ليس بالشحادة مثلاً. تحصل على من يحميك حين تحمي غيرك. هنا لا تنفع الطيبة. هنا تنفع الشجاعة. نحن الحمّالين نتبع للمعلمين. ومع ذلك يتجاسرون علينا. يضايقوننا. يعضوننا. ينهشون في أجسامنا إذا استطاعوا. هل تعرف البحر؟ أنت من بانياس ولا بد أنك تعرف البحر، ماذا كنت تشتغل في بانياس؟
- في الفرن.

- إذن لا تعرف البحر.
- رأيته. سبحت فيه.
- أعرف، أعرف. الرؤية لا تكفي. السباحة لا تكفي. يجب أن تعيش في البحر لتعرفه. يجب أن تعمل فيه، أن تغوص، أن تصل إلى القاع، أن تشوف ما في القاع. هناك ترى كل شيء، من سمكة البوري إلى الدرفيل(١)، من الأخطبوط(٢) إلى سمكة القرش غير الموجودة في بحرنا.

قلت:
- أنا رأيت أسماك القرش في السينما.
- عال! أسماك القرش موجودة هنا أيضاً، في الميناء.
- أسماك القرش خطيرة.
- أنا لا أتحدّث عن أسماك القرش في البحر، هذه خطيرة فعلاً. أنا أتحدّث عن أسماك القرش في الميناء، هذه أخطر، لذلك سألتك: تعرف سمكة القرش؟ أنت رأيتها في السينما. هنا تراها في الواقع. أنت تفرّجت عليها في الفيلم هنا تعيش بينها في الميناء. أم أنك لا تعرف الميناء؟
- لم أدخل إليها بعد.
- الدخول وحده لا يكفي. أنت غير سائح. أنت عامل. أنت تريد أن تعمل في الميناء. لكنّك تجهل ما هي الميناء. لا بد أن تدفع الثمن كما دفعناه. الميناء قحبة. هل تقبل القحبة أن تركبها دون أن تدفع لها الثمن؟
- خوّفتني من الميناء.
- لا تخف. الناس تقطع الطريق خطوة خطوة. عليك أن تقطع الطريق إلى الميناء خطوة خطوة. عليك أن تتعرف بأحد رؤساء الفرق.
- ومن يساعدني في ذلك؟

---

(١) (٢)نوعان من السمك.

ـ محمد القرش، وأنا عند اللزوم. اطلب من محمد القرش أن يعرّفك بالمعلّم رضا الذي نعمل معه. هذا مختصر الكلام.

في الفاروسي شيء ما يجذبك إليه. وجهه الأسمر، فمه المدور، جبينه العريض، رجولته، صراحته وكذلك اكتواءه بنار الميناء. «معذّب!» هذا هو الانطباع الذي تكوّن لديّ عنه. من أين يأتي عذابه؟ الحرقة التي تلذع حلقه ما سببها؟ هل هذا لأنه عامل؟ حمّال كما قال؟ لقد أعطاني فكرة صحيحة ولكن خطيرة عن الميناء، قال: «إنها يبدر من الناس تماماً كما يبدر الحنطة أو الشعير. في الرأس حبة حنطة كبيرة، هي العجوز، في الراق الثاني حبات من الحنطة هم أزلامه، بعدهم يأتي رؤساء الفرق، ثم المسؤولون عن ورديّات العمل، وبعد ذلك العمال، في آخر السلّم يأتي العمال، هؤلاء يخضعون لمن فوقهم، والذين فوقهم لمن فوقهم أيضاً، وهكذا درجات. العجوز رتّب مملكته كما يريد، كما يجب، رتّبها كما لا يستطيع أفضل مهندس. بناء كبير، وكل حجر له دور، والضغط كلّه على الأحجار التي في الأساس. على العمّال الذين ليس لهم سوى أجرهم، بينما يتقاسم الذين فوقهم الحصص حسب درجاتهم. رجال العجوز يفوزون بالحصّة الكبرى، رؤساء الفرق بالحصّة التي تليها، ويتدرج الأمر نزولاً عند توزيع الحصص، كما يتدرج صعوداً عند توزيع العمل. الثقل كله على العامل، على الحمّال، الذي وحده يكدّ، يتعب، يبصق الدم، والذين أعلى منه يستغلّون تعبه، والمستغلّ الأكبر هو العجوز، هو الذي يجمع الخيوط في يديه، والأموال في أكياسه، وهو الذي يتربّع على القمّة، ويعطي من يشاء، ويحرم من يشاء، ويقرب من يشاء، ويبعد من يشاء، ومن يخالف يُلْقَ خارج الميناء. هذا إذا كان حظّه حسناً، أما إذا كان سيّئاً، فإنه يغيب بطريقة من الطرق الكثيرة، الجهنمية. أسماك القرش جاهزة أبداً للنهش، للقتل، لتمزيق الفريسة دون أن يسألها أحد عما فعلت، مادامت الميناء مملكة لأسماك القرش وحدها».

الريس بكر الغطّاس كان قد حدّثني عن شيء من هذا. قال كلاماً كثيراً، فهمت منه شيئاً واحداً: الميناء غابة وحوش. ولأنها كذلك فقد هرب منها، لجأ إلى الصيد، وحين شحّ الصيد باع المركب، وربما هاجر لأنه فضّل الابتعاد عن الميناء. أنا بخلافه. أفضّل الاقتراب. أسعى له، أرتّب أموري على هذا الأساس، يدفعني إحساس بأنني سأنجح. فإذا كانت الميناء غابة وحوش، أصبح أنا أحد وحوشها، وإذا كانت بحراً للقروش، أصبح أنا قرشاً، وفي كل الأحوال أغامر، والمغامرة في دمي. إذن أنا أضع نفسي في مكانها، مندفعاً أكثر، كلما سمعت عن خطورة الميناء أكثر. وبانتظارْ ذلك، عليّ أن أجيد دوري. أجدته حتى الآن. أنا بغنى عن عبدوش وحليش. افترق دربنا. صار في وسعي أن أسبح في هذا الجون وحدي، لكنني سأراقب حليش جيداً، يجب ألاّ يغيب عن نظري، وأن يبقى في متناول يدي، وأن يبلع لسان الأفعى الذي في فمه. أما عبدوش فإنه صديقي، ويجب أن يبقى صديقي، وأن يعيش في ظلّي. وينال مما أنال، ويسلم من الأذى الذي لا بدّ أن أتعرّض له أنا.

بيتي بين بساتين الرمل. وعليّ، كل صباح ومساء، أن أمرّ بالسجن والكرخانة. هذا يجعلني في جوّي أيضاً. أظلّ في جوار السجن وبيت البنات. لا أنسى الأول، ولا أعفّ عن الثاني، فإذا كنت رجلاً، إذا كنت فحلاً، فلا بدّ لي من مناخ للرجولة والفحولة، والسجن والمبغى يصلحان لذلك، يصلحان مؤقتاً، ريثما أبعد الخطر عنّي، وألتقي لبيبة. إنني مازلت أحبّ لبيبة. الوفاء ليس وشماً على صدري. لم أقتنع بالوشم. لم أسمح لأيّ نورية أن تخزني بالإبر لتصنع لي وشماً كما يفعل الذين أمثالي، غير أنّ حب لبيبة وشم على القلب. وشم في الداخل، وفي هذا الداخل يعيش حبّي الأول والوحيد. أما علاقتي ببقية النساء فهي مغامرات. أنام مع واحدة الليلة، وأنام مع غيرها غداً، وأفعل ذلك لفتح صدري. ممارسة الحب تفتح الصدر، تجعلني مكتفياً من هذه الناحية.

حين كنت في السجن، قالت لي لبيبة، قبل يوم من نقلي إلى حلب، إنها تشتغل في الريجي، وتسكن حي العويني. سألت عنها في الموضعين فلم أقع لها على أثر، على ذِكْر، على من يعرفها، أو رآها، فهل يكون اسم لبيبة اسماً وهمياً؟ إسماً اتخذته في بانياس، كي لا تقول اسمها الحقيقيّ، ولا يعرف أهلها عنها شيئاً؟ هذا جائز، المرأة التي تعيش عيشة مريبة، تظلّ تخاف من أهلها، لأن أهلها يظلّون في أثرها، لغسل عارهم بالدم! إذن لبيبة خائفة أن يغسلوها بدمها. إذا رأيتها أمنتها، حميتها، اتّخذتها زوجة شرعية والسلام.

صرت، بحجة البحث عن شغل، من زبائن المقهى الدائمين. ألتقي عبدوش وحليش في بيتي، وأحياناً في المقهى، نلعب الباصرة فيها، أتظاهر باللعب وأراقب، ويوماً بعد يوم، تركت اللعب حتى لم يعد يعنيني. لم يعد ستارة لي. صار لي معارف. محمد القرش وجمعة أبو مصطفى وتميم الفاروسي وغيرهم، لكنني لم أكشف نفسي. ثيابي هي هي. صمتي هو هو. تأدّبي، إصغائي، توسيع دائرة معارفي، حتى أصل. وعن طريق محمد القرش وصلت إلى المعلّم رضا، رئيس فرقة العمال في الميناء. عرّفني عليه في يوم عطلة، وكان المعلم رضا يشرب أركيلته، وهو رائق المزاج، راضٍ عن عمله وعن الميناء والدنيا.

قال محمد يقدّمني إليه:

ـ هذا مفيد الذي حدّثتك عنه يا معلم.

بقيت واقفاً حتى يأذن لي بالجلوس. كان من حوله بعض الحمّالين، من أفراد فرقته وغيرها، وكانت ناركيلته تقرقر، والدخان يخرج من فمه وأنفه، ويتطاير متصاعداً وهو يتشكّل حلقات ويختلط بالدخان الكثيف المنتشر في جو المقهى. نظر إليّ المعلم رضا نظرة خبير بالرجال. كان معلّماً طيّباً، معروفاً، مرهوب الجانب، ولم يكن بحاجة إلى من يعمل معه، بل إلى من

يقف إلى جانبه، بسبب المنافسة الشديدة القائمة في الميناء، ويبدو أن شكلي أرضاه، فقال:

ـ اجلس!

جلست. أجلسني محمد القرش على كرسي إلى جانبه، راح يهمس في أذن المعلم رضا شيئاً عني، وكان المعلم رضا يهزّ برأسه، ويتابع سحب الأنفاس من ناركيلته، ويتطلّع صوبي من وقت لوقت. أخيراً قال بغير اهتمام:

ـ ماذا تشرب؟

ـ قهوة.

قال:

ـ أنت من بانياس؟

ـ نعم يا معلّم رضا.

ـ وكنت أجير فران؟

ـ كنت أشتغل في فرن.

ـ ألم تجد شغلة أخرى، تناسب جسمك!؟

اضاف بعد أن سحب عدة أنفاس:

ـ أنت تصلح للسفر في البحر، جرّبت أن تكون بحّاراً؟

ـ لم أجرّب.

ـ تريد أن تشتغل في الميناء؟

ـ إذا ساعدتني.

ـ المساعد هو الله يا ابني.

قال محمد القرش:

ـ مفيد سيكون حمّالاً جيّداً.

ـ عندي ما يكفي من الحمّالين.

قال محمد القرش:
ـ إذا زادوا واحداً لا يقلّ الرزق.
قال المعلم رضا:
ـ الرزق من الله. هو الذي يرزق من يشاء.
قال محمد القرش:
ـ صدقت يا معلم، لكن مفيد داخل عليك.
ـ بتوصية منك يا محمد؟
ـ نعم.
ـ وبكفالتك؟
ـ إذا قبلت كفالتي. مفيد نافع لنا.
ـ من أيّ ناحية؟
ـ من كل النواحي.
ـ حتى من الناحية التي تعرفها؟
ـ هي ما أقصد بالذات. سيكون واحداً من رجالك.
قال المعلم رضا:
ـ في الميناء كثير من الرجال. والذين يريدون العمل في الميناء «مثل الهمّ على القلب»[1].
ـ مفيد من الرجال الذين تستطيع الاعتماد عليهم.
ـ بأيّ علامة؟
ـ بعلامة هذا الجسم.
ضحك المعلم رضا. سحب أنفاساً متتابعة وقال:
ـ لا يخدعك المظهر يا محمد. الرجل يختبىء في ثيابه.

(١) مثل شعبي يعني: الكثرة.

قلت:
ـ عفواً يا معلم، شغّلني معك، جرّبني. إذا لم ترض عني أطردني.
ـ كلكم تقولون هذا الكلام في البدء، تقولونه لتدخلوا الميناء، وبعد ذلك تديرون رؤوسكم.
قال محمد القرش:
ـ مفيد غير الآخرين. له فم يأكل وليس له فم يحكي.
قال المعلّم رضا ساخراً:
ـ وماذا يعني هذا؟ هذه الصفة مطلوبة في البنات لا في الرجال، أنا أريد رجلاً إلى جانبي وليس بنتاً أخطبها لابني.
تكدرت. أين فراسة المعلّم رضا التي سمعت عنها؟ شكلي يدلّ عليّ، ألا يرضيه شكلي؟ وهذا الرأس؟ لماذا خُلق إذن؟
قلت:
ـ اقبلني يا معلم رضا تَرَ مني ما يعجبك.
ـ أنت واثق مما تقول؟
ـ كيف أبرهن لك؟
ـ برهان الرجل ماضيه. كم مرة دخلت السجن؟
ـ لم أدخل السجن.
وقلت في نفسي «هل هذا شرط؟»
ـ إذن لا تنفعني.
قال محمد القرش:
ـ لا تقطع معه من جلسة واحدة. فكّر في الأمر.
قال المعلم رضا وكأنه يريد أن ينتهي من الموضوع:
ـ سأفكّر.

خرجت من المقهى خائباً. رجعت إلى البيت وشربت رجاجة كاملة. أنا في ورطة. لا أستطيع الكشف عن نفسي، ولا أستطيع إرضاء المعلّمين في الميناء إلا إذا كشفتها. إلى متى أمثّل دور الشابّ الخائب، المسكين؟ لماذا لا انتهي من هذه المهزلة، وليكن ما يكون؟ يا مفيد يا ابن «الخراب»، يا ابن المنتوف، أنت تمشي على رأسك. أنت بهلوان. بهلوان بغير حركات. تمشي على حبل، توازن جسمك جيداً، والسقوط منتظر في كل لحظة، فإلى متى هذا اللعب الصامت على حبلين؟

جاء عبدوش. رحّبت به. سررت في أعماقي. أنا الآن بحاجة لمن أتكلّم معه، عبدوش هو الذي أستطيع الكلام معه، أحياناً أقسو عليه. أفعل ذلك أمام حليش. حليش يرى ويتّعظ. الآن حليش غير موجود، وأنا ملخبط. هل أنا شربت العرق أم هو الذي شرّبني؟ لست مسروراً رغم أنّ رأسي ثقيل. أسكر ولا أنشرح؟ ماذا جرى؟ لماذا أهتمّ هذا الاهتمام؟ إذا لم يكن المعلّم رضا كان غيره. سأظلّ في المقهى، أمام بوابة الميناء، حتى أحقّق الذي في رأسي: دخول الميناء!

قال عبدوش:

- أنت في داهية[1] كما يبدو.
- داهية كبيرة.
- انكشف أمرنا؟
- لا. إذا لم يتكلم حليش فلن ينكشف
- تظنّه يتكلّم؟
- مادام شريكاً في العملية فلن يورّط نفسه.
- ألا ندبّر عمليّة ثانية؟

---

(١) مصيبة

- ليس قبل أن يتقرّر مصيري: أدخل الميناء أم لا أدخل.
- وماذا يعني لك دخول الميناء؟
- كل شيء. كل شيء يا عبدوش. المغامرة هناك.
- وبماذا تنفعك هذه المغامرة؟

انتزاع الاعتراف بي، الظهور كما أنا، على حقيقتي، دون خوف. دون مسكنة. إثبات الرّجل. إذا وضعت رجلي في الميناء أخطو الخطوة الثانية: اصير قرشاً، أجعل الجميع يفهمون أنني قرش أسود.

- في الميناء كثير من القروش السود. قروش من جميع الألوان. ثم إن القرش ليس أسود. لونه بنيّ غامق.
- سأكون قرشاً أسود أو أبيض. أتميّز بلون خاصّ.
- وبعد ذلك؟ تظن أن الميناء خالية من القروش السود؟
- ومن قال إنها خالية من هذه القروش؟ أريدها ألّا تكون خالية. أن تكون فيها قروش سود كثيرة. عندئذ تسوى المغامرة ثمنها. تستحق أن تكون مغامرة. أنت تعرف أنني لا أريد إنصاف الأشياء. أسيطر على من حولي أو يسيطرون عليّ.
- سيسيطرون عليك. ينزعون زعانفك. يقتلعون أسنانك. القرش له أسنان كالمنشار. ومع ذلك يعرف الصيّادون المدرّبون كيف يروّضونه، يصطادونه وينشرونه إلى قطع صغيرة. احذر هذا المصير. تعقّل. لا تضع نفسك تحت منشارهم.
- ومن هم هؤلاء الأوغاد؟ من الذي يستطيع أن يصطادني وينشرني؟ هل جئت لتشجيعي أم لتخويفي؟
- لا هذا ولا ذاك. أنا أبصّرك بالعواقب.
- ومتى صرت تهتمّ بالعواقب؟ ربّاك السجن؟ دجّنك؟ أم تريد أن تسلم برأسك؟ اطمئنّ يا ابن أمّك. أنا أقامر برأسي فقط.

- ستجد في الميناء من يقطعه لك. هناك أكثر من سيّاف. هناك جلّادون. ينفذون الإعدام بطريقة مريحة. مريحة جداً

- كفى! لنترك هذا اللغو. ألا تشرب قليلاً؟

- أنا جائع بصورة لعينة.

- كلْ إذن. هناك بقايا كباب. أنا سأعمل لنفسي فنجاناً من القهوة. غداً نرى ما يكون.. انتظر كلمة المعلّم رضا.

- سيطول انتظارك.

- لا حلّ آخر في الوقت الحاضر. لا بدّ من الانتظار. لا بدّ من الانتظار الطويل. ولماذا العجلة؟ لدينا ما يكفي من المصاري[1] ولدينا الوقت، ولن أشترك بأيّة عملية. عمليّتي الآن دخول الميناء، وسأدخلها.

- رأس ثور!

- كن لطيفاً يا ابن الخائبة. أعصابي لا تحتمل المزيد. غداً نرى. قلت لك غداً نرى. لننتظر إلى الغد.

الشبكة فارغة. ألقيت شبكتي في الغد فكانت فارغة. لم أجد أحداً ممن أعرفهم. لم يكن المعلّم رضا في المقهى. جلست. انتظرت. لا فائدة. مكّوك حائك أنا، بين الوكر والمقهى. والمعلّم رضا غائب، وكذلك محمد القرش، وليس سوى الزلقوط يحوم حولي. الجو متوتّر. العجوز لا يقرّ له قرار. يصرخ: «أين ابن الفاعلة!؟ هاتوا لي ابن الفاعلة! سأقتله بيدي» والزلقوط يدور، والزلاقيط تدور، والشائعات والشبهات، والمؤامرات، وكل من في الميناء يضع يده على رأسه. لكن أحداً منهم لم يخطر في باله أن يضع يده على رأسي.

أخيراً التقيت محمد القرش، فصاح منذ رآني:

---

(١) النقود.

- وافق المعلّم رضا! انتظرْهُ في المقهى. وهو مشغول الآن. كلّ الميناء في شغل الآن. مسألة لعينة.

عرفت المسألة دون أن أسأل عنها. أنا لن أفتح فمي بكلمة حولها. أنا أجلس فقط. أشرب القهوة. أتسلّى بالورق. أرى حظّي في الورق. أبسطه. ألمّه، أفتح فيه. أنتظر. لكن إلى متى أنتظر؟ كاد صبري ينفد وفجأة اجتمعت، على غير ميعاد بالمعلّم رضا بعد أيام.

كان يجلس وحوله بعض رجاله. تقدّمت، سلّمت، سحبت كرسيّاً وجلست. قال محمد القرش:

- ها هو مفيد. أبشرْ يا مفيد. المعلّم رضا وافق على أن يضمّك إلى فرقته.

قال المعلّم رضا:

- سنجرّبك كما قلت.

قلت:

- شكراً.

قال أحد الجالسين:

- الفرقة لم تعد تحتمل الزيادة. العدد صار كبيراً.

قال المعلّم رضا:

- مع ذلك سيكون مفيد من الفرقة، أعني من جماعتي.

صاح الرجل الذي اعترض:

- ومن جماعتك أيضاً؟ لا، هذه مزاحمة جديدة بالنسبة لنا.

قال المعلّم رضا حاسماً الموضوع:

- نعم من جماعتي، وماذا في ذلك؟ إنه قويّ، والعمل في المرفأ يحتاج إلى الأقوياء، ولكل مخلوق رزقه، فأين المزاحمة؟

قال الرجل:

ـ هذه هي المزاحمة. الفرقة لم تعد تحتمل يا معلّم.

قال المعلّم رضا:

ـ بل هي تحتمل. هذه كلمتي، وأنا أعرف ما أفعل.

قال الرجل:

ـ إذن كما ترى. أنا أبديت رأيي حرصاً على المصلحة.

قال المعلّم رضا.

ـ أنا أدرَى منك بالمصلحة. إذا لم ينضمّ إلى جماعتنا انضمّ إلى جماعة أخرى.. إنني بحاجة إلى الأقوياء والشجعان، وباب الرزق واسع، والشجاع يحصل على رغيفه من فم السبع، أم أنني مخطىء؟

قال محمد القرش:

ـ حاشا... للمعلم رضا نظرة في الرجال لا تخيب.

ـ ونظرتي في مفيد لن تخيب إن شاء الله.. أليس كذلك؟

قالها متوجّهاً إليّ، فأجبت متأدّباً:

ـ سأكون رهن إشارتك يا معلّم رضا، أعمل ما لا يُعمل، احمل كيسين من القمح على ظهري، وأتصدّى لمن يعترضك بزندي.

ـ هذا ما أريده، هذا ما يسمى أصول العمل في الميناء.. الجسم القويّ والقلب القويّ، أم أنك من ضعاف القلوب.

باغتني السؤال. ارتبكت في الجواب. ابتسمت ريثما أفهم ما يدور حولي. هذه المرة الثالثة التي أجلس فيها إلى طاولة المعلّم رضا. لم أعرف المعلّم جيداً، لكنني أحببته. صراحته أرضتني. هيئة العامل المجرّب فيه أرضتني، وها هو، دون مقدّمات، يمنحني ثقته.. يكتشف فيّ العامل القوي، وهذا ظاهر من جسمي، لكنه يسألني عن قوة قلبي، وهنا المطبّ!

قد يكون سؤاله بريئاً، وقد يكون فخاً، لا بد من الحذر.

قلت:

ـ لست من ضعاف القلوب، لكنني، حتى الآن، لم أمتحن شجاعة قلبي، ولا أعرف ما هو مطلوب مني.

ـ المطلوب أن تحمل على ظهرك، وأن تقاتل بزندك.

ـ الحمل على الظهر فهمته، ولكن القتال استغلق عليّ، نقاتل مَنْ؟

ـ قال محمد القرش:

ـ أعداء المعلم رضا طبعاً.

قلت:

ـ هل نحن في شغل أم في معركة؟

قال محمد القرش:

ـ نحن في الاثنين.

ـ كيف؟

قال المعلّم رضا:

ـ وهل تريد أن تعرف كل شيء في خمس دقائق؟

ابتسمت بطيبة، كعادتي حين أكون هادئاً، واعتذرت فوراً:

ـ العفو! أنا غريب، وجاهل، والميناء، كما يبدو، سرّ..

قاطعني المعلّم رضا:

ـ إنه سرّ كبير، قضيت عمري ولم أكتشفه كاملاً.

ساد الصمت لحظة، انصرف المعلم رضا إلى أركيلته. راح ينظر إليّ من طرف خفيّ، يروزني، يتمهّل في قول أشياء قبل أوانها، أو في غير مكانها، غير أنه لخّص تجربته بهذه العبارة:

ـ الميناء، يا ابني، غابة، عشت فيها وكأنني أعيش دائماً في غابة. أتوقّع الخطر في كل لحظة. إنّها مخيفة!

قال ذلك وصمت. لم يتكلم الآخرون أيضاً. هل كان ما قاله عن الميناء صحيحاً إلى درجة لا كلام بعدها؟ هل هي مخيفة إلى هذا الحد؟ وصفها بالغابة. لماذا يصفون الشيء المخيف بالغابة؟ هل لأن وحوشها ضارية؟ وهل وحوش الميناء من الضواري؟ إنني، إذن، أدخل عالماً عجيباً. أنت، يا مفيد، تدخل عالماً غريباً. هذا ما تعرفه، ومع ذلك تدخل. بل تصرّ على الدخول. إنه قَدَرك. لا خيار: السرقة أو العمل. أنت اخترت العمل، فأي نوع من الأعمال ينتظرك؟ فَكِّرْ. لا بدّ أن تفكّر. إنه مصيرك المجهول، مصيرك الملعون، واللعنة فيه تعني النهاية. أنت تواجه النهاية، أنت هو النهاية. أردت دائماً أن تعمل بشرف، وها هو العمل بشرف، ليس أمامك أشرف منه فاقبله. اقبله طائعاً. اقبله ما دامت الظروف تدفعك إليه. أنت لا تستطيع أن تقاوم الظروف. جرّبت فأخفقت. قاومت طويلاً وها أنت تستسلم، أنت لا تستسلم بل تريد. قل إنك تريد فهذا أفضل. أن تريد الشيء أفضل من أن يُفرض عليك.

انفضّ المجلس. نهض المعلّم رضا. تبعه الآخرون. بقيت وحيداً. استرحت لأني بقيت وحيداً، نفضت عني الحرج. فكرت: «ما أطيب أن ينتهي الحرج ويصبح الإنسان كما هو، لا كما هو مجبر أن يكون أمام الآخرين. حرّ. أنت حرّ. هذا معناه أنك حيّ. الحريّة هي الحياة. إنني أبحث عن الحريّة حين أبحث عن الحياة. اريد أن أصل إلى حريّتي ومعها حياتي».

نهضت أنا أيضاً. مضيت صعوداً بمحاذاة الشاطىء. كانت الشمس قد غابت. مغيب الشمس، في الخريف، جميل على الساحل. تتدلّى المُبارَكة ـ كما كانت تقول أمي ـ كأنها صحن كبير من ذهب، مربوط بخيط لا نراه.

تظلّ تتزحلق عن طرف السماء، وعندما تقترب من حافة البحر لتغطس فيه، تصير حمراء، ويصير الغيم، من حولها بلون الدم، كأنما حريقة حدثت هناك، في الأفق. هل كان من سوء حظّي أن لي عاطفة رقيقة أمام منظر الغروب! كانت هذه الرِّقة، التي تليق بفتاة، غير لائقة بالنسبة لعتريس مثلي، وكلما انتهرت نفسي، في لحظات الضعف هذه، وقرّرت أن أتخلّص منها، راجعتني هذه الحالة، حتى كدت أيأس من الخلاص منها. كنت أقول في نفسي: «أنت رخو» يا ابن الكلب، وأنت تخاف أن يكتشف أحد فيك هذه الرخاوة يوماً، فتصبح مَضحكة. ولدتَ شقيّاً، ونشأت شقيّاً، وجررت وراءك سلسلة من أعمال الشقاوة، وفجأة: أمام المغيب، وزرقة البحر وخضرة الطبيعة، تتبدّل حالك. تقتلك العاطفة الملعونة، ويرفرف قلبك مثل عصفور في صدرك».

سرت متمهلاً على طول الشاطىء. حيّيت البحر. «مرحباً يا بحر!». ردّ عليّ هدير الموج. البحر ردّ تحيتي، إذن كلّ شيء في مكانه. يمكن، الآن، أن أعُود إلى وكري. كنت أقول «وكري» لا «بيتي»، فهذا البيت العن من وكر، ومع أنني أصبحت قادراً على استئجار غرفة أو بيت، فقد قرّرت البقاء حيث أنا، ما دمت آمناً على سرّي وروحي. المظاهر لا تعنيني في شيء. والمرأة لا تشغل بالي. حين يتحرّك الإصبع الذي في أسفل بطني، أقصد المبغى. نصف ساعة وينتهي الأمر.

هكذا مشيت في الليل. الليل ستار. الليل طاقية إخفاء. أستريح إليه. تقوم بيني وبينه إلفة. أجعله مثل لحاف لي، ألبسه وأدور به، أدخل فيه وأشعر بالطمأنينة. لذلك تجنّبت الخمارات والمقاهي والشوارع المضيئة. قصدت مكاني المعتاد، على الصخرة، شاعراً بالرضى عن نفسي، وبراحة وفرح. قلت لمفيد الذي في داخلي: «أحسنت يا ولد. لعبت دورك بمهارة. خدعت الزلقوط والمعلم رضا، كان وضعك في المقهى طبيعياً. لم تلفت

الأسطار إليك، وغداً، حين تعمل مع المعلّم رضا تصبح من جماعته. تشتغل حمّالاً في الميناء. وماذا في ذلك؟ المهمّ أن تدخل الميناء، أن تعيشها من الداخل، أن تكتشفها، أن تضع قدمك فيها، ويصبح وجودك في المرفأ، وفي المقهى، مشروعاً، كأي واحد من المشتغلين فيه، وعندئذ، وأنت تلطي تحت جناح المعلم رضا، تتحيّن الفرصة، لا لتسرق، ولكن لتثبت أنك رجل، بل أنت، عند ضرب القنا بالقنا، رجل الرجال».

حلو! كل شيء حلو، حين تكون نفسك حلوة، وحين تداعب آمالك، وتشقّ طريقك، وتتخيل، وأنت مسرور، أن المستقبل يضحك لك، وأنك تسير نحوه بخطا واثقة، مضمونة، بعد هذه الحياة اللعينة، حياة الطيش والزعرنة والسجن. ستصبح يا مفيد من الأوادم، ومن الذين لهم مكانة في الميناء. نعم في الميناء، في قلب الميناء، هذه التي قطعت مشواراً طويلاً قبل أن تصل إليها، وتفرض وجودك فيها، وتعيش، في عزّ النهار، وتمشي مرفوع الرأس، مسموع الكلمة، وتجعل أولاد ضيعتك، من والدك إلى المختار، يعرفون من أنت، وماذا في وسعك أن تفعل، وكيف صرت رجلاً، بعد أن كنت ولداً، يضربونك بغير رحمة لأنك قطعت ذنب الحمار.

انتشيت بأفكاري. اعتدل مزاجي كأنني شربت نُصيّة، صارت الأمور واضحة لي. لكن قولة المعلم رضا «الميناء غابة» ذكّرتني بما كنت نسيته. المعلّم رضا قال لي: «تصير من جماعتي» إذنه له جماعة، وكل الذين أمثاله لهم جماعات، وكل قبضايات الميناء لهم جماعات، وهذه الجماعات لها مصالح، وحصص، ونفوذ، وحين تتضارب المصالح تبدأ المعارك، ولهذا قال لي المعلم رضا «المطلوب منك أن تحمل على ظهرك وأن تقاتل بزندك» وهذا، بالنسبة لي، جيّد، بل هو أكثر من جيد، ولن يطول بي الوقت الذي أحمل فيه على ظهري. اعتمادي سيكون على زندي، وهذا ما يروق لي كثيراً.

في اليوم التالي انحدرت باتجاه الميناء باكراً. لم يعد وجود حليش وعبدوش معي يعنيني. الأفضل ألاّ يكونا، ألاّ يأتيا، وألا أجلس معهما حول طاولة واحدة. ليس من مصلحتي أن أفترق عنهما، خاصة عن حليش، هذا القذر الذي يمكن أن يغدر بي إذا تخلّيت عنه، لكنّ الجلوس مع المعلم رضا سيكون مفيداً، فهو وسيلتي إلى العمل، وإلى دخول الميناء، وإلى الاختفاء في ثياب عامل، له جماعة يحتمي بها، ويحميها. أنا أعرف أن حليش لا يفيق إلا قبيل الظهر، ولن يدخل المقهى إلا متأخراً، وعليّ أن أكسب وقتاً، أرتّب فيه أموري.

كان الزلقوط في المقهى، يرصد الطريق أمامه بعينين يقظتين، كأنه مكلّف بمراقبة الداخلين إلى الميناء والخارجين منها. لم يكن المعلم رضا موجوداً، وقد احترت أين أجلس، ثم ذهبت إلى أقصى المقهى، وجلست بمفردي. ناديت طالباً قهوة، رحت أشربها وأدخّن متظاهراً بأنني لا أهتم بمن حولي، ولا علاقة لي بما يدور من أحاديث، ووشوشات، وحركات مريبة، لا تخفى على من يعرف «أن القيامة ستقوم في الميناء» كما قال الزلقوط.

في أوقات كهذه كنت أعتمد على الطيبة التي في وجهي، وهي طيبة تبلغ حدّ البلاهة حين أريدها كذلك، ودون جهد ترتسم ابتسامة عفوية تشي بالغباء، لمجرّد أن تنفرج شفتاي عن أسناني، وتنبسط أساريري، ويأخذ شاربي راحته. أصبح، عندئذ مثل الثور الذي على بوزه ضحكة، الثور الذي يصلح للحراثة بأكثر مما يصلح للمصارعة.

تلبّثت على هذه الحال، دخّنت في محاولة للمحافظة على حالة الاسترخاء، أخذت أراقب الزلقوط، الذي ظل مسمّراً على كرسيه. عاينت، خفية، الأجسام، الوجوه، الحركات. فعلت ذلك بأقصى ما يكون من الحذر. راعني أن جوّاً غريباً يتبدّى من حولي، شرّاً واضحاً يتخلّل

النظرات، وشراً يتطاير منها، وأن زبائن اليوم غيرهم بالأمس، وأن الخيزرانات كثيرة في الأيدي، والأسلحة المخبأة تحت السترات، وفي طيّات الزنانير البحرية العريضة، لا تخفى على عين صاحب سوابق مثلي، عين إنسان مجرب، مدرّب على العراك وتمييز السلاح.

امتلأ المقهى. علت الضجّة، انعقد الدخان. كثر دخول الرجال وخروجهم، جاء شخص وسحب كرسياً كان حول طاولتي، دون أن يستأذن مني. كان هذا تحدّياً، كان تصرّفاً جلفاً، لكنني تجاهلته. ربما كان غير مقصود، وربما كان غيري هو المستهدف بهذه الجلافة، وفي كل الأحوال فإنني أتفرّج على ما يجري، وفي داخلي تصميم أن أبقى خارج أيّ عراك، مادام لا ناقة لي في الأمر ولا جمل. إنني أنتظر المعلّم رضا لأعرف متى أبدأ العمل، والمعلّم رضا لا يظهر، رغم أن بين زبائن المقهى كثيراً من عمال المرفأ. يا لخيبة! أنا مثل الأطرش في الزفّة، وابن الكلب الزلقوط لم يلتفت إليّ، وحتى تجاهلني تماماً. بقيت وحيداً في جلستي، لافتاً النظر في غربتي التامّة عن الجو، رغم أن شكلي يدلّ على أنني في قلبه، أو يجب أو أكون كذلك.

من قال إن المدرسة تعلّم الناس؟ هذا كذب. الناس يعلّمون الناس. خرجت من المدرسة حماراً كما دخلتها. لم أكتسب علماً ولا خبرة. الحياة هي التي تولّت تعليمي، وبقدر ما كنت في المدرسة غبياً، شقياً، حيواناً، بقدر ما صرت في مدرسة الحياة نبيهاً، ذكياً، فالحاً، أفيد من كل تجربة أمرّ بها، وأحفظ كلّ درس أتلقّاه. تعلّمت وأنا أجير فرن في بانياس، وتعلّمت في سجن اللاذقية، وسجن حلب، وأتقنت فن الصيد وأنا صيّاد على مركب الريّس بكري الغطّاس، وها أنا أتعلّم في مقهى الميناء أشياء، وغداً أتعلّم في الميناء نفسها أشياء أخرى. يكفي اليوم أن أحتفظ ببرودة أعصابي، وأن أضع رجلي في ماء مثلج، كفيل بأن يجعل حرارتي في درجة الصفر.

عيني على باب المقهى، باب المقهى واجهة تطلّ على المرفأ. الدنيا خريف والحرّ لم تنكسر حدّته. ليس على جسمي سوى بنطال وقميص. الآخرون، الريّاس، البحارة، عمال المرفأ، المتعطّلون، المتطفّلون، اللصوص والقوّادون، كلّ هؤلاء ينحشرون في زوايا المقهى الكبير، المستطيل، ويملأونه. الضجّة تزداد، واللغط يطنّ، كأن المقهى قفير نحل. لا أعرف إلا وجوهاً قليلة، لكن انطباعاً ما تشكل لديّ أن هناك غرباء كثيرين اليوم. لعلهم من جماعة المرفأ، من زلم العجوز، وربما كان بينهم عدد من جماعة الشيخ ضاهر، أوْ مِنَ الذين اجتذبتهم رائحة الفتنة، أو نداء الدم، أو بلغتهم أخبار عن أن القيامة ستقوم في الميناء اليوم.

أخيراً دخل المعلّم رضا. توقّف في باب المقهى وراحت عيناه تبحثان عن مكان فارغ، أو طاولة خالية. وبدافع من حب، أو حشريّة، وقفت منتصباً، بكل قامتي الطويلة، ولوّحت بيدي، وابتسامة عريضة على وجهي، راغباً، وراجياً، أن يراني المعلّم رضا، فيأتي ويجلس إلى طاولتي، أو قريباً منها، لأتخلص من وحدتي المشبوهة، وأنعم بصحبته التي تخلّصني من الارتباك الذي أنا فيه. غير أن المعلّم رضا، اعتاد أن ينفرد بطاولة، وأن يأتي الآخرون إليه، لا أن يذهب هو إليهم. فهو، عند نفسه، كمعلّم لجماعة في المرفأ، لا يقلّ قدراً عن أيّ ريّس يتحلّق بحّارته حوله، ولا يرضى عن منزلة دون منزلة الريّاس وحلقة كحلقتهم.

وفي اللحظة التي كدت أجلس فيها خائباً، رآني، ورازني، وفكر قليلاً، ثم اتجه إليّ، لا ليجلس إلى طاولتي، بل لأخلي له الطاولة، فيكون هو صاحبها، وفي صدرها، وهذا ما حصل. حمدت الله. جلست قريباً بعيداً عنه. لذت بالصمت، وبالتواضع، وسألته، وأنا أتلطّف بأكثر ما أستطيع:

ماذا يشرب المعلّم رضا؟

حدّق فيّ وقال:

ـ أنت ماذا تشرب؟

ـ شربت، سبق الفضل.

ـ اشرب ثانية.

قالها بنبرة آمرة، وصفق للكرسون الذي صاح:

ـ حاضر!

لم يتأخّر. جاء وانحنى، فطلب المعلّم رضا قهوة وناركيلة، ودون أن يسألني طلب لي قهوة، وقد أحسن، فأنا على الريق، والقهوة مع السيكارة هي فطوري المعتاد، وقد ازدادت رغبتي في القهوة والتدخين، بسبب كل هذا الجوّ اللعين الكثيف من حولي.

انصرف المعلم رضا عني إلى تمسيد شاربيه وفتلهما. ركز طاقيته، نفض غباراً عن شرواله الأسود. لم ينطق بكلمة قبل ترشّف جرعات من فنجانه، وسحب أنفاسٍ متتابعة من النركيلة. أدار نظره في ما حوله، تفرّس في الوجوه، تبادل التحية مع بعض الجالسين، تركني مهملاً كأنني غير موجود إلى جواره. كنت أجلس من جهة اليسار، وكان هو يجلس وظهره إلى الجدار الخلفي للمقهى، وأمامه الطاولة، وصدره إلى الناس، كأنما يتقصّد وضع الجميع في دائرة رؤيته ومراقبته.

بعد قليل جاء رجل ناداه باسم برهوم، أجلسه إلى جانبه وطلب له قهوة. كان برهوم مربوع القامة، له وجه زاد عرضه على طوله، وانمّحت رقبته، كأن رأسه مركب على جسمه مباشرة. وهو عقدة، صلب، ومن جماعته، وموضع ثقته، ومن الذين يعتمد عليهم كما قدّرتُ. تمهّل عليه حتى شرب قهوته، سأله دون مقدمات:

ـ كيف ترى الجو؟

قال برهوم:

ـ غائم!

قال المعلّم رضا:

ـ ماذا تعني؟

قال برهوم:

ـ مكهرب!

قال المعلم رضا:

ـ هذا ما أراه، ولكن لا دخل لنا، نحن على الحياد.

قال برهوم:

ـ فخّار يكسّر بعضه.

قال المعلّم رضا:

ـ ولكن قد تصيبنا كسرة من الفخّار.

ـ عندئذ نتصرّف.

ـ سحب نربيش الناركيلة من فمه وقال:

ـ لا، لن نتصرف. نكتفي بتجنب كسرات الفخار ونتفرّج. المعركة بين زلم العجوز، فما دخلنا نحن كعمّال؟

سأل برهوم بلهجة من يريد أن يعرف ليس أكثر:

ـ وإذا اعتدوا على العمّال؟

قال المعلّم رضا:

ـ أستبعد أن يقع هذا.

قال برهوم:

ـ سمعت أن العجوز متضايق من حكاية النقابة.

ـ العجوز لا يفكر في موضوع النقابة الآن. مشغول بما هو أهمّ، يريد الذي اعتدى على الماعونة بأيّ شكل.

قال برهوم كمن يقرّر حقيقة:

ـ والمعتدي مجهول.

ـ ولأنـه مجهـول فـإن الاتهـامـات كثيرة. كـلّ واحـد يتّهم خصمـه، والخصوم، حتى بين زلم العجوز، كثر، وهـو، فوق ذلـك، يشكّ في جماعة الشيخ ضاهر. هذه عقدته، وهذا وقت التصفيات. لندعهم يصفّوا بعضهم، نحن نتفرّج. كنت الآن في المرفأ. العمال يعملون في تفريغ المواعين وتحميلها. كل معلّم أوصى جماعته أن يبتعدوا عن الشرّ.

قال برهوم:

ـ لكن العداوات بين المعلّمين ليست قليلة أيضاً.

قال المعلّم رضا:

ـ ليس هذا وقتها، كـل معلّم له جماعته، ومادام الشغل بهذه الكثرة، والعمّال جميعهم يعملون، فإن خلافات المعلّمين غير واردة. الخلافات تبرز عندما يقلّ العمل. كل معلّم يريد أن تشتغل جماعته، وهذا حقّه، والآن الشغل على قفا اليد، لكن هنـاك مطالب.. للعمّال مطالب، والمعلّمون يخافون منها. في هذا الموقف هم مع العجوز، وهم على حق.. العمّال يصرّون على السماح لهم بتأليف نقابة، وقد وعدت دائرة العمل والشؤون الاجتماعية بالترخيص للنقابة، لكن العجوز هو العقبة، والعجوز مشغول الآن، إذن لا مشكلة مع العمّال. أنتم خارج المعركة، وهذا واضح، وأنت؟ هل أنت مع العمّال؟

قال برهوم:

ـ أنا مع العمّال طبعاً.

ـ ولماذا يريد العمّال النقابة؟

ـ لتنظيم أمورهم وتوحيد موقفهم.

ـ ضدّ المعلّمين؟

ـ لا. ضدّ هذه الفوضى في المرفأ.

ـ أيّ فوضى هذه؟

ـ فوضى الذين يستغلّون العمال، فإذا فتحوا أفواههم ضربوهم.

قال المعلّم رضا:

ـ هذه هي الحال في جميع المرافىء.

قال برهوم:

ـ أنت الصادق يا معلّم رضا. في هذه أخطأت. في كلّ مرفأ نقابة.

قال المعلّم رضا:

ـ والنقابة ضدّنا.

قال برهوم:

ـ ضدّ من؟

ـ ضد المعلّمين.. تكلّم بصراحة. تقفون ضدّنا، أم؟

قال برهوم:

ـ النقابة ليست ضد أحد، وخاصة أنت.

ـ أنا واحد من السرب، ويجب أن أكون مع سربي.

قال برهوم:

ـ تقف ضدنا يا معلّم رضا، أنت الذي مثل والدنا؟

قال المعلّم رضا:

ـ ليس في المسألة والد وأولاد، هناك مصلحة. النقابة ضدّنا. أقول لك إنها ضدّنا.

قال برهوم:

ـ المسألة ليست هكذا بالضبط. أنت تختلف.

قال المعلّم رضا:

ـ هذا الكلام تقولونه لكل معلّم على انفراد. تريدون رمي الفرقة بيننا، أذكياء والله!

قال برهوم:

ـ هـذا الكلام سـابق لأوانه. الكـلام على النقـابة سـابق لأوانه، نـريـد نقابة؟ نعم، لكنها للتنظيم، لرفع الظلم عنا وعنكم.

ـ ظلم من؟

ـ العجوز.

قال المعلم رضا:

ـ هذه بلفة(1). العجوز هو نحن، ونحن هم العجوز، خيّطوا بغير هذه المسلة.

قال برهوم:

ـ أنـا خـاتم في أصبعـك يـا معلم. نحن لا نبلف. نقـول الحقيقـة، المعلّمون من العمال أيضاً. رؤساء فرق. وإذا تألفت النقـابة يـظلّون رؤساء فرق أيضاً.

قال المعلّم رضا:

ـ هذه مفهومة. نظلّ رؤساء فرق، نظلّ معلّمين، ولكن أيدينا مكتوفة، تريدون تكتيف أيدينا يا برهوم، قطع الله أيديكم.

قال برهوم:

ـ لا تغضب يا معلّم. النقابة شكل من التنظيم قلنا هذا للعجوز.

قال المعلّم رضا:

ـ وبماذا أجابكم العجوز. ألم يطرد الذين قالوا له هذا الكلام؟

ـ هذا هو الظلم. العجوز ظالم. أقول هذا لك يـا معلّم. أعرفـك طيباً وحريصاً عليّ. لا يمكن أن ترميني.

ـ قال المعلم رضا:

ـ أنا لا أرمي رجالي. لكن العجوز باق.

(1) بلفة: كلمة أجنبية دخيلة، تعني: خدعة.

ـ ونحن لا نريد إزاحته.

قال المعلم رضا:

ـ وماذا تريدون إذن؟ رئيساً لنقابتكم؟ ونحن؟ أعضاء في مكتب النقابة؟ أنـا أفهمكم. المعلّمون يفهمـونكم. العجوز يقـول: لا! يعني: لا! نقـابـة «يوق»(1).

قال ذلك وسحب أنفـاساً من نـركيلته. طلب دورة أخـرى من القهوة. فكر قليلاً وهو يتحرّى الوجوه بنظرات خبير في الرجال، وفي الأجـواء، وفي المعارك، وفي مشاكل الميناء كلّها. ثم سأل كأنما للاطمئنان:

ـ تفقّدت الأولاد يا برهوم؟

ـ كنت عندهم، أنا آتٍ من الرصيف مباشرة، الشغل ماشٍ يا معلم.

ـ عـال! أنا في المقهى، فـإذا جدّ شيء ذهبت اليهم، وإذا سمعت شيئاً أخبرني، اشرب قهوتك. شرب برهوم قهوته. ترك موضوع النقابة. سكت أمام حدّة المعلّم رضا. وبعد قليل سأل:

ـ من تظنّ الفاعل يا معلمي؟

قال المعلّم رضا:

ـ أيّ فاعل هذا؟

ـ الّذي اعتدى على الماعونة؟

ـ وما أدراني؟ حادثة الماعـونة وقعت في الليـل، وفي البحر، والحـارس لم يتعـرّف إلى وجه الـذي كتفه وسرق الصنـاديق والأكيـاس. كـان في حـالـة إغـماء. الفاعـل ضربه عـلى رأسه فـاغمي عليه، وحـين أفـاق كـان مكتّفـاً ومكمّماً، والدنيا، من حوله، ليل.

ـ لا بدّ أن الفاعل من الميناء.

ـ هذا هو الاحتمال الأكبر.

(1) يوق كلمة تركية تعني: لا يوجد.

قال برهوم:

ـ ومن الخطرين أيضاً.

قال المعلّم رضا:

ـ نعم من الخطرين..

ـ ترى من يخاطر في عملية كهذه؟

قال المعلم رضا متضايقاً:

ـ وهل أنا من الذين يضربون بالمندل(1)؟ لنغلقّ هذه السيرة يا برهوم.

سكت برهوم. بقيت أنا أيضاً ساكتاً. لم تخرج طوال الوقت نحنحة من فمي. رحت أراقب بقبقات الماء في النركيلة. أستمع إلى الحوار. أفكّر بما سمعت، وبخطورة الوقعة لو انكشف سرّي. العجوز قاس. أقسى مما يتصوّر الانسان. لا يرحم حتى نفسه. وحين جاء حليش وعبدوش صرفتهما بنظرة خفية فهماها فوراً.. بعد ذلك غصت في أفكاري وهمومي. كلّ من في المدينة، كلّ من في الميناء، كلّ من في المقهى، يتحدّث عما جرى، ويتساءل عن الفاعل، وأنا الفاعل أتلظّى تحت جناح المعلّم رضا، وأرتعش من هذا الذي أسمع، طالباً السلامة، متوقّعاً الموت، مصمّماً على العراك، إذا افتضح أمري، فالموت في المعركة أفضل وأليق بي.

شيئاً فشيئاً نامت النار في الموقد. رذاذ البحر لا يصل إلينا في المقهى، وكذلك عربدة الموج، لكن أصداء الهمهمات في الميناء تبلغ أذني فأرتجف. الثلج لا يتساقط في الخريف، ونادراً ما يسقط حتى في الشتاء، فلماذا أحسّ كأن الثلج يتساقط عليّ؟ لماذا البرودة في أطرافي وفي قلبي؟ هل أنا جبان؟ أم هل الكذب يجعل صاحبه يشعر بالصقيع في عزّ الصيف؟ المعلّم رضا رئيس

(1) المندل: حركة إيهامية يستخدم فيها طفل، يُطلى ظفرُ ابهامه بالأزرق ويظهر له ملوك الجن ليخبروه من الفاعل.

جماعة. كل خمسين عاملاً، أكثر أو أقل، هم جماعة، ولكل جماعة معلّم. المعلّمون يدّعون السهر على تشغيل العمّال، والمطالبة بحصصهم وحقوقهم. لكنهم يختلفون أحياناً. تحدث معارك بينهم. المعلّمون، اليوم، خارج المعركة، مادام الأمر لا يتعلّق بنقابة للعمّال.. أما العمّال فهم يستفيقون، يفتحون عيونهم على الواقع، يطالبون بنقابة. معنى هذا أن أمثال إبراهيم الشنكل وعبد الجليل والأستاذ ماهر قد تسلّلوا إلى الميناء. أفكارهم وصلت إليها بطريقة ما. دخلت رؤوس العمّال. لكن العامل غير معلّم العمل، ومعلّم العمل غير العجوز، وغير زلمه. المسألة معقّدة. كبكوبة خيوط حرير مشربكة. لا يستطيع عقلي القاصر أن يحلّها. ولكن غداً، إذا ما عملت في الميناء، وصرت مع العمال، فلا بدّ أن يعنيني أمرهم. أصير واحداً منهم؟ سأفكّر. يبدو أنّ عليّ أن أكون واحداً منهم. حقوقهم حقوقي، مصلحتهم مصلحتي، وعليّ أن أقف معهم، أن أكون منهم قلباً وقالباً، وهذا ما سأفعله. بهذه الطريقة أمشي في سكة ابراهيم الشنكل. كيف، يا ربي، تدفعني الأيام للمشي في هذه السكة؟ ابراهيم سيفرح بي، ستبلغ أخباري عبد الجليل والأستاذ ماهر، وعندئذ يعرفون أن عود الشيخ قد أصبح مسّاساً(1)، أصبح نافعاً، وأنه حيث يجب أن يكون، وأن قوّته الجهنميّة وضعت في الموضع الصحّ.

بعد أن ذهب برهوم التفت المعلّم رضا إليّ. أرضاه تأدّبي وسكوتي. أخلاقي انضافت إلى جسمي، فأصبحت مقبولاً كليّاً لديه. انتزعني من همومي. كنت أحدّق في خصلات الشمس، المتدفّقة من النوافذ، المشعشعة في جوّ المقهى، وعلى حبالها تتناثر ذرّات الدخان والغبار. حبال الشمس هي هذه الذرّات، وأنا أتفرّج عليها، ومنها فقط عرفت كم في جوّ

(1) قضيب في رأسه مسمار لحث الثور والحمار اللذين يحرث عليهما الفلاح.

المقهى من دخان وغبار وأشياء تفصحها الشمس. كنت أصبر على الرائحة الزنخة، وعلى الهواء الفاسد، لكنني ما كنت أطيق الذباب. لا يمكن أن أقتله فأثير تقزز المعلّم رضا، لذلك كنت أكتفي بكشه بيدي، معانياً من مضايقته وإلحاحه، متسائلاً: لماذا وجد الذباب؟ وأيّ نفع منه؟

قال لي المعلّم رضا في التفافة مباغتة:

ـ ماذا قرّرت؟

ـ أن أعمل معك.

ـ هذا جيّد. أنت عاطل عن العمل ويجب أن تعمل. أنت فقير ويجب أن تكسب عيشك، وقد تكون محتاجاً الآن، لكنني لن أعطيك شيئاً، فأفضل من إعطاء السمكة لأحد، هو تعليمه كيف يصطادها.

قلت موضّحاً:

ـ سبق لي واصطدت السمك بالصنارة.

قال المعلم رضا:

ـ هذا أعرفه. قلته لي. لكنني أضرب مثلاً. الصيد في الميناء غير الصيد في البحر. كل شيء هنا يختلف. أنت لن تصطاد بصنّارة. ستصطاد بذراعك، وأحسب أنها قويّة، مثل ظهرك الذي يحمل كيسين من القمح حسب ادّعائك.

ـ أنا أعجبك يا معلّم رضا.

ـ إذن اتفقنا، غداً صباحاً نلتقي هنا، في المقهى

قالها ونهض. نهضت احتراماً. ودّعته. بقيت وحيداً بعد ذهابه، أتأمّل الأشياء من حولي بحذر شديد، وزيادة في الاحتياط طلبت ورق لعب، ورحت أرى بختي من خلال لعبة تعلّمتها في السجن، هي خلط الأوراق، وفتحها، ابتداء من الأس وحتى الختيار. لم نفتح الورق في الدورة الأولى، ... أضمرت على النجاح مع المعلّم رضا، لكنّ الورق أظهر أن الحظّ غير

مؤاتٍ. أنا لا أؤمن كثيراً بهذه الأشياء، وربما كنت ساهياً وأنا أفتح الورق، أو أن الورق عاكس، وكل هذا لم يشغلني، فلم أفرح ولم أزعل. لم أكن أصلاً جاداً في ما أنا فيه، وكلّ هذا اللعب لقتل الوقت، وللمراقبة، ورصد تطورات الوضع من حولي، لإحساسي أن اليوم غير عاديّ، وأن الأمور تعقّدت، وتأزّمت، وستنفجر، إن لم يكن اليوم فغداً.

دخل المقهى شابّ جهم، على وجهه شامة، وفي عينيه شرّ، وفي يده خيزرانة. سمعت صوت الجالس قربي يقول لمن معه على الطاولة: «هذا هو العلج». رفعت رأسي عن الورق رفعاً خاطفاً، شملت المقهى بنظرة، رأيت بضعة زبائن يقفون. كان أس البستوني هو الورقة التي انفتحت، ومعها جاءني صوت كعواء كلب مقلوب:

ـ نحن نعرف ابن القحبة الذي سرق الماعونة وسنؤدّبه.

رميت الورقة الثانية فإذا هي العشرة الديناري، ويقال لها، في الباصرة، «العشرة الطيبة». سمعت، عند رميها، صوت طلق ناري، رافقه دويّ، ودخان وهرّ شيء ما من سقف المقهى، وانتشر الدخان والذعر، فصاحت أصوات من كل جوانب المقهى:

ـ لا تقوّص يا علج، غريمك ليس هنا.

صاح العلج:

ـ أعرف غريمي وأعرف أين هو.

في اللحظة نفسها انطلقت عدّة رصاصات نحو السقف وفي الفراغ. ألقيت بورقة جديدة فإذا هي الختيار السباتي. استنتجت من سوادها أن العجوز هو وراء العلج، وأن هذه الرصاصات للإرهاب، أطلقت للاختبار، لمعرفة ردّة الفعل، لاكتشاف ما إذا كان أحد من الشيخ ضاهر في المقهى، وما إذا كان سيردّ، أو يقاوم، أو يتصدّى للعلج. علا لغط شديد. وقف كل من في المقهى تقريباً، بقيت جالساً، وبقي بعض الريّاس، وبعض

العجائز. فتحت ورقة جديدة فإذا هي صبيّ الكبا، وفي اللحظة نفسها انطلق رشّاش يزغرد في الميناء، فتدافع الناس للخروج وسبقهم العلج وأطلق ما تبقّى من مشط المسدّس في الهواء، صائحاً بالجميع:

ـ ادخلوا، لا أحد يأتي بحركة.

رتّبت الأوراق على الطاولة، خالست النظر مستطلعاً ما يجري، فتحت ورقة جديدة فإذا هي ثلاثة بستوني، وإذا رصاص ينطلق قريباً من المقهى، من جهة الطريق، النازل من عند مستودع التبغ، المعروف بالمدخون، أي من سطح أحد القناطر الكهفية.

صاح الناس، خارج المقهى:

ـ من هناك! من هناك!

ركض العلج باتجاه القناطر، هرع الناس وراءه، أشهرت المسدّسات، صاح رجل:

ـ حاصروه! إنه يطلق من فوق، تلطّوا لئلا يقتلكم.

قال آخر:

ـ إنه أكثر من واحد، إنهم عصابة.

تعالت الأصوات، تعانقت، تشابكت، صارت متداخلة، متقاطعة، تزأر وتضجّ وتصرخ:

ـ أولاد الفاعلة، أولاد الكلب.. تسلّقوا القناطر وراءهم، نحن نغطّيكم، هيّا! اهجموا يا شباب.

هجم الشباب. جاءوا متراكضين من الميناء، وانحدروا عن طريق مستودع التبغ، ومن الطريق الذي ينحدر من مستودعات الأشغال العامة، وأطلقت صفارات بعض البواخر والزوارق في الميناء، ولعلع الرصاص في رشقات متتابعة، وزعقت أصوات حادّة، مزمجرة، وارتطم الموج عنيفاً على

الرصيف العتيق، وفاحت رائحة الرصاص والبارود، تاركة سحباً من دخان وغبار، وسمعت صيحة كالصفير:

ـ قتل العلج!

تلتها صرخات: الله أكبر! الله أكبر! لاحقوهم، أولاد الزانية، إنهم هم، هم ولا أحد غيرهم. لم أفهم من يقصدون. ورقتي الجديدة كانت البنت الديناري، رتّبتها في عمود الأوراق، وتابعت، خلسة بعيني، وعلانية بكل حواسي، ما يجري خارج المقهى وفي باحة الميناء وعلى الطريق المؤدية إليها. ضغطت على أعصابي كي أبقى متماسكاً. قلت في نفسي: «إذا فتح الورق هذه المرة فستنجو يا مفيد. كل هذه المعركة بسببك. أنت الفاعل، وهم يبحثون عن الفاعل. يطلقون الرصاص عليه. لكن الفاعل صار وهماً. أنت وهم! أنت تختفي وليس على رأسك طاقية إخفاء. أنت محظوظ. فعلتها ليلاً وها هم يتعاركون نهاراً. كل الظنون تحوم حول جماعة الشيخ ضاهر. من الخير أن العداوة مستحكمة بين الشيخ ضاهر والميناء. هذه العداوة هي طاقية الإخفاء التي تحجبك عن العيون. العجوز تحكمه عقدة هذا العداء. كلّ من يعمل في الميناء، وأصله من الشيخ ضاهر، متّهم. إنهم يطلقون الرصاص، يطلق بعضهم على بعض دون أن يتأكد أحد من شيء. لا حقيقة هنا. في الجنون تضيع الحقيقة. الظنّ وحده يحكم. بعض الظنّ إثم، لكنّ هذا لا يهمّ، يطلقون لمجرّد الشبهة. لو يعلمون أن هذه الشبهة باطلة، وأن الفاعل في هذا المقهى، على هذا الكرسي، يفتح حظّه بالورق، ويراقب، لاطياً كأفعى تحت تبن. أنت يا مفيد أفعى، أنت لست أفعى، جرّب إذن أن تنسلّ. لا؟ إذن أنت ثعلب، أنا ثعلب، أرفع قوائمي إلى أعلى وأستلقي على ظهري. أتظاهر أنني ميت، بل انني فعلاً ميت. ميت حي. يمكن أن يكتشفوني في كل لحظة. وعندئذ سأجد نفسي أمام مسدّس مصوّب إلى صدري. قد لا يقتلونني بالرصاص بل بالسكاكين. سيمزّقونني

كما تُمزّق الذئاب خروفاً وقع بينها. ينهشون رأسي، بطني، أطرافي. يمثّلون بي، ويا لها من ميتة حلوة عندئذ. ظهر أس الدينار. وضعته جانباً. اللعبة تسير لصالحي، يبدو أن الورق يفتح وأنني سأفوز. نجحت حتى الآن. نجوت بنفسي، معنى هذا أنني قادر أن استمرّ، أن انجو بنفسي نهائياً. قُتل العلج، هذا زلة العجوز، هذا قبضاي الميناء. من الذي قتله؟ الرصاصة جاءت من فوق، من سطح الأقبية، فمن أطلقها؟ ولماذا أطلقها؟ ولماذا جاء الرصاص من فوق رداً على الرصاص من تحت؟ إنها الثارات. تصفية حسابات. كل واحد يصفّي حسابه مع الآخر. وحسابك أنت؟ أحتاج الآن إلى الخمسة الديناري. الورق يفتح من ناحية الديناري. الرصاص تجدد. الذين اندفعوا في الطريق إلى أعلى عادوا يتراكضون إلى أسفل. فر الذين كانوا على الأسطحة. العداوة اشتدتّ. كانوا وراء الذي سرق الماعونة، وهم الآن وراء الذي قتل العلج. الموجة البشرية التي اندفعت من الميناء إلى خارجها، ارتدّت من الخارج إلى الداخل. صخب، صخب، صخب. الرصاص يتكلّم لغته. يزغرد داخل الميناء. المعركة داخله أيضاً. الرصاص يشتدّ، يشتدّ أكثر. ما زلت أحتاج إلى الخمسة الديناري. زخات رصاص متتابعة. هذا ميتراليوز(1)، أعرف صوته، أميز إطلاقه، ولكن على من يطلق؟ إذا كان الإطلاق على الأجسام فمعنى هذا مذبحة المعركة صارت مذبحة. يتذابحون بكل الأسلحة. ثم هذه طلقات فرديّة طلقات مسدسات. يتمترسون وراء أكياس الحبوب، ووراء صناديق البضائع، يطلق بعضهم على بعض. ترافق الإطلاق مع الصراخ. اشتدّ الصراخ. تشابك. تداخل. لا أفهم شيئاً. لا أميّز الأصوات ولا الكلمات. ما زالت الخمسة الديناري مستعصية. دخل رجل المقهى وه يزعق: «يا ستار استر! لطفك يا الله! يقتلون بعضهم بعضاً هناك» وص

---

(1) رشاش فرنسي.

رجال الشرطة، ضربوا نطاقاً حول الميناء. لم يجرؤوا على دخول الميناء. الميناء محميّة. هذه محمية العجوز. الشرطة لا مكان لها هنا. إذا لم يأمر العجوز فلن تتوقّف المعركة. العجوز لم يأمر. يريد الانتقام. كل واحد ينتقم من الآخر. الرصاص يتتابع. صافرات البواخر والزوارق تنطلق بأعلى ما فيها. هل تطلب النجدة؟ الباخرة تطلق صفارتها طالبة النجدة. يكون ذلك عند الخطر، هل وصل الخطر إلى البواخر؟ قد يكون المسلّحون داخل الزوارق، في المواعين، على الأرصفة.. علا دوي هائل! إنه إصبع ديناميت أُلقي في البحر. بل هي حزمة ديناميت. الانفجار شديد. دويّه أصمّ الآذان. ارتجّت الأبنية وتكسّر زجاج المقهى. هذه هي الساعة. قامت الساعة. جاءت الخمسة الديناري. تبعتها الستة والسبعة والثمانية. انكشف لورق، انفتح الورق، سأفوز. الورق يقول إنني سأفوز. وسأنجو.

ضجّة هائلة. وقع أقدام شديد. اندفاعة من داخل الميناء إلى خارجها. رجال مسلّحون يطاردون رجلاً. أصابوه. سقط. كان سقوطه أمام المقهى. هاجمه الرجال بالسكاكين. طعنوه في كل أنحاء جسمه بالسكاكين. بعجوا بطنه. خرجت أمعاؤه. قطعوا أطرافه. وحشيّة! وحشيّة رهيبة. غرائز منفلتة. كل ما يجري في الخارج أسمع به في الداخل. كلّ من حولي يتحدث، يصف، يتلطف، يصيح مذعوراً. أكثر الموجودين يقفون. يطلّون من باب المقهى. يتراجعون، ينقلون الأخبار... الأخبار مخيفة، كل ما يجري مخيف، يبعث الرعدة في الأوصال. أوصالي سليمة. ما زلت رابط لجاش، برغم أن جثث القتلى تملأ ساحة الميناء. دماء! دماء! دماء! الجرحى كثيرون. فتح الورق. فزت. نجوت. كفى لعباً بالورق. اجلس قليلاً أيضاً. ما زال هناك من يجلسون. هؤلاء مثلي، يريدون إثبات ألّا علاقة لهم بما يجري. ولكن أنا لي علاقة بما يجري. أنا الفاعل، والفاعل ما زال مجهولاً، ويجب أن يبقى كذلك.

نهضت. لم أتلفّت حوالي. تقدّمت من باب المقهى بحذر. غبار، دخان، شمس ساطعة، بحر أزرق، وأنا سمكة في البحر الأزرق، وكلّ من حولي قروش. السمكة تريد الهرب من القروش، تعوم إلى أعلى، على وجه الماء، تسبح بكل ما أوتيت من قوة. عمت مثلها، انفتلت. انجدلت. سبحت دون أن أسبح. مشيت على قدميّ. خرجت من المقهى. خروجي كان طبيعياً، لم يأبه له أحد. رجال الشرطة تركوني أمرّ. مررت. اتجهت بحذر في الطريق الصاعد إلى مستودعات التبغ. خطواتي حذرة، ثقيلة، بطيئة. كانت بطيئة بشكل لعين. أخيراً وصلت المستودعات. تجاوزتها. لقد نجوت. صدق أس الديناري.

القسم الثاني

الظهر إلى الجدار

في البيت استلقيت على سريري، سرير عتيق، تآكل ساجه من الصدأ. الفراش مهترىء، أطرافه ممزقة. الوسادة قذرة. الوكر قميء، ضيّق، معتم، يليق بمتشرّد بائس مثلي. لم أكترث لشيء. بعد الذي رأيته في الميناء، لم يعد هناك ما يجعلني أكترث، كنت قادراً على النوم فوق مزبلة. المهم أن أستلقي، وأن تسترخي أعصابي المتوترة، بعد أن استجابت، بشكل مدهش، لإرادتي في أن أبدو هادئاً، لا مبالياً. لقد صفّوا حساباتهم هناك، في الميناء. حسبوا أن الذي قام بعملية الماعونة لقي جزاه. مات الذين ماتوا، جرح الذين جرحوا، وأنا، المسؤول عن كل ما حدث، ما زلت حيّاً، غير أن نفسي حزينة، منقبضة، مع أني أعلم أن ما حدث كان سيحدث ولا بد أن يحدث، لأن هناك أسباباً كثيرة تستدعي حدوثه. إنه عالم الميناء، عالم الذئاب على اليابسة، والقروش في الماء، والعنف الذي هو قانون حياة في الموانىء كلّها، إذن لماذا عليّ أن أُلقي وِزْر ما حدث على نفسي؟ هذا الحادث ليس بالحادث الأول، ولا هو بالحادث الأخير، ما دام العجوز يحكم الميناء بمثل هذه القسوة. أعداؤه ومنافسوه، أو من يظن أنهم أعداؤه ومنافسوه يُقتلون، يجري إغراقهم في البحر، حذفهم بطريقة ما. وفي الشيخ ضاهر لا تقلّ الضراوة عنها في الميناء، هناك أيضاً تجري التصفيات بقسوة، بغير رحمة، والعداوة بين الميناء، والشيخ ضاهر قائمة، وستظلّ قائمة، وهي السبب الرئيسي، المخفّي، المحرّض على الاقتتال بغير إعلان، وهذا ما يدعوني إلى التخفيف عن نفسي. أنا لست مسؤولاً عن حادث الماعونة. هذا الحادث تافه بذاته، وقد استغلّ لارتكاب هذه المجزرة الرهيبة. أما القضية، أولاً وأخيراً، فهي قضية استغلال أيّ حادثة لإرهاب الخصم، لإنزال ضربة قاضية به، أو

رادعة له. وهذا ما صار، ويجب أن أعتبر الموضوع منتهياً.

نمت. دخل النوم في اليقظة. أخضعها لسلطانه. سلطان النوم لا يقاوم، وهو السلطان الوحيد المقبول، والمطلوب، والمريح. عاش سلطان النوم، الذي فرحت، عندما استيقظت، في اليوم التالي، وتذكرت أنه اغتالني أربعاً وعشرين ساعة تقريباً. تقلّبت على السرير بنوابضه التي تئزّ. لبدت في الفراش شبه عارٍ، وشيئاً فشيئاً عاودتني اليقظة الكاملة. حلّ الصحو. نعمت بصفاء الرأس. مزاجي رائق، وكل ما أحتاجه الآن ركوة من القهوة، وعلبة سكائر كاملة. القهوة والسيكارة، هذا ما سينعشني تماماً، ولا بأس بعد ذلك بجرعات من العرق، وتناول أي لقمة متوفرة من الطعام، ثم أسلو. السلوان ضروري، اعتدت عليه، قد يكون طبيعة فيّ، حين تنتهي مشكلة ما، مهما تكن ملعونة، خارج نفسي، تنتهي في نفسي أيضاً. وبعدها أكون قادراً على استئناف حياتي الطبيعية. كأنما ما حدث لم يحدث، وكأنّ أمور الدنيا كلها على ما يرام.

عصراً جاء حليش وعبدوش الداشر. جاءا مرعوبين، كأنما نجمة، بحجم صخرة، سقطت من السماء وأشعلت حريقاً على الأرض. كانا يشتعلان من سخونة غير مرضية. مبعثها الخوف مما جرى. وكان حليش مصاباً بذعر، ويبحث عن مخبأ. كأنما هناك من يلاحقه.

صاح منذ رآني:

ـ أنت هنا؟

ـ وأين أكون إذن؟

ـ حسبتك تركت المدينة كلها.

ـ ولماذا، يا فارة، أترك المدينة؟ ما هذه الرجفة؟ الصرصور أكثر جرأة منك، إنه مقرف مثلك. لكنه لا ينقلب على ظهره ويرفع قوائمه لمجرد أن أحداً يرفع نعله ليسحقه. إجلس! خذ سيكارة! اهدأ وإلا رميت بك خارجاً!

ناح وهو يتناول السيكارة، بأصابع مرتعشة:

ـ هل سمعت بما جرى؟

ـ وشاهدته بنفسي. كنت في المقهى، وأمام عيني، ومن حولي، حدثت المذبحة. لقد مزّقوا، أولاد العاهرة، بعضهم بعضاً. دويّ الرصاص، هزّت الانفجارات المقهى، سقط قتلى وجرحى، وكان، إذا أردت أن تصدق، منظراً مسلياً، فالمعركة في الميناء، وخاصة في الميناء، تكون معركة تستحقّ الفرجة. هناك يتعاملون بكل أنواع الأسلحة. هناك بحر يا صاحبي. وفي البحر أسماك القرش. هل رأيت سمكة قرش يوماً؟ أنا أيضاً لم أرها، لكن الريس بكري الغطاس وصفها لي. إنها مفترسة، يهيجها مرأى الدم، وعندئذ تندفع بشراسة لا مثيل لها نحو الفريسة، نحو أيّ سمكة أخرى، فيضطرب البحر، ينشق الماء، يرغي الزبد، يفور، يهمد، يصخب، تثور الأمواج، وتشعر وأنت في المركب كأنك لعبة تتقاذفها الأمواج. هذا ما يسمّونه معركة أسماك القرش وفي الميناء أسماك قرش بنفس الشراسة، بنفس العنف، لكنها أسماك آدمية، عدوانية، تأكل بعضها، تمزّق بعضها، وبعينيّ هاتين أبصرتهم يمزّقون رجلاً بالسكاكين، يبعجون بطنه، يخرجون أمعاءه، يقطعون رأسه، يفرمونه قطعاً صغيرة، بينما أنا أتسلى بالورق.. فالأمر لا يعنيني، وهو لا يعنيك أنت أيضاً، فلماذا الخوف إذن؟

ـ كيف لا يعنينا؟

قال عبدوش الذي كان ينصت لحديثي وهو يستند إلى الجدار:

ـ بل هو يعنينا.

صحت به:

ـ لا يعنينا.. أتسمع!؟ لا يعنينا.. الحسابات صُفّيت، والمعركة حُسمت. العجوز انتقم، وبعد الانتقام سيهدأ. ستعود المياه، في الميناء، إلى مجاريها، ونعود، نحن أيضاً، قطرات في هذه المياه، إذا عرفنا كيف

نسكّر بوزنا: كيف ننسى عمليتنا، ونسلك سلوكاً طبيعياً.. مفهوم ما أقول؟ أتسمع يا حليش؟ أنا أتوجه بالكلام إليك.

قال حليش:

ـ ولماذا إلي؟ ألا يهمّ هذا الأمر عبدوش أيضاً؟

ـ عبدوش مضمون.. أعرفه جيّداً.. ربما أثر عليه قليلاً ما جرى في الميناء، لكنه من النوع الذي لا يبول في سرواله.

احتجّ حليش:

ـ وأنا ممن لا يبولون في سراويلهم.. أنت جربتني!

ـ أنا لا أقول غير هذا، ولكن أريد أن تقتنع تماماً أن المسألة انتهت، ومن جهتنا «هنا حفرنا وهنا طمرنا».

قال عبدوش:

ـ ما تقوله صحيح. المسألة منتهية، وهذا لمصلحتنا جميعاً، ولكن ماذا بشأن العمل؟

ـ هم! العمل! قلت ذلك وأنا أفكر.

قال حليش فوراً:

ـ لنترك الكلام حول العمل في الوقت الحاضر.

ـ لماذا؟ سأل عبدوش، هل أنت خائف؟

ـ ممّ أخاف؟ ولكن من الأفضل الغياب عن الميناء حتى يصفو الجوّ تماماً.

قلت:

ـ هذا أفضل، ما قاله حليش أفضل، يجب أن يتغيّب عن الميناء مؤقتاً.

ـ وأنت؟

ـ أنا لن أتخلّف عن المقهى، ظهوري هناك ضروريّ.

صاح حليش:

ـ وكيف ذلك؟ صرت أنا غريباً عن الميناء، وأصبحت أنت واحداً من أبنائه؟ عجيب!

ـ لا عجيب ولا بلوط لديّ عمل هناك، مع المعلّم رضا.

ـ تريد أن تعمل في الميناء؟

ـ ومع المعلّم رضا.

ـ صرت واحداً من رجاله؟

ـ من جماعته.

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق أنني لن أكون زلمته، بل واحداً من العمّال في جماعته

ـ تعمل حمّالاً؟

ـ مؤقتاً.

ـ أنا لم أفهم..

ـ ليس من الضروري أن تفهم.. سأكون من جماعة المعلم رضا ثم أشقّ طريقي. هذا لمصلحتنا نحن الثلاثة.

ـ وما هي هذه المصلحة؟

ليست السرقة على كل حال.

ـ وماذا يفيدنا أن تعمل أنت، ونقعد نتفرّج نحن؟

ـ وماذا في ذلك؟ لديكم المال.. كلوا واشربوا واستريحوا.

ـ نستريح إذا عرفنا بماذا تفكر؟

ـ هذه المعرفة ليست ضرورية الآن، سابقة لأوانها يا حليش.. انتظر ترى.

ـ وهل يطول انتظارنا؟

ـ لا أعرف.. لنغلق هذا الموضوع.

- كيف نغلقه قبل أن نفهم؟

- يبدو أن عليّ أن أجعلك تفهم بالطريقة المناسبة

قال حليش:

- تهدّدني؟

- افهمها كيف شئت.

- إذا فهمتها كما أريد فلن يكون ذلك في صالحك.

- وماذا ستفعل؟

صحت به وقد تغيّرت سحنتي من الغضب. فكرت: «طال الحوار مع حليش. طال إلى درجة ضقت بها. هذا اللقيط يريد ابتزازي لقاء سكوته. يلوّح بورقة عملية الماعونة. يحسبني أخافه، ولهذا أسايره. أنا لن أستفزّه. هذا النذل، هذا اللص، هذا التافه، الذي لا يُؤمن جانبه.. من يؤجّر قفاه لا يتورّع عن أية رذيلة، لكنه متورّط في العملية معي، ومن المستبعد أن يغامر. لو فعلها لانتقمت منه، لحرمته الحياة، وهذا ما يجب أن يعرفه، وباللغة التي يفهمها».

قفزت عن طرف السرير وأمسكت بحليش من ياقة قميصه. رفعته. ضربته بالجدار، زعقت بصوت متهدّج من الغضب:

- أنت، يا حليش، تسعى إلى إخافتي.. تناور وتداور لتجعلني أفهم أن قضية الماعونة ما زالت ورقة في يدك، وأنك تستطيع أن تلعبها في الوقت المناسب، وأنا أقول لك، وصدّقني، أنك لن تجد وقتاً لتلعب أيّ ورقة، إلا إذا كنت تريد أن أدفنك حيّاً.. أنت تعرف مع من تتعامل، أ؟

تدخل عبدوش فأبعدني عن حليش. كان قد أدرك، بدوره، ما يدور في خاطر حليش، فهو، بسبب من نذالته، يرغب بمكسب ما، لكنني لن أدعه يكسب شيئاً. إنه يكشّر في وجهي، يريني أنيابه، وعليّ أن أؤدّبه، على ألاّ تتجاوز المسألة حدّ الإخافة.

قال عبدوش:

- أنا أضمن حليش. دعه لي. أنا أضمنه. إنه لا يقصد شيئاً. يرغب في المعرفة لا أكثر، أليس كذلك يا حليش؟

- هذا ما أردته بالضبط، أنا لن أفتح فمي..

صحت به:

- ولن تستطيع أن تفتحه، لأنك معروف بسوابقك، وسأجعل القضية تلبسك مثل القميص الوسخ.. وعندئذ تعرف أنني أخطر مما تظنّ، أقوى مما تظنّ، وكذلك أذكى.

أضفت بعد وقفة قصيرة وقد رجعت وجلست على حافة السرير:

- هذه المرّة ضمنك عبدوش، لهذا أتركك بضمانته، أما في المرة القادمة، في أيّ مرة قادمة، فسيكون لي موقف آخر، لا يسرّك أبداً. أنا عاملتك بلطف، بعدل، أعطيتك حصّتك، وهي كبيرة، وأعطيتك فوقها، من حصّتي. فعلت ذلك لأنني وفيّ لمن يعمل معي، وليس لأنني أخافك.. قلت لك إنني أعمل لمصلحتنا نحن الثلاثة، فلماذا تصرّ على أن تعرف ما الذي سأعمله؟

قال عبدوش، وهو يلعب دوره بدهاء:

- حليش لا يصرّ على معرفة أيّ شيء.. كل ما أراده هو الاطمئنان.

وأنا أقول له: اطمئنّ.

- في هذه الحال انتهى سوء التفاهم. أليس كذلك يا حليش؟

قال حليش وقد ارتدّ إلى حجمه الطبيعي، حجم اللصّ الصغير:

- انتهى تماماً.. لقد أخطأت.. ولن يتكرّر هذا الخطأ.

قلت:

- وأنا أصدّقك. هيّا لنشرب قليلاً.. اذهبْ يا عبدوش وهات لنا ما نأكله. خذ هذه النقود واشتري بها كلّها.

رفض عبدوش كعادته أن يأخذ النقود. كان، بطبعه، أريحياً كما عرفته، وكان على درجة من الشجاعة ترضيني، لهذا كان له تقدير خاص عندي، باعتباره زميلاً قديماً، وقد عملنا في الفرن معاً، وخضنا المعركة مع «البريفوته» معاً وبقينا، منذ ذلك الحين، صديقين.

قال عبدوش:

ـ لديّ نقود كافية.. سأشتري ما يكفي، فأنا جائع جداً..

ـ أنا أكثر منك جوعاً، وكذلك حليش.. أم أنك أكلت يا حليش؟

ـ لم يدخل الطعام إلى فمي منذ سمعت بما حدث في الميناء.

قلت مازحاً:

ـ أتريد أن تقنعني، أنت اللصّ المحترف، أنك أرنب؟

ـ ما حدث كان مرعباً.. أنا لا أصدّق أنك لم ترتعب أيضاً.

ـ بصراحة، ارتعبت قليلاً.. كنت حاضراً، كنت شاهداً، رأيت الدم، والإمعاء، والرأس المقطوع، والجسم الممزّق.. نعم، كان المنظر رهيباً، لكنه لم يكن يعنينا.. قصدت لم يكن يعنينا مباشرة، لأن أحداً لم يشكّ فينا.. ولن يشكّ أحد فينا، اطمئنّ..

اطمئنّ حليش، أكل بنهم، وشرب بنهم، لكنني أوقفته عن الشرب. حذّرته من السكر.

بعد العشاء انصرف حليش وعبدوش. أغلقت الباب، أطفأت الضوء، استلقيت على فراشي القذر، لأنام بل لأجرب التفكير قليلاً، لأجعل دماغي يشتغل، هذا الدماغ الذي كان مطاوعاً أمس، وقد ساعدني على التصرّف كما ينبغي، الأمر الذي جعلني أبدو طبيعياً جداً.

قلت في نفسي: «ظروفي الصعبة، القاسية مثل اللعنة، هي التي جعلتني، أولاً في السجن، ثم خارجه، أتدرّب على التفكير، بكل ما يسبّبه

هذا التفكير من غمّ. كنت مستريحاً منه يوم كان دماغي عاطلاً عن الشغل. الآن تعاودني هذه الحالة التي أتقزّز منها كما أتقزّز من الروائح في ماخور، غير أنني أستجيب لها، حين أجد نفسي مرغماً على البحث عن خلاصي الشخصي».

المهمّ أنّ ظروفي علّمتني، أكثر مما علّمتني المواعظ. صرت محتاجاً أن أفكّ ألغاز حياتي المريرة، التي كانت نحساً عليّ، منذ أن هجرت والديّ، أنكرتهما، نسيتهما، حتى لكأنما ماتا، قبل أن يموتا فعلاً.

إنني، في سلوكي العائلي، تجاوزت حدود الشيطنة إلى العقوق. كنت عاقّاً. كنت كالطفل غير الشرعي، كأنما والدي ليس هو الذي قذف بمنيّه الذي تكوّنتُ منه في رحم أمي، وكأنما أمي ليست هي التي حملت بي وولدتني، فهل كنت ابن حرام؟ وهل أخفى والدي عنّي هذه الحقيقة؟ وهل لأنني لقيط، كرهت عائلتي وفررت منها؟ وما هو الدافع الشيطاني الذي دفعني إلى قطع ذَنَب الحمار، هذه الفعلة السخيفة والبغيضة، التي كتب عليّ بعدها أن أهجر البيت والقرية، وأتشرّد، وأجوع، وأسرق، وأدخل السجن، وأدخّن، وأسكر منذ كنت فتى غراً بعد؟ هل خُلقت فعلاً لهذه الحياة القذرة، أم أن ذلك كُتب على جبيني؟ وأين تكون الكتابة على الجبين، تحت الجلد أو فوق العظم، أم في داخل الرأس؟ لا أعرف! ولا أحد يعرف. يقولون مكتوب على الجبين، وهذا كلّ شيء. لكني أتساءل، هل ما كُتب على جبيني هو الرذيلة وحدها، أم هناك مكان للفضيلة أيضاً؟ وإذا لم تكن على جبيني أيّ كلمة عن الفضيلة، فلماذا أصبحت أحنّ إليها، وأرغب فيها، وينبع في داخلي تصميم عليها؟

أسئلة، أسئلة، أسئلة، وأنا أتقلّب على فراشي الوسخ، وسريري الصدىء وأغوص في بحر الأسئلة. كنت أحاول، بعدما رأيته في الميناء، وبعد تعرّفي بالمعلم رضا، أن أسير في طريق آخر، غير الذي سرت فيه

حتى الآن: طريق الرجل الشجاع، الذي يفرض هيبته اللائقة، هيبة الرجل، ويخلع عنه إلى الأبد لباس اللصّ، وعار السرقة، ودناءة الأعمال المشينة، التي تجعلني أعيش متخفيّاً في هذا الوكر. أنا قويّ شجاع، وحش، لكنّ في نفسي ميلاً إلى تغيير ثوبي، إلى وضع قوّتي وشجاعتي في عمل نافع، وإلى جعل وحشيّتي شيئاً آخر، غير الوحشيّة التي كنت عليها، ولُقِّبْتُ بالوحش من أجلها.

قبل الظهر كنت في مقهى الميناء. كان هناك دم متخثّر، وسط الشارع، وقد استحال لونه الأرجواني إلى لون داكن. وكان يمكن، لمن كان أمس هنا، أن يتذكّر وقائع المذبحة، وأن يرى آثارها أو يتخيّلها على الأقل، فعلى الجدران ثقوب صغيرة أحدثها الرصاص، وعلى جانب الطريق فردة شحاطة، وعلى الرصيف طاقية صوفية، وعصا مكسورة، ونفايات مبعثرة، وأوراق تتلاعب بها الريح، وعلى الوجوه وجوم، وعصبية تشي بغضب مكتوم، كأنما بقايا الرغبة في الثأر ما تزال كامنة في النفوس.

ما عدا ذلك كان كل شيء هادئاً. الميناء تستعيد حياتها وحيويتها، والبحر الأزرق يصطفق موجه على الرصيف، والعمّال والبحّارة يدخلون من البوّابة الكبيرة ويخرجون، والمقهى مزدحم، فحلقة الريّاس في مكانها، وقرقرة النراكيل تتعالى، وسحب الدخان الأزرق تنعقد، والزلقوط يقف على باب المقهى يراقب لا أدري من، والجالسون حول الطاولات يترشّفون الشاي، أو يشربون القهوة، والأحاديث تدور حول حادث الأمس لا شكّ، لكنها مهموسة، لم يبلغ أذني منها شيء واضح.

ألقيت التحيّة على الزلقوط، فردّ عليها بفتور، ودونما اكتراث. سرت بين الطاولات، باحثاً عن المعلّم رضا، فوجدته في الركن الأقصى من المقهى، وحوله بعض العمّال، وهو يشرب قهوته، ويسحب من ناركيلته أنفاساً مديدة، متتابعة، ويفكّر بشيء ما، والصمت يخيّم على من حوله.

كأنما يتهيّبون الكلام في حضوره، أو يخشون أن تزلق ألسنتهم بما لا يرغبون، أو يتجنّبون ذكرى الأمس، التي قد تثير شجوناً لا ضرورة لها. وعلى العموم كان جوّ المقهى كابوسيّاً، يدعو إلى حذر شديد، حتى أنني ندمت على المجيء، وتردّدت في الانضمام إلى حلقة المعلّم رضا، الذي لحظني فأصبح تراجعي غير جائز، ولم يبق عليّ إلا الاقتراب، فاقتربت وسلّمت، ورد المعلّم رضا سلامي، فتناولت كرسيّاً وجلست على طرف الحلقة، والتزمت الصمت التامّ حتى لم أنده الكرسون وأطلب القهوة التي كنت أتشوّق إلى فنجان منها، هو فنجان الصباح، الذي يعدل مزاجي، ويجعل للسيكارة نكهة طيّبة في فمي.

ربما كانت النار ما تزال تحت القشّ، نار الثأر تترمّد ولا تنطفىء، جمرتها تبقى طويلاً، ومهما تحوّلت إلى رماد، وصفرت، فإن بصّتها(1) تظلّ مشتعلة، وقابلة، إذا ما نفخ عليها، أن تعطي شرارة تكفي لاندلاع حريق كبير. في عين كل رجل من الجالسين جمرة. في قلب كل منهم جمرة، الوجوه المربدّة، تتقلّص عضلاتها، ترتعش بشرتها، وكل الذين هنا، أو أكثرهم، يتلهّى بفتل شاربيه، في حركة نزقة منطوين على مشاعر متوجّسة. التوتّر واضح، وحزن ما يلوح، كأنّ المعركة قد خلفت آثارها في القلوب، وهي آثار كئيبة، فالضحايا، من قتلى وجرحى، هم أقارب أو أصدقاء لرجال الميناء وبحّارتها.

بالنسبة لي، كانت الأمور سواسية، ما دام أحد لا يعرف، أو لا يخالجه شكّ، في أنني طرف في الذي جرى، أو السبب الأصليّ في الذي جرى. أمس، والمعركة دائرة، كنت أضغط على أعصابي. لقد خفت في أعماقي. خفت كما يخاف كل إنسان، ومع هذا نجحت في إظهار اللامبالاة. خدعت كل من كان حولي، أثبتّ وجودي في المقهى، حصلت على براءتي نتيجة

(1) الجمرة الصغيرة.

هذا التواجد. وقد حماني من حشريّة الفضوليين جلوسي مع المعلّم رضا. أنا الآن من جماعته، قد لا أكون من جماعته تماماً بعد، غير أنني سأصير، وللوصول إلى هذا الهدف سأتحمّل نظرات التساؤل الملحاحة لمعرفة من أكون، وهذا الجفاء الذي يحيط بي. يومي لم يأت، لكنني واثق من أنه سيأتي. ستعرف الميناء، والمقهى والبحر، والعجوز نفسه، أنني مفيد الوحش الذي سيحصل، بقوة ذراعه، على ما كان له بين هؤلاء الذين لا يعيرونني الآن التفاتاً.. كل ما علي هو الانتظار، الصبر، إظهار التواضع، حتى يتاح لي وضع قدمي في الميناء.

أصرّ العجوز، كما يبدو، على عودة العمل إلى سابق عهده. البواخر راسية في البحر تنتظر التحميل أو التفريغ، والمواعين، محملة أو فارغة، تحتاج إلى العمال، واللنشات، والفلائك، والمراكب، تهدر محركاتها، وتخفق الريح في أشرعتها، وصافرات البواخر المنطلقة مديدة، متتابعة، ملحاحة، هي نداءات للعمل لا يمكن تجاهلها، وفي تقاطع هذه الصافرات، وحدتها، ودويّها الصارخ، يتبدّى احتجاج واضح، احتجاج نزق لا يمكن تجاهله طويلاً، إضافة إلى أن توقّف العمل، حتى ولو كانت المعركة في الميناء ما تنفكّ دائرة، يعني اضطراب النظام، خروج الأمور عن انضباطيتها المعتادة، الانضباطية الدقيقة، الشديدة، حسنة التنظيم والتسيير، إلى درجة جلبت الإعجاب للعجوز، الذي وحده، بجبروته، بخبرته المكتسبة، وموهبته ذات الكفاءة العالية، كان يدير الأعمال في المرفأ، إدارة تعجز عنها شركة بكل مؤسساتها وموظّفيها.

إنه غائب حاضر، موجود مفقود، مطّلع غافل، إنه رجل يجمع في ذاته كل هذه المتناقضات ويحلّها، ويقيم التوازن بينها، إنه أعجوبة ولا شكّ. وقد سمعت من الريّس بكري الغطاس، أن مجموعة وكلاء البواخر وأصحاب الأعمال الأجانب، الذين سمعوا بشهرة عجوز الميناء هذا، رغبوا

بالتعرّف إليه فقادهم المترجم إلى حلقة من رجال الميناء، كان العجوز يوزركل بينهم، مرتدياً شروالاً بسيطاً، فوقه قميص وسترة، وفي قدميه شحّاطة، وحين وصلوا إليه، توقّف المترجم وقال:

ـ هذا هو!

فنظر أفراد المجموعة بعضهم إلى بعض في حيرة، في استرابة، ولم يصدّقوا أعينهم، لولا أن المترجم كرّر قوله:

ـ هذا هو!

وعرفهم إليه، فصافحوه، وتحدّثوا معه، وطرحوا عليه بعض الأسئلة، فأجاب عنها بعفوية، إجابات منطقية، واضحة صائبة، وسألهم ما إذا كانت لديهم شكاوى حول سير العمل، فابتسموا، وربّتوا على كتفه استحساناً، وانصرفوا وقد دهشوا من بساطته وشعبيته وخبرته وحدة ذكائه.

هذا العجوز، الذي أدار معركة الأمس الدامية، كان يدير، في الوقت نفسه، عملية الشغل التي لم تتأثر إلا قليلاً. وقد بكّر، صباح اليوم، في النزول إلى الميناء، كأنما ما حدث أمس لم يحدث، ومنذ ظهوره في الميناء دبّت الحركة، وحين لاحظ أن الشغل لا يسير بوتيرته المعتادة، راح يقفز، ويصرخ، ويطوف بين الرصيف والعنابر، وأكداس البضائع، ويدعو الجميع إلى النشاط، صائحاً:

ـ يا لله يا أولاد! همّتكم يا شباب! المواعين تنتظر، والبواخر تصفّر، والعمل يجب أن يتسارع.. شدّوا شدّوا، العمى! انتم لم تروا معركة قبل الآن؟ أنتم غرباء عن الميناء؟ أليست هذه حياة الميناء؟ ماذا حدث؟ ما بالكم خائفين، جامدين، محدّقين بعضكم في بعض؟ أم تريدون أن أستعمل معكم لغة أخرى، وأسلوباً آخر، تعرفونه جيّداً؟

بعد قليل جاء العامل برهوم إلى المقهى وأبلغ المعلم رضا ما يجري في الميناء، فلفّ هذا مربيش ناركيلته وأسرع ورحاله و... عاب طويلاً، دون

ان يقول لي كلمة واحدة، فبقيت جالساً، دهشاً، جاهلاً بما يدور حولي. وبعد أن شربت قهوتي طلبت ورقاً ورحت أتسلّى بالتنجيم به، غير غافل عن حركة الناس، الذين انسحب أكثرهم، حتى كاد المقهى يفرغ إلا من الريّاس الذين ينتظرون وسق مراكبهم للإقلاع بها.

رحت أفتح الورق بحركة آلية. اليوم لا أهتمّ كثيراً بآس الديناري. أنا هو الآس الديناري. ضربة الحظّ، إذا واتت، ستجعل مني إنساناً سُرق منه اعتباره ثم رُدّ إليه. الأيام سرقت اعتباري. إنني، الآن بغير اعتبار مجرّد فرد من الأفراد، رجل من الرجال، وأسوأ ما في الأمر، أنهم ينظرون إليّ، أحياناً، كفتى من الفتيان، كقوّاد، أو لصّ، أو عاطل عن العمل، يدبّر لقمته بأيّ شكل، ويلبس بنطالاً وقميصاً عتيقين وحذاؤه مغبّر، وهيئته كلّها تستدعي الاحتقار أو الشفقة.

بقيت جالساً في المقهى حتى الظهر. لم يعد المعلّم رضا. لم يظهر الزلقوط. لم أتبادل الحديث مع أحد، مللت. ضاق صدري من الجوّ الخانق حولي. خفت أن ألفت الانتباه، قلت في نفسي: «انصرف يا مفيد! جرح المعركة ما زال طرياً. وأنت، في جلوسك وحيداً، صافناً، تثير شكوك من يراك. الأفضل أن تنصرف». انصرفت، عدت إلى البيت ولم أغادره.

في اليوم التالي كنت في المقهى كعادتي. دخلت مستوحشاً، متردّداً، اقتربت من طاولة المعلم رضا، رحّب بي وطلب لي قهوة. كان مزاجه اليوم رائقاً. أدركت أن العمل في الميناء عاد إلى طبيعته، وأن الأمور ماشية. مع ذلك التزمت الصمت، لم أتكلم حتى سألني ما إذا كنت مصمّماً على العمل مع جماعته. أجبته أنني سأكون رهن إشارته. عندئذ، وبعد أن شرب ناركيلته، نهض وقال لي اتبعني. تبعته. سأله خفير الجمرك، على باب الميناء، من أكون، فأجبت «مفيد المتوف» لم أقل مفيد الوحش، فهذا ليس

في صالحي، ولكن كنية «المتوف» جعلت الخفير ينظر إليّ من فوق لتحت، وبعد أن عاينني جيّداً قال:

- أنت، كما يبدو عليك، منتوف حقاً، فماذا تريد من الميناء؟

قال المعلم رضا بنبرة جفاء:

- ولماذا هذا التحقيق؟ إنه من جماعتي، سيعمل معي، هل لديك مانع؟

- العفو يا معلّم رضا، ولكنه الواجب كما تعلم، خاصة وأن هيئته لا تدعو إلى الاطمئنان.

- وماذا في هيئته؟ إنه شابّ فقير، وسيعمل حمّالاً، وهذا الجسم خلق لهذا العمل. هيّا يا مفيد!

دخلنا حرم الميناء. قادني إلى حيث تعمل جماعته. طلب من برهوم تسجيل اسمي. سألني:

- تعمل في البرّ أم في البحر، يعني على الرصيف أم في المواعين؟

قلت:

- أعمل حيث تريد.

قال:

- وهل لديك «شرشور»[1]؟ دبّروا له شرشوراً، دلّوه على المكان الذي سيعمل فيه، وبعد ذلك نرى عمله، وسلوكه، ورجولته. إنه بغل، وسيكون حمّالاً جيّداً، سيتدرّب، سأدرّبه على يدي

قالها وانصرف إلى مبنى الميناء، كأنما قال ما يجب أن يقول، وانتهت مهمّته. تبعت برهوم الذي أعطاني شرشوراً، وأخذني إلى الرصيف، حيث أكداس الأكياس والصناديق، وقال لرئيس الوردية

---

(1) الشرشور: حديدة معقوفة على شكل شنكل، تساعد في الحمل على الظهر

ـ هذا الثور هـديّة المعلم رضـا إليك . دبّـره بمعرفتـك، أرشده إلى مـا يجب أن يعمل.

قالها والتفت إليّ باسماً. أضاف:

ـ تحرّك. أرنا شطارتك. أنا أمزح معك.

تحركت، وقفت أمام حسن الدفش، رئيس الوردية، مستعدّاً لما يطلب مني، فأشار إلى شيء يشبه القميص من خيش، دون أكمام، يلبسه الحمّال، محشوّ بالقش، وقال لي:

ـ ألبسه، وابدأ بحمل الأكياس ونقلها إلى الماعون.

توجّهت إلى حيث أشار، راقبت كيف يفعل الحمّالون، سحبت الشرشور وخرطته في الشوال فمزّقته من شدّة الخرطة، راحت الحنطة تخرّ منه، ضحك الحمّالون، وقال لي واحد منهم:

ـ أمّا مغفّل! اغرز الشرشور بهدوء وارفع الكيس على ظهرك، ألم يسبق لك أن عملت في الميناء؟ ألا ترى كيف يعمل الآخرون؟

لم أجب. غرزت الشرشور بكياسة، وأدرت ظهري إلى الشوال ورفعته. كان خفيفاً، وزنه نحو مئة كيلو، وما هي المئة كيلو؟ سرت به سريعاً كأنني لا أحمل شيئاً، ونزلة «اللاطة» الموضوعة بين الرصيف والماعون، وألقيته فيها فوق كدسة الشوالات، وركضت صاعداً إلى الرصيف، لأحمل غيره. كانت هذه هي البداية، لكنها كانت بداية سهلة. كانت لعباً بالنسبة إليّ، لكن الحمّالين نبّهوني:

ـ لا تركض هكذا، ستتعب، سيصير لك فتق، العمى! هذه شوالات ثقيلة، والوقت طويل عشر ساعات أو أكثر وستنام اليوم كبّة[1].

---

(١) تعبير شعبي، يعني أن يصير الإنسان مثل الكبة المدقوقة في الجرن.

كبة أو بسطرمة، لا فرق، أحمل شوالين دفعة واحدة إن أردتم، تشارطون؟

قال أحدهم:

ـ نشارط!

ـ ساعدوني إذن.

غرست الشرشور ورفعت شوالين، سرت بشكل أبطأ، لكن بقوة، ونزلت على اللاطة بهدوء، وعدت سريعاً، والحمّالون يصفقون، ويتضاحكون، وقال واحد منهم:

ـ عفارم! ثور حقيقيّ، المعلّم رضا عرف كيف ينتقيك. ظهرك قوي، رجلاك من حديد، وبقي أن نختبر قلبك، زندك، مرجلتك.. هنا، يا أخ، يحتاج المعلّم رضا إلى قوة الظهر وقوة القلب، انتظر تر..

انتظرت.. اشتغلت إلى المساء، عدت إلى البيت تعباً، أكلت ونمت نوماً عميقاً ثقيلاً إلى الصباح. كنت مهدود الحيل، فأنا لم أعتد على شغل كهذا، غير أن الحال مشت في الأيام التالية، وبعد أسبوع، اسبوعين، عرف الجميع، وآمنوا، أنني حمّال بحق، وبقي أن يعرفوا أنني ابن ميناء بحق.

زارني حليش وعبدوش، حكيت لهما عن عملي، لم أخف عنهما أنه عمل صعب، وأني وجدت نفسي، في البدء، كأنني بغل يحمل من الأثقال ما يجعل ظهره ينقصم، لكن لأنني صممت على دخول الميناء، والعمل فيها، واكتشافها، وإثبات وجودي بين رجالها، فقد تحمّلت. عانيت وتحملت، ولأول مرّة في حياتي شعرت أنني إنسان مستقيم يأكل خبزه بعرق جبينه، هذا ما سرّني كثيراً، فالحياة ليست لعبة، حياتي صعبة، لكنّها حياة جدّ، عرق فيها، وأجد لذّة في هذا العرق، أجد عافية، فكأن شيئاً بدّلني، دلني إلى الصواب، هذا الذي لن أحيد عنه. ليس معنى هذا أنني صرت

خروفاً، اكل الحشيش كالبهيمة، أو أرنباً يهرب من خيال يمرّ فوقه، فأنا مفيد الذي تعرفه يا حليش، والذي عشت معه يا عبدوش، ولن أترك ابن امرأة يلوي ذراعي، لكنني حين أقاتل، بعد الآن، أقاتل وأنا أسير مرفوع الرأس، مرتاح الضمير، لا أتلطّى بالجدران، ولا أتخفّى في المقهى، ولا أختبىء في هذا الوكر، بل أفعل كل شيء في العلن، وأنتزع إعجاب المعلّم رضا، وأحقّق خطّتي في أن أكون واحداً من رجال الميناء المعروفين.

قال حليش:

ـ هذه هي الخطّة التي حدّثتنا عنها إذن؟

ـ خطتي الوصول، وأنا لم أصل بعد.

ـ ستبقى حمّالاً، بغلاً كما قلت، أما نحن فلنا طريق آخر.

ـ كما تريد يا حليش، ليس في يدي سوى أن أسعى لكما بالعمل معي في الوقت الحاضر، أما في المستقبل فسيكون لي كلام آخر.

ـ أنا لن أعمل حمّالاً.. هذا قراري.

ـ أنت حرّ.. تابع طريقك، لكن عبدوش سيعمل معي.

قال عبدوش:

ـ أنا سأعود إلى بانياس.. هناك أدبّر رأسي.

قلت:

ـ لا ترفض الفرصة التي أمامك يا عبدوش. انس الماضي كما فعلت أنا.

ـ لا تقلق بشأني، سأتدبّر أمري، وحين أحتاجك سأعود إليك.

افترقنا دون أن نتفق. لم آسف على حليش، هذا لصّ محترف، لكن عبدوش، لو قبل العمل في الميناء، كان سيصبح واحداً من رجالها. يظلّ صديقي ونتعاون معاً. عبدوش شجاع، شهادة لله، وهو عامل في الأصل. كان مثلي. اجيراً في الفرن، وما أظنّه يعجز عن تحقيق ما يريد، لو تخلّى فقط عن طريقه القديمة، ورضي أن يمشي مثلي في طريق العيش الشريف.

لا بأس يا مفيد. أنت لن ترغم عبدوش على ما لا يريد. ليذهب حليش ويدخل في أمّه ثانية. هذا وغد. وسيظلّ وغداً. إنه سمكة نتنة ترعى عند مصبّ مجرور المدينة. هناك تجد نفسها على انسجام: نفاية الميناء ونفاية المدينة. عبث ضائع كل محاولة معه. لن يعمل بشرف. لن يصبح شريفاً. لأنه، في الأصل، لا يستطيع أن يكون رجلاً. من لا يكون رجلاً لا يصبح كذلك بالنصائح. فاقد المروءة هذا لا تنفع فيه حقن المروءة. إنني أدعه لشأنه. دعه يا مفيد وشأنه. حاول مع عبدوش فقط، هذا الصديق العزيز، هذا الأخ والسند وصاحب الكرامة والشهامة، هذا الرجل الذي من فرط رجولته، قبل حتى أن ينصاع لأمري، مع أنه كان في يده أن يرفض ذلك.

أصبحت وحيداً، انصرف حليش ولم يعد. سافر عبدوش بعد أن تمنّى لي التوفيق. حزنت لأجله، احتضنته. قبّلته عند الوداع. أوصيته أن يعود إليّ، وأن يظلّ على صلة بي. وعد خيراً. لكنني أعلم أن عزّة نفسه تمنعه من العودة إلا إذا كان مضطراً، وهذا ما لا أريده له. ليكن الله معك يا صديق. وإلى اللقاء.

هكذا افترقنا بعد اجتماع. ذهب كلّ منا في طريق. طريقي أنا كان الميناء. أنت، يا مفيد، أردت هذا. ما أردته تحقّق. أنت الآن في الميناء. وفي فرقة المعلم رضا، أثبتّ وجودك كعامل. بل زد على ذلك، أثبت أنك عامل متميّز. وحين كنت تعمل على الرصيف، وتحرّش بك ذلك الجلعوط[١] دون سبب مفهوم، حملته ورميته في البحر. وجدت أن أفضل ما تفعله أن ترميه في البحر، تجعله مضحكة بين الحاضرين، فعلت ذلك بهدوء. ببساطة وحين انتهيت نفضت يديك، كأنك كنت تمسك جردونا[٢].

(١) كلمة عامية تعني: قليل الشأن.

(٢) عامية فصيحها: الجرذ.

أنت تتكلم باختصار. تضرب باختصار، ولكن بإحكام. وعندما خرج ابن أمه من الماء، وجاءك يحمل عصا، وجهت له لكمة على الوجه فتهاوى. نزعت عصاه وكسرتها، عدت إلى عملك كأن شيئاً لم يكن. المعلم رضا سمع بالحادث. قال لي:

ـ ماذا فعلت يا مفيد؟

قلت:

ـ فعلت ما سمعت به يا معلم.

قال:

ـ ودون أن تعرف من هو؟
ـ وبماذا تهمّني المعرفة؟
ـ إنه من رجال المعلم يوسف البطحيش.
ـ هذا لا يهمّ، تحرّش بي فأكل نصيبه.
ـ هكذا خبط لزق؟
ـ هكذا خبط لزق يا معلم.
ـ ألا تخاف من انتقام المعلم البطحيش؟
ـ أنا لا أخاف المعلم البطحيش نفسه.

ابتسم المعلم رضا. قاسني طولاً وعرضاً. لم يجد ما يقوله. ولماذا الكلام؟ فأنا في الميناء ولن أخرج منها. صرت من عظم الرقبة. أما رقبة مَنْ فهذا غير مهمّ. أعرف أنني أجلب المتاعب لنفسي، ولكن أين هو المكان الذي يخلو من المتاعب؟ لو تخلّى عنّي المعلم رضا فسأعمل مع غيره. الشهور التي انقضت على دخولي الميناء، لفتت إليّ أنظار كل من في الميناء، وربما أنظار العجوز نفسه. إنني عامل كامل اللياقة. عامل يُعتمد عليه، وقد اعتمد عليّ حسن اندفش، رئيس الورديّة فكنت عند حسن ظنه، لم يضعني في مكان إلاّ وسار العمل فيه، كما يشتهي. وهذه الأخبار بلغت

المعلم رضا، لذلك قرر تثبيتي في فرقته. ثبّتني فعلاً. ومع الأيام ازداد دخلي. صرت من المقربين إليه. صرت عاملاً. فئة أولى، ولي حصة على العمل الإضافي. أصبحت معروفاً في الميناء، والمقهى، وتغيرت حالي. اشتريت ثياباً جديدة. استأجرت غرفة لائقة، استدنت على الحساب واشتريت سريراً وفراشاً مناسبين، وشيئاً فشيئاً جهّزت بيتي، صرت، كما يقولون، من الأوادم. لكن هذا كلّه لا يكفي، لا يحقق حلمي، دخلت الميناء لغاية أخرى، أن أصبح معروفاً ومشهوراً فيها، أن أصبح من أصحاب الكلمة، معلماً مثل غيري، أو قبضاياً يُحسب حسابي، وكل ما احتاجه هو الصبر. ان أصبر وأراقب وأتعلم وأعرف كل من في الميناء وكل مشاكلها، وأنتظر الفرصة المناسبة للظهور، للتفوق، لكي أقف على الرصيف، فيعرف الآخرون من أنا، وأدخل المقهى، فيرحب بي المعلمون والرياس ويخطبون ودّي.

وإذا كانت الميناء غابة فأنا ابن هذه الغابة. رأيت المعركة الشهيرة. شاهدت كل ما جرى، رأيت الذئاب على البرّ، وأسماك القرش في البحر، واكتشفت كل شيء بسرعة. اكتشفت الميناء فعلاً، ألقيت بنفسي في عالمها الغريب، عالم العمل الشاق، من الصباح إلى الغروب، دون رحمة، دون شفقة، ودون حقّ من الحقوق. تذكرت عبد الجليل الذي كان يأسف، لأن الوعي مفقود بين عمّال اللاذقية، سواء في الميناء أو الريجي أو المهن الأخرى. إنه وضع أليم حقاً كما قال، ولكن ما العمل؟

هذا السؤال صدع دماغي منذ صرت في الميناء، وعانيت ما يعانيه العمّال. لكنني لاحظت أنه سؤال لن يبقى دون جواب. لقد شممت رائحة تَململ، وسمعت أقوالاً، عن عمّال سعوا لتأليف نقابة في الميناء فبطش فيهم العجوز. غير أن السيرة لم تنطفىء، ظلت الفكرة تدور في بعض الرؤوس، وحتى رأسي لم يظل فارغاً من هذه المشكلة. إنها لا تعنيني مباشرة، لأنني لن أبقى عاملاً

لكنني، في سرّي، كنت أتمنى أن يقصُر يوم العمل، وأن يأخذ العاملون تعويضاً، ويتوقف التسريح لمجرد الشكوى، لمجرد الشبهة، وهذه هي، كما بلغني همساً، مطالب العمال، ولن تتحقّق إلا بوجود نقابة لهم.

بذور إبراهيم الشنكل وعبد الجليل والأستاذ ماهر لم تنبت في صدري. كانت الأرض، في هذا الصدر، يابسة، لا تصلح لينبت فيها شيء. كل ما افدته منهم أن أعيش بشرف، أن اعمل، أن أسلك طريقاً مستقيماً، وها أنا عامل، وشريف، ومستقيم، وهذا يكفي. هذا كلّ ما ينسجم مع عقليّتي، عقليّة من لا يؤمن سوى بذراعه، ويبحث عن المغامرة، ويفرح بها إذا وجدها، ويشارك فيها حتى لو كانت لا تتعلق به، ولا تجلب له فائدة.

لكنني، يوماً بعد يوم، ومن خلال احتكاكي بالعمّال، وجدت أن طريق المغامرة لا تفضي إلا إلى الهلاك بصورة مجانية. ماذا أظن أنا؟ ماذا تظنّ نفسك يا مفيد؟ لنفترض أنني أكبر من قرش، وأنني حوت، فماذا يفعل الحوت وحده؟ في الميناء حيتان كثيرة، والمشكلة أن الحوت أيضاً يصلح للصيد، وبعد ذلك يقطعونه ويستخرجون دهنه، ويسلخون جلده، وينتفعون حتى بعظامه. هذا ما سوف يصنعونه بي، إذا لم أسبق وأصنع بهم ما هو أفظع منه. الأسماك، القروش، الحيتان، جميعها بشر، لكنها بشر من نوع خاص. هنا بشر لهم أنياب، وأظافر، وفي خصورهم مسدسات، وتحت ثيابهم بونيات، ومطاوي وسكاكين من نوع الكبّاسات، ووحدي لن أكون قادراً على مواجهتهم.

كان عليّ أن ألعن الشيطان فلعنته. حذرته من الوسوسة في صدري. أحبّ العراك، هذا صحيح، ولكن لأدفع الظلم عن نفسي، لكي لا أبدو سمكة صغيرة أُغري السمكة الكبيرة بأكلي، لكي يأخذ «الصيادون» من حولي علماً بأنني قرش شرس، وكلب بحر يبصق، عند اللزوم، على

صنانيرهم، ويقطع شباكهم، ويفلت من الأقفاص الحديدية التي يبيّتونها في الحوض البحري. ومع أنني أعرف مسبقاً أن هذا عالمي، وأن الميناء، بكل نجاساتها، عالمي، وأنني خلقت لهذا العالم، ونزلت من بطن أمي لأعيش فيه، غير أن هذا العالم بشع، قذر، دامٍ، عديم الأخلاق، وفروسية الذراع فيه على غير ما تصوّرتها، فهي، في هذا الميناء، وربما في كل موانىء العالم، سفالة، خساسة، نوع من غدر مبيّت، كامن في كل ناحية، لا تعرف متى تكون ضحيّته، ولا متى يقذفون بك إلى الجحيم، أو يغرقونك في البحر، إذا لم تحذر، وتنتبه وتكن مستعداً في كل لحظة لدفع الأذى عن نفسك.

حسن الدفش رئيس الوردية التي أنا فيها، صاحب كيف، صاحب مزاج، ويقال إنه يشفُط بعد الشغل سكائر مدكوكة بالحشيش. لا عليّ، أنا لم أره مرة يفعل ذلك، وهو صاحبي، صرنا أصحاباً بسرعة، بعد تجربة واختبار. ثم حدث أن ذهبنا إلى خمارة قرب الميناء في بعض الليالي، وهناك شربنا. كان قويّاً، كان بالوعة عرق، يشرب ولا يسكر، وكنت مثله، وربما أكثر، أكرع العرق بغير حساب، وأصمد له، كأنه ماء، كأنه شراب محلّى بالسكر. قال لي، في إحدى الليالي، وبعد بضعة كؤوس:

- اسمع يا مفيد! أنت تعجبني، لكنك، عدم المؤاخذة، وحش، وحش حقيقيّ، لا ظهرك ينحني تحت «بالة»[1] قطن، ولا ذراعك تُلوى عند المكاسرة.

ضحكت. بانت أسناني الكبيرة في وجهي المستدير، تحت شاربي المنفذ، وفوق شفتي السميكتين، السمراوين، وذقني العريضة، ورأسي الضخم، فتأمّلني وأضاف:

---

(١) البالة حزمة قطن كبيرة، مزنّرة بشريط حديديّ، تزن ٢٠٠ كيلو غرام وأكثر.

ـ لكنك ولد! لك هيئة لطيفة، بريئة، وأنت تبتسم لأي كلمة، وهذا دليل الطيبة، أنت طيب، لكن الميناء لا تحتاج إلى الطيّبين، خذها نصيحة مني.

قلت في سرّي: «حسن الدفش لا يعرف تاريخي، لا كيف ولدت ولا كيف تربّيت، ولا من سرقت أو ضربت، ولا سوابقي في السجون، ولا تلك العملية التي جرت المذبحة في الميناء لأجلها، وكل ذلك لأنني لا أتكلم. أعرف كيف أنصت، وأضحك، وأصطنع الغباء عند اللزوم. وهذا طبعي، إنه طبع يعطيني صورة الولد الطيّب، وأنا طيّب فعلاً، وهذه الصفة سَمِعتها كثيراً، وفرحت بها لأنها قناع جيّد، يخفي حقيقتي».

شرح لي، بعد ذلك، وبتفصيل، كلَّ ما يعرفه عن حياة الميناء. قال: «في الميناء، يا مفيد، عمّال كثيرون، ينقسمون إلى جماعات، وكل جماعة لهم معلّم، هو المسؤول عنها أمام العجوز. وهناك منافسة بين المعلّمين وبين جماعاتهم، على العمل، والأجرة، والحصص الإضافية. وهناك عداوات، ومكائد، ومعارك، ونمّامون، ودسّاسون، وقوّادون، ولصوص، وزعران، وغلمان أيضاً. العجوز لا يتدخّل في كل هذه التشكيلات والمشاكل. كلما تقاتل العاملون في الميناء كان ذلك أفضل له. يظلون متفرقين، ولا يتوحدون ضده، ولهذا يدفع رجاله إلى خلق الفتن، ويظلّ يتفرّج من بعيد، ومن يخرج من بعيد، ومن يخرج من المعركة سالماً، يشجّعه، يقرّبه منه، وربما جعله من زلمه. نعم من زلمه! فالعجوز له زلم، كلّ عملهم تأديب من يخالف، من يتمرّد، من يرفع صوته أو رأسه. فإذا كان التأديب غير كاف، كان هناك القتل. يقتلون ولا يبالون، وبسهولة، وسرعة، ودون ضجّة، والفاعل يظلّ مجهولاً، لأنه محميّ من العجوز، والحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئاً. تعرف وتسكت، وضابطة الجمارك، والحراسة، تسكت بدورها، ترغيباً أو ترهيباً، فالعجوز كريم بقدر ما هو بطّاش، وهذا هو السبب في سيطرته المطلقة على الميناء. إنه سيّد الميناء بلا منازع، وهذا

ما يجب أن تعرفه، وأن تضعه في راسك، فتجنّب أن تقول كلمة بحقه، لأنها تصله فوراً. تجنّب أن تدوس على رجله، لأنه يدوس على راسك عندئذ، بسحقك. أفظع شيء، وأبغضه إليه، أن تتحدث عن نقابة أو حقوق، هو النقابة والحقوق والكل في الكل، هو ربّ الميناء، وكلمته واحدة، وذراعه طويلة، وقتلُ من يشاغب عليه مثل قتل كلب، ولهذا فهو مخيف. إنه مخيف يا صاحبي أكثر مما تتصوّر».

لم تكن هذه الكلمات عن العجوز والميناء غريبة عليّ. كنت أعرف أن الميناء مملكته، وأنه طوّبها على اسمه، وله فيها زلم وأنصار، وله في المدينة رجال في الحكم يحمونه، مقابل ما يقدّم لهم من دعم ومال. كان العجوز داهية، عقد الزنّار حول خصره جيّداً، فأصبحت تكّة شرواله قويّة، وصارت الميناء في قبضته لعبة، يحركها كما يشاء، وفي الاتجاه الذي يرى فيه منفعته وتوطيد نفوذه وهيبته. غير أن الصورة التي رسمها حسن الدفش كانت رهيبة فعلاً، مخيفة حقاً. كانت حلقة حديدية مما تربط به حبال وأسلاك المراكب على الرصيف، وليس هناك من يستطيع كسر هذه الحلقة أو حتى محاولة توجيه ضربة مطرقة إليها. إنه يدير العمل في الميناء بدقّة الساعة، وهو الذي يتحكّم في عقارب هذه الساعة، بطريقة مدهشة، لا يتقنها سواه. لقد وضع جميع من في الميناء تحت باطه، وأحياناً، حين يثور، يضعهم تحت شحّاطته، من الموظفين الكبار، من رئيس الميناء نفسه، إلى الضابطة الجمركية، إلى الحرّاس، إلى المعلمين وجماعاتهم من العمال، إلى تلك الأصناف الخسيسة من اللصوص والقوادين والمتسكّعين والذين يتعيّشون من تلك النقود التي يصرفها بسخاء، لكنه يصرفها لأن له مصلحة فيها، ويتجاوز في مساعداته الميناء إلى أسر فقيرة في المدينة، ويهبّ لنجدة عائلة أيّ بحار أو عامل مرفأ منكوب. يعطي الجزء ليسلّم له الكل، وهذا الكلّ كبير إلى درجة أصبح معها من أثرياء اللاذقية، وصارت له فيها

عقارات من الأبنية، والأراضي لا حدّ لعددها وسعتها. وكم مرة سمعت الأستاذ ماهر يتساءل: «من أين لعجوز الميناء كلّ هذا؟ من عرق العمال ودمعهم، ودمهم». لكن ماذا يفعل الأستاذ ماهر وأمثاله؟ بل ماذا يفعل عمّال الميناء المغلوبون على أمرهم، الذين يعملون من الشروق إلى الغروب، دون قدرة على الاحتجاج، ودون قدرة على تأليف نقابة تطالب بتحديد ساعات العمل، وحقّ التعويض، ومنع التسريح الذي يجري على كيفه؟ إنه يطرد من الميناء أيّ إنسان شاء، ومتى شاء، دون أن يستطيع ابن امرأة أن يقول له «ثلث الثلاثة كم»؟

سألت حسن الدفش:

ـ ماذا يقولون عنّي، عندكم في الميناء؟

ـ أقوال كثيرة، متضاربة.

قلت:

ـ في أيّ خانة يضعونني؟

قال:

ـ حتى الآن في خانة المعلّم رضا.

ـ وهل هي خانة سيّئة؟

قال حسن:

ـ ليست هي خانة العمّال على كل حال.

ـ أيّ عمّال تقصد؟

ـ العمّال الذين ليسوا في خانة المعلّمين.

قلت:

ـ المعلّمون سيّئون إذن؟

ـ المعلّمون أرباب عمل، ملتزمون، ونحن عمّال، نحن أُجراء.

ـ تقصد أن المعلّمين في صف، والعمّال في صفّ؟

ـ ليس كل العمّال. هناك، مع الأسف، عمال مُضَلَّلون، وعمال وُصوليّون، ينتهزون الفرص.

فكّرتُ: «أنا من هذا النوع، حتى الآن على الأقل».

قلت:

ـ اسمع يا حسن! اسمع يا صاحبي! يمكن أن أكون جاهلاً. أنا جاهل لأنني جديد. أحتاج إلى وقت لأعرف رأسي من قدمي. لأعرف الميناء وعلاقات الناس فيها. لكنني، قبل أن أدخل الميناء، وبعد دخولها، وفي كل وقت أيضاً، أنا رجل.

قال حسن:

ـ الرجال معادن.

قلت:

ـ هذا صحيح..

قال حسن:

ـ لا تفهمني خطأ. لا أقصد السوء بهذا الكلام.

قلت:

ـ أنا لا أفهمك خطأ.. وما أردته هو التالي: أنا رجل يعجبك.

قال حسن:

ـ وماذا يعني أنك تعجبني؟ هذا كلام فيه ادّعاء. تقول إنك رجل، وماذا في كونك رجلاً؟. كل من في الميناء يقول عن نفسه إنه رجل. حتى القاتل المأجور، وحتى زلم المعلّمين، وزلم العجوز، يكرّرون، من الصباح إلى المساء، أنهم رجال. بل إنهم رجال الرجال. هذا كلام عام، فارغ، هذا فَشْوَرة، واعذرني على هذه الكلمة.

فكّرتُ: «ليس جاهلاً حسن الدقش هذا. ليس هَيِّناً، يعرف ما يقول، وما يريد».

قلت:

ـ أردت بكلمة رجل شيئاً واحداً: إنني احترم نفسي!

قال حسن:

ـ هذا الاحترام جيّد، لكنه يظل بينك وبين نفسك.. والنفس أمّارة بالسوء كما تعلم، وعندئذ يكون احترامها، أي طاعتها، رهن الظروف والمواقف.

أضاف:

ـ كيف تفسّر أنك تحترم نفسك، وفي الوقت ذاته من رجال المعلّم رضا؟

ـ وأنتم؟ ألستم من رجاله؟

ـ نحن عمّال في فرقته.

ـ ألا تدافعون عنه، إذا وقع عليه اعتداء من معلّم آخر؟

ـ حين يكون الاعتداء على الفرقة، ندافع عن الفرقة، ما عدا ذلك نختلف مع المعلّم رضا في أمور كثيرة.

ـ تختلفون معه في موضوع النقابة.

ـ نعم في موضوع النقابة.. كيف عرفت؟

ـ سمعت حواراً حولها بين برهوم والمعلّم رضا.

ـ وماذا كان رأيك؟

ـ كنت خارج الميناء بعد.

ـ والآن، بعد أن دخلتها، أنت معنا أم ضدنا؟

ـ من أنتم أولاً؟

ضحك حسن وقال:

ـ تريد أن تعرف كل شيء في جلسة واحدة؟

قلت:

ـ لا أريد معرفة أيّ شيء، في الوقت الحاضر على الأقل. أنا لا أفهم في موضوع النقابة. لست مع الفكرة ولا ضدّها. وما أردته، منذ بدء الحديث، هو التأكيد أنني لست ممن ينقل حديثاً سمعه. قلت إنني رجل، وإنني أحترم نفسي، وكنت أقصد أنني من الذين يوثَق بهم. هذا كل ما في الأمر.

قال حسن:

ـ نحن نثق بك.

قلت:

ـ شكراً لأنكم تثقون بي.

قال حسن:

ـ لا تتعجّل، ما قصدته هو أننا نريد أن نثق بك، هذه مجرّد رغبة.

قلت:

ـ أنا لست غبياً إلى الدرجة التي لا أفهم فيها كلاماً بسيطاً وصادقاً كهذا. الثقة تأتي بعد التجربة.

قال حسن:

ـ لأن التجربة هي المحكّ.

قلت:

ـ هذا أكيد. التجربة هي المحكّ. أنا أفهمكم. منذ دخولي إلى الميناء وأنتم تراقبونني. تريدون معرفة من أنا؟ بماذا أفكّر؟ وكيف سأتصرف إذا ما اتّصلتم بي وتحدّثتم إليّ؟ وفي الجواب على هذا كله أقول: لن أخون العمّال أبداً.

قال حسن:

- هل هذا لأنك عامل؟

قلت بحسم:

- نعم! لأنني عامل، ولأنني صديق لناس يريدون خير العمال. إنني، في الظاهر، جلف، رجل عراك. رجل واثق بشجاعته إلى درجة الغرور. لكن رأسي ليس فارغاً تماماً. هناك، في مخّي، بعض الأفكار، لذلك أقول لك، ومهما كانت مواقفي، إنني ممن يوثق بهم. لكنْ بقي شيء واحد، شيء أساسيّ بالنسبة إليك.

قال حسن بادي الاهتمام:

- وما هو هذا الشيء؟

ضحكت. قلت مازحاً وأنا جادّ كل الجدّ:

- إنه شيء بسيط. بسيط جداً. أنت سألتني: كيف نثق بك؟ «وأنا أسألك أيضاً:» كيف أثق بك بدوري؟ من يدريني من أنت؟ وما هي علاقتك بموضوع النقابة؟ وهل أنت رجل أم ظفر قطّ؟ أنت قلت أشياء كثيرة. وأنا قلت أشياء كثيرة. هذا لا يهمّ. قد تكون ممن دفعهم المعلّم رضا لاستدراجي. وقد تكون ممن دفعهم العجوز لمعرفة أفكاري. كل هذا جائز. فكّرت فيه، كنت أفكر فيه وأنت تسأل وأنا أجيب. لقد اشتغل مخّي هذه المرّة جيداً. أنا أشرب العرق وليس العرق هو الذي يشربني. والنتيجة هي هذه: تستطيع، إذا لم تكن صادقاً، أن تنقل هذه الأقوال لمن يهتمّون بها، للعجوز أو أرباب العمل، وتستطيع، إذا كنت صادقاً، أن تنقلها لمن يهتمّون بها على الطرف الآخر: العمال. أنا لا أبالي بالحالتين. لا أخاف من كلمة قلتها، ولا من موقف وقفته، إنني منذور للموت، لكنني غير متهوّر.

قاطعني حسن:

- بل أنت متهوّر. كيف ألقيت ذلك الرجل، حسّون، في البحر؟

نظرت في عيني حسن تماماً. غرست عيني في عينه، ابتسمت. قلت:

- أنت تعدّ ذلك تهوراً؟ في هذا معك حق. كان عملي تهوّراً، لكنه تهوّر مقصود، لي فيه مآرب أخرى.

سأل مع شيء من الفضول:

- وماذا سيكون موقفك إذا قلت لك إن حسّون هذا من جماعة العجوز؟

- موقفي يظلّ هو هو. إذا تحرّش بي حسون ثانية، سألقيه في البحر مرة أخرى. وعندما تصرّفت على هذا النحو كنت أدرك ما أفعل. إنه مكتوب أرسلتُه لمن يعنيهم الأمر.

قال حسن:

- ومن يعنيهم الأمر لهم أنياب.

- وهل أنا بغير أنياب؟

- إنك تغامر.

قلت:

- الحياة كلّها مغامرة.

بعد ذلك خرجنا من الخمارة، حسن الدفش وأنا. تمشينا على الشاطىء نحو مقهى العصافيري، وهناك افترقنا. ذهب حسن إلى بيته، وذهبت إلى المبغى، وبعد ذلك رجعت إلى غرفتي، ونمت.. نمت تعباً، قرفاً، شاعراً أن بلاطة على صدري، دون أن أنسى أقوال حسن الدفش وتحذيراته التي جعلتني صاحياً برغم كل ما شربت في الخمارة وفي «الكرخانة»[1] أيضاً.

بعد أيام وقع حادث تافه، ما لبث أن تطوّر إلى معركة. المعلّم يوسف

(١) المبغى.

- ظلمتني الحياة وأريد أن أنتقم منها.
- لا أحد ينتقم من الظلم بهذه الطريقة.
- وطريقتكم لا تلائمني. أنتم نمل. تعملون مثل النمل. تنقلون البيد حبّة حبّة..

قاطعني:

- وأنت تريد أن تنقله دفعة واحدة، ولكن كيف؟
- بالوقوف في وجه المعلم البطحيش والعجوز. أريد أن أنتقم كما قلت لك، ووحدي.
- في ماضيك شيء لا أدري ما هو. تريد أن تنتقم لماضيك، ولكن بطريقة سخيفة.
- هذه طريقتي.
- إذن لا لقاء بيننا. افعل ما تريد.
- زعلت؟

قال برهوم:

- ولماذا أزعل؟ إذا كنت تريد الانتحار، وتصرّ عليه، فكيف نمنعك؟ ثم لماذا نمنعك وأنت تركب رأسك؟ مرّ على الميناء أمثالك كثيرون، لكنهم ماتوا ميتة الكلاب، لأنهم عملوا وحدهم.

قلت بنبرة جفاء:

- أنا لن أموت ميتة الكلاب. ولا أريد أن اكون متهوّراً. واجهتني ظروف عرفت فيها كيف أضبط نفسي فلا أتهوّر، مع أنني كنت وحدي، لا أحد يوجّهني، ولا أحد يشير عليّ بكلمة. الآن أنا معكم. افهموني: أنا معكم. لكنني أريد البقاء طليق اليدين.

سألني وقد عاد إليه هدوؤه.

- ونحن نقيّد يديك؟ متى؟ وكيف؟ كل ما نريده أن تتعاون معنا، بشكل من الأشكال.
- أتعاون بالشكل الذي يرضيني.

قال ساخراً:

- سلامات.. أنت، يا خروفي العزيز، تنطح الصخر بقرنيك.
- وأنتم؟
- نحن سنقلع الصخر مجتمعين. يد الله مع الجماعة. سنتوصل إلى تأليف النقابة، وتحقيق مطالبنا.
- ولكن متى؟
- لا أعرف، ولو عرفت لن أقول. رغم أننا نثق أنك لن تخوننا.

قلت:

- فهمت منك، في أوّل جلستنا، أنكم ستعلنون ما تريدون قريباً.
- نحن نعلن ما نريد منذ سنوات. والعجوز يعرف، لكنه لا يستطيع، أمام تضامننا، شيئاً. الريح ليست في صالحه. بعد جلاء فرنسا تغيّرت الأحوال. العمال، في دمشق، يُضربون، يتظاهرون، ينتزعون حقوقهم. وهم معنا العمال في دمشق معنا، وكذلك في حلب وكل سورية.

قلت:

- وإذا كانت المسألة قريبة فأنا ملتزم معكم.

قال:

- وإذا كانت بعيدة؟
- أفكر...
- ونحن نريدك أن تفكر.. تصبح على خير.

كانت لبيبة تنام على مقعد في غرفة النوم. تنتظر رحيل الرجل الذي لا تعرف اسمه. أنا أخفيت عنها اسمه. قلت: «عامل من الميناء وكفى»

فأيقنت أنني مقتول لا محالة. هذا هو الموت، والموت في هذه الحالة يصبح سهلاً. أنا وهُمْ، وهم كثيرون، لكنّ القضيب في يدي، ومن يتجرأ على الاقتراب مني فسأقتله أو يقتلني. في قلب هذا الموقف الصعب، رأيت المعلّم يوسف البطحيش يشهر مسدّسه ويندفع نحوي. صرت في مواجهته، ولكن عن بعد. لو بقيت مكاني لقتلني. لو بقيت ثابتاً، مدافعاً، لأصبحت هدفاً لرصاصاته. لم يبق أمامي سوى الهجوم، سوى الحركة. هاجمت. قفزت. أطلق بضع رصاصات عليّ، لكنني بلغته وهويت بالقضيب عليه، فسقط والدم يشرّ منه. هكذا شفيت قلبي، الضربة التي أصبته بها وطرحته أرضاً شفت قلبي، ومن جديد هاجمني رجاله، تكاثروا عليّ، لكن جماعتي أنجدوني. وتجدّدت المعركة، تجدّدت حتى رأى العجوز ضرورة إنهائها، فأوعز إلى رجال الشرطة والضابطة الجمركية، ولعلع الرصاص، وتمّ الفصل بيننا، ولكنهم قبضوا عليّ، وجرّوني إلى المخفر.

هناك، في المخفر، انتبهت إلى نفسي. كان الدم قد بلّل ثيابي. لقد أصابت رصاصة ذراعي. كان معنا، في المخفر، موقوفون من الجماعتين، فساقونا جميعاً إلى السجن، وفي مستوصف السجن عصبوا جراحي. لم تكن جروحاً عميقة، لم تكن قاتلة، وبعد أسبوعين شُفيت، لكنهم حكموا عليّ بالسجن شهرين، قضيتها واقفاً على رجل واحدة. ماذا يعني السجن؟ وما هي مدّة الشهرين؟ كنت أحسب نفسي من الأموات، وها أنا حيّ. «عمر الشقي بقي» كما يقول المثل. لكن ماذا جرى للمعلّم رضا؟ وماذا كانت نتيجة المعركة؟ وما هو موقف العجوز الآن؟ هذه الأسئلة عذّبتني.

أرسلوا إليّ نقوداً وطعاماً. زارني حسن الدفش وبرهوم والمعلّم رضا نفسه. لكن الأحقاد زادت. فصلوا بيننا في السجن، جماعة المعلّم رضا في قاووش، وجماعة المعلّم البطحيش في قاووش. بقينا تحت مراقبة الدرك، حتى لا تقوم معركة أخرى بيننا في السجن.

في الميناء جمع العجوز المعلّمَيْن عنده وصالحهما. عاد الشغل في الميناء إلى طبيعته. بل لم يتوقف حتى خلال المعركة. العجوز لا يرضى بتوقّف الشغل، وحين لا يرضى عن شيء لا أحد يخالف. ما أراده صار. الديكان تصارعا، وتصالحا، والعمال تعاركوا، وهذا شيء حسن. يجب أن تدوم المعارك، بذلك تدوم الخلافات، وماذا يضير العجوز لو مات أحد المعلّمين، أو بعض العمّال؟ المهمّ أن يقتتلوا، فالاقتتال يضعفهم جميعاً، وهذا يسمح له أن يَحكم الجميع، أو يُخضع الجميع، وأن يبقى قويّاً سيّداً على الميناء لا ينازعه مُنازع.

انتهت مدة المحكومية وخرجت. ذهبت إلى غرفتي. وجدتها قذرة، يأكلها الغبار، قمت بمسح الأرض، ونفض الغبار، وإصلاح الأثاث القليل، ودون توقّع طُرِقَ الباب، من؟ حسن الدفش، تعانقنا، تحدّثنا عن الميناء، والشغل، وأبلغني سلام المعلّم رضا، ودفع لي نقوداً، قال إنها أجرتي عن كل الأيام التي قضيتها في السجن. فرحت بذلك، فرحت بالنقود وبموقف المعلّم رضا الطيّب مني. أنا الآن فعلاً من رجاله، والمعلّم مثله لا ينسى رجاله، هذه هي العادة في الميناء. الميناء لها عادات، لها قانون غير مكتوب. العمل، والعراك، وقوة القلب، ومن يُثْبتْ شجاعته ينل حُظْوةً من فيها، لكنه يجب أن يظلّ كذلك، فإذا خاف، أو تراخى، رُمي على كومة الزبالة.

فكرت: «كيف سيستقبلونني في المقهى الآن؟ وكيف سيكون حالي في الميناء؟ وهل في مقدور المعلّم رضا أن يعيدني إلى الميناء؟» لقد تغيّرت الحال. هذه الالتفاتة من المعلّم رضا دليل على أنه قدّر رجولتي، يا ترى قدّرها غيره، الآخرون، في المقهى والميناء؟ هذه هي الخطوة الأولى. خطوة بسيطة ولكنها في الطريق الصحيح، الطريق الذي رسمته لنفسي، وعليّ، بعد الآن، أن أعيش بين فريقين: فريق معي وفريق ضدّي، الذين مع

المعلّم رضا معي، والذين مع المعلّم البطحيش ضدّي. غير أن الجميع يجهلون من أنا. في الميناء لا يحتاج المرء إلى قيد نفوس، أو ورقة «لا حُكْمَ عليه»، أو أوراق ثبوتية، وهذا ما حدث معي، وما جعل سوابقي مخفيّة، مجهولة، حتى من المعلّم رضا نفسه. في الميناء وُلدت من جديد، وهذا الذي وُلد من جديد، والذي هو أنا، سيتابع طريقه، وسيعلم الجميعُ، وفي المقدمة المعلمون، وزلم العجوز وأمثال الزلقوط، أنني مرّ كالزقّوم، ولا أحد يستطيع شربي ككوب الماء، وسأجعل الجميع يغصّون بي كاللقمة التي لا يستطيع الحلق ابتلاعها.

اشتريت ثياباً جديدة. تخليت عن البنطال والقميص. زكرتية الميناء يلبسون الشروال والقميص ويمسكون في أيديهم خيزرانة، وأنا من الزكرتية، ومن «لا يعجبه يضرب رأسه بالحيط» ولن يكون بعد اليوم شغلي مع أيّ ابن كلب، بل مع معلّمه، أتصدّى للمعلّمين، وأعرف ماذا يعني ذلك: مقامرة! أقامر على رأسي، ومتى قامرت في حياتي على غيره؟ شيطاني ذكر، والذكر هو الذكر، والموت انثى، ومثلها يخاف، ونحن عديلان، الموت وأنا عديلان، مثل البحر والبحّار، أحدهما يجب أن يموت أو ينتصر، والبحّار الحقيقي ينتصر، ومثله سأنتصر، وماذا ينقصني؟ المركب؟ الميناء هي مركبي، وسأجعله يسير كما أريد، وسأجعل الريح تنفخ شراعي كما أريد أيضاً. خلاص! انتهى زمن التخفّي. جاء زمن الظهور جهاراً نهاراً، ومن غد سأظهر، وسأدخل المقهى غير الدخلة السابقة، سأدخله كما يليق بي الآن.

في اليوم التالي لبست ثيابي الجديدة. حملت خيزرانة ومشيت نحو المقهى بهدوء، مشية الرجال، ودخلته بقامة منتصبة ورأس مرفوع. قرّرت خوض معركة جديدة من اليوم الأول. وماذا في ذلك؟ الموت؟ السجن؟ أنا لا أخاف الموت أو السجن، فماذا بقي إذن؟ طزّ في الدنيا!

كانت حلقة الريّاس في موضعها، وكان المعلّم البطحيش هناك، فتعمّدت أن أمرق من أمامه وقصدت طاولة فارغة، وطلبت قهوة، ثم أشعلت سيكارة، ووضعت رجلاً على رجل، وداخلني شعور بالجدّة، بسبب الشروال والقميص الجديدين. كنت طازجاً الآن، كنت رجلاً ندّاً للرجال، وكان في مظهري شيء من التحدي، فلم أنزعج لذلك. ليكن ما يكون. ليقل الجالسون إنني أتحدّى، وما هَمّ؟ أتحدّى ونصّف، أسترجع ما خسرته، أُعوّض عن المهانة التي ذقتها وأنا جالس خائفاً في هذا المقهى اللعين. وحتى عملية الماعونة لم تعد تشغلني، فإذا عرف العجوز بها سيحاول قتلي ولكنه، في هذه الحال، سيجعلني في مواجهته تماماً، وأنا مستعدّ لذلك.

كانت هذه الأفكار أفكاراً عنجهية، وكنت أتعمّدها. كان دمي يناديني، أفهم نداء الدم هذا، وأنا جاهز له، فالوحش الذي في داخلي، خرج وجلس إلى جانبي، على طاولة واحدة.

كنت قد اشتريت شحّاطة لَمّيعة ولبستها. ليس لأني أفضلها، لكنها من عدة الزكرتية. الزكرت يلبس حذاء معكوفاً من وراء، أو «صرماية» كما يقول أهل حلب، وحين تكون لمّاعة، لا بد أن يكون لونها أسود، وقد ارتحت للونها ولمعانها وهي في قدمي، وناديت ماسح الأحذية الذي يحوم حولي ليزيدها لمعاناً، مع أنها جديدة.

قلت له:

- يا عم، اجعلها مثل المرآة، اجعلها مرآة حقيقية، مثل وجهك.

قال:

- وجهي كشر، سأجعلها مثل وجهك.

فوجئت بالجواب، خطر لي أن أرفس صندوق المسح وأضرب صاحبه، لكنني وجدته جادّاً، فانتهرته:

ـ ماذا تقول؟
ـ الذي سمعته. .
ـ تهزأ بي؟
ـ أمازحك، وجهك بشوش، يغري بالمزاح.
ـ ولكنك لا تعرفني.
ـ وما الفرق؟ أنا أقول الحقيقة، ابتسامتك شجّعتني، أنت ابن حلال.
ـ وإذا كنت ابن حرام؟
ـ يكون أحسن، تكون ابن زمانك.
ـ وتكون أنت ابن أمك. . .
ـ هذا صحيح، فأنا لا أعرف والدي. . ابن زنى، إذا أردتَ الحقيقة.
ـ تقولها بهذه البساطة؟
ـ وماذا فيها؟ هل يعيش إلا ابن الزنى؟

فكرت: «هذا العرص حكيم، لكنه طويل اللسان، وكلما مازحته تجرّأ عليّ، ابن نكتة، لكن نكتته موجعة، وأنا لم أخلق للوجع، للألم، للعبوس، وجهي لا تفارقه الابتسامة، يلمع مثل حذائي الجديد هذا كما يقول، لكن من الأفضل أن أصرفه، أن أعطيه أجرته وأصرفه، قبل أن يتمادى أكثر».

سألته:
ـ اسمك بالخير؟
ـ الخربوط. .
ـ هكذا حاف؟
ـ تريده مفلفلاً؟

قالها ومدّ يده إلى علبة سكائري. تناول سيكارة وأشعلها. سحب منها نفساً قوياً، فخرج الدخان من فمه ومنخريه. كان حشّاشاً، كان ابن ميناء حقيقيّاً، فغمزت له بعيني وقلت:
ـ يبدو أنك تتعاطى «الكيف»؟
ـ ومن لا يتعاطى «الكيف» هنا؟ نحن في معبد أو في مرفأ؟
ـ في مرفأ. .
ـ وفي المرفأ تجد كل شيء. اطلبْ تجدْ. ماذا تريد؟ امرأة، غلام، حشيش؟ كله جاهز، وكل شيء يتوقف على الدفع. . هل أنت دفّيع؟

أعطيته نصف ليرة، رميتها له في الهواء فالتقطها بخفة وقال:
ـ دفّيع!

قلت ضاحكاً:
ـ أنت خفيف الدم يا خربوط.
ـ وثقيله أيضاً.
ـ كيف؟
ـ في المستقبل تعرف. أنا هنا، في الميناء، اسأل عني تجدني. . صرت زبوني. أعطني سيكارة ثانية.
ـ خذ الباكيت كله.
ـ أنت أفندي، تصرّفك يدل عليك، نظرة الخربوط لا تخيب. الداعي بيّاع متجول، تجد عنده كل أنواع البضاعة، وخاصة الممنوعة، في أي ساعة تكون في المقهى عادة؟
ـ في الصباح. .
ـ الحشيشة تكون عندك غداً صباحاً.
ـ لا أشربها. .
ـ إذن آتيك بغلام يعجبك بعد الظهر.
ـ لا أتعاطى اللواط. .

ـ أجلب لك امرأة في الليل، أين بيتك؟
ـ لا أريد النساء أيضاً.
ـ لا تقل هذا، من يسمعك يظن أنك مخصيّ.
ـ وأنت كيف تراني؟
ـ فحل في المظهر، ولكن العبرة في الشروال، المهم «فرخ البوري» الذي بين الفخذين، أم أنهم قطعوه لك؟ احذر، في الميناء لا يعيش إلا الفحل، فإذا خصوك راحت عليك.
ـ فشروا.
ـ تعجبني إذن.. الاسم الكريم؟
ـ مفيد..
ـ ابن بحر أم ابن بر؟
ـ ابن بحر وابن بر.. حسب الظروف.
ـ تشتغل مع العجوز؟
ـ لا...
ـ مع أي معلّم إذن؟
ـ أنا هو المعلم نفسه.
ـ لا تتعجّل.
ـ لماذا؟
ـ لكي تصير من المعلمين لا بدّ أن تعرف الميناء، أن تسبح في حوضها، وتكتوي بنارها، أن تمرق من الزرد، وتلوي بساعديك قضبان الحديد.. هنا، يا صاحبي، حديقة حيوانات، ولكل حيوان قفص، يتفرج عليه الذي يَسْوَى والذي لا يسوى، ولا أحد يخرجه من القفص إلا قوة ساعديه، هل لك ساعد قوي؟
ـ في المستقبل تعرف..

ـ أعرف منذ الآن.. ألست من جماعة المعلّم رضا؟ أنت الذي تصدّيت للمعلّم البطحيش، كنت هناك ورأيتك، لكن المعلم البطحيش لا ينام على ثار، عظم قرش، لا تكسره مطرقة.

تأملت الخربوط جيّداً. رأسه مُبعّج، شعره مُشعّث، وجهه مثل قفا الطُّنْجَرة، وجسمه خطأ، فيه شيء يدعو إلى الضحك، لكنّ فيه شيئاً يدل على الخبث. ابن زنى كما قال، وهو يعرفني، وقد قصدني، والحّ على مسح شحّاطتي الجديدة لأنه يريد أن يتحدث معي، يريد أن يبلّغني رسالة. وصلت الرسالة. المعلم البطحيش يتربّص بي، يهدّدني، والخربوط أبلغني التهديد، هذا الذي حسبته مهرّجاً ليس كذلك، خفيف الدم، هذا صحيح، لكنه ثقيل الدم أيضاً، وهذا ما صارحني به. إذن عليّ أن احتاط، حليش، والزلقوط، وهذا الخربوط، كلهم تربّوا هنا، في الميناء، وكلهم ثعالب، وفي الميناء، إضافة إلى الذئاب والقروش، ثعالب أيضاً، والثعلب محتال، وهم محتالون. هم غدّارون، قتلة، مهرّبون، قوّادون، ولواطيون أيضاً. إنهم حُثالة المدينة، في الميناء حثالة المدينة، وفيها رجالها أيضاً، وعليّ أن أختار بين أن أكون من الحثالة أم من الرجال.

دون تردّد قلت في نفسي: «من الرجال! أنت يا مفيد من الرجال» لكن ماذا يعني أن تكون من الرجال؟ معناه أن تضع دمك على كفك، أن تخرج من البيت صباحاً دون أن تعلم ما إذا كنت ستعود إليه مساء. ففي وسع أيّ ابن فاعلة، أيّ حقير، أن يلطي لك ويقتلك برصاصة، دون معركة، ولا رجولة ولا زند قوي ولا من يحزنون.

المعلّم البطحيش حاقد عليّ. حقده بلغ الذروة لأن المعركة وقعت في عزّ النهار، ورآها كلّ من في الميناء، وكلّهم ضحكوا، فانكسرت هيبته. لذلك سينتقم، سيكون انتقامه فظيعاً. حاذر إذن! حاذر يا مفيد، يا ابن المتوف، لأنك ستُمزّق نتفاً إذا وقعت بين يديه أو أيدي رجاله. ظنّي أن المعلّم

البطحيش لا يريد لك ميتة مستورة، تتم في الظلام، ويظلّ القاتل مجهولاً. هذا لا يشفي غلّه، لا يمحو العار الذي ألحقتَهُ به، لذلك يدبّر لك ميتة فضيحة، في عزّ النهار أيضاً، وفي الميناء، فيضرب هو الضربة الأولى، ويترك لرجاله أن يتكفّلوا بالباقي. هنا، في اللاذقية، وخاصة في الشيخ ضاهر والميناء، لا يلوّث السادة أيديهم بدماء من يريدون قتله. يكتفون بالضربة الأولى، التي تفتح الشهيّة مثل اللقمة الأولى، وبعد ذلك يندفع الزلم، وهؤلاء يجهّزون على الضحيّة بشكل لائق، فيه عبرة للآخرين.

إذن المعركة غير متكافئة حين تقع. أنت فرد وهو فرقة. هو معلّم له زلم، وأتباع، وأنت لست معلّماً، ولا شيئاً، وليست لديك فرقة من العمّال، بينهم زلم مخصوصون، شغلتهم تأديب الآخرين، وقتلهم عند اللزوم. لقد تبجّحت أمام الخربوط. أظهرت ما يجب أن يظهر، أن يعرف، دفعة واحدة، وسيبلغ ذلك كله المعلّم البطحيش. قلت إنني معلّم وما أنا بمعلّم، والخربوط كشف هذا الواقع، حين صارحني أنني من فرقة المعلّم رضا، وأن تواجدي في المقهى، على هذا النحو الاحتفالي لا ينبغي أن ينسيني أن لي غريماً، وأنني أعيش، بعد اليوم، عيش المطلوب دمه، وعليّ أن أثبت صلابتي، وبأسي وقدرتي على التخويض في وحل المرفأ، والخروج سالماً، ظافراً، دون أن تلحق بثوبي أيّ لطخة، ودون أن أستشعر الخوف، أو أدع للجبن أن يدمغني دمغة واحدة أخجل منها في أيّ يوم من حياتي، أو كلما تذكّرتها في نهاري وليلي.

طلبت قهوة من جديد، أشعلت سيكارة بانتظار وصول المعلّم رضا، أو وقوع أيّ مفاجأة في مقهى هو قطعة من الميناء، غابة المفاجآت هذه، التي تتربّص بكل من يدخلها. كان النهار بارداً، فنحن في كانون الأول، وكان عليّ أن ألبس الجاكيت، لولا أن المباهاة بالشباب، وحرارة دمه، ورغبتي في

تحدّي الطقس نفسه، قد دفعني إلى الاكتفاء بالقميص والكنزة(١)، ومن تحتها «فنيلة» تخفف من لذعة البرد قليلاً.

وبينما أنا أرتشف القهوة، وأسحب أنفاساً عميقة، متتابعة، من السيكارة، رحت أراقب المقهى، ومن فيه، وحركات الخربوط، وما إذا كان سيذهب إلى المعلّم البطحيش، بحجّة مسح حذائه، لينقل إليه ما دار بيننا من حديث.

كان جوّ المقهى مُضبّاً، كثيفاً بسبب الدخان، وكانت رماديّة الفضاء في الخارج، تزيد من جهمته، وبين الحين والحين، تتسلّل خصلة من شمس، عبر النافذة العالية، فتسقط سقوطاً عمودياً، يضيء المقهى قليلاً، ثم لا يلبث أن ينقطع، لأن غيمة حجبت الشمس، فيشمل اللون الرماديّ كل شيء، ولا تبقى إلا الريح، وهدير الموج، وصفّارات السفن، ومنها تدرك أن العمل جارٍ في الميناء كعادته، وأن المعلّم رضا على رأس فرقته، لتسهيل الشغل، وملء المواعين وإفراغها، بينما اللنشات التي تقطر هذه المواعين في حركة دائبة، ذاهبة آيبة، بين الرصيف الوحيد، القديم، وبين السفن التي ترسو خارج حوض الميناء الضيق، الذي لا يستقبل البواخر عادة، ولا تجد فيه إلا المراكب الشراعية أو ذات المحرّكات، لكنّها مراكب صغيرة بالنسبة للسفن، وهي لا تتجاوز في سفرها المرافىء القريبة على المتوسط، وتقوم بنقل الحبوب غالباً.

حننت إلى البحر، إلى السفر، إلى البعد عن الميناء، إلى قضاء العمر فوق الماء، حيث أعيش دون أن أضطر إلى انتزاع لقمتي من أفواه الذئاب المحيطة بي. صحيح أنني ذئب أيضاً، ولكن إلى متى هذا العراك القذر، وهذه الخصومات البغيضة، والدسائس الدنيئة، التي يفرضها عليك المرفأ بطبيعة الصراع الدائر بين العاملين فيه؟

(١) قميص خارجي من صوف. «بلوفر».

حفت؟ لا. أعرف مصيري: الموت أو السجن. لكنني تساءلت ما إذا كنت قد أخطأت، وأن مكاني هو البحر، على مركب أحد هؤلاء الرياس، وليس في الميناء، مع إحدى الفرق العاملة فيه، حيث لا بدّ لك أن تكون مع معلّم هذه الفرقة ضد معلّم الفرقة الأخرى، وأن تعيش في بقعة صغيرة من اليابسة، هي حرم المرفأ، وعليها تجري كل هذه السفالات، التي انغمست فيها الآن، ولن أخرج منها قبل أن أدفع الثمن.

فكرت: «ما هو الثمن الذي عليّ أن أدفعه؟ وما نوعه؟ ما حجمه؟ ما مداه؟ وهل أظلّ أعيش قاتلاً أو مقتولاً، أم يأتي اليوم الذي أصفّي فيه حساباتي مع الآخرين، أو يصفي الآخرون حساباتهم معي، ثم أغادر الميناء دون عودة، وأعمل بحّاراً على أيّ مركب أو سفينة؟

في هذه الحال أكون قد هربت من المعركة. ربما نعم، وربما لا. لست أدري. لقد خضت معركتي الخاصّة وكفى، فإذا سافرت أكون قد نفضت يدي من حياة البرّ العفنة هذه، ووهبت نفسي للمدى الأزرق البعيد، البعيد جدّاً، وسافرت إلى مرافىء العالم، كي أرى وأكتشف وأختبر كلّ ما فيها، وكذلك كل ما في البحر، حيث الصراع الشريف، بين البحر والبحّارة، والنصر لمن يثبت في العاصفة، لمن يكون رجلاً حقاً، البحر دنياه، والبحر مثواه، وتلك هي المغامرة المجيدة، التي تستحقّ الظفر أو الموت، وتلك هي المعركة الكبرى، التي بعدها التتويج، أو الانحدار إلى جحيم القاع».

دخّنت طويلاً وكثيراً. يئست من مجيء المعلم رضا إلى المقهى، لكن المعلم البطحيش هنا، وقد رآني، وعرفني، فإذا خرجت ظنّ خروجي فراراً، فازدادت رغبة الانتقام في صدره. عليّ أن أبقى، أن أثبت قدمي، أن تكون ثيابي لائقة بجسدي، وزندي لائقاً بمظهر التحدّي الذي اتخذته عند دخول المقهى، فالموت، في هذا الجو الرمادي، موت له إغراؤه، وأنا لن أموت ميتة سهلة، لن أنتحر، ولن أنهزم، ولن يقوى ابن امرأة أن

يقابلني وجهاً لوجه، أما الغدر فمستحيل، فهذا يحدث غيلة، في الليل، وليس في مقهى يضمّ كل هؤلاء الزبائن.

قررت أن أبقى في المقهى ما بقي المعلم البطحيش فيه، سأغادره بعده: أجعله يعرف من أكون، وأجعل الميناء تعرف مفيد الوحش، وأترك مصيري لقدر بعد ذلك. خير ما يفعله الإنسان أن يحدّد هدفه، ثم يترك ما تبقّى لقدر، ولن أعتب على قدري إذا ما كان سيّئاً، فأنا، في أعماقي، غير مكترث بالحظّ، هذا الذي عاكسني طويلاً، دون أن أندبه، ودون أن آبه لأنه حظّ لعين، مثل حياتي اللعينة، حياتي التي عشتها بكاملها، من غير أسف على ما لقيته فيها.

«أنت حمار هكذا يقول لي والدي. جعلني حماراً لكثرة ما ردّد هذه الكلمة عليّ، حتى بتّ أعتقد أنني حمار بالفعل، ولعلّي قطعت ذنب الحمار انتقاماً من أبي، أو بدافع لا أعرفه، وصرت، بعد ذلك، أكره الحمير، وأتجنّب رؤيتها، لأنها تذكّرني بحالي. ولم يكن معلّم المدرسة بأقل قسوة عليّ من أبي، فقد كان يراني، هو الآخر، حماراً لا نفع فيه. وباستثناء أمي، تلك المرأة الطيّبة، فقد أجمعت القرية كلها على أنني حمار، وأنني وحش، ناقص العقل، قليل التربية، فاسد السلوك، وأمام موقف العداء هذا، كان العداء المقابل يتخزّن في صدري. صرت عدوّاً للجميع، كرهت الجميع، ولم أترك أذيّة إلا وألحقتها بهم، من سرقة الكروم، إلى حرق أراضي القمح، إلى فتح الماء على أيّ بستان، في غير ميعاد ريّه، كي أُغرقه وأتلفه فلا ينتفع به أصحابه.

أمّي وحدها كانت إلى جانبي، وظلت إلى جانبي حتى هربت من القرية. كانت تسهر الليل كله إذا كنت غائباً، وتفتح لي الباب، وتقدّم لي ما عندها من طعام، وتفرش لي كي أنام، وهي تقول في توسّل:

- لماذا، يا مفيد، يا حبيبي، تسلك طريق الشرّ؟

- لأنهم دفعوني إليه دفعاً.
- مَنْ هم؟ مـَنْ تقصد؟
- أقصد الجميع، والدي قبل الجميع.
- لكنك أنت المسؤول.. حين يكون الولد شقيّاً، فمن حق والده أن يؤدّبه.
- ليس بهذه الطريقة.
- بأي طريقة إذن؟
- باللطف.
- ألست لطيفة معك أنا؟
- بلى، لكن والدي لا يريدني تحت سقف بيته.
- والدك معذور، سبّبت له الكثير من الآلام.
- وأنا؟ ألم أشقَ وأتألّمْ؟
- كل ما نالك سببُهُ عنادك، وإصرارك على الشقاوة والتخريب وإلحاق الأذى بأهل القرية. تُبْ لله، اقلع عن سلوكك السيء، وستجد المحبّة من الجميع، ومن والدك أيضاً.
- أنا لا أحبّ والدي.
- يا ويلاه، ماذا تقول؟ هل يكره الابن أباه؟
- أنا أكره أبي...
- وأنا؟ هل تكرهني أيضاً؟ وإخوتك، ما ذنبهم؟
- أنت شيء آخر، قلتُها بتأثّر عميق، أنت أمي، وأنت حبيبتي، أنت القلب الوحيد في الضيعة الذي يحبّني بصدق، وأنا أحبّه بصدق، وأفكّر بطريقة لإرضائك، لأجعلك سعيدة، لكن والدي يفسد كل شيء، ويجعلني شرّيراً، مصرّاً على إفساد كلّ شيء أيضاً، فهو يبغضني، وأنا بدوري أبغضه، ولم يبق لي، في الضيعة كلّها، سواك، وسوى إخوتي، وكي تستريحوا جميعاً، سأترك الضيعة ولن أعود إليها أبداً.

منذ ذلك اليوم لم أعد إلى الضيعة، ماتت أمّي دون أن أراها، وبعدها مات والدي، وكنت عند موته في السجن، فلم أذرف دمعة. بكيت عندما وصلني خبر موت أمي، لكنني لم أبكِ عندما بلغني موت والدي، كنت قاسياً، بادلته قسوة بقسوة، ولم أترحّم عليه. وقد علمت، بعد ذلك، أن عمّتي هي التي تكفلت بإخوتي، وكنت أنتظر اليوم الذي أصبح فيه محترماً، كي أعود إلى إخوتي فلا أُلحق بهم عاري، لكن هذا اليوم لم يأت بعد. ولم أحصل من عملي إلاّ على ما يكفي لأعيش عيش الكلاب، فكيف أساعدهم؟ كنت أفكر فيهم، أفكر بالضيعة، وبالأولاد من أصحابي، وأتساءل: كيف هم؟ وهل كبروا؟ ومن يعتني بأرضنا؟ ومن يقدّم اللقمة لهؤلاء الإخوة؟ أم تراهم جائعين، مشرّدين مثلي!؟ عليّ، إذا تحسّنت حالي، أن أعود إلى الضيعة، وأن أساعد إخوتي، وأعوّض عمّتي ما بذلته من جهد ومال في سبيلهم.. نعم سأفعل كل ذلك، إذا ما أصبحت رجلاً مرهوباً، وأصبح لديّ مال، وتحسّنت حالي التعيسة هذه.

فجأة يدخل المعلّم رضا إلى المقهى. «أهلاً بالمعلّم رضا» قلت في نفسي «إنه رجل ويقدّر الرجال». دخلت معه هبة ريح باردة. حجب الغيم الشمس كلياً. نزل اللون الرماديّ إلى مستوى الأرض. الأرض رماديّة، كل شيء أصبح رمادياً حتى مبنى الميناء، حيث يجلس رئيسها دمية على طاولة. ما شغل رئيس الميناء هذا؟ ومن هو في الأصل؟ إنني لم أُعن حتى بالسؤال عن اسمه. خيالٌ هو، وبوجود العجوز يمّحي رئيس الميناء حقيقة وخيالاً. يبقى هناك ظلّ واحد، لرجل واحد، هو عجوز الميناء، العجوز الذي لا يكترث بالشكليات الإدارية، لا يهتمّ بدخول هذا المركب، أو هذه السفينة، دخولاً نظامياً، أو بخروجها، خروجاً نظامياً من الحوض الصغير للمرفأ القديم، أو إبحارها بعد إتمام المعاملات، حسب الأصول. البحر هو المرفأ الآن، وفي البحر الواسع، خارج الحوض، ترسو السفن،

وعلاقتها برئيس الميناء علاقة ورقيّة، شكليّة، متروكة له ولموظفيه، أما إدارة الشغل، من تحميل وتفريغ، فهي في القبضة الجبارة للعجوز الجبّار، الذي يملك المواعين الخشبية، وقد زاد في عددها حتى أصبح له أسطول منها.

يدخل المعلّم رضا إلى المقهى دخولاً ملوكياً، ألاحظ ذلك في هيئته، ومشيته، وثيابه، والطاقيّة الصوفيّة على رأسه. إنه على رأس العمل، وحين يكون كذلك، يتّخذ العدّة اللازمة للعمل، لكن حركاته تعطيه تميّزاً، يجعلك تدرك أنه رئيس فرقة، وأنه معلّم ويمتلك كلّ الأبّهة اللازمة لذلك. مرّ بالمعلم البطحيش وحيّاه، فردّ هذا التحية كما ينبغي، فخلافهما هو حول الشغل، وتنافسهما في الميناء، وهذا التنافس لا يحول بينهما وبين تبادل التحية. السلام لله، ومن اللباقة أن يسلّم وهو يدخل، ومن اللياقة أن يردّ الآخرون السلام، وما هو في الصدر يبقى في الصدر، ولا يبرز إلا في وقته، عند ضرورته، حينما تقضي المنافسة أن يتعارك الرجال، وأن يحاول كلّ رجل، كل قرش، كل ذئب، أن يفتك بالآخر، وينتزع مكانه، ويثبت للعجوز أنه هو المعلّم، وهو الشجاع، ومحلّ الثقة، والقادر على تسيير الشغل كما تتطلّب حركة الميناء.

يسير المعلّم رضا إلى ركنه المعتاد، في أقصى المقهى. يأتي بعضهم إليه مسلّمين، يجلسون إلى طاولته، فأحتار أنا في أمري: أذهب إليه أم أبقى حيث أنا؟ هل رآني؟ هل تجاهلني حسب تدبير في رأسه، أم أنه في غبش المقهى، لم يعرفني بثيابي الجديدة؟ هل يحرص على بقائي بعيداً عنه، كيلا يستفزّ المعلم البطحيش، أم أنه لا يبالي بذلك، وليس لديه مثل هذا الحَذَر؟

تسمّرت في الكرسي الذي أجلس عليه. تظاهرت، بدوري، أنني لم أره. دخّنت بعصبية، اعتكر مزاجي، لعنت كل هذه الألاعيب الخبيثة في هذا المرفأ الخبيث. قلت في نفسي: «الأمور، يا مفيد، ليست كما كنت

تتوقع. المعلّم رضا أكرمك في السجن وبعد السجن، اعتنى بك، ساعدك في الحدود المحسوبة، ما عدا ذلك فهو معلّم فرقة وأنت حمّال فيها، فكّر في هذا جيّداً، خذه في حسابك، تعلّم كل يوم درساً جديداً، وتخطَّ، إذا أردت التقدّم، من هو أمامك. أنت في أوّل الطريق، والطريق طويلة. قلوس المراكب والسفن أفاعٍ وليست حبالاً أو أسلاكاً، وكيلا تلتف حول عنقك وتخنقك، اسحب مديتك واقطعها، اقطعها بقوّة، بعزم شديد، دون تردّد، كما يفعل القبطان عندما تفرض عليه الضرورة ذلك خلال العاصفة. هذا ما قاله لك الريّس بكري الغطّاس، وهذا ما يجب ألاّ تنساه أبداً».

أرض المقهى قذرة. جدرانه قذرة، سقفه قذر، رائحة عفن، زنخة سمك، حضور بحر، عتمة جوّ، وكل ما يلزم، ويليق، بمقهى ميناء. المرأة فقط غير موجودة، وكذلك الخمرة. في مرافىء العالم، كما أخبروك، المرأة، ومعها ما شئت من غنج ودلال. هناك تستطيع الفوز بامرأة مقابل نقود قليلة أو كثيرة، حسب المرأة التي تريدها، ولك أن تعبّ من الخمرة حتى تنتشي، أو تسكر حتى التعتعة، ولك أيضاً أن تعربد وتتعارك. فالبحّار، هناك، يعيش حياته، ويستمتع بها، ينفق ما ادّخر، كل ما ادّخر، لأنه حطّ رجله على اليابسة من جديد، هو الذي أبحر حتى ضاع في عرض المحيطات، وواجه العواصف، والأعاصير، ورأى الموت عياناً، ونجا منه، وبات عليه، عند الرسوّ في مرفأ ما، أن يحتفل بنجاته.. لكن الحفلة لا تكتمل دون امرأة وخمرة، ودون موسيقى، وجوّ بحارة حقيقيين «لكم أحبّ أنا هذا الجوّ، أشتاقه، أسافر إليه بخيالي، وأحلم يوماً أن أغادر هذه القاذورة التي يسمّونها ميناء، وأخرج إلى دنيا الله الواسعة، دنيا المحيطات والمرافىء والنساء والخمور والمعارك، حيث يعطي البحّار علامة شجاعته في البحر، ويعطيها في البر، وينال مقابلها حباً ملتهباً، مجنوناً، ملوّناً، لكنه حبّ غير عاديّ، فالبحر غير عاديّ بطبيعته، وحتى وهو هادىء، يحمل دائماً المفاجآت».

هـذه الأفكار استَدْعَتها خيبتي، أو ما خُيِّل إليّ أنها خيبتي، في موقف المعلّم رضا منّي عند دخوله المقهى. لقد كان عملي في الميناء وسيلة إلى غيره، إلى ما هو أكبر، دون أن أعرف ما هو هذا الأكبر. إحساس فقط يخالجني، ودافع يحرّضني، وأنا أنظر، وأرى، وأفكر، وأرحل بعيداً مع أفكاري، وأزداد، كل يوم، كرهاً للمقهى والميناء وهذه الحقارة التي تلفّني، كأنما يستفزّني شعور بأني أتعفّن من الداخل، لأنّ ما رغبت فيه لم أعرفه، وما عرفته ليس هو ما رغبت فيه، وأمنية داخلية، بين القلب والضلع، تحثّني على الرحيل، أو إثبات الوجود، أو الانتحار، ببساطة، على يديّ غيري.

نهض المعلّم البطحيش وتمطّى. الجلوس في المقهى طال عليه حتى أرهقه. كان هناك، في الميناء، عمل لديه، بدليل أنه اتّجه نحو البوّابة العتيقة للمرفأ، يتبعه الزلقوط. «طيب يا زلقوط، قلت في نفسي، أنت يا ابن العاهرة أحد الذين سأصفّي حسابي معهم قبل أن أرحل عن هذا الميناء، سأجعلك تتذكّر كيف التقينا في المرة الأولى، وكيف خدعك حليش، وكيف تمسكنت أمامك. إنني لا أضعها واطية إلا لله، لكنني، في اليوم الأول لتعارفنا، أوهمتك أنني جدار واطي، وأن في وسعك، أنت والآخرين، أن تقفزا عليه. ثم كانت المعركة، وكان السجن، وها أنا في المقهى من جديد، لكنني خلعت ثوب المسكنة الآن، ظهرت على حقيقتي، وتستطيع أن تنقل كلام الخربوط إلى الريّس والبطحيش، وأن توغر صدره عليّ، وربما تصبح أنت يده الضاربة، وتحاول التعرض لي، أو اغتيالي، لكنني، في كل حال، سأطالك، وعندئذ تعرف أن الله حقّ».

بعد دقائق التفت المعلّم رضا إليّ، أو أن أحدهم لفته إليّ. هذا غير مهمّ، وسواء تجاهلني أم لم يرني فالأمر سيان. كلّ شيء جائز، ولن أهتمّ بمعرفة الحقيقة. ما أريده فعلته عنوة، وسواء تعجّلت الظهور في المقهى على

هذا الشكل من التحدّي، أو فعلت ذلك في وقته، فإنني هنا، صار من حقّي أن أكون هنا، وأن أكون في الميناء، وعلى النحو الذي أريد، وإذا تجاهلني المعلّم رضا عامداً، فسأتجاهله عامداً أيضاً، وأتدبّر أمري في العمل مع فرقة أخرى، أو أشقّ طريقي إلى العجوز مباشرة.

الدقائق التي مضت بين انصراف المعلم البطحيش والتفات المعلّم رضا إليّ، كانت بطيئة طويلة، ثقيلة على أعصابي. قلت في نفسي: «إذا كان المعلّم رضا قد تجاهلك يا مفيد، بسبب وجود المعلم البطحيش في المقهى، فإن تجاهله هذا يكون مدخولاً، عابراً، ولن تنساه، أو تغفره بسهولة. في هذه الحال تتبدّل صورة المعلّم رضا في نظرك. تصبح مهزوزة، باهتة، ينتفي منها الإعجاب. أما إذا كان قد تجاهلك لسبب آخر، فيه تدبير، قصد، غاية، فإنه يكون معذوراً بشكل ما. أنا لا أفهم، ولا أريد أن أفهم، تقلّبات الناس في الميناء، وخاصّة المعلّمين منهم، لأنني لن أعمل حمّالاً بعد اليوم، ولن أبقى في الميناء، وسأعرض نفسي على أيّ ريّس، وأقبل بالعمل معه بحّاراً بأيّ شرط. سأرحل، أرحل بعيداً، إلى ما وراء الأفق، وأكتشف، بفرحة طفل، أين تذهب الشمس، بعد أن تغطس في البحر، وسيكون هذا الاكتشاف مدهشاً، رائعاً، مثيراً، وستغسل مياه البحار روحي، تنظفها من أوساخها، تجعلها حلوة كضوء قمر، كشروق شمس، مثل ثوب فتاة ليلة عرسها، نقيّة من كل أوحال هذا المستنقع الذي يقال له ميناء. اللعنة على الميناء، وعلى عالمها القذر، ورجالها الساقطين، الملطّخين بالغبار والدماء والدناءة، وكل ما يجعل النفس حقيرة، صاغرة حتى وهي تتبغدد، وتزهو، وتتمرجل، مفتخرة ببطولاتها الزائفة».

هجت، هجت كثور. كل ثياب الجالسين في المقهى بدت حمراء لعيني، تستثيرني، تستفزّني، تدفعني إلى العراك، حتى لو افتعلته، أو بدأت به، ودفعت فيه حياتي. لم أعد أكترث لشيء، ولا أهتمّ بالمعلّم رضا، أو أحسب

حساب أذى المعلّم بطحيش. انا قادر في هذه اللحظة، في اللحظة تماماً، ان اقتل او أُقتل، أن انتصر او اموت. لذلك كانت فاترة ردّة فعلي على التفاتة المعلّم رضا إليّ. لم تلقَ ندهته باسمي استجابة فورية، تباطأت الذهاب إليه، حتى تكرّر نداؤه، وكاد يشك في أنني اسمعه، أو أنني سألبي دعوته للجلوس إلى طاولته.

مع ذلك وقفت، ومشيت هادئاً إليه، في وجهي كدر، وفي عيني نظرات عاتبة، ولما نهض وأخذني بين ذراعيه، لم يكن اللقاء حميماً من طرفي. كان طابع البرودة يسيطر عليّ، أنا الذي أتيت في الصباح، وعندي رغبة وشوق إلى عناقه، وتقديم الشكر إليه.

ويبدو أنه لاحظ ذلك، فسألني بحرارة:

ـ أنت هنا من وقت طويل؟

ـ من الصباح. . .

اضفت:

ـ كنت أنتظرك.

ـ تنتظرني ولا تأتي إليّ؟

ـ لم أشأ إحراجك.

ـ إحراجي؟

ـ نعم إحراجك.

ـ إحراجي أمام من؟ وممّ؟

ـ أمام المعلّم البطحيش.

امسكني من كتفي. هزّني بمودّة، وبلهجة قوية حاول إقناعي أنه ما كان ليُحرج لو جئت إليه، وأن وجود المعلّم البطحيش لم يكن سبباً في تجاهلي، ولم يكن عذراً في تردّدي عن المجيء إلى طاولته، بعد أن رأيته يدخل المقهى.

تظاهرت بأنني اقتنعت ورضيت. جلست على كرسيّ قربه، وهو ينظر إليّ، يروزني، يتفحّصني في قيافتي الجديدة، وثيابي التي بدّلت من حالي، وهيئتي التي تغيّرت كلياً. أنا الآن رجل من رجال الميناء او هكذا أريد أن اظهر، وقد خلعت عني، دفعة واحدة، رداء المسكنة، وقميص الخوف، واستبدلتها بما يليق بوضعي الجديد، وضع الإنسان الذي صارت له قدم ثابتة في الميناء.

قال المعلّم رضا:

ـ كنت، في تلك المعركة، رجلاً.

أجبته وفي نيتي أن يسمع من حولي:

ـ أنا رجل قبل تلك المعركة وبعدها.

ـ وكيف تحمّلت السجن؟

ـ السجن لا شيء، والموت لا شيء، ما دمت على حقّ.

أضفت:

ـ كنت أنت، وكنا نحن جماعتك، عرضة للاعتداء. أنا لا أفهم في المناورات، وفي الدسائس، وفي حركات الميناء الخفية. ما خُلقت لهذا، ولا أريده، أرغب أن أكون رجلاً صريحاً، وسأسافر في البحر.

تفرّس في وجهي، كأنما يطابق بين ما أقول وما أضمر. قال:

ـ ستبقى معي في الميناء.

ـ في الوقت الحاضر نعم، أنا مدين لك وعليّ تسديد الدين.

ـ ليس لهذا أريدك أن تبقى في الميناء.

ـ أعرف. أنت أكرم من ذلك، لكنني لا أرغب في أن أكون حمّالاً أو قبضاياً، لا تفهمني خطأ، احترم الحمّال، وأحب الزكرتية، لكنني أريد السفر. أحب موج البحر أكثر من وحل الميناء.

أطرق المعلم رضا قليلاً، ثم قال:

ـ أفهمك، ولا أوافقك. الميناء ليس وحلاً فقط، فيها نظافة أيضاً وفيها رجال.

ـ وعلى الرأس والعين. من يكن رجلاً يقدّر الرجال، على شرط واحد: أن يكونوا أمثالك.

ـ والآخرين؟ هل تخافهم؟

ـ لا أقول إنني لا أخاف. هذا تفشير. أخاف كغيري، لكنني أصمد للخوف، وقد جربت نفسي، وتستطيع، في كل وقت، أن تجرّبني، أنا هنا إلى جانبك.

ـ هذا كلام طيّب.. ابق في الميناء، إلى جانبي، ولك حصّة كالآخرين.

ـ وما هو عملي؟

ـ تراقب التحميل والتفريغ، تذهب مع المواعين، تصعد إلى البواخر، تعيش بين الرصيف والبحر، شيء من هذا القبيل.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أوافق مؤقتاً، ريثما أُبحر.

ـ وستكون عيني ويدي في الميناء.

ـ وسأكون عينك ويدك، لكن في الحقّ.

«في الحقّ!» أيّ حقّ هذا؟ تطلّع إليّ المعلم رضا بشيء من عدم الارتياح. لم يكن يتوقّع كلاماً من هذا النوع. أكثر من ذلك. لم يكن يتوقع أن أضع على العمل معه شرطاً. أنا عينه ويده وكفى. هذا هو العرف. رجالة(1) المعلم رهن إشارته. هو يشير فقط. قد لا يحتاج إلى كلام. الكلام فيه أخذ وردّ. لذلك هو مرفوض. الذين يعملون مع المعلّمين لا يجادلون. يُنفذّون ما يُطلب منهم دون مناقشة. إذا ناقشوا فسدوا. برهوم يناقش، لذلك هو فاسد، هناك فاسدون آخرون. في كل فرقة واحد واثنان.

(1) جمع رجل قياساً.

فسدتهم أفكار غريبة. يطالبون بنقابة. أيّ نقابة هذه؟ الوصول إلى السماء أقرب من وصولهم إلى ما يريدون. بالإمكان طردهم في كل وقت. إسكاتهم. لكنّهم عمّال قدماء. هم زملاء المعلّمين في الأصل. عملوا معاً في البدء، ثم صار المعلّم معلّماً، وبقي العامل عاملاً. برهوم عامل. حسن الدفش عامل. وأنت، مفيد المتنوف، عامل. ومن يعملْ يُطعْ. عليك يا مفيد بالطاعة. عليك أن ترى الإشارة وتفهمها. وبعد ذلك فوراً إلى التنفيذ. التنفيذ أولاً، دون حقّ وبطّيخ. من أين جاء مفيد بمسألة الحقّ هذه؟ وأين الحقّ في الميناء؟ هذه العملة غير دارجة هنا. يجب أن يفهم مفيد أن شرطه مرفوض، ومن غير المسموح أن يقول كلمة واحدة بهذا الخصوص بعد الآن.

ـ كان المعلّم رضا يفكّر. كنت أراقبه وهو يفكّر. حزرت أفكاره. أدركت من تغيّر ملامحه أنه لم يسترح إلى كلمة «الحقّ» التي قلتها. أنا عينه ويده فقط. فإذا لم يعجبني الحال أستطيع الخروج من الميناء كما دخلت. بل إنه هو، المعلّم رضا، من سيلقي بي خارج الفرقة كما ضمّني إليها.

قال ساخراً:

ـ إذن هكذا يا مفيد؟ عيني ويدي في الحقّ؟ أيّ حقّ هذا؟!

ـ قلت:

ـ حقّ ردّ الاعتداء إذا وقع.

وإذا لم يقع؟

ـ لا نعتدي على أحد. لا نبدأ بالعدوان.

قال ضاغطاً على أعصابه:

ـ ومن يستطيع، عند وقوع المعركة، أن يميّز من بدأ بالاعتداء؟

ـ أنت، ونحن..

قال:

ـ أنا مفهوم، ولكن من تقصد بـ «نحن»؟

ـ رجالتك.

ـ ومتى كان رجالتي يعرفون ما أعرف، أو يقدّرون ما أقدّر؟

قلت:

ـ ما دمنا في فرقة واحدة، فنحن جسم واحد، وعقل واحد.

ـ هذه لا نختلف عليها، نحن جسم واحد، ولكن العقل هو عقلي، والأمر هو أمري، والإشارة هي إشارتي وبعد ذلك العمل، ولا شيء غير العمل.

قلت يابس الرأس:

ـ العمل مفهوم. خذ منه ما تريد. والطاعة واجبة. لكنني، واعذرني يا معلّمي، لست تيساً في قطيع.

قال المعلّم رضا:

ـ هذه لهجة جديدة يا مفيد. ماذا جرى؟ من أين تعلّمت هذه الفصاحة؟ من السجن أم من الميناء؟

قلت:

ـ عفواً. أنا لا أتفاصح. كل ما أريد قوله إنني لست تيساً في قطيع.

قال:

ـ لن تكون تيساً في قطيع، وبعد؟

ـ هذا كل شيء.

قال:

ـ لا. ليس كل شيء. لديك شيء تخفيه.

ـ وما هو هذا الشيء الذي أخفيه؟

ـ غرورك.

قلت:

ـ أنا لست مغروراً يا معلّم. أنا معتدّ بنفسي، إذا كنت تقصد هذا.

قال المعلّم رضا:

ـ نعم هذا ما أقصده. هذا ما ظهر من سلوكك. ندهتك أن تأتي إليّ فتباطأت. كأنك لم تسمعني. مع أنك سمعتني. تحسب أن معنى كهذا يفوتني؟..

توقف لحظة وأضاف:

ـ إنني، يا مفيد، ألقطها على الطائر(1). أنا المعلم رضا. وأنت لا تعرفني جيّداً بعد.

قلت:

ـ ما دمت لاحظت تمهّلي في تلبية النداء، فأنا أعترف: تمهّلت فعلاً!

ـ ولكنك جئت بعد ذلك.

ـ جئت بعد أن ناديتني للمرة الثانية. لم أشأ أن أركض، ولا أن أحرن، جئت حسب الأصول.

ـ وستعمل معي حسب الأصول أيضاً، أليس كذلك؟

ـ هذا إذا كنت بحاجة إليّ.

ـ وإذا لم أكن بحاجة إليك؟

ـ أشتغل مع معلم آخر، وحتى مع المعلّم البطحيش نفسه عند اللزوم.

قال المعلم رضا:

ـ كفانا كلاماً فارغاً، هيّا إلى الميناء.. غداً تأتي إلى العمل كالمعتاد.

في اليوم التالي نزلت إلى الميناء. كانت فرقة المعلّم رضا تحمّل ماعونة بأكياس القمح. ألقيت التحيّة وتقدّمت بوجه بشوش أساعد في العمل. لم

---

(1) أفهم بالإشارة.

أحمل على ظهري، لكنني ساعدت هذا وذاك في حمل الأكياس. قفزت إلى الماعونة أرتّبها، ولما امتلأت ذهبت معها إلى الباخرة، أراقب تصبين[1] الحمولة. كان عليّ، كرئيس وردية، أن أحثّ العمّال على العمل، أن لا ادع أحداً منهم يتهرّب، أو يصعد إلى الباخرة إلا بإذني، أو لضرورة ما، مثل رفع الأكياس وترتيبها في أكداس داخل عنبر الباخرة. هذه الأشياء تعلّمتها من حسن الدفش، رئيس الوردية الأخرى، الذي نشأت بيني وبينه صداقة منذ عملت في الميناء. قال لي:

- انتبه! كل العمّال يحاولون الصعود إلى الباخرة، يريدون أن يسترزقوا.

لم أفهم. شرح لي:

- في الباخرة أشياء مفيدة لهم. يتركون العمل، أو يغتنمون تأخر التصبينة، فيذهبون إلى العنابر الأخرى. في هذه العنابر بضائع في صناديق خشبية، يكسرون صندوقاً ما، يتناهبون ما فيه، أو يبيعون بعض التحف الصغيرة للبحارة، أو يشترون منهم الويسكي والدخان الأجنبي. يبادلون ويقايضون، ويسرقون أحياناً. باختصار لا يعودون فارغي الأيدي، لهذا يتزاحمون ويتنافسون على الذهاب مع المواعين إلى الباخرة، ولا بد لكل منهم أن يصعد إليها، بحجة ما، وينال نصيبه، ولك أيضاً نصيب في ما يأخذون. إضافة إلى أنك، عند صعودك إلى الباخرة، تأخذ نصيبك، هذا شيء متعارف عليه. حاول ألّا يفلت الأمر من يدك. رتّب صعود من معك بالدور، اغمض العين، وخذ منهم بعض الهدايا، وتظاهر بأنك لا ترى ما في صدورهم، بين القميص واللحم، أو في جيوب ستراتهم وشراويلهم. كن مرناً، نفّع وانتفع.

دهشت لأقوال حسن الدفش. كنت أحسب أن الأيدي تطول ما في

(١) تصبين الحمولة: رتّب كدسة من الأكياس، فوق سلك نحاسي، وربطها كي ترفعها الرافعة وتنزلها حيث يجب.

الميناء، على الرصيف أو في العنابر. هنا مجال للمنفعة، وللسرقة، وهنا، في الميناء، مجال اللصوص، أمثال حليش، غير أن حسن الدفش نوّرني، فتح عيوني، أفهمني أن المهرّبين، والمتاجرين بالمخدّرات، يذهبون في فلائك صغيرة، ترسو على الجانب الآخر للباخرة. هناك ينزل البحارة على سلالم من حبال. ينزلون لشراء أو بيع ما يريدون، وأحياناً يصعد الآخرون، اللصوص والمهرّبون والمتاجرون بالمخدّرات على هذه السلالم، بالاتفاق مع الحرّاس من بحارة الباخرة، ويختبئون في العنابر، في القمرات، في قاع الباخرة. يفعلون ذلك ليلاً، وأحياناً نهاراً، ويقوم رجال الجمارك بمكافحتهم، ويضبطون بعضهم أحياناً، لكن المتاجرة تظل شغّالة، وبمعرفة الخفراء حين تخفّ الحراسة، أو تتساهل ضابطة الجمرك، أو رئاسة الميناء. إنهم يتفاهمون، ويتراضون، وفي أحوال أخرى تحدث مصادمات، ويُطلق الرصاص، ويقع جرحى من الطرفين، من المهرّبين وخفراء الجمرك. سترى كل شيء بعينيك، وتسمع بأذنيك، وتكتشف أن هناك عصابات، ولهذه العصابات نفوذ، ولها من يغض النظر عنها، ومن يحميها، ومن يدافع عنها أيضاً، وكلّ عصابة، مهما صغرت أو قلّ شأنها، لها شبكة في الميناء، وفي البحر، وفي المدينة، فالذين يسطون على البواخر، غير الذين ينقلون البضائع التي تسطو عليها، والذين يدفّرون البضائع المهربة، غير الذين يتقلونها، ومهما كافحت الجمارك، ومهما راقب حرّاس الميناء، فإن للمهرّبين واللصوص، وتجّار المخدّرات، وسائلهم الشيطانية، التي يتوسّلون بها، ويلجأون إليها، ويغيّرونها كلّ مرة، ويمرقون من المراقبة، كما يمرق السمك من شبّاك الصيادين.

قلت مستغرباً:

- ما كنت أظن أن العمال يسرقون!

- هذه ليست سرقة. إنها تنفيعة، ينتفعون، ينالون شيئاً إضافياً فوق

أجورهم القليلة، وحصصهم البائسة، قياساً إلى تعبهم، وإلى عملهم الذي يبلغ عشر ساعات وأكثر في اليوم.

ـ أنا لم أفعل هذا يوم كنت أشتغل حمّالاً قبل المعركة والسجن.

ـ أنت لم تذهب مع المواعين ولم تصعد إلى البواخر.

ـ وكنت أستغرب لماذا يصرّ العمال على الذهاب مع المواعين إلى البواخر.

أضفت وأنا أضرب على جبيني:

ـ كنت غبيّاً، كنت حماراً.

ضحك حسن الدفش:

ـ الأيام هي التي تعلّم الإنسان، والناس يتعلّم بعضهم من بعض.

أضاف:

ـ أرنا شطارتك الآن، أنت رئيس ورديّة، وتنزل إلى المواعين وتصعد إلى البواخر.. ولكن أريد أن أسألك: من جعلك رئيس ورديّة؟

ـ ومن تظنّ؟ المعلّم رضا طبعاً.

قال:

ـ ولكن المعلّم رضا لم يقل إنك رئيس ورديّة.

ضحكت:

ـ هذه لا تحتاج إلى قول. تصرّفت كما أريد، وكما يريد المعلّم رضا.

ـ هكذا بالقوة؟

ـ لا، باللطف.. ألست لطيفاً!؟، أنت لطيف وجريء.. أنت جيّد، وستكون نافعاً لنا، نحن نثق فيك.

ـ وأنا معكم. معكم في قلبي. لا تطلبوا أكثر.

ـ هذا يكفي في الوقت الحاضر.

أضاف:

ـ سمعنا بما دار بينك وبين المعلّم رضا في المقهى.

ـ وهل أعجبكم؟

ـ أعجبنا؟ نعم أعجبنا. ولكن لا تتماد كثيراً.. كن حذراً. برهوم يريد أن يراك. أن يتحدّث معك. ولكن ليس في الميناء، ولا في المقهى، في البيت. سأدلّه على بيتك.

ـ اتفقنا.

كان عمل ورديّتي(١)، ذلك النهار، قبل الظهر. كنت على البرّ. على رصيف الميناء، كنت أراقب، أشهّل(٢) العمل، أساعد العمال، وأحياناً أعمل بنفسي، مدفوعاً بحماسة الجوّ، فأرفع شوالاً من القمح، بين ذراعيّ، وأنزل به إلى الماعون، حيث أضعه على كدسة الشوالات، وأظل هناك، في الماعون، إذا تطلّب العمل بقائي. وفيما أنا منهمك في العمل، منصرف إليه بكل عقلي وطاقتي، سمعت من يلقي عليّ السلام. استدرت. كان هذا الزلقوط. الزلقوط نفسه، ابن أمّه. رددت السلام، توقّفت عن العمل، مسحت يدي بشروالي، سألته:

ـ خير يا زلقوط؟

ـ كلّ خير يا مفيد.

ـ ماذا وراءك؟

ـ خبر مهم.

ـ شغل؟

ـ أهم من الشغل.

---

(١) دفعة العمل.

(٢) شهّل العمل: تعجّل فيه.

قلت ممازحاً:

ـ وهل هناك أهم من الشغل في الميناء؟

ـ هناك رضى العجوز.

تجاهلت. قلْ تغابيْت، لم أدع المفاجأة تخرجني عن رشدي. قلت:

ـ رضى العجوز فوق كل رضى، ولكن بماذا أفيده؟ وماذا يريد مني؟

ـ لا أعرف ماذا يريد منك، ولكن بماذا تفيده فأنت تعرف، لا تعد إلى المسكنة. خدعتني مرة ولن تخدعني كل مرة.

قلت:

ـ أنا خدعتك يا زلقوط؟ متى؟ كيف؟ أنا أودّك.

ـ أنت لا تودّني. أنت خدعتني في المقهى، وتعرف كيف.. المهمّ.. هيّا معي إلى العجوز.

ـ والشغل؟

ـ أيّ شغل هذا؟ العجوز يطلبك وتهتمّ بالشغل؟ أبله! إشارة واحدة من العجوز ويتوقّف العمل في البحر والبر، أم تريد أن تقنعني بأنك لا تعرف ذلك؟

ضحكت وطبطبت على ظهره. قلت:

ـ أنا جاهز. ليذهب الشغل إلى جهنم. العجوز أهمّ من الشغل. العجوز فوق الشغل كلّه.

قال الزلقوط:

ـ أنت ابن حرام، أنت داهية. هذا اللسان الحلو تحته المرّ. أصبحنا نعرفك. لا تحاول أن تختبىء في شروالك. كل ما فعلته، منذ دخولك الميناء، يعرفه العجوز، ويعرف حتى الذي في دماغك. حديثك مع المعلّم رضا بلغه، وقبل ذلك بلغه أنك رميت «حسون» في البحر، وأنك تجرأت فضربت المعلم البطحيش، صحيح؟

قلت في نفسي: «صحيح يا ابن العاهرة! ولكن لماذا تحكي لي عن كل هذه القائمة من الأشياء التي أصبحت من الماضي؟ لماذا تذكّرني بها؟ من أمرك أن تقول كل هذا الذي قلته؟ ثرثرة منك أم تبليغ من العجوز؟ ولماذا لا يقولها العجوز مباشرة، ما دام قد طلبني إليه؟ أنا أعرف أن العجوز لا يفوته شيء مما يصير في الميناء، وأنه مطّلع حتى على الأفكار التي في الصدور، وكنت بغنى عن هذا «العلاك»[1] كله، إلا إذا أردت به أن تخيفني سلفاً، أن تُحضّرني للمقابلة. لكنني، أنا مفيد الوحش، لا يخاف بهذه السهولة، ولن يؤجر مؤخّرته بسهولة مثلها».

قلت للزلقوط:

ـ نحن يا زلقوط أصحاب..

قاطعني:

ـ الآن نعم، نحن أصحاب. نلعب على المكشوف، أما قبل ذلك، في المقهى، فإن الحال يختلف. كنت تلعب على المستور.

قلت:

ـ أنا عرضت عليك صداقتي.

قال:

ـ وأنا رفضتها، لم أكن أعرفك، ولم يكن العجوز قد اهتمّ بك بعد.

ـ إذن أنت تمنحني صداقتك لأن العجوز منحني التفاتته؟

ـ وماذا تظنّ إذن؟ من يريده العجوز نريده، ومن يرفضه نرفضه مع العجوز نكن معك.

قلت:

ـ لهذا يطلبني العجوز إذن؟

---

(١) الثرثرة.

قال:

ـ لا أعرف. حقيقة لا أعرف.

قلت في نفسي: «أنت تعرف يا عرص. أنت تعرف وتتجاهل. ربما أوصاك العجوز بذلك. وربما كانت هذه هي الطريقة هنا. يستدعيك العجوز فلا تعرف لماذا؟ وفي الوقت الذي لا تعرف لماذا، يكون الرسول الذي بلّغك الدعوة قد ليّنك. جعلك عجينة مطواعة. أنت يا زلقوط ابن عاهرة حقيقي. أنت لسان العجوز، أما يده فهو غيرك. أنت لا تصلح إلا للتخويف، أما القتال فله رجال غيرك. وأنا لا أخاف لسان العجوز ولا يده. أنا بعتها من زمان، بعت الحياة منذ وعيتها، ولن يجد عجوزك عندي ما يشتريه.. كنت، قبل دخول الميناء، مستعداً للبيع والشراء، كنت مجهولاً، لذلك كنت عرضة للمساومة، أما الآن فقد فات الأوان».

مشيت مع الزلقوط بغير كلام. الزلقوط أجير حقير، الكلام معه خسارة. كلامي أنا سيكون مع المعلّم، مع العجوز نفسه، هذا الذي يوم دخلت المقهى لأول مرة، رغبت في مقابلته، في الذهاب إليه وعرض خدماتي عليه. يومها قلت في نفسي: «لو قابلني العجوز، لقلت له: اسمي مفيد الوحش، وبهذا الرأس الكبير، والذقن العريضة، والفكّ الذي يشبه فكّ حيوان مفترس، وبهذا الساعد الذي لا يستطيع أن يلويه ابن امرأة، في كل مينائك السافل هذا، أضع نفسي تحت تصرّفك. جرّبني، أوكل إليّ مهمة، أطلقني وانظر ماذا أفعل، وكيف أتصرف، وبأيّ قبضة أضرب خصومك». نعم، يومها كنت أفكر بأن أقول هذا، وأن أفعل هذا، لكنني اليوم، أرفض تأجير نفسي. «أنا عامل، عامل فقط، وإذا كنت ستخرجني من الميناء فأنا مستعدّ. سأخرج من هذا الوكر الملعون، وأذهب أفتش عن رزقي في البحر. سأعرض نفسي بحاراً على أيّ مركب أو أيّة سفينة».

توقّفنا أمام مبنى من طابق واحد، يقيم العجوز في غرفة منه، يربض

هناك كالصخرة التي لا تستطيع زعزعتها كل أمواج البحر، وبعد استئذان أدخلوني إلى هذه الغرفة، وبقي الزلقوط خارجها. طرقت الباب. سمعت صوتاً يقول:

ـ ادخل!

دخلت. سلّمت. رد العجوز السلام. قال لي:

ـ اجلس!

«ولم يقل تفضّل. لهجته آمرة. حاسمة، وفي عينيه الصغيرتين، اللامعتين نظرة جارحة، ومن هيكله الصغير، الضئيل، تنقط الهيبة، ومنها تعرف أنه في العمل. وحين يكون في العمل، كما سمعت، يكون على هذه الهيئة، أما خارج الميناء، أو بين المعلمين، وحين يؤركل[1] ويتباسط، فإن هيئته تكون هيئة رجل بسيط، بسيط إلى حدّ يخدعك بغريك».

جلست وانتظرت أن يتكلم. كان إلى جانبه رجل، وكان يتكلم مع الرجل، حول موضوع خاصّ، وطال الحديث بينهما، إلى درجة شعرت معها بالملل، الأصحّ شعرت بالعذاب، حتى قلت في نفسي: «العجوز يتقصّد تعذيبي». أخرجت سيكارة، أشعلتها ورحت أدخن، وعيناي معلّقتان بشفتيه، وفي داخلي شعور بالاستعجال. كنت أرغب في انصراف الرجل بسرعة، لأنني قدرت أن العجوز لن يكلمني في حضوره، لكن العجوز استدار نحوي، وقال بصوت رقيق:

ـ أهلاً ابن أخي.

كان الجميع أولاد أخيه، وهو ينادي الجميع بعبارة «أولاد أخي» ويقولها «أخوي» على طريقته العادية في الكلام، طريقة أبناء اللاذقية. ومن شدة

(١) يؤركل: يشرب الأركيلة.

ارتباكي، لم أعرف كيف أردّ تأهيله، فقلت متلعثماً:

ـ شكراً يا معلّم.

قال مازحاً:

ـ الأفضل أن تقول «يا عمّي» أنا هنا عمّ الجميع.

قلت.

ـ شكراً يا عمّي، أنا سعيد بالتعرّف إليك.

قال وهو يلثغ:

ـ هل يعني هذا أنك لا تعرفني؟ اسمع يا حمّود، يشتغل في الميناء ولا يعرفني، هل هذا معقول؟

قال حمود:

ـ غير معقول طبعاً.

قلت موضحاً:

ـ أنا أعرفك من بعيد. يعني رأيتك، دون أن..

قاطعني:

ـ وسمعت بي؟

ـ سمعت كثيراً.

ـ وماذا سمعت؟

فاجأني السؤال. لم أكن مستعدّاً له، احترت بماذا أجيب: أقول له الذي سمعته حقيقة، أم أقول له أيّ كلام، أيّ كلام فيه مديح، وأتخلّص من الورطة؟ قلت:

ـ أنت أبو الميناء، وأبو الذين يشتغلون في الميناء، وأبو الفقراء أيضاً.

ابتسم وقال:

ـ بس هذا؟ أم أنك محرَج؟ قل. لا تخف. أنت ابن أخوي.

قلت:

ـ ما سمعت عنك إلا كلّ خير.. كل خير يا عمّي.

قال:

ـ لا بأس. أعرف ما يقولونه عني. فليقولوا ما شاءوا، وأنا أعمل ما أشاء. هكذا يمشي العمل أحسن. أم أنك لست من رأيي يا...؟

ـ مفيد، محسوبك مفيد، وكنيتي المتوف.. أنا مفيد المتوف.

ـ وأنت من بانياس؟

ـ من بانياس.

ـ وتعاركت هناك مع الفرنسيين؟

ـ تعاركت. كنت صغيراً، طائشاً.

قاطعني:

ـ وسُجنت لهذا السبب؟ نعم؟ عفارم.. الفرنسيون أعداؤنا، وأنت ابن حوي، لك علينا حقّ.

قلت:

ـ العفو يا عمي. حقّي وصلني، أنا أشتغل في الميناء، أشتغل بفضلك.

قال:

ـ وبفضلي رميت «حسّون» في البحر؟

قلت:

ـ هو الذي تحرّش بي..

قال:

ـ والمعلّم يوسف البطحيش، هو الذي تحرّش بك أيضاً؟

قلت:

ـ المعلم يوسف البطحيش اعتدى علينا، على فرقة المعلّم رضا التي أعمل فيها.

قال

ـ المعلّم رضا هو الذي جعلك رئيس ورديّة؟

قلت:

ـ تقريباً.

قال:

ـ كيف تقريباً؟ جعلك أم لم يجعلك؟

قلت:

ـ أنا الذي جعلت نفسي رئيس ورديّة، والمعلّم رضا وافق.

ـ كافأك يعني؟

ـ أكرمني . .

نبر بقسوة:

ـ هنا لا أحد يكرم أحداً إلا أنا، أو بأمري . .

قلت:

ـ أنا رئيس ورديّة بأمرك، وعامل بأمرك أيضاً، ولن أخالفك . . أنا خاتم في إصبعك.

قال:

ـ إذا كنت كما تقول، أرني شطارتك، أرني شجاعتك . .

ـ قلت:

ـ أوامرك . . بماذا تأمرني؟

ـ الأمر هو الله . في الوقت الحاضر لا أطلب شيئاً، قم يا حمود! أره ما في الأكياس.

قام حمّود وقمت. كانت هناك أكياس في الزاوية. فتح حمّود كيساً، وقال العجوز:

ـ ماذا في هذه الأكياس؟

قلت:

ـ أموال . .

قال:

ـ نعم، في الأكياس مال. أنا أضع المال في الأكياس لا في الصناديق الحديدية. لا أعدّ ولا أحسب لكنني أرفض الغشّ. لا أحد يستطيع أن يغشّني. يأتي المال، مالي، مالي أنا، فأضعه في الأكياس، ومنه أدفع للجميع، ومنهم أنت، ما دمت تشتغل في الميناء.

قال ذلك وسكت. ساد الصمت لحظة، بقيت واقفاً أمام الأكياس، إلى جانب حمّود، وأنا أنتظر النهاية. لكن النهاية كانت مرعبة. كانت مرعبة ومذهلة، ارتجفت لهولها. قال العجوز موجهاً كلامه إلى حمود:

ـ خذه يا حمود إلى الزاوية الثانية، واكشف الحصيرة.

ذهبنا إلى الزاوية الثانية المقابلة. قام حمّود بكشف الحصيرة، فإذا رجل ميت تحتها. كان الرجل الميت هو حليش، وكان أزرق الوجه، كريه المنظر. كان قد مات غرقاً أو خنقاً كما قدّرت، لكنني تمالكت نفسي. شددت أعصابي، ولم أقل شيئاً. لم آت بحركة. لم أنبس بكلمة

سألني العجوز:

ـ هل تعرفه؟

قلت بخوف، ولكن بهدوء:

ـ أعرفه . . هذا حليش.

ـ كان صديقك!؟

ـ ليس صديقي تماماً. تعرّفت عليه في المقهى، وعدني أن يدبّر لي شغلة في الميناء، هذا كل شيء.

قال العجوز:

ـ أنا لا أحقق معك. ارجع الحصيرة يا حمّود، ومع السلامة أنت يا مفيد. لا تشغل فكرك بابن الزانية هذا. كان يسرق في الميناء، وغرق قضاء وقدراً، وسيأتي المحقّق الآن، وبعد ذلك إلى المقبرة، وتنتهي القضية.

خرجت من عند العجوز، وكأني أخرج من كابوس. كلّ ما سمعته، كلّ ما رأيته، كان كابوساً، كان حلماً مرعباً عشته في اليقظة، واستمرّ مسيطراً على حواسي كلّها، من العين إلى الإصبع. لقد فعلها العجوز. أعطاني درساً لا ينسى. وكان ختام الدرس بغير كلام. كان صامتاً، كالأفلام الصامتة التي سمعت بها، وكان قاسياً، ينطوي على ترغيب وترهيب، بحركة بارعة، العجوز وحده يتقنها، وهو وحده قادر على ممارستها، بهدوء ونعومة وليونة، تخفي تلك القدرة الخارقة المسيطرة، قدرة التقريب والتبعيد، قدرة جعل الرجل الذي يحدّثه يشعر بالطمأنينة والرعب في وقت واحد، فهو العمّ، وأنا ابن الأخ، وحياتي كتاب مفتوح، يقرأ منه على مسامعي بالقدر الذي يريد، لإفهامي أنه يعرفني، وأنه يتابعني، وأن رمي «حسّون» في البحر، وضرب المعلّم البطحيش، والتسلّل للعمل في فرقة المعلّم رضا، وفرض نفسي رئيس ورديّة، أشياء بلغته، لكنه لم يتخذ حيالها موقفاً، وأن استدعائي إليه كان لوضعي في الصورة، صورتي أنا، ثم إغرائي، وبعد ذلك إخافتي، وصرفي من عنده دون أن أتوصّل إلى معرفة ما يريد، لأنه، في الجولة الأولى، ظلّ في حدود الجولة الأولى، فهو خبير في جعل الذي يريد أن يتعامل معه، موضعَ حيرة إلى أن يأتي الوقت المناسب لإخراجه من العتمة إلى النور.

لم تعذّبني لفتاته المباغتة في الحديث. نعومة هذه اللفتات وخشونتها كنت أتوقّعها من إنسان داهية مثله، يتقن فن القيادة إتقاناً كاملاً، لكنني كنت أنتظر أن يقول شيئاً محدداً، يريد إبلاغي إياه، واقتراحاً بعينه يعرضه عليّ، أو طلباً أو أمراً. لم يحدث شيء من ذلك. هذه مقابلة للاختبار. للإعداد النفسي. للترويض، كما يفعلون بالمهر، للتخدير كما تفعل الأفعى بالعصفور، للسيطرة وشل الحركة في الفريسة كما يفعل الضبع.

أنا لم أضبع برغم شدّة التأثير الذي مارسه العجوز عليّ، من خلال نظراته المسدّدة، النافذة، المتوعّدة. ولم أتحرّر من شعور التوجّس، رغم الكلمات الحلوة، المطمئنة التي وجّهها إليّ. أنت يا مفيد كنت تتوقّع شيئاً، وما حدث كان شيئاً آخر. أنت تزعم أنك شجاع، وأنك ترفض الاسترلام، ومع ذلك عرضتَ عليه أن يسترلمك حين قلت له «إنني خاتم في إصبعك». هذه سقطة! سقطة لعينة، لا تعرف كيف وقعت فيها. كنت تظنّ نفسك سنديانة، لا تقتلعها الريح، فإذا بك غصن شجرة تين ملحته هبّة قويّة. نبر العجوز في وجهك نبرة واحدة. أرعد رعدة خفيفة، صاح في وجهك «كل شيء هنا يجري بأمري» وفوراً انضبعتَ. ارتجفتَ. خفتَ. حدث لك شيء من هذا فتصاغرت، دخلت كالسلحفاة في قشرتك، ودون وعي، كانت ردّة فعلك جبانة. الصمت. لذت بالصمت، وحين تكلمت قلت له، كمن يتكلّم وهو منوّم مغناطيسياً: «أنا رئيس وردية بأمرك، وعامل بأمرك، ولن أخالفك أبداً. «أنت، يا ابن أمك، أعطيت وعداً، وعداً قاطعاً، وهو وعد حقير، حقير، حقير. إنه استسلام، رفع راية بيضاء دون معركة.. ومَنْ رفع هذه الراية؟ أنت، مفيد الوحش، الذي ردّدت مئة مرة على الأقل، وحتى درجة الابتذال، أنك مفيد الوحش، وأنك وحش، وأنك لا تخاف حتى العجوز نفسه، وأن الميناء والمقهى والمدينة كلها ستعرف من أنت. نعيماً! عرفت الميناء من أنت، وغداً يعرف المقهى، وبعد ذلك المدينة، وسيبلغ هذا الكلام حسن الدفش، وبرهوم، والمعلّم رضا، والمعلّم البطحيش، وستكون هزأة الجميع، وسيكون عليك أن تخلع ثياب الزكرتية وتعود إلى لبس البنطلون والقميص العتيقين، اللائقين بمتشرّد مسكين مثلك.

قضيت ما تبقى من يوم العمل واجماً، عدت إلى البيت حزيناً، عدت منكسراً، مخذولاً، مهزوماً، نادماً ندماً لم أعرف مثله في حياتي، لأنه ندم العيب الذي ألحقته بنفسي، من أوّل مقابلة جرت بين العجوز وبيني. ادركت أن هيبة العجوز، التي سبقته إليّ، كانت السبب. هذه الهيبة التي صنعها الناس، بأكثر مما صنعها هو، انتشرت في كل مكان، استقرت في كل الأذان، انسلت من أذني إلى رأسي، اندسّت في عقلي، اغتالت شجاعتي، فلمّا دُعيت إليه، ذهبت وأنا مُفَرَّغ من الداخل مثل قصبة، قابع في وكري مثل ثعلب، خائف مثل أرنب، مستعدّ للموافقة على كل كلمة يقولها، كواحد من المتزلّفين إليه، وكل هذا بسبب أن أحاسيسي كانت مريضة، كانت مُهانة، مُهيّأة للتذلّل في سبيل استرضائه والفوز بكلمة طيبة منه، ونظرة عطف يتصدّق بها عليّ.

وهو، العجوز، ماذا كان موقفه إزاء كلّ هذا الصغار؟ كان موقف الباشق الذي انقضّ على طير السمّان. كان باشقاً وكنت عصفوراً. ومنذ الانقضاضة الأولى أنشب مخالبه في جسمي، وفي روحي، في عقلي، في قدرتي على الدفاع عن نفسي، فلما صرت تحت رحمته، أطلقني، تركني أطير، أخرج، أنجو بنفسي، وكان هذا الاشفاق، هذه الاستهانة، هذا الاستصغار لشأني، أوجعَ من الرصاص لو صوّب مسدسه إلى صدري.

ثم ماذا؟ أيّ شيء حدث بعد ذلك؟ كيف كانت نهاية المقابلة؟ ما الذي فعله العجوز بي؟ لقد فعل ما كان يجب أن يفعل.. طلب من حمّود بكل بساطة أن يُريني أكياس المال في زاوية، وجثّة حليش في زاوية أخرى.. كان هذا ختام المهزلة، باعتباره خياراً بين أمرين: الخضوع والانتفاع أو التمرّد والموت. وعليّ الآن أو غداً، أو بعد غد، وحتى بعد أسبوع أو شهر، أن أختار، وهو يعرف أن اختياري هو الطاعة، ما دام حليش كان شريكي في عملية الماعون، وأنه دفع ثمن تلك العمليّة حياته، وأنّ عليّ،

أنا الاخر، أن أركع أمام العجوز أو يكون مصيري مصير حليش نفسه.

ـ حين كشف حمّود الحصيرة عن الجثّة سألني العجوز: «تعرفه؟» فأجبته بخوف: «أعرفه.. هذا حليش!» عندئذ نزل على رأسي بمطرقته قائلاً: «كان صديقك؟» ولم أستطع الإنكار. اعترفت فوراً: «نعم صديقي» وللتمويه قلت: «ليس صديقي تماماً. تعرّفت عليه في المقهى، ووعدني بتدبير شغلة لي في الميناء» فقال العجوز: «إنني لا أحقق معك»، ومعنى هذا أن التحقيق قد يجري في وقت آخر.

لم أنم تلك الليلة. شربت كثيراً، دخنّت كثيراً، كرعت فناجين القهوة بغير عدّ، أُصبت بصداع. دوّت مطارق في رأسي، صار رأسي طبلاً وكلمات العجوز هي العصيّ التي تقرع عليه، شعرت بالإعياء، فكرت طويلاً دون أن أتوصّل إلى جواب لهذا السؤال الذي راح يعذّبني: «هل أفشى حليش سرّ العملية، أم أنها ماتت بموته؟» لو كان عبدوش معي لخفّف عنّي. كنت أبحث الموضوع معه. آخذ رأيه. أستشيره. رأيان أفضل من رأي. عبدوش مشترك في العملية، ومعه وحده يمكن أن أتكلّم حولها. أنا بحاجة لمن أتكلم معه حول هذه العملية اللعينة، ولأنني لا أستطيع، في غياب عبدوش، أن أُفضي بسرّها لأحد، فإن هذا السرّ أمسك بخناقي، فتّت أعصابي، أبعد النوم عن جفوني.

بقيت كذلك إلى الصباح، وفي الصباح أنعشتني نسمات باردة، فقلت في نفسي: «ليكن ما يكون يا مفيد، الإنسان يموت مرة واحدة، وأنت لن تموت ميتة مجانية مثل حليش، أنت ستقاتل، وهذه الرهبة من العجوز طبيعية، وسقطتك لم تصل بك إلى الجحيم، وتستطيع، مع الأيام، النهوض منها. كان اللقاء مع العجوز درساً لك، وكان درساً قاسياً، ومن قسوته تعلّمت، فكنْ حذراً، وكن شجاعاً، وتقبّل المغامرة أنت الذي تحبّ المغامرات، وانتظر ما تحمله لك الأيام».

ذهبت كعادتي إلى الميناء. باشرت العمل. تظاهرت بالهدوء. قسرت نفسي على الابتسام، لم أقل كلمة واحدة مما دار بيني وبين العجوز. سألني المعلّم رضا فتهرّبت من الجواب. كان للمقابلة وجهان: وجه سلبيّ أعرفه أنا، ووجه إيجابي يعرفه الذين سمعوا بالمقابلة، وبمجرّد أن تمّت المقابلة ارتفعت اسهمي، صار كل من حولي يخطب ودّي، وربما توقعوا أشياء كثيرة، ليس أقلها أنني سأصير قريباً ريّس فرقة كغيري.

أعترفُ. هذا الذي جرى، بين يوم وليلة، هزّني هزّاً عنيفاً. فالحرص على دخول الميناء، والرغبة في اكتشاف الحياة فيها، والعزم الشديد على ترسيخ قدمي على رصيفها، انتفى الآن. أنا لست خرقة مبلّلة بالماء. لست كيساً من الملح أفسده المطر. كذلك لست ورقة مسح بها أيّ ابن قحبة يديه أو مؤخرته وألقى بها في البحر، أو داسها بقدمه فجاءت الريح وكنستها. أنا إنسان! أنت يا مفيد إنسان! أنت رجل! تذكّرْ عبد الجليل والآخرين. هؤلاء ليسوا عناترة. لا يدّعون العنترة. لا يتعنترون. يعملون بصمت، لكن بثبات. الشجاعة هي هذه. الشجاعة أن تعرف نفسك، وما حولك، وماذا تريد، وليست الشجاعة أن تخرج من معركة وتدخل غيرها. عليك ألّا تكون بطّيخة تفسد من الداخل. أخطر شيء على الإنسان أن يفسد من الداخل، أن ينكسر من هناك، ويصيبه اليأس لدى أول صدمة. قوة القلب جيّدة. قوة الزند ضرورية. عدم الخوف لازم. لكن الحياة ليست هذه الأشياء وحدها، أو ليست بالاعتماد على هذه الأشياء وحدها، إنها الصمود. أن تصمد. أنت في الميناء، وفي الميناء ناس من كل الأصناف، فمع أيّ صنف تكون؟ أيّ موقف تتّخذ؟ أين مصلحتك كعامل؟ وأين هي مصلحة العمال؟ فكّرْ، فكّرْ، فكّرْ.

في الضحى بلغ العمل قمّته. بلغت الضجّة أقصى مداها، الروافع، واللنشات، والبواخر، والسيارات، والصفارات، والزمامير، وأصوات

العمال، وصيحات المعلمين، وقعقعة حديد عجلات الطنابر، وأسواط سواقيها على ظهور البغال وجوانبها، والصراخ، والشتائم، والتجديف، والاستغفار، والأحاديث، والنكات، والضحكات. عالم غريب، عالم قبيح، عنيف، دائم الحركة، وكل من فيه يدور مع هذه الحركة ويديرها أيضاً. العمال يلبسون سترات الجلد، والشراويل الزرقاء والسوداء، وطاقيات الصوف البنية والكحلية، وفي أقدامهم «الأبواط»[1] والأحذية المطاطية، وفي أكتافهم أكياس الزوادات، والماعون امتلأ بشوالات القمح، والباخرة الإيطالية، خارج حوض الميناء، تنتظر الحمولة، وأنا، كَرئيس ورديّة، عليّ أن أتوجّه مع عمالي إلى الباخرة، فدوري، اليوم هناك.

قفز العمال من الرصيف إلى الماعونة الراسية لصقه. هدر اللنش الذي سيقطر الماعونة. كل شيء أصبح جاهزاً. قفزت بدوري إلى الماعونة، وسألني المعلم رضا:

ـ كيف الحال؟

أجبته:

ـ أليسطا يا معلم.

قال:

ـ لا ترجع قبل تشطيب رصيد الشحنة.

قلت:

ـ لن أرجع قبل تشطيب رصيد الشحنة.

قال:

ـ السهرة الليلة في الباخرة.

---

(١) الأحذية العسكرية.

قلت:

ـ السهرة الليلة في الباخرة.

قال:

ـ الطلياني[1] سيقلع في الصباح من كل بدّ.

قلت:

ـ سيقلع من كل بدّ يا معلم.

لوّح لي بيده. لوحّت له بيدي، توتّر السلك الحديدي بين الماعونة واللنش، فار ماء البحر، أرغى، أزبد، تحرّكت الماعونة، خرجنا من فم الحوض، ذهبت إلى مقدمة الماعونة وجلست على الأكياس، أدخّن سيكارتي. كنت تحت سيطرة بقايا شعور كدر. كنت بحاجة إلى البقاء وحدي، بعيداً عن العمّال الذين تجمّعوا، بين واقف وجالس، فوق الأكياس، في مؤخرة الماعونة وعلى جوانبها.

بعد قليل أقبل برهوم نحوي وفي فمه سيكارة:

ـ لديك شعلة؟

قلت:

ـ أهلا برهوم.

أشعلت له السيكارة، جلس قربي صامتاً. احترم صمتي فلم يتكلم. رحنا نظر إلى البحر أمامنا، واللنش يشقّ فيه خطاً عريضاً بين الأمواج، ونحن نتبعه ببطء، بسبب حمولة الماعونة الموثوقة جيداً. مضت دقائق ونحن ندخن. كان برهوم ينظر إليّ بطرف عينه. لاحظ أنني على غير العادة. لكنه تردد في الكلام، ثم وجّه إليّ هذه الملاحظة:

ـ لا تترك ما في صدرك يظهر على وجهك.

---

(١) تعني الباخرة الإيطالية

أضاف:

ـ العمّال يحبّون أن يروا رئيس الورديّة في كامل لياقته وإلاّ استغابوه.

أضاف أيضاً:

ـ أنت جديد في الميناء، والميناء لها قانون واحد: القوّة!

قلت بحزم، كأن شيئاً لسعني:

ـ أنا قويّ بما فيه الكفاية. لا تشغل بالك من هذه الناحية.

قال:

ـ أنت قويّ صحيح، ولكن التجربة تنقصك.

ـ لديّ من التجربة ما يكفي.

ـ مع ذلك استفد من تجربتي. عد إلى طبيعتك، لا تترك مقابلة العجوز تؤثّر عليك بهذا الشكل.

ـ مقابلة العجوز لم تؤثر عليّ. أنا لا أخافه!

ـ كلنا نخافه. هوّنْ عليك. انس ما رأيت تحت تلك الحصيرة اللعينة.

ـ تعني جثّة حليش؟

ـ أعني الصدمة المرتبة التي دبّرها لك.

ـ ومن أخبرك بذلك.

ـ نهض وقال:

ـ وصلنا.. جاء الآن دور العمل.

قلت:

ـ ولكن من أخبرك بأمر تلك الحصيرة، وبجثة حليش، وبالصدمة التي دبّرها العجوز؟

ابتسم وربّت على كتفي:

ـ انهض الآن. ستتحدّث في وقت آخر، حين نلتقي.

ـ ولكنني أريد أن أعرف.

ـ ستعرف. لا تتدخل. تصرف بشكل طبيعي، أنا إلى جانبك، لكن أنت، رئيس الورديّة، ولا تدع أحداً يشعر بضعفك

قلت محتجاً:

ـ ولكنني غير ضعيف، وسأثبت هذا..

ـ إذن لا مشكلة.. هيّا نصعد إلى الباخرة.

صعدنا إلى الباخرة. صعد العمال أيضاً. بقي قسم منهم في الماعونة. قام جنيد، ملاحظ الباخرة، بتوزيع العمّال على السطح وفي العنابر. كانت مسؤولية إدارة الأمور هنا تقع على عاتقه. كان هناك كاتب الباخرة، وكاتب التاجر صاحب البضاعة، وموظّف شركة السوكيرتو(١)، ووصل المسؤول على الخط الملاحي، فنزل إلى قمرة القبطان، وبعد أن صعد إلى السطح، قال لي:

ـ هذه أوّل سفرة للباخرة على الخطّ، لا نريد متاعب.

قلت:

ـ حين أكون هنا لا تكون متاعب.

قال:

ـ كل رئيس ورديّة يقول هذا الكلام.

قلت:

ـ أنا أقول الكلام الذي سيصير.

قال:

ـ العمال مُتعبون دائماً. يتهرّبون من الشغل، يندسون في العنابر. يلطشون ما تقع عليه أيديهم، يتاجرون، يهربون، يشربون الخمر وقد يسكرون، أنا أعرفهم. قلت لك: لا أريد متاعب على الباخرة!

---

(١) شركة التأمين.

قلت:

ـ وأنا أجبتك أنه لن تكون هناك متاعب. لماذا لا تثق بما أقول؟ ثم لماذا هذا النقّ من الصباح؟ العمّال! العمّال! ماذا يفعل العمّال؟ من يقطف العسل يلحس أصابعه، وهم لا يلحسون حتى أصابعهم، فماذا تريد أكثر؟ هل أوقّع معك عقداً أنهم لن يتهرّبوا من الشغل، ولن يسرقوا، أو يشربوا؟ تريد شغيلة أم رهباناً؟ أنا لديّ شغيلة، شغيلة تقوّست ظهورهم من ثقل ما يحملون، وسيعملون ساعات إضافية، سيبقون الليل كلّه، حتى نشطب شحنة الباخرة، فماذا تريد أكثر؟ تقتلهم مقابل الأجور الهزيلة، اللعينة، التي يأخذونها؟

قال وقد فاجأته لهجتي:

ـ أنا لا أقصد شيئاً، أُبدي ملاحظة حول العمل. لماذا أنت حمش(١) إلى هذا الحد؟

قلت مغاضباً:

ـ أنا حمش لأني حمش. نحن نعمل في البحر لا في بستان للنزهة. هذه باخرة، وهي ليست أوّل باخرة تأتي وتفرغ وتشحن. وأنا على ظهرها، وهذه ليست أوّل مرة أكون على ظهر باخرة، اطمئن! كل شيء سيكون أليسطا. كل شيء سيكون تمام التمام. تفضّل إلى وكالتك البحرية، واتركنا نبدأ الشغل بنفس مفتوحة. لا تعكّر مزاجنا من الصباح.

نظر إلى نظرة تفحّصني من فوق لتحت ومن تحت لفوق. لم يرتح إلى لهجتي. كانت لهجة جديدة عليه. لهجة مقابلة للهجته، وبنفس حدتها، وكان الوثوق في كلامي يعني الاعتداد، وهو وكيل الخطّ البحري ليس ضد هذا الوثوق، فالمهم أن يمشي العمل، وأن لا تكون متاعب، لكن الاعتداد، والدفاع

---

(١) الرجل الحمش: الصعب، القوي، المشاكس.

عن العمال بلهجة فيها تعاطف شديد معهم، وفيها وصف لحالتهم البائسة، أثار في نفسه الشكوك، فأدار ظهره إليّ وهو يقول:

ـ سنرى النتيجة عند تشطيب الشحنة.

قلت:

ـ كل شيء سيتمّ حسب الطلب. لن نغادر الباخرة قبل تشطيب حمولتها، اطمئنّ!

اتّجه إلى سور الباخرة، نزل السلم إلى اللنش الذي يهدر محرّكه، والماء من حوله يفور ويرغي، فلما استقرّ فيه نظر إلى فوق. كنت عند السور، لا لوداعه، ولكن لأتفرج على شكله وهو يتمسك بحاجز السلّم، كأنه يحاذر السقوط، أو تلويث ثيابه النظيفة، المهندمة جيداً. ولما انطلق به اللنش عائداً إلى المرفأ، عدت إلى ظهر الباخرة فوجدت العمّال يجلسون حلقات، ويتناولون فطور الصباح.

كان برهوم يتناول فطوره أيضاً، فدعاني لمشاركته، لكنني رفضت، فلما ألحّ قرفصت، تناولت قطعة خبز وحبة زيتون، وكان هذا كل ما يتألف منه الفطور، فليس هناك جبن، أو بيض. وحين لاحظ استغرابي قال:

ـ هذا هو فطور العامل، وهو فطور كلّ يوم.

قلت:

ـ نعمة!

قال:

ـ نعمة بائسة، العامل، في مرافىء العالم، يتغذّى جيداً.

قلت:

من يتعب يجب أن يتغذّى.

قال:

ـ نحن نتعب دون أن نتغذى، بينما ملتزمو العمل، والمعلّمون. والعجوز، وزلمه، يأكلون الأطايب. هذه ليست عيشة. العامل عندنا يتهدّم، يهرم بسرعة من كثرة الشغل، ومن الفقر وسوء التغذية. نصف العمّال مصابون بفقر الدم.

قلت ضاحكاً:

ـ هذه بروبا غندا[1] صباحية.

قال:

ـ ماذا تعني بهذه الكلمة الأجنبية ابنة الكلب؟

قلت:

ـ سمعتها في مكان ما، وتعني الدعاية، أو شيئاً من هذا.

قال:

ـ أنا أصف الواقع، ولا أقوم بالدعاية. انتظر تر... وجبة الظهر ليست أفضل كثيراً من وجبة الصباح، ومع ذلك يريد الأفندي، وكيل الباخرة، أن يتجنّب المتاعب في باخرته.

أضاف:

ـ سمعتُ ما قلته له. أحسنتَ. دفاعك عن العمال كان قوياً، ولكن وكيل الباخرة سيذهب الآن ويشتكي.

قلت:

ـ ليذهب ويشتكِ. دعه يبلّط البحر.

قال:

ـ سيسبّب لك المتاعب.. أنت، يا صاحبي، من سيبلّط البحر إذا لم

(١) كلمة أجنبية يعني بث الدعاية.

تكن حذراً، لا تتسرّع، لا تتهوّر هكذا. أنا أفهمك . . أفهمك جيداً.

قلت:

ـ مادمت تفهمني فهذا هو المطلوب. أريد أن يفهمني العمّال لا أرباب العمل.

ـ أرباب العمل لهم أظافر. سيخرمشونك قريباً.

ـ ليفعلوا. أظافري ليست أقصر من أظافرهم.

ـ ولكن أظافر المعلّم رضا حادّة، وأظافر العجوز أكثر حدّة.

قلت:

ـ جسمي يتحمّل. لست ضعيفاً. ولا خوّافا. صدمة العجوز كانت قاسية، لكن قلبي امتصّها بسرعة. . الآن أنا على ما يرام.

انتهى الوقت المخصّص للفطور. نهض العمال واحداً بعد آخر. وزّعهم الملاحظ على العنابر. مشوا اليها وفتحوا أغطيتها. قال حسويك، استيفادور[1] الباخرة وهو ينزل الى العنابر مع عمّاله:

ـ نحن جاهزون.

ـ قلت:

ـ أعتمد عليكم. لن نغادر الطلياني قبل تشطيب حمولته.

ـ قال:

ـ كل شيء أليسطا.

ـ قلت:

ـ كل شيء أليسطا. . هيا.

أعطيت الإشارة الى العمال الذين في الماعونة. كانت التصبينة جاهزة. دارت الرافعة واتجه زندها خارج السور، وبلحظة كانت التصبينة ترتفع في الجو، وتمرق فوقنا وتستدير نحو فوهة العنبر، وتنزل بهدوء. كل شيء اذن

(١) عامل التنضيد، اي تكديس البضاعة بشكل نظامي.

اليسطا. كلّ عامل يتحرّك، ينشط، والعمل يدور، والباخرة ترسل صفرة جديدة بانتظار المزيد، فهي تستعجل الذين على المرفأ، ورؤساء الورديات، هناك، يلتقطون إشارة الباخرة، ويستحثون العمال، ومن حوض الميناء يخرج اللنش ووراءه ماعونتان.

قال الملاحظ:

ـ لنشغل الرافعة الثانية.

ـ قلت:

ـ سنشغل الرافعة الثانية والثالثة. . كل رافعة تشتغل على عنبر، وكل عنبر فيه طاقمه من العمّال. . ابق أنت على الظهر. شغّل الشغل. سأنزل أنا إلى العنابر. أشرف بنفسي على العمل.

كان الوقت ضحى. شمس نيسان الحلوة الدافئة. زرقة البحر بمداه الواسع، الماء الرائق كأنه أرضية زجاجية، تتدحرج عليها موجات صغيرة لها أعراف بيض كأعراف الديوك، وكانت السماء، من فوق، صافية، ما عدا سحب صغيرة، رقيقة، متفرقة، والشاطىء الصخري، من المنارة الى البطرنة فالكازينو، يبدو متعرّجاً، والمراكب، ذات الصواري والأشرعة، ترسو في الحوض. والى أبعد، خارج الحوض، تقف بواخر من كل الجنسيات، ترفع أعلامها، والى جانبها الأعلام السورية، واللنشات تذهب وتجيء، قاطرة المواعين، مُحمّلة وفارغة، والحركة، في كل مكان، ناشطة بشكل غير مألوف، والعمل على الطلياني، يمشي كالساعة، وأنا، بين العنابر والظهر، أشرف على الشغل، مفكّراً أن نظام الورديّات اليوم، لا يمكن تطبيقه، فالورديّة الواحدة، في كل باخرة، مجبرة أن تستمّر، في عمل إضافي، من الصباح الى بعد منتصف الليل، بل وحتى الفجر، الى أن تشطب الحمولة كلها.

فجأة انطلقت صرخة حادّة، صرخة موجعة، كضربة سكّين في الصدر،

قطعت السكون، وأوقفت ضجّة الرافعات، وركض كلّ من على سطح الباخرة باتّجاه السور الشرقيّ، الذي ترسو عليه المواعين، ونظرنا جميعاً الى تصبينة مرفوعة في الجوّ، بين الماعونة والباخرة، وعليها عامل يتمسّك بالسلك الحديديّ ويصرخ. كان الدم يخرّ منه، يتساقط قطرات متتابعة، كبيرة، غزيرة، تصبغ ماء البحر، ثم تمحى، بين طيّات الموج، لتعود قطرات الدم نفسها، تتساقط وتمّحي، بعد أن بلّلت شوالات التصبينة. وكان عامل الرافعة، على الباخرة، مرتبكاً، لا يدري ما يفعل، فهو محتار في أمره، بين أن يعيد التصبينة الى الماعونة، أو يرفعها الى فوق، الى ظهر الباخرة.

لم أفهم، في البدء، ما جرى، لكن قبطان الباخرة، أو مساعده، لا أدري، أعطى أمره برفع التصبينة. ارتفعت التصبينة بهدوء وحطّت على سطح الباخرة، فأفلت العامل السلك، واستلقى على ظهره وهو يصرخ، والدم ينفر منه: السلك الحديدي حلق رجله من فوق الركبة. كان اسم العامل راتب، وكان يتخبّط، والدم الذي ينفر من رجله المقطوعة قد لوّث ثيابه، وشكل ما يشبه بقعة كبيرة حوله، وهو يرسل صيحات الاستغاثة، ونحن في حيرة، نتجمّع حوله دون أن نعرف ما نفعل لأجله. أنا لم أر يوماً رجْلاً مقطوعة على هذا الشكل. فخذ أشبه بالقرمة، كأنما نُشر بمنشار، أو قطع بضربة ساطور، وهذه القرمة كتلة لحم دامية، نازفة، ملطّخة، لا تستطيع أن تميّز فيها، بسبب الدماء الدافقة منها، أين هو اللحم، وأين هو العظم، وأين هي العروق، وكيف يمكن عصبها، أو لفّها، أو وقف نزيفها، أو حجب منظرها المرعب، الذي لم يتحمّل بعض المتحلّقين رؤيته، فأداروا وجوههم، أو غطّوا عيونهم بأصابعهم، أو تراجعوا عن الحلقة وابتعدوا وهم يمسكون بطونهم بأيديهم كي لا يتقيّأوا من رائحة الدم التي أصابتهم بالرعب والغثيان. وحين جاء طبيب الباخرة، ضرب بقبضتي

على صدغيه لهول المشهد الذي طالعه، فأمر بحمله الى العيادة، وهناك قام، أو حاول القيام، بإسعاف أولي، بلفّ قرمة الفخذ بقطن مشبع بدواء أحمر. ثم لفّها بالشاش، دون أن يتوقّف النزف أو الصراخ.

طلب الطبيب من قبطان الباخرة إطلاق صافرة استغاثة، لإرسال لنش من المرفأ، بأشدّ ما يكون من السرعة. دوت صافرة الباخرة دوّياً حادّاً، مُصمّاً، متقطّعاً، ورأينا بعد قليل لنشاً يخرج من فم الحوض ويتّجه إلينا، فحملنا راتب على نقّالة، ملفوفاً ببطانية، ونزلنا به سلّم الباخرة متعجّلين، حذرين، ملتاعين، ووضعناه في اللنش الذي انطلق به بأقصى سرعته نحو المرفأ.

كانت رِجْل راتب التي قطعت قد سقطت في الماعونة، فوق الأكياس، وكانت تنزف أيضاً، لكن دون صراخ، فهي حيّة ميتة، وهي حارّة ما يزال الحذاء في قدمها، فأنزلها العمال ورموها في قاع الماعونة الفارغ، وقال أحدهم بصوت مرتعش من التأثّر:

- ماذا نفعل بها؟
- أجاب برهوم الذي كان يقف الى جانبي على سور الباخرة:
- احتفظ بها حتى نقدّمها هدية الى المعلّم رضا.
- وماذا يفعل بها المعلّم رضا؟
- يقدّمها بدوره هديّة الى العجوز.
- وماذا يفعل بها العجوز؟
- يعيدها الى مكانها.

صاح عامل:

- وهل يمكن إعادتها الى مكانها؟

قال برهوم:

- العجوز قادر على كل شيء.

ـ كيف؟
ـ لا أدري. اذهب ووجّه هذا السؤال اليه.
ـ وهل هذا وقت المزاح؟
ـ وهل تراني أمزح؟
ـ نعم أنت تمزح.

قال عامل:

ـ إنه يمزح بمرارة. ألا تراه يكاد يبكي.

قال برهوم:

ـ هذا ليس وقت البكاء.

صاح الملاحظ:

ـ لا. ليس هذا وقت البكاء أو المزاح. اتركوا الرِجْل في مكانها وعودوا إلى العمل. هيّا، إلى العمل، كل واحد إلى عمله، أعدوا التصبينة، استأنفوا العمل، ماصار صار، لا فائدة من الكلام، الرِجْل انقطعت ولا فائدة منها، ارموها في البحر.

قال برهوم:

ـ لا ترموها في البحر. أرسلوها الى الميناء، وهناك يرسلونها الى المستشفى، وفي المستشفى يُحنِّطونها. تبقى تذكاراً جميلاً، لصاحبها ولنا جميعاً.

قلت لبرهوم ونحن نتحوّل عن سور الباخرة عائدين الى العمل:

ـ كان مزاحك مراً كالعلقم.

قال:

ـ كانت سخريتي مرة كالعلقم.

ـ تعمّدتها؟
ـ تعمّدتها ولم أتعمّدْها. كان الحادث فظيعاً.

قلت:

ـ كان الحادث فظيعاً.

قال:

ـ وكان تأثري بالغاً.

قلت:

ـ كان تأثّرك بالغاً.
ـ وقد قلت كلاماً كان يجب ألا أقوله.
ـ نعم قلت كلاماً كان يجب ألا تقوله.
ـ سيبلغ ما قلته المعلّم رضا والعجوز. هناك عيون وآذان بيننا.

قلت:

ـ شيء مؤسف!

قال:

ـ شيء مؤسف جداً، ولكن هذا هو الواقع.

قلت:

ـ ما دام هذا هو الواقع، فلماذا تعمّدت أن تقول ما قلت؟
ـ لكي يبلغ أصحاب الشأن.
ـ ألا تخشى العاقبة؟
ـ ومن لا يخشى العاقبة؟
ـ أين الحذر الذي أوصيتني به إذن؟
ـ الحذر ليس ضرورياً بالنسبة لي. فات أوانه

ـ أفهم من هذا أن موقفك معروف من المعلم رضا والعجوز؟
ـ تماماً.

قلت:

ـ والخطر؟

قال:

ـ نحن الخطر.
ـ لم أفهم.
ـ ستفهم في حينه.
ـ وماذا سيحلّ براتب الآن؟
ـ سيرسلونه الى المستشفى الوطني.
ـ ومن يتحمل النفقات.
ـ العجوز.
ـ ومن يدفع تعويض الإصابة؟
ـ لا أحد.

قلت:

ـ كيف لا أحد؟ هذه إصابة عمل

قال:

ـ حين لا تكون هناك حقوق، وقوانين تضمن هذه الحقوق، تبقى المسألة مزاجية. قد يدفع العجوز تعويضاً وقد لا يدفع، المسألة على مزاجه.
ـ وبالنسبة لإصابة راتب؟
ـ لن يدفع
ـ لماذا؟

ـ لأن راتب من المغضوب عليهم. إنه يلعب بذيله كما يقول العجوز
ـ أفهم من كلامك أن المطالبة بنقابة للعمال لعب بالذيل؟
ـ نعم! المطالبة بنقابة لعب بالذيل.
ـ وهل هناك كثير من العمال يلعبون بأذيالهم؟

توقّف برهوم. نظر اليّ، رازني، قال:

ـ ستعرف كل شيء في وقته. لا تتعجّل. قلت لك لا تتعجّل. نحن نقامر بأرواحنا، وأنت ما زلت جديداً في الميناء. أنت لا تقامر بشيء، لذلك لن تخسر شيئاً.

قلت:

ـ بل سأخسر، أنا منكم. يجب أن تعرفوا هذا وتصدّقوه.

قال:

ـ سنعرف هذا، وقد نصدّقه، لكن ليس الآن.. هذا ليس عدم ثقة، لكنه من أصول اللعبة. لنرجع الى العمل، لا بدّ من تشطيب حمولة الطلياني.

قلت:

ـ أنت ستيفادور الباخرة، وعليك وعلى جماعتك يتوّقف التسريع بالعمل. نحن، من جهتنا، نصبّن على الرافعات الثلاث، وهذا كل ما نستطيعه، وقد وعدت المعلم رضا أن نشطب اليوم حمولة الطلياني، ولا بدّ من تحقيق الوعد.

قال:

ـ سنشطب حمولة الطلياني هذا النهار أو هذه الليلة، لا لأجل المعلم رضا، بل لأجلك أنت، كي تنجح كرئيس وردية. هذا معناه تثبيت

قدميك في الميناء، وفي هذا نفع لنا، إلا إذا كنت.

قالها ولم يكمل. أراد التلميح فقط. قلت:

ـ لا تقلق، سأكون نافعاً لكم. أنا عامل أيضاً. رأيت ما حلّ براتب اليوم.

قال:

ـ أنا غير قلق. ومِمّ أقلق؟ وهل بقي ما أقلق لأجله؟

كان برهوم حزيناً، كان متألماً، وكان ألمه داخلياً، عميقاً، مترسّباً في القلب، يبدو في عينيه، ويديه، وكلماته، وكذلك في الجوّ القاتم، الذي انتشر وغطّى الباخرة، ومن عليها، ومن فيها، وغطّى زرقة البحر، ونور الشمس، هذه التي بدت كئيبة، حزينة، كأنما تشاركنا حزننا، وصمتنا، وألمنا، وكأنما قرصها الكبير، المدور، المشّع، ينظر الينا، والى الباخرة، والماعونة، والرِجْل المقطوعة، الملقاة جانباً وبإهمال، كأنها لم تكن حية، متحركة، بشرية، منذ قليل، وكأن صاحبها الذي انفصل عنها، لم تعد له علاقة بها، ولم تعد هي تعني شيئاً بالنسبة إليه.

افترقنا، برهوم وأنا، فذهب كل منا الى عمله. افترقنا صامتين، ورحنا نعمل بجدّ لننسى ما حدث. عملنا النهار كلّه، وعملنا ليلاً الى الفجر، ونجحنا في تشطيب حولة الطلياني، وفي الماعونة، ونحن نعود الى الميناء، قال لي برهوم:

ـ هل تدري ما حلّ برجْل راتب؟

قلت:

ـ أخذوها الى العجوز؟

قال:

ـ لا! كان العجوز على الرصيف، ورأى الرجل المقطوعة في قاع الماعونة، فغضب جداً، غضب لأنهم احتفظوا بها، ولأنهم عرضوها على العمال، فاعتبر هذا تحريضاً، وصاح بهم مزمجراً:

ـ ارموها في البحر، ارموها في البحر.

قلت:

ـ ورموها في البحر؟

قال:

ـ هي الآن في البحر. ابتلعها البحر، وربما أكلتها كلابه، وهذه خاتمة القصّة.

قال ذلك وسكت، كان تأثّره قد لجمه. ثم قال، بعد لحظة، بمزاجه الأسود:

ـ أليست هذه قصة طريفة؟

ـ . . .

ـ لماذا لا تتكلّم؟

لم أتكلم. كان صمتي هو إجابتي. كان صمتاً أسود كمزاجه، فمضيت الى البيت، لأشرب وأدّخن وأنام. نمت بائساً، تعيساً، مفجوعاً الى ضحى اليوم التالي. كان اليوم التالي يوم عطلة عمّال الورديّة، الذين عملوا طوال نهار أمس وليله، فاستحقّوا أن يرتاحوا، لأنهم لا يستطيعون مواصلة العمل دون راحة. قلت في نفسي، وأنا مازلت مستلقياً على سريري: «أنت يا مفيد ابن كلب، أنت جرو صغير، أنت بغل أمام برهوم الحصان، هذا الذي لم تروّضه كل سلطة العجوز، وكل تحذيرات وتخويفات الميناء. قال لي: «أنت لا تقامر بشيء، لذلك لن تخسر شيئاً. أنا حتى الآن، خارج اللعبة، وأنا لم

أكتسب ثقة برهوم وجماعته، كما لم أكتسب من قبل ثقة عبد الجليل وجماعته. كل ما فعلته، حتى الآن، كان طيشاً، كان بلا طعم، لأنه بلا غاية، وقد بذلت المستحيل حتى أدخل الميناء، وحتى أغرز رجلي فيها، وها أنا داخل الميناء، ورجلي مغروزة فيها، فماذا فعلت؟ بلت في سروالي لأن العجوز طلبني، ولأنه هدّدني، وكشف الحصيرة عن جثة حليش، وأراني أكياس المال، فلم أرغب في ماله، وإن كنت قد خفت من تهديده. أقول: خفت؟ أكثر. صدمت من رؤية جثّة حليش ووجهه المزرقّ من الغرق أو الخنق، فبانت آثار الصدمة عليّ، حتى نبّهني برهوم، وطلب مني أن أنسى ما رأيت. نعم طلب مني أن أنسى، وربما سخر من صدمتي وخوفي. إذن أين الشجاعة؟ أين الرجولة؟ أين عبارة «أنا مفيد الوحش؟» وأين كلّ ذلك الفشر الذي غرقت في وحله، لمجرّد أنني ضربت «البريغوته» وتصديّت للمعلم البطحيش، ودخلت السجن، وألقيت «حسون» في البحر؟ أنت، يا مفيد، قزم أمام عملاق. أنت هو القزم وبرهوم هو العملاق، ولا بدّ من تغيير هذه الصورة، لا لتكتسب اعتباراً، ولا لتستردّ اعتباراً، بل لكي لا تكون مسخرة أمام نفسك، إذا كنت لا تريد أن تصبح مسخرة أمام رجال الميناء.

طُرق الباب على غير توقّع. فوجئت، توجّست شراً. أنا في وكر ضائع بين البساتين، لا يعرفه سوى حليش وعبدوش وحسن الدفش، حليش مات، عبدوش راح في حال سبيله، وحسن الدفش لا يأتي في هذا الوقت الباكر، فمن يكون الطارق؟ أحد أزلام المعلم البطحيش؟ أحد رجال العجوز؟ تعقّبوني فعرفوا بيتي؟ كلّه جائز، وكلّه سواء، وبعد الذي رأيته امس، لم أعد أهتمّ بما أصادف اليوم، وأنت يا مفيد لست قطعة حلوى، ولن يتحلّوا بك بهذه السهولة.

نهضت متثاقلاً. كان الطرق يتواصل على الباب. وكنت أصرخ:

ـ نعم! نعم! حاضر!

لكنني لم أكن سريعاً، ولا غافلاً، وكنت أستعدّ للمواجهة حين فتحت الباب ورأيت عبدوش في وجهي. كان هو، صديقي، عبدوشي، وكانت المفاجأة كبيرة، فاحتضنته، وتعانقنا، وسحبته الى الداخل، وقلت مرّحباً، فرحاً:

ـ أهلاً، أهلاً، من جاء بك يا ابن أمّك؟

قال عبدوش:

ـ أنا ابن أبي. وأنا مسافر، وأنت ابن قملة، أنت حمار، يا قاطع ذنب الحمار، لأنك تستقبلني ببذاءتك المعروفة.

قلت:

ـ ماذا جرى؟ ألم تعد تحتمل المزاح؟ كبرت؟ تمرجلت؟ صرت ابن أبيك؟ أين كنت؟ في أيّ جحيم؟ وما الذي جاء بك؟ أيّ ريح ملعونة حملتك اليّ؟ اجلس. قهوة الصباح سأصنعها بنفسي. سأحتفل بك يا ابن الخائبة، لا تزعل، فرحتي لا أعطيها لأحد.

قال عبدوش:

ـ أنا مسافر يا مفيد.

ـ الى أين ما شاء الله؟

ـ الى جهنّم.

قلت:

ـ جئت من جهنّم وتعود اليها؟

قال:

ـ جئت من الشام، من بلاد جوّه[١]، ومسافر الى بلاد برّه[٢]، وكفّ عر

(١) (٢) الداخل، الخارج.

بذاءتك. كن لطيفاً. عجّل بالقهوة، وبعد ذلك نتحدّث.

أعددت القهوة. شربناها. دخلنا. شربنا عرقاً على الريق، لفتح الشهيّة كما اعتدنا أن نفعل. وحين عدنا الى الحديث الجادّ، قال عبدوش:

ـ أنا مسافر يا مفيد في البحر.

قلت:

ـ في البحر، دفعة واحدة؟

ـ في البحر، دفعة واحدة؟

ـ على أيّ باخرة؟

ـ على باخرة يونانية.

ـ وجئت لوداعي؟

ـ جئت لآخذك معي. كنت تحلم دائماً بالسفر في البحر.

تنهدّت وقلت:

ـ هذا صحيح. كنت أحلم. لكن الحلم طار. أنا في الميناء، وسأبقى فيها. لم أحقّق ما أريده بعد.

ـ وما هذا الذي تريده؟ أن تزيح العجوز عن كرسيّه وتجلس مكانه؟

ـ اتركنا في الجدّ. الشيء الذي دخلت الميناء لأجله لم يتحقق.

ـ وكيف تحقّقه؟ ثم ما هو هذا الذي تريد أن تحقّقه؟ أن تصبح رجل الميناء؟ ألم تنته من هذا الموّال؟

قلت:

ـ أنا لم أبدأ الموّال بعد!

ـ ومتى تبدأه؟

ـ قريباً. الموال تغيّر. لا أريد أن أكون رجل الميناء. أريد أن أكسر أنوف الذين يسيطرون على الميناء.

قال عبدوش:

هذا موّال جديد فعلاً، ولكن كيف ستكسر الأنوف التي تتحدّث عنها ما شاء الله؟

ـ لا أعرف بعد..

ـ تمشي إذن في الظلام؟

ـ أمشي في الظلام.

ـ أنت إذن في جهنم. لا أنا.

قلت:

ـ أنا في جهنم حقيقة يا عبدوش.

ـ ولماذا لا تخرج منها ونسافر؟

ـ سأخرج منها وأسافر، لكن ليس الآن، ليس الآن، افهمْ ما أقول.

ـ أنت عنيد كما عرفتك تماماً.

ـ والآن أزدادُ عناداً.

قال:

ـ في صوتك رنّة حزن، هل أنت في ورطة؟

ـ أنا في صدمة.

ـ ومن الذي صدمك؟

ـ جثّة حليش!

ـ صاح عبدوش فزعاً.

ـ قتلوا حليش!؟ اكتشفوا العمليّة!؟

قلت بهدوء:

ـ مات حليش في حادث غامض.

ـ وأخذ سرّه معه، أم كشفه فدفع الثمن؟

ـ هذا ما لم أعرفه بعد.

قال عبدوش

ـ هناك خطر على حياتك إذن.

قلت

ـ ربما. الخطر قائم، يمشي من أمامي ومن ورائي وعلى جانبيّ.

ـ ولماذا لا تنجو بنفسك منه؟

ـ لأنني لا أريد أن أهرب من المعركة.

ـ أنت مجنون إذن.

ـ كنت مجنوناً دائماً.

ـ قال:

ـ أسف لحالك. كان بودّي أن أبقى إلى جانبك، ولكنني مسافر، تعاقدت، وأنجزت معاملة السفر.

قلت:

ـ وأنا آسف أيضاً. كنت أريدك إلى جانبي. لكن ماذا نفعل؟ كله نصيب، سافر. سافر وسألحق بك.

سافر عبدوش في اليوم نفسه. كنت بعد الظهر في وداعه. عزّ عليّ فراقه. لكنني «كبست على الجرح»، تحمّلت الفراق، عدت إلى المدينة أتسكّع في شوارعها حزيناً، سارحاً، فإذا بي، للمرة الثانية، أفاجأ هذا اليوم مفاجأة هزّتني من الأعماق: التقيت لبيبة صدفة. التقيتها في الشارع، وكانت هي هي، مليحة كما عرفتها، محبّة، وفيّة، لم تتزوّج، لم تنجب، لم يكن لها بيت وعائلة، كانت وحيدة، وكانت تنتظر، كما قالت وأقسمت، فصدّقتها، ولماذا لا أصدّقها؟ أنا لست زوجها، وهي ليست زوجتي، والماضي، بخيره وشرّه، راح، وعليّ، بعد الآن، أن أقرّر. وفوراً قرّرت: «سأتزوجها!» لقد مللت حياة الوحدة، وقرفت تنظيف الأواني، وغسل الثياب، وأكل المطاعم، والجدران الخرساء، التي لا أستطيع أن أتبادل معها

كلمة تعزّيني، حين أكون بحاجة إلى عزاء، وتسلّيني في حالة الضجر من كل ما في الميناء من مخازٍ.

اصطحبتها إلى البيت. «الأصحّ إلى الكوخ. أجلستها على سريري القذر، ووقفت أمامها، نظرت إليها، شملتني فرحة وأنا أنظر إليها، فرحة الإنسان الذي أضاع شيئاً عزيزاً، ثم فجأة وجده. لقد وجدتها. كانت ضائعة فوجدتها، وأردت تكريمها، واحترت بأيّ شيء أكرمها. عرضت عليها أن تأكل مما عندي، أن تشرب من عرقي، فابتسمت وقالت:

ـ وماذا عندك مما يؤكل؟ ماذا طبخت اليوم؟

قلت:

ـ أنا لا أطبخ، لا أعرف أن أطبخ. أعيش على النواشف، أعيش كيفما اتفق، من أكل السوق.

قالت:

ـ وتشرب كثيراً؟

ـ أشرب كثيراً.

ـ هذا واضح من زجاجات العرق الفارغة. أنت ضائع!

قلت:

ـ أنا ضائع فعلاً.

ـ ولماذا لم تتزوج؟

ـ أتزوج من؟ وفي هذا الوكر؟ وكيف أربط مصير امرأة بي أنا الذي مصيره غير معروف؟

ـ ولماذا لم تبحث عني؟

ـ بحثت عنك، ذهبت إلى الريجي، وإلى حيّ العوينة، سألت في كل مكان ولم أعثر عليك. أين كنت؟

ـ كنت أبحث عنك أيضاً. كنت مثل ضائعة، هل لديك قهوة؟ ماء؟ ريد كأساً من الماء وفنجاناً من القهوة. إنني غير مصدّقة بعد، غير مصدّقة

اني عثرت عليك، وأنني في بيتك، ولا أدري هل أضحك أم أبكي؟ أنا محتارة، محتارة، لنؤجّل الحديث ريثما أبلّ ريقي، وأشرب قهوتي، وأدخّن. قصدت أهدأ، ونحكي كل شيء من البداية.

حاولت أن أصنع القهوة فلم تقبل. قالت:

ـ هذا شغلي، تدبير البيت، إعداد الطعام، السهر عليك، على راحتك، هي شغلي بعد اليوم، استرح. يكفي ما تعذّبت.

شربنا الماء، لكنه كان ماء حارّاً، لا يروي عطشاً. تناولنا القهوة. دخنا. لاحظت أنّها تدخن بشراهة، وتشرب القهوة بكثرة، وأنها منفعلة، وربما، كما قالت، غير مصدّقة. ابتسمت لها، حاولت تهدئتها، تطمينها.. أخذتها بين ذراعي، عانقتها، قبّلتها، قلت لها كلمات حلوة، وإذا بها تنفجر ببكاء عنيف، يهتزّ له كيانها، وتسيل قطراته على خديها وصدرها، وأنا صامت، لا أجد الكلمات المعزّية، النافعة في مثل هذا الموقف الجديد عليّ تماماً.

قالت:

ـ متى خرجت من السجن؟

ـ أيّ سجن هذا؟

ـ سجن حلب طبعاً.

ضحكت:

ـ قولي متى خرجت من سجن اللاذقية؟

ـ هل سجنت في اللاذقية أيضاً؟

ـ خرجت قبل شهور.

ـ وسجنت لنفس السبب؟

ـ لسبب آخر.. سبب يتعلّق بمعركة في الميناء هذه المرة.

طرقتْ. فكرتْ. قالت:

ـ ألا تتوقّف عن العراك؟

قلت:

ـ ماذا أفعل إذا كان العراك يُفرض عليّ؟

ـ والآن؟ ماذا تفعل؟

ـ أعمل في الميناء.

ـ وتتعارك؟

ـ العراك جزء من حياتي.

ـ وهل هذه حياة؟

ـ هذه هي الحياة. كفاح طويل، مستمرّ.

ـ ولأجل أيّ شيء؟

قلت:

ـ لأجل لا شيء حتى الآن.

ـ كيف لأجل لا شيء؟

ـ هكذا.. لأجل لا شيء.

ـ واللقمة؟

ـ هذه لا شيء أيضاً. الكلب يحصل، بطريقة ما، على لقمته.

قالت:

ـ حاشاك! ما قصدت. أردت الاطمئنان فقط.

قلت:

ـ اطمئنّي.. مفيد هو مفيد. هو الفتى الذي تعرفينه.

هتفت:

ـ ولكنك صرت رجلاً!

قلت:

ـ وأنا الرجل الذي ستعرفينه، لا تتعجّلي.

صاحت:

ـ أعرف ماذا؟ هل هناك سرّ، هل الشغل في الميناء سرّ؟

قلت:

ـ الشغل في الميناء سرّ الأسرار، هناك ذئاب، هناك حيتان، هناك قتلة من حولي، لكن لا خوف عليّ، أعرف كيف أشقّ طريقي.

أضفت:

ـ وأنت؟ ماذا بشأنك؟ لماذا تركت العمل في الريجي؟ لماذا تركت البيت في حيّ العوينة؟ أين ذهبت؟ أين اختفيت؟

أشعلت سيكارة. مجّت منها أنفاساً متلاحقة. تأمّلتني. تفحّصتني، تنهّدت. قالت:

ـ كنت في كل مكان، ولم أكن في أيّ مكان. حياتي، يا مفيد، كانت صعبة مثل حياتك، أنا أيضاً طاردتني الكلاب والذئاب، ولكنني أفلتّ منها. هربت من وجهها. صنت نفسي لأجلك، وتعذّبت لأجلك، لأنني أحبك، أم تشكّ في أنني أحبّك، وأنني لم أخنك أبداً؟

ـ أنا لا أشكّ بك مطلقاً.

قالت:

ـ هل ما زلت تعتبرني حبيبتك؟

ـ ما زلت أعتبرك حبيبتي.

ـ وهل سنعيش معاً.

ـ سنعيش معاً.

ـ رجل وامرأة في بيت واحد؟

ـ زوج وزوجة في بيت واحد.

ـ أستطيع أن أعتبرك زوجي، وبيتك بيتي؟

ـ تستطيعين اعتباري زوجك وبيتي بيتك.

ـ يا حبيبي!

ـ يا حبيبتي!

ـ تعذّبنا كثيراً نحن الإثنين.

ـ تعذّبنا كثيراً نحن الإثنين، والآن انتهى عذابنا.

في اليوم التالي تزوجت لبيبة. أعطيتها كل ما معي من نقود. اقترحت أن نستأجر بيتاً مناسباً فوافقت. استأجرنا بيتاً في الكاملية، قرب مركز البريد. قامت هي بشراء أثاث بسيط، مريح. اجتهدت أن تكون ربّة بيت، كانت هي ربّة البيت التي أنتظرها وأريدها وأشتهيها، لذلك شعرت لأول مرة في حياتي بالاستقرار، شعرت أن الدنيا كافأتني على صبري، فغمرتني سعادة لم أعرفها من قبل، سعادة رجل لم يعرف يوماً طعم السعادة، ثم فجأة وضع رأسه على وسادة مريحة، عاش من جديد، كأنه ولد من جديد، ولم يعد يفكر بطعامه ولباسه وتدبير شؤونه وتبديد الوحشة التي كانت تخيّم عليه وهو في وكره القديم.

الآن انتفى قلقي كلّه. انتفى من كلّ النواحي، وحتى من الناحية الأصعب، ناحية تلك العملية اللعينة، عملية الماعونة، بعد موت حليش، وسفر عبدوش، وبعد أن تأكدت أن حليش أخذ سرّه معه. ولم يفشه لأحد، أو لم يعش إلى الوقت الذي يضطّر فيه، أو يتطوّع فيه، نكاية بي، لإفشاء هذا السرّ، اطمأننت تماماً. قلت في نفسي: «ما بقي هو العمل، العمل لأجل شيء، وليس لأجل لا شيء كما في السابق. أنت يا مفيد تقامر الآن بشكل صحّ. لأول مرة تقامر بشكل صحّ، تعمل في ضوء النهار، تعرف يمينك من يسارك، تعرف صديقك من عدوّك، تقف مع الذين يجب أن تقف معهم، مع العمّال، ولأجل نقابة، حتى لا يتكرر حادث

راتب، ولا تُقطع رجله وتُرمى في البحر، ثم يصبح عاجزاً، لا تقاعد ولا تعويض».

تابعت العمل في الميناء، على الرصيف، وفي البحر، وفي البواخر. عرفت ما لم أكن أعرف، أعني صرت من أهل البيت، من أهل الميناء، من رجالها، من الذين يعرفون أسرارها، ومفاتيحها، وطرق المواجهة فيها، دون أن أجور، أو أخضع، أو أحاول تغيير الأمور فيها، ما دامت أمور الميناء هي هي، هنا وفي كل أنحاء العالم.

لكنني، ذات ليلة، بينما كنت عائداً متأخراً من الميناء، وصلتني «تحيّة» المعلم يوسف البطحيش. وصلت على شكل رصاصة، مرقت قرب رأسي ولم تصبني. اختبأت في مدخل أحد البيوت. رأني الذين يطاردونني: كانوا ثلاثة، ثلاثة قتلة، استأجرهم المعلّم البطحيش، أو دفعهم، باعتبارهم من زلمه، لقتلي. أطلقوا عليّ مشطاً كاملاً من الرصاص، في ظلام الليل، وأنا أتنقل، هرباً منهم، من قبو إلى قبو، في تلك الكهوف الواقعة على طريق الميناء، من جهة مستودع التبغ المدخون، المعروف باسم مركز شركة الامبريال. وبعد أن حاصرني المعتدون، هاجموني مباشرة، بالعصيّ والسكاكين. كان عليّ أن أدافع عن نفسي، أن استقتل في الدفاع عن نفسي، ولم يكن سهلاً. كانوا، أولاد القحبة من المدرّبين، المحترفين، لكنهم أخطأوا حين لم يسدّدوا جيّداً، فضاعت رصاصتهم في الهواء، ولما هاجموني، وجهاً لوجه، كانت فرصة قتلي قد ضاعت، وكانت فرصة فرض وجودي، وهيبتي، في الميناء كلّها، قد حانت، فتصدّيت لهم، وتلقّيت ضرباتهم وصمدت لها، وحين تمكّنت من أحدهم، وانتزعت خيزرانته، أيقنت أنني نجوت، وزدت على ذلك فأمسكت به، بينما فرّ الاثنان الآخران، وبكل ما في ساعدي من قوة، وقلبي من قسوة، ورأسي من حقد، انهلت عليه ضرباً، وجررته إلى المخفر، حيث كشف عن اسمه، وعن اسم الذي دفعه، وهو المعلّم يوسف البطحيش.

«أنت يا مفيد دخلت في عداوة مع أكبر معلّمي الميناء وأخطرهم. أنت نجوت اليوم، فمن يضمن أن تنجو غداً؟ طاشت الرصاصة هذه المرّة، فهل تطيش كلّ مرة؟ وإذا كان المعلم البطحيش قد دبّر أمر اغتيالك، فهل دبّره وحده؟ ألم يخبر به العجوز؟ وماذا كان موقف العجوز؟ وافق؟ إذن أنت الآن في مواجهة العجوز، ولو بصورة غير مباشرة، وأنت في عداوة من نوع آخر، جديد، خطير، لا تعرف سببه ولا يمكن أن تعرف سببه، لأن العجوز يعمل بصمت، يعمل بطريقة أكياس النقود والحصر التي تحتها جثث. حلو يا ابن أمّك! أصبحت في ورطة حتى قبل أن تتورّط. أنت لم تقل شيئاً بعد. لم تقف مع العمّال. لم تطالب بنقابة. لم تقل كلمة بحق العجوز، وها هو العجوز يناصبك العداء، يعاديك لوجه الشيطان، ويبعث بالشيطان ليقتلك، فكن حذراً، كن حذراً كما أوصاك برهوم».

وصلت إلى البيت في حالة سيئة. الدم على طرف رأسي. نزف ويبس وتلبّد فوقه الشعر، والدم على الكم الأيسر، من أثر ضربة سكين، لكنه جرح بسيط، خدش اللحم فقط. وعلى الجسم كدمات زرق، من أثر ضربات العصي واللكمات. عال! هذا امتحان جديد. العجوز امتحنك. امتحان العجوز قاتل. أنت لم تُقتل. نجوت بأعجوبة، ونجّود الذي قبضت عليه، اعترف بأن الذي دفعه لقتلك هو البطحيش، هذا يعني أن العجوز خرج من القضيّة كما تخرج الشعرة من العجين.

حين رأتني لبيبة أدخل البيت مُشوّهاً بهذا الشكل، أرادت أن تصيح، أن تولول، لكنني وضعت يدي على فمها. أسكتّها بقوّة. قلت لها: «لا كلمة، لا صوت، لا بكاء». جلست على الخوان، طلبت قهوة، أشعلت سيكارة، جئت بزجاجة العرق وسكبت على الجروح، التهبت الجروح، نارا نار كاوية، لكنها مطهرة، احتملت كيّها دون ألم، دون امتعاض، لم أتفوّه بكلمة، لا خير ولا شر، المسألة بسيطة!

قلت للبيبة:

- المسألة بسيطة!

صاحت:

ـ كلّ هذه الجروح والمسألة بسيطة!

كرّرت:

ـ بسيطة!

ـ ومن فعل بك هذا؟

ـ رجال من الميناء.

ـ وهل لك أعداء في الميناء؟

نبرت:

ـ لا أريد تحقيقاً. الميناء هي الميناء. وفي الميناء كل شيء يصير.

سألتني:

ـ ألا تذهب إلى الطبيب؟

ـ وما الحاجة إلى الطبيب؟

ـ وهذه الجروح؟

ـ داويتها بالعرق.

قالت:

ـ عرفت من الذي ضربك؟

ـ عرفت واحد منهم، اسمه نجّود.

ـ هل هو عدوّك؟ هل تعاركت معه؟

ـ لم أر وجهه من قبل.

ـ ولماذا يعتدي عليك. ؟

صحت بغضب:

ـ كفى! قلت لك لا أريد تحقيقاً.

سكتت لبيبة. تناولتُ زجاجة العرق وكرعت منها مقدار قدح كامل.

انتشرت النار في حلقي. شربت كأساً من الماء. ومن جديد رفعت الزجاجة إلى فمي. بعد قليل انتعشت. جاءتني لبيبة بالعشاء فأكلت قليلاً، دون شهيّة. استرخيت في مكاني، أفكّر كيف جرى ما جرى؟ وكيف عليّ أن أتصرّف؟ وهل أذهب غداً إلى العمل والقطن والشاش على رأسي أم أبقى في البيت؟ نمت، تألّمت من الرضوض في جسمي وأنا نائم، أحسست بلهيب الجروح فتحمّلت، وفي الصباح كنت في طريقي إلى الميناء. وجدت الخبر قد سبقني، سبقني لأنهم عند إطلاق الرصاص عليّ، عرفوا بالخبر، وجاءت الشرطة في الليل إلى الميناء، للقبض على الفاعلين اللذين أعطى نجّود اسميهما، لكنهما كانا قد اختفيا.

أحاط بي العمال. سألوني عن الحادثة فأنكرتها. قلت:

ـ لم يعتد عليّ أحد.

ـ وهذه الكدمات والجروح؟

ـ تزحلقت على الرصيف، فوقعت في حفرة.

ـ لكنهم قبضوا على نجّود.

ـ ومن هو نجّود هذا؟ أنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم.

ـ نجّود الذي أطلق عليك الرصاص.

ـ لم يطلق أحد عليّ الرصاص.

ـ أنت لا تريد أن تتكلّم.

ـ ولماذا لا أتكلّم؟ قلت لكم إنني تزحلقت فوقعت في حفرة.

قال عامل:

ـ نحن نعرف كل شيء.

قلت:

ـ ليس هناك شيء.

ـ هل أنت خائف؟

ـ ومم أخاف؟

ـ من المعلّم البطحيش؟

ـ المعلم البطحيش لا علاقة له بالموضوع.

ـ نجّود اعترف أنه هو الذي دفعه لقتلك.

ـ أنا لم أسمع بهذا الاعتراف، ولا أصدّقه.. هيّا إلى العمل.

كانت ورديّتي اليوم على الرصيف. كانت الشمس ساطعة، حارّة، فخاف حسن الدفش أن يلتهب الجرح. نصحني بترك العمل والعودة إلى البيت. لم أقبل نصيحته. تابعت العمل، كنت أريد البقاء في الميناء، وإظهار لا مبالاتي بما حدث. كنت، فعلاً، لامبالياً، كان عنادي مثل مقاومتي، لا يلين. كنت شديداً على نفسي، وحين أصادف صعوبة ما، تزداد هذه الشدّة. اليوم بلغ عنادي أقصاه. بلغت شدّتي على نفسي أقصاها. قررت ألّا أتكلم، أن أكتفي بالسمع، بالمراقبة، ومعرفة ردّة الفعل عند المعلم البطحيش والعجوز.

جاء برهوم مبتسماً:

ـ أخيراً قلّدوك وسام الميناء.

قلت:

ـ هذا بفضل ترشيحك.

ـ إذن أنا أرشّحك لوسام آخر، أعلى درجة.

ـ وأنا أتقبّل الترشيح.. صار بيننا دم.

قال:

ـ الدم قديم بينك وبين المعلّم البطحيش.

قلت:

ـ الدم اليوم بيني وبين العجوز أيضاً.

ـ تظنّ ذلك؟

ـ بل أثق.

ـ إذن بدأت تدرك اللعبة.

قلت:

ـ لعبة الميناء كبيرة، أكبر مما كنت أتصور.

قال:

ـ وأنت ما زلت في أولها.

ـ أضاف:

ـ كنت في المقهى. سمعت بما جرى من المعلّم رضا. كل من في المقهى يتكلّم عن الحادث. انكشف المعلم البطحيش. هذا مفيد. مفيد جداً. هذا درس جديد. يجب أن يسمع بالحادث كل من في الميناء، وخاصة العمّال، هذا يفتح عيونهم أكثر، أنت في الموقف الصحّ.

قلت:

ـ أنا مسرور لأنني في الموقف الصح، ومسرور أكثر لأنني أسمع هذا الكلام منك.

همس وهو يتركني:

ـ المعلم رضا قادم نحوك. لا تثق كثيراً به. لا تأخذ وتُعطِ معه. لا تذكر اسم العجوز أمامه.

قلت مستغرباً:

ـ ولكنه المعلّم رضا!

قال:

ـ أعرف. عندما لا تكون هناك مشكلة، يستفيد المعلّم رضا من فضيحة المعلّم البطحيش، من فشل منافسه هذا في اغتيالك، أما عندما يتعلق الأمر

بالعمّال، فإن المعلمين يقفون جميعاً في صفّ واحد، ومع العجوز مباشرة.

استدرت بحركة عفوية. تظاهرت أنني فرح بلقاء المعلّم رضا. مشيت نحوه. قلت:

ـ أهلاً بالمعلم.

قال:

ـ سمعت بما جرى في المقهى.

قلت متجاهلاً:

ـ وماذا جرى؟

ابتسم. قال وهو يطبطب على كتفي:

ـ قل هذا الكلام لغيري. لماذا تنكر أن زلم المعلم البطحيش حاولوا غتيالك ليلة أمس؟

ـ لا أريد اتّهام أحد ولا الادّعاء على أحد.

ـ أما أنا فأريد.

ـ أنت وما تريد إذن.

ـ ألا تريد إقامة دعوى؟

ـ لا أريد إقامة أيّ دعوى.

ـ هذا ليس في مصلحتك.

قلت:

ـ أنا ليست لي ... مصحة خاصّة. مصلحتي هي مصلحتك. لكنني لن أقيم دعوى، يجب أن يعرف المعلّم البطحيش أنني لست من جماعة الدعاوى، ولا من الذين يشتكون، ولا من الضعفاء الذين يأخذون حقّهم عن طريق المحاكم.

قال المعلّم رضا:

ـ أفهم ما وراء كلامك. تريد أن تأخذ حقّك بيدك.

ـ ليس لي أيّ حق، عند أيّ إنسان.

ـ هذا شأنك. سنرى. تصرّف كما تريد. لكن تصرّف بشكل جيد. لا تنسى أنك محسوب عليّ، أنت من فرقتي.

ـ لن أنسى أنني من فرقتك.

ـ ولأنك من فرقتي، أترك الشغل وعد إلى البيت.. الشمس تضرّ الجروح.

ـ أنا لا يضرّني شيء.

ـ بل تضرّك الشمس، لكنك معتدّ بنفسك. معتدّ إلى درجة الغرور. انتبه! الغرور لا يفيد في كل وقت.. ضع هذا في رأسك. أنا ذاهب مع اللنش إلى الباخرة. يجب أن ألقي نظرة على ما يجري هناك.

ذهب المعلّم رضا. أحسست أنه راضٍ وغير راضٍ. راضٍ ما دمت في وجه خصمه المعلّم البطحيش، وغير راضٍ لأنني معتدّ بنفسي. كان يظنّني خروفاً فإذا أنا ذئب. كان يطمع في بقائي من رجاله، فإذا أنا رجل نفسي، هذا لا يوافقه. إنه يراقبني. يعرف علاقتي ببرهوم، وبحسن الدفش، ويقدّر أنني لن أبقى خاضعاً لسلطته، وأن كل يوم يمضي أزداد رسوخاً في الميناء، وأنه قد لا يستطيع، في وقت قريب، أن يقتلعني منها كما يقتلع رأساً من الشوندر.

عدت إلى العمل. ازددت عناداً في البقاء على رأس العمل. لم أهتم كثيراً برضى أو غضب أحد. اكتشفت طريقي الخاص. وفي طريقي الخاص سأمشي. إذا وثق بي برهوم وجماعته سأكون معهم، وإذا لم يثقوا بي فلن أخونهم. لن أقف ضدّهم، ولن يكون في وسع أحد أن يرغمني على ...قوف ضدّهم. هذا قراري، وهو قرار نهائيّ. أنا في الميناء، وسأقاتل ...بقى في الميناء. أقاتل وحدي عند اللزوم، لكنّني، على الأرجح، لن أقاتل ...حدي، هناك عمّال سيقفون إلى جانبي. رأيت هذا اليوم في عيونهم. إنهم

مني، وأنا منهم، أنا لست رئيس وردية، ولا أتصرف تصرّف رئيس وردية، وهذا ما يضعني في صفّهم، أو في الموقف الصحّ، كما قال برهوم.

تلقّيت، دون انتباه، ضربة ناعمة على كتفي. التفت. هذا هو الزلقوط! كنت أتوقع أن يأتي الزلقوط. حدسي قال لي إنه سيأتي، وها هو يأتي. إنه يتشمّم الأخبار، يلتقط ما يسمع وينقله إلى المعلّم البطحيش. يقوم بدوره الخبيث ذاته، دور الدسّ، والوشاية، والكذب. لكنه معي لن يكون قادراً أن يمارس أيّ دور، لا خبيث ولا طيب. ليذهب ويؤجّر مؤخرته لغيري، أنا لا أستأجر مؤخرة أحد في الميناء، وأنا لا أخشى الزلقوط. لا أخشى كل الزلاقيط، وسألوي رقبته، سأرميه في البحر، كما فعلت بحسّون، إذا ما ضايقني بحشريته.

ـ نعم! قلت له بغير ترحيب.

ـ عوافي.

ـ الله يعافيك.

ـ المعلم البطحيش عند العجوز.

قلت بجفاء:

ـ وما علاقتي أنا؟

ـ علاقتك أن العجوز يطلبك.

ـ وماذا يريد مني؟

ـ ومن يعرف؟

قلت:

ـ أنا أعرف.

قال:

ـ إذن أنت منجّم.

قلت:

ـ أنا منجّم لأني ابن أبيه، وليس مثله ابن أمه.

ـ أنت تشتمني إذن؟

ـ أنا أريدك أن تبتعد عني. العب لعبتك القذرة مع غيري.

ـ أنا لا ألعب لعبة قذرة. أنا رسول العجوز. قلت لك: «العجوز يطلبك».

ـ وأنا سمعت ما قلت!

ـ وبعد السمع؟ تأتي أو لا تأتي؟

ـ هذا ليس من شأنك. إذهب وقل له إنني تبلّغت الدعوة.

ـ العجوز لا ترضيه هذه اللهجة. انتبه. أنا ذاهب.

ـ إذهب وافعل ما شئت.

ذهب الزلقوط. ذهب ابن العاهرة. فكرت: «ما هو الخازوق الجديد الذي يُنجّره لك العجوز يا مفيد؟ إذا كان المعلّم البطحيش عنده، فمعنى هذا أنه ملأه حقداً عليك. صوّر الأمور على كيفه. ادعى أنني أنا الذي تحرّشت بزلمه. جعل نجّود يتراجع عن إفادته، وبمساعدة العجوز، تصبح أنت المعتدي، ويسجّل هذا في محضر الشرطة. . أما المحضر الذي كتب ليلة أمس، فانه يمسح به قفاه، أو يمزّقه ويلقيه في وجه الرقيب الذي نظّمه. العجوز هو الشرطة، وقائد الشرطة، والمحافظ، ووزير الداخلية، والوزراء، ورئيس الوزراء، هو الدولة كلّها. وأنت، يا مفيد، لا تستطيع أن تقاوم الدولة كلها».

تحاملت على نفسي وذهبت إلى العجوز. كان لا بدّ من الذهاب فذهبت. صرت أعرف الطريق إليه، وأعرف أن الزلقوط أبلغه ما قلته له. هذا سيجعل العجوز يخرج من ثيابه، يتنمّر، يرغي، يزبد، وربما يقتلني برصاصة، ويلقي بجثتي في البحر، وبعد ذلك تقيّد الحادثة ضد مجهول!

كان باب غرفة العجوز مفتوحاً. مع ذلك نقرت على الباب. كان الزلقوط في الغرفة، وكان فيها المعلم البطحيش. ألقيت السلام دون أن

أتوقع رداً من أحد. لكن العجوز ردّ السلام، وقال للزلقوط:

ـ اذهب. فهمت. قلت لك فهمت. اذهب وأغلق الباب وراءك، وقل لهم لا أحد يدخل عليّ.

ذهب الزلقوط. أغلق الباب، بقيت واقفاً. انشغل العجوز عنّي بالبحث عن شيء في درج المكتب، ولما رفع رأسه قال لي:

ـ اجلس يا ابن أخوي، اجلس.

جلست. تفرّست في الغرفة. انتظرت. طال انتظاري، عثر العجوز على الورقة التي كان يبحث عنها، إلتفت إليّ، قال:

ـ من فعل بك هذا يا ابن أخوي؟

قلت:

ـ أنا فعلته بنفسي. وقعت في حفرة.

قال:

ـ ولماذا لم تأت إليّ بعد وقوعك في الحفرة؟

ـ لأن الوقعة بسيطة، ولا داعي لإزعاجك.

ـ فهمت. أردت إزعاج الشرطة بدل أن تزعجني.

ـ . . .

قال:

ـ سمعت بما جرى. محضر الشرطة عندي. نجّود ابن كلب. كاذب. وأنت صدقته.

قلت:

ـ لم أصدّقه ولم أكذبه. سلّمته للشرطة وخرجت. ليس لي دعوى على أحد، ولم أقل عن الحادث شيئاً لأحد.

قال وهو يحدّق فيّ بعينيه الصغيرتين، اللامعتين، دون أن يبدو عليه أي انزعاج:

ـ اعرف يا ابن أخوي. سمعت. أنت رفضت الكلام، وأنا طلبتك لأنك رفضت الكلام، لكن الخبر انتشر. الميناء كلّها سمعت به.

قلت:

ـ هذا ليس ذنبي.

قال:

ـ صحيح. هذا ليس ذنبك. لكن لماذا رفضت الكلام؟

ـ لأن المسألة تافهة.

ـ همّ! المسألة تافهة.. يحاولون قتلك وتعتبر المسألة تافهة؟ ما هي المسألة المهمّة في نظرك؟

ـ . . .

قال:

ـ لماذا أنت ساكت؟ تكلّم يا ابن اخوي. المعلّم يوسف له علاقة بالموضوع.

قلت:

ـ المعلم يوسف لا علاقة له بالموضوع.

قال المعلم يوسف البطحيش:

ـ هذا النذل نجّود اتّهمني. ادّعى أنني دفعته لقتلك.

قلت:

ـ وأنا لم أصدقه.

قال العجوز:

ـ سمعت يا يوسف؟ مفيد لم يصدق أنك الدافع. ثم لماذا تكون أنت الدافع؟ هل هناك عداوة بينك وبين مفيد؟

قال المعلم يوسف:

ـ سوء تفاهم قديم.

قال العجوز:

ـ أعرف سوء التفاهم هذا. سمعت به. إنه سوء تفاهم بسيط، ولكن ليس بينك وبين ابن أخوي مفيد.

سوء التفاهم كان بينك وبين المعلّم رضا.

قال المعلّم يوسف:

ـ ثم تصالحنا وانتهى كل شيء. لكن مفيد تدخل في الذي لا يعنيه. تعارك مع جماعتي.

قال العجوز:

ـ وسُجن شهرين بسبب ذلك.

قال المعلم يوسف:

ـ أنا لا دخل لي في سجنه. المحكمة هي التي حكمت. ثم لم يكن وحده الذي حكمته المحكمة. رجالي أيضاً سُجنوا بسبب تلك المعركة. وبعد ذلك نسيت الحادث. لكن مفيد يتحدّاني. شف يا عمي، أنا المعلم البطحيش، ابن هذا الميناء، ابنك، ويتحدّاني عامل من عمالك.. لكن ماذا أقول؟ مفيد معذور، لا يعرف من أنا.

قلت:

ـ أنا أعرف من أنت يا معلّم يوسف.

ـ ورغم ذلك تقف في وجهي؟

ـ أنت الذي تضع نفسك في وجهي. أنت تطلب رأسي، لكن رأسي ليس رخيصاً.

قال العجوز:

ـ وما هو ثمن رأسك يا ابن أخوي؟

ـ لم أضع له ثمناً بعد.

ـ وفي المستقبل؟

ـ حين يأتي المستقبل نتكلم فيه.

قال العجوز:

ـ هذه لهجة جديدة يا ابن أخوي.. لهجة جديدة كما قال الزلقوط.

قلت:

ـ لست أنت المقصود بها يا عمّي.

ـ إذن المعلّم يوسف.

ـ ولا المعلّم يوسف.

ـ يعني المسألة منتهية.

ـ كما تريد، اعتبرها منتهية.

ـ ومحضر الشرطة لا لزوم له؟

ـ محضر الشرطة لا لزوم له.

ـ وتشتغل معي؟

ـ أنا أشتغل عندك.

ـ يعني أنت مرتاح في شغلك؟

ـ لا أشكو من شيء بوجودك.

ـ إذا اشتكيت من شيء تعال إليّ.

ـ سآتي.. عندما تكون عندي شكوى سآتي.

ـ معنى هذا أنك لن تأتي؟

ـ ولماذا لا آتي؟

ـ لأنك لا تحبّ الشكوى.

ـ من قال هذا؟

ـ النورس. طير النورس. ألا تعرف طير النورس؟

ـ أعرفه.

- إذن هو الذي أخبرني. . أنت تفضل أن تأخذ حقّك بيدك.
- أنا لم أقل هذا أبداً يا عمّي.
- أنا فهمته دون أن تقوله يا ابن أخوي. عمّك يفهم بالإشارة. . اذهب إلى شغلك. المعلّم يوسف سامحك. ألا تسامحه يا معلم يوسف؟

قال المعلم يوسف.
- أسامحه. .

قلت في نفسي: «جميل هذا! جميل هذا والله! دهاء، دهاء بعيد. يرسل المعلم البطحيش زله لاغتيالي، ويعرف العجوز أنه أرسل زله لاغتيالي، ويعترف المعتدي، وتحقّق الشرطة، ثم يُمزّق محضر الشرطة، وتنقلب الأمور. أصبح أنا الجاني، والمعلّم يوسف هو المجنيّ عليه. أصبح أنا من يطلب العفو وهو من يعفو عني، من يسامحني. يقول له العجوز: «سامحه يا معلم يوسف. . ألا تسامحه؟». ويتفضل المعلّم يوسف فيقول «أسامحه!» وتنتهي المهزلة فأخرج. أخرج محرور العينين، كأن خشبة دخلت فيهما. أنا لم أبك، ولكن لم أضحك. كنت محتاراً، لا أعرف هل أبكي أم أضحك، فقد لعب العجوز لعبته بمهارة، بذكاء حادّ، قلب الأمور قلباً، أدار الدفّة من اتّجاه إلى اتّجاه، وضع المركب في مجرى الريح التي تؤاتيه».

أكملت العمل دون نفس. بقرف. بسخط على نفسي أولاً، وعلى الميناء والدنيا ثانياً. قذارة! هنا القذارة! رائحة ملح وقطران وعفن، رائحة غدر وتدليس وتهديد، رائحة فم مريض، تتقزّز منها، لكنك مضطرّ إلى احتمالها، دون أن تدري كيف، ولماذا، ومن هو صاحب هذا الفم، وهل هو فم إنسان، أم فم حوض الميناء، الذي تعوم عليه بقع الزيت والأخشاب والنفايات الكريهة؟.

أنا لم أكن جباناً. لم أتزلّف إلى العجوز. لهجتي كانت لهجة غريبة. تعمّدتها. سقتها مباشرة. فطن لها، أدركها، وكان سيدركها حتى لو لم

«مصح عنها. . وماذا كان جوابه؟ ذكّرني بالزلقوط. وبحركة مباغتة وضع رأسي في البازار. وضعه في المزاودة أو المناقصة، لا فرق، عرضه للبيع والشراء، قال: «ما هو ثمن رأسك يا ابن أخوي؟» تصوّروا هذا التهديد، في هذا القالب من النعومة: «ما هو ثمن رأسك؟» وبعدها مباشرة «يا ابن أخوي» فبماذا أجيبه؟ لا تهتمّ يا مفيد. لا تتوقّف عند السؤال والجواب. جوابك كان جيّداً، كان ملائماً، في موضعه تماماً، لكن مثل هذا الجواب لن يبقى دون عقاب. عليّ أن أنتظر العقاب. لا بأس! سأنتظره. العجوز عرف الآن ما في داخلي. بل كان يعرف قبل دخولي عليه ما في داخلي، واحتمَلَه، لم ينذرني، لم يطردني من الميناء، وبصورة غير متوقّعة، عرض عليّ أن أعمل معه، فلما قلت له: «أنا مرتاح في عملي» كان ردّه تغيير مجرى الحديث. داهية!.

عدت إلى البيت أكثر انزعاجاً من ليلة أمس. ليلة أمس خضت معركة مكشوفة: رصاص، عصيّ، سكاكين. واليوم خضت معركة مستورة. سلاحها الكلمات والحوار المبطن تارة، والمعلن تارة أخرى. ناب إفعى! والناب فيه سمّ، والحوار كان مسموماً. لكنني لم أبلع الصنّارة، ولم ألتقط قطعة اللحم. لم أكن كلباً ولا وغداً، كنت أنا، وأنا الآن ضيّق الصدر، لماذا يا مفيد أنت ضيّق الصدر؟ خائف؟ آسف؟ دائخ؟ لعبة الميناء دوّختك؟ أم أن وجع أضراسك هو الذي جعلك في حالة عصبيّة؟ بسيطة. تخلع الضرس وينتهي الأمر.

جرعت جرعة عرق لتطهير الضرس وتخديره. تناولت «البنسة»(1) من فوق ظهر الخزانة وطهّرتها بالعرق. وقفت أمام المرآة وأدخلتها في فمي. ترك! وإذا الضرس المخلوع في «البنسة». دم! انخلع الضرس أم انكسر؟ لا أعلم. رفعت زجاجة العرق وتناولت جرعة كبيرة تمضمضت بها،

(1) الكماشة.

جلست على الخوان، قمت إلى المغسلة، دم! جرعة عرق أخرى. دم آخر. جرعة أخرى لوقف الدم، والوجع هو ذاته. أخطأت. قلعت الضرس السليم. لا عليك يا مفيد، العرق موجود والبنسة جاهزة. جرّبت مرة أخرى، وها هو ضرس آخر في البنسة. عرق ودم، دم وعرق، ولبيبة تضرب رأسها بقبضتيها صائحة:

ـ ماذا تفعل؟

ـ قلت:

ـ لا شيء. قلعت ضرساً منخوراً.

ـ لكنك فعلتها مرتين.

ـ قلعت ضرسين. أخطأت في الضرس المنخور. قلعت السليم في المرة الأولى.

ـ أنت مجنون؟

ـ كنت هكذا دائماً. أنا مجنون وأنت تعرفين.

ـ تقلع أضراسك بالبنسة؟

ـ كل أضراسي قلعتها بالبنسة، كما يفعل الطبيب تماماً.

ـ ولكن بنسة الطبيب نظيفة، معقّمة.

ـ وأنا عقمت البنسة مثله.

ـ ألا تخاف أن يلتهب الجرح؟

ـ عقّمت الجرح أيضاً.

ـ يعني لن تذهب إلى الطبيب؟

ـ سأذهب لأفتح زجاجة أخرى من العرق.

قالت:

ـ اذهب وافتح الباب.. ألا تسمع الطرق على الباب؟

أنصتّ. كان الباب يطرق طرقاً خفيفاً. قلت في نفسي: «وصل رسول

العجوز. العجوز لا يتأخر في تبليغ رسائله. هذه واحدة منها. تلقَّ الهدية يا مفيد! استعدّ لتلقّي أمثال هذه الهدايا دائماً، فالعجوز كريم، وأنت، يا ابن أمك، تستحقّ».

سرت إلى الباب متمهّلاً. فتحته وفي عيني شرّ. مفاجأة! برهوم على الباب.

صحت:

ـ أهلاً!

دخل برهوم وألقى تحية المساء. قال:

ـ أغلق الباب وراءك.

قلت:

ـ هناك من يطاردك؟

قال:

ـ لا أحد يطاردني. لكن عيون العجوز كثيرة.

ـ حتى خارج الميناء؟

ـ حتى خارج الميناء.

ـ أنت تحذر أكثر من اللزوم.

ـ تظنّ ذلك؟

ـ أظنّ؟ أعتقد أيضاً.

ـ أنت لا تعرف كيف يلعب العجوز إذن. لم تتقن أصول اللعبة مثلنا نحن العمّال القدامى.

قلت مازحاً:

ـ العجوز يعلّمني أصول لعبته على مراحل.. اليوم وصل معي إلى مرحلة جديدة.

قال برهوم:

ـ ومن أجل ذلك جئت. العجوز عرف ما دار بيننا على ظهر الطلياني، عندما حلق سلك التصبينة رجل راتب.

ـ كنت أنت منفعلاً من أثر الحادث. تكلمت بصوت عال. عال أكثر من اللزوم. كأنك تتعمّد أن يسمعوا ما تقول، وينقلوه إلى العجوز.

قال برهوم ونحن نجلس على الخوان:

ـ نعم تعمّدت ذلك.

أضاف:

ـ علينا، من حين إلى حين، أن نجعله يسمع أصواتنا، هذا ينفعنا.

ـ ينفعكم بماذا.

ـ بإقلاق راحته.

ـ لكنه يفشي سركم.

قال برهوم:

ـ وصلنا، يا مفيد، الى المرحلة التي سنفشي فيها سرّنا بأنفسنا.

ـ مجابهة إذن؟

ـ مجابهة قريبة.

ـ محسوبة؟

ـ بقدر المستطاع.

ـ ألا تخافون الفشل؟

ـ الفشل محتمل، والنجاح محتمل، ما كلّ إضراب ينجح، ولا كلّ مظاهرة تحقّق المطالب.

ـ أنتم تلعبون بالنار.

ـ نحن في قلب النار.

ـ الى هذه الدرجة؟

ـ وأكثر.. حدّثني، ماذا جرى اليوم، ما هو الحديث الذي دار؟ المعلّم يوسف يزعم أنه أخضعك، وأنك طلبت السماح منه.. هل هذا صحيح؟

قلت:

ـ لنأخذ كأساً أولاً. نتناول لقمة، وبعد ذلك نتحدّث،

قال برهوم:

ـ الكأس نعم، أما اللقمة فلا: لست جائعاً. سأشرب نخب نجاتك. نجاتك كانت أعجوبة. كم رصاصة أطلقوا عليك؟

ـ رصاصات كثيرة. رصاصات طائشة، لم يسدّدوا جيّداً. الظلمة، في الكهوف، كانت شديدة. هي التي حمتني. كانوا جبناء، رغم أنهم محترفون. حظّ!

قال برهوم:

ـ لا حظّ ولا بلّوط. عندما أطلقوا عليك حسبوك أُصبتَ. هجموا عليك للإجهاز. أرادوا الإجهاز عليك، فإذا أنت قطّ بسبع أرواح... ولك أظافر مثله. كأسك!

شربنا، شربت بلذة. ما أطيب الشراب بعد يوم من العمل، والنكد، والحوار مع العمال، والمعلّم رضا، والعجوز، والمعلّم البطحيش، والأسئلة والأجوبة، ونشفان الريق، لا من الخوف، بل من الاشمئزاز، لأنك، يا مفيد، تعرف أن الذي تحاوره يقول غير ما يضمر، وتحت حلاوة لسانه، مرارة كيده، فهو نمر، لا تدري متى ينقضّ عليك، وإن كنت على يقين أنه سينقضّ، وأن كل كلمة تفيده، فعليك بالحذر، والمداراة، وإمساك اللسان، وعدم التسرّع بالجواب، بينما هو حرّ. هو سيّد. هو حاكم. يقول ما يريد، وكيف يريد، ولا يتحرّج، لأنه غير ملزم بكلامه، ولا تترتّب، بالنسبة إليه، أيّ مسؤولية على هذا الكلام. اليوم فهمت معنى الدهاء يا مفيد، وقسوته. المصيبة أنك تعرف أنه دهاء، لكنك لا تستطيع حياله إلا

هزّ الرأس بالموافقة، والابتسام، في حين أنت، من الداخل، كئيب بسبب هذا الموقف المهين، الذي تعرف أنه مهين، وتتقبّله مرغماً.

الماء يطفىء النار. البارد يخفّف الحارّ. العرق ينعش بعد يوم من التعب النفسي، تعب وجودك في مجلس لا يروقك، لكنك تتحمّله، وزيادة في القهر، تتظاهر بأنك مسرور فيه، ويسعدك أن يدوم، في وقت تريد فيه أن ينتهي الأمر، لتفرّ إلى أقرب خمّارة، فتشرب، وتشرب، وتشرب، لتنسى ما كان، صار، ما جعلك ذليلاً، دون أن تسمح لنفسك، برفض الذلّ، والصر كفى! إنني أرفض لعبة القطّ والفأر هذه.

همومي، قرفي، ندمي، شعوري غير المريح، غير المشرف، غير المقبول، من موقف كنت لا أقفه، لو كنت في وضع آخر، وظروف أخرى، وكان عليّ أن أبصق البحصة، وأقول كل ما في قلبي، وأخوض معركتي الأخيرة.

هذه الأشياء قلتها لنفسي، وقلتها لبرهوم، ونحن نشرب. كان برهوم شرّيباً ممتازاً، جليساً نادراً، تحلو معه المنادمة. كان يصغي، يبتسم، يعبس، يمتعض، فأشعر أنه معي، وأنه يتابعني، وأنه يحاول أن يستنفد كلّ ما عندي، كل ما دار بين العجوز والمعلم البطحيش وبيني. حتى الجفاء الذي أظهرته للزلقوط توقّف عنده. استعادني، أكثر من مرة، من شرودي، أو شططي، وأرجعني الى النقطة التي يريد أن يتفهّمها جيّداً، حين كنت أقفز عن هذه النقطة، لاعتقادي أنها غير مهمة.

اصغى إلى أن توقّفت عن التفكير والكلام. كنت أفكر وأتكلم، وعندما أنهيت كلامي، أو توقّفت لاعتقادي أنني قلت كل ما عندي، أبدى هذه الملاحظة:

ـ أنت عصبيّ أكثر من اللازم، لأنك مستعجل أكثر من اللازم.

قلت:

ـ ممكن.. والسبب أنني قرفت. لم تعد عندي طاقة على الاحتمال.

ـ هذا لأنك غير معتاد. لم تجرّب ما جرّبنا من صبر، وهو الشرط الأول للعمل النقابي. قصدت العمل في سبيل إنشاء نقابة، وتحقيق مطالبنا كعمال.

ـ ربما، أنا لا أجادل، لا أفهم في هذه الأمور.

قال:

ـ عليك أن تتعلّم. أنت شجاع. هذا واضح، لكن ما قيمة الشجاعة عند التهوّر!

ـ أنا غير متهوّر.

ـ وموقفك من الزلقوط؟ من هو الزلقوط؟ ماذا يعني بالنسبة إلينا؟ لا شيء. اما أنت فتعتبره شيئاً، تريد أن تفعل به مافعلت بحسّون، كي تظهر شجاعتك، وتجعل الميناء تعرف أنك شجاع، وتعترف بذلك.

قلت:

ـ هذا الذي حدث، وأنا غير نادم.

قال:

ـ الندم يفيد في حالة واحدة: أن لا نكرّر الخطأ.

ـ أنا لا أعتبر تأديب ساقط مثل الزلقوط خطأ.

ـ الخطأ أنك تبدأ المعركة مع العجوز قبل أوانها.

قلت:

ـ الزلقوط غير العجوز. أنا لم أبدأ المعركة مع العجوز.

ـ مع ذلك قال لك العجوز «هذه لهجة غريبة، غريبة كما أخبر الزلقوط».

ـ وماذا يعني ذلك؟

- يعني أن العجوز يرسل إليك من يختبرك.
- اليوم اختبرني بنفسه.
- وكيف خرجت من الاختبار؟
- خاسراً.

قال برهوم:

- اليوم خسارة وغداً ربح، وبعد غد خسارة وبعده ربح. العجوز يريد إخضاعك.

قلت:

- أعرف ذلك. عرض عليّ أن أشتغل معه أيضاً.
- كان هذا لجسّ النبض.
- كيف؟ ألم يكن جادّاً؟
- ولماذا لا يكون جادّاً؟ أنت أظهرت شجاعة، وهو يبحث عن الشجعان ليضعهم تحت باطه، ليجعلهم من رجاله. بهذا يضمن أن لا يكونوا من خصومه. وشعاره في ذلك: «كلب يعوي معي أفضل من أن يعوي عليّ».
- لكنني لست كلباً. سيعرف أنني لست كلباً. ولن أعوي معه. لن أكون زلقوطاً آخر.
- قال:
- هو لا يريدك زلقوطاً آخر. هو أذكى مما تظنّ. لديه من الرجال أنواع. كلّ رجل في خانة، وكل خانة لها حساب، لها يوم. وقد تمضي شهور ولا يطلب منك شيئاً. ثم فجأة يقول لك: «اقتل هذا. أغرق ذاك في البحر، تحرش بهذا العامل أو اضرب ذاك». فاذا نجحت تكون قد حقّقت ما يريد، وإذا فشلت، أو انكشفت، أو قُبض عليك، تدفع الثمن وحدك، حتى لو كان الثمن رأسك.
- لكنه، كما سمعت، يدافع عن رجاله.

- يدافع إذا ظلّ هو بعيداً، لا علاقة له بما جرى، أما إذا وجد أحد رجاله يغرق، فانه يدير ظهره ويدعه يغرق. ولو ارتكب أحدهم جريمة وشُنق لأجلها، فإنه مستعدّ أن يقول: «يستحقّ!». ثم يشرب قهوته وناركيلته وينسى، كأن الأمر لا يعنيه.
- هذا غريب! كيف يفعل ذلك وهو يفكّ المشنوق من حبل المشنقة؟

قال برهوم:

- يفعل ذلك حين تكون له مصلحة. العاطفة، الصحبة، «ابن أخوي»، هذه كلّها مظاهر وكلمات. حين يقتل أحد رجاله خصماً له وينكشف، يُنكر القتيل والقاتل، يتخلّص منهما معاً، وبعملية واحدة.
- أنا رفضت العمل معه على كل حال. قلت له: «أنا مرتاح في عملي».
- وهو فهم أنك لا تريد أن تكون من رجاله، مع أن هذا «شرف» كبير لا يمنحه بسهولة.

قلت:

- أنا أريد أن أكون عاملاً، ومع العمّال.
- والعجوز وضعك على قائمة العمّال منذ الآن، قال لك: «إذا اشتكيت من شيء تعال إليّ..» وعندما قلت له: «عندما تكون لديّ شكوى سآتي» أجابك فوراً «معنى هذا أنك لن تأتي!».

أضاف: «أنت تحبّ أن تأخذ حقّك بيدك» وأن النورس أبلغه ذلك. تعرف من هو هذا النورس؟

- من؟
- المعلّم رضا.
- لا أصدّق..
- صدّق وأنت مرتاح.
- ولكن المعلّم رضا يحبّني.

ـ ليس في الميناء حبّ وبغض، في الميناء مصلحة.

ـ وما هي مصلحة المعلّم رضا في هذه الوشاية؟

ـ أن يبيّض صفحته عند العجوز، أن يؤكد له إخلاصه، أن يدسّ على عامل يمكن أن يجلب لـه المتاعب يوماً. هـذا يفيده في المنافسة مـع المعلّم البطحيش.

قلت:

ـ أنا لا أصدق أن المعلم رضا يرتكب هذه النذالة.

ـ أنت تعتبرها نذالة، والمعلّم رضا يعتبرها نقطة لصالحه.

ـ وخصومته مع المعلّم البطحيش؟

ـ هـذه مسألـة أخرى، لهـا حساب آخـر. المعلّم البطحيش أرسـل زلمه لاغتيـالك، وفشـل هؤلاء الزلم، فـانكشف المعلم البـطحيش، انفضـح في الميناء كلها، وهذا لمصلحة المعلم رضا، لكنه لمصلحة العجوز أيضاً.

ـ وما هي مصلحة العجوز في هذا كلّه؟

ـ إخـافـة المعلم البـطحيش. تحميله منّـة أنـه أنقـذه حين مـزّق محضر الشرطة، وحين جعلك تطلب السماح منه.

ـ أنا لم أطلب السماح من المعلّم البطحيش.

قال برهوم:

ـ هذا لا يهمّ. أنت لم تطلب السماح من الذي حاول قتلك. إنه شيء يمسّ كرامتك، ولن تفعله لـو طلب العجـوز منـك ذلـك، لكن العجـوز بدهائه، حفظ لك كـرامتك شخصيـاً، ثم حقّق غرضـه: طلب من المعلّم البطحيش أن يسامحك، فتفضّل المعلّم البطحيش وقال: «أسامحه» والنتيجة واحدة. العجوز انتصر. انتصر مرتين. الأولى حين أخرج المعلم البطحيش من ورطتـه، والثانيـة حين جعلك تخضـع لإرادته فتتقبّل أن يسامحـك هـو الذي أراد قتلك.

قلت:

ـ كل هذا أعرفه، فهمته. أنا لست غبياً بعد كل شيء.

قال برهوم:

ـ أنت لست غبيـاً بعـد كـل شيء، أو قبـل كـل شيء، ليس هـذا لبّ المسألة. لبّها أنك ستواجه المصاعب بعد اليوم، أكثر من الأول. سيعاود المعلّم البطحيش محاولة الانتقام منك، وسينظر إليك العجوز بعين الشكّ، ولن يرتاح المعلّم رضا إلى علاقتك بي، أو بحسن الدفش، أو بأيّ عامل، في أيّ فرقة، له علاقة بموضوع النقابة.

قلت:

ـ لو كان العجوز يشك فيّ لطردني من الميناء.

ـ العجوز يعرف عـلاقتك بنـا، ويعرف أننـا لن نسكت، ويحرص عـلى المظاهر، إنه يحزر ما تركـه قطع رجـل راتب من أثر بـين العمال، ويحزر ما سيتركه اعتداء المعلم البطحيش من غضب، ويريد امتصاص النقمة. يريد تهدئة الخواطر، ولهذا لم يطردك، ولهذا دفع مصاريف المستشفى عن راتب، وهو يفعل أكثر من ذلك، يرسل معونات إلى العـائلات الفقـيرة، المستورة. لكنـه لا يفعل كـل هـذا لـوجه الخير. لا تفهم من كـلامي أنه بخيـل. بـالعكس، إنه كـريم، لكنه يستغـلّ كرمـه، يدفـع واحداً بـالمئة، ليحتفظ بـالـ ٩٩ بالمئـة، يحرص عـلى الظهـور بأنـه أبو الميـنـاء وأبو الفقـراء أيضـاً. يتسـاهل في الأمـور الصغيرة، التي لا تكلّفـه شيئاً، أو تكلّفـه شيئاً قليـلاً، ويتشدّد في القضايا الكبيرة.

أضاف برهوم بعد وقفة:

ـ تعرف ما هي قضيـة القضايـا بالنسبـة إليه؟ إنها النقـابة! النقـابة تعني وعي العمّال، وحدتهم، مطالبتهم بحقوقهم، منافستهم له في سلطة الميناء

قلت:

ـ لكن العمّال لا ينافسونه في سلطة الميناء. النقابة لا تطالب بإزاحته عم مركزه.

قال:

ـ النقابة حين تتألف، وتعترف بها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، تصبح هيئة معترفاً بها. يصبح لها حق في إبداء الرأي في الأجور مثلاً، وفي ساعات العمل، وفي التسريح الاعتباطي، وغير ذلك، وهو، العجوز يعرف أن هذا سيكون انتقاصاً من سلطته، من تفرّده بالرأي، من إدارته أعمال الميناء على كيفه، على مزاجه، ثم هو يحسب حساب المستقبل، النقابة خطر عليه في المستقبل.

قلت:

ـ في هذه الحال مستحيل أن يسمح بوجود نقابة للعمّال في الميناء.

ـ من جهته مستحيل، ومن جهتنا ممكن. كل النقابات، في كل المهن، قاومها أرباب العمل في البدء، ثم سلّموا بالواقع. هكذا تقوم، في البلاد، نقابة بعد نقابة، لكنها لا تقوم بسهولة، ودون ثمن. تقوم بالنضال، عن طريق الإضراب. والتظاهر، والسجن، والاصطدام بالشرطة. الحكومة، في هذا الموضوع، مع أرباب العمل، لكن العمال يتكاثرون، الطبقة العاملة تتكوّن، تصبح واعية لنفسها وحقوقها.

فكرت: «برهوم مُطّلع مثل عبد الجليل وأكثر. ترى: يعرف عبد الجليل؟ يعرف إبراهيم الشكل والأستاذ ماهر، سمع بهم؟ سُجن مثلهم؟ أم أن المسألة مصادفة؟ أم هناك، في المدينة، أمثال عبد الجليل كثيرون، وأنهم موجودون في الميناء، وفي الريجي، وفي كل مهنة، وكل شركة»؟

سألني برهوم:

ـ لماذا صفنت؟ بماذا تفكّر؟

قلت من فوري:

ـ لا شيء، لا شيء، ما تقوله عن الميناء جديد عليّ.

ـ جديد أم مخيف؟

ـ أنت تعرف أنني لا أخاف، لكن الميناء هذه عجيبة، كأنها مملكة خاصة، يحكمها ملك خاص، ملك ليس كسائر الملوك الذين نسمع عنهم في الحكايات.

قال برهوم:

ـ مملكة خاصّة نعم، وملك خاصّ نعم، لكن الممالك جميعها تُحكم بهذه الطريقة، أو هذا ما تقوله الكتب.

«إنه يقرأ الكتب أيضاً. حلو يا مفيد، أنت، إذن، أمام عامل يقرأ، وربما مثل أستاذ مدرسة. لكنه قطعاً ليس مثل المعلّم شعبان، المعلّم شعبان لم يكن يقرأ، لذلك لم يكن يفهم. كان يعلّمنا بالعصا لا بالكتب. ولهذا نفرت منه، كرهته وكرهت المدرسة، وفررت منها، أو طُردت منها، لا فرق. الآن عليك أن تقرأ. قطّع ذنب الحمير شيء، وقراءة الكتب شيء حر. أما هذه الممالك التي يحكي عنها فلا تعنيك. ما يعنيك هو مملكة الميناء، وملكها العجوز، هذا الذي قلت له: «أنا خاتم في إصبعك ثم تريد الآن أن تخرج من إصبعه، لكنك لا تريد أن تدخل في إصبع النقابة، أنت تريد أن تكون حراً، تفعل ما تشاء».

قلت لبرهوم:

ـ اسمع يا صاحبي، العامل هو العامل، والملك هو الملك، وأنا لا أفهم العلاقة بينهما.

قال برهوم:

ـ لا حاجة لتعب الرأس. نحن ليس لدينا ملوك. الملوك ذهبوا،

انقرضوا، الواحد بعد الآخر، وكما ذهب الملوك سيذهب العجوز، مملكته لن تدوم، وظلمه لن يدوم.

ـ ومن يزيلهما؟

ـ نحن.

ـ ومن يضمن أن لا يقوم بدل العجوز عجائز؟

ـ لا أحد. لكن الحياة لا تقف. الشمس كل يوم تشرق وتغرب. دولاب الزمن شغّال. كل شيء يتبدّل. وستتبدل الحياة نفسها، لكنها لا تتبدّل هكذا، من تلقاء نفسها، نحن الذين نبدّلها.

ـ ومن أنتم؟

ـ أنت وأنا والآخرون. نحن الذين أجلينا فرنسا.

ـ كان لي قريب يقول هذا الكلام، وبسبب تحريضه ضربتُ «البريغوته» ودخلت السجن، وأنت تحرّضني الآن، يعني تبشّرني بالسجن من جديد.

قال برهوم ضاحكاً:

ـ هذا إذا لم يقتلك المعلّم البطحيش، أو العجوز، وبقيت سالماً.

ـ السلامة لا تهمّ. كلّه مكتوب على الجبين. المهمّ أن أتصدّى لمن يعتدي عليّ.

ـ لا فائدة إذن. تريد أن تعمل وحدك. فكرة البطل الشجاع تملأ رأسك.

قلت:

ـ أفهم من هذا أنكم تريدون أن تخصوني؟

ـ ولماذا نخصيك؟ نحن لا نتعامل مع الخصيان. ابق فحلاً، شجاعاً ولكن كنْ معنا.

ـ أنا معكم.

ـ ليس بعد. ليس بهذه السهولة. فكّر لكي لا تندم.

ـ أنا فكّرت ولن أندم.

ـ فكّر أكثر.

ـ يعني أنك لا تثق بي بعد؟

قال:

ـ بصراحة. أثق ولا أثق. أثق بأنك لن تخوننا، ولا أثق بأنك تتحمّل العمل الجماعي معنا.

ـ أنا لي ثأر مع المعلّم البطحيش.

ـ وتريد أن تمسح ما تظنّ أنه إهانة ألحقها بك العجوز، حين قلب الموقف بينك وبين المعلّم البطحيش.

ـ كأنك تقرأ ما في نفسي.

ـ نفسك لا تحتاج إلى تعب كبير لقراءتها. أنت دخلت الميناء بقصد أن تكون واحداً من شجعانها.

ـ بل أشجع شجعانها.

ـ وهذا الهدف لن يتحقّق.

ـ سأظل وراءه حتى يتحقّق.

ـ اركض وراءه حتى يتحقّق.

ـ سأصطاد الغيم.

عبس برهوم. تغيّر شيء ما فيه. ترك اللطف. وضع وجهاً آخر بدل وجهه الذي كان منذ قليل. كلّمني بجفاء. بشدة. بلهجة أقرب إلى التعنيف. قال:

ـ الاعتداد حلو لكن الغرور مرّ. قوّة القلب مطلوبة، لكن التهوّر مرفوض.

سكت لحظة وأضاف:

ـ من أين لك كل هذا الغرور؟ كيف تسمح لنفسك بالتهوّر وأنت تريد أن تكون منّا؟

ـ ظلمتني الحياة وأريد أن أنتقم منها.

ـ لا أحد ينتقم من الظلم بهذه الطريقة.

ـ وطريقتكم لا تلائمني. أنتم نمل. تعملون مثل النمل. تنقلون البيدر حبّة حبّة..

قاطعني:

ـ وأنت تريد أن تنقله دفعة واحدة، ولكن كيف؟

ـ بالوقوف في وجه المعلم البطحيش والعجوز. أريد أن أنتقم كما قلت لك، ووحدي.

ـ في ماضيك شيء لا أدري ما هو. تريد أن تنتقم لماضيك، ولكن بطريقة سخيفة.

ـ هذه طريقتي.

ـ إذن لا لقاء بيننا. افعل ما تريد.

ـ زعلت؟

قال برهوم:

ـ ولماذا أزعل؟ إذا كنت تريد الانتحار، وتصرّ عليه، فكيف نمنعك؟ ثم لماذا نمنعك وأنت تركب رأسك؟ مرّ على الميناء أمثالك كثيرون، لكنهم ماتوا ميتة الكلاب، لأنهم عملوا وحدهم.

قلت بنبرة جفاء:

ـ أنا لن أموت ميتة الكلاب. ولا أريد أن أكون متهوّراً. واجهتني ظروف عرفت فيها كيف أضبط نفسي فلا أتهوّر، مع أنني كنت وحدي، لا أحد يوجّهني، ولا أحد يشير عليّ بكلمة. الآن أنا معكم. افهموني: أنا معكم. لكنني أريد البقاء طليق اليدين.

سألني وقد عاد إليه هدؤه.

ـ ونحن نقيّد يديك؟ متى؟ وكيف؟ كل ما نريده أن تتعاون معنا، بشكل من الأشكال.

ـ أتعاون بالشكل الذي يرضيني.

قال ساخراً:

ـ سلامات.. أنت، يا خروفي العزيز، تنطح الصخر بقرنيك.

ـ وأنتم؟

ـ نحن سنقلع الصخر مجتمعين. يد الله مع الجماعة. سنتوصل إلى تأليف النقابة، وتحقيق مطالبنا.

ـ ولكن متى؟

ـ لا أعرف، ولو عرفت لن أقول. رغم أننا نثق أنك لن تخوننا.

قلت:

ـ فهمت منك، في أوّل جلستنا، أنكم ستعلنون ما تريدون قريباً.

ـ نحن نعلن ما نريد منذ سنوات. والعجوز يعرف، لكنه لا يستطيع، أمام تضامننا، شيئاً. الريح ليست في صالحه. بعد جلاء فرنسا تغيّرت الأحوال. العمال، في دمشق، يُضربون، يتظاهرون، ينتزعون حقوقهم. وهم معنا. العمال في دمشق معنا، وكذلك في حلب وكل سورية.

قلت:

ـ وإذا كانت المسألة قريبة فأنا ملتزم معكم.

قال:

ـ وإذا كانت بعيدة؟

ـ أفكر...

ـ ونحن نريدك أن تفكر.. تصبح على خير.

كانت لبيبة تنام على مقعد في غرفة النوم. تنتظر رحيل الرجل الذي لا تعرف اسمه. أنا أخفيت عنها اسمه. قلت: «عامل من الميناء وكفى»

سألت: «لماذا كفى؟ ما ضرورة هذا التكتّم؟ هناك سرّ؟» قلت مدارياً: «ليس لديّ ما أخفيه عنك. أنت شريكة حياتي. وأنت شجاعة، ولا تخرج كلمة من فمك إذا طلبت منك ألّا تخرج. كل هذا أعرفه، ولو كان هناك ما يجب أن تعرفيه لقلته، لكننا كنا نبحث أمور الشغل في الميناء، ومسألة الاعتداء عليّ». لم تصدق لبيبة. جلسة برهوم طالت، وهي كانت وحيدة، في الغرفة الثانية، وقد ملّت ونامت، وحين أيقظتها بدت نزقة، أدركت بحسّ الأنثى أن هناك ما أخفيه عنها، رغبت في الاطمئنان فقط، قالت:

ـ أنت في خطر؟

ـ أيّ خطر؟

ـ الخطر على حياتك طبعاً.

ـ لا خطر على حياتي.

ـ أنت لا تكذب عليّ؟

ـ أنا لا أكذب عليك.

ـ وهذه الجلسة التي طالت؟

ـ كنّا نشرب قليلاً.

ـ كنتما تتحدثان.

ـ كنا نشرب ونتحدث.

ـ كنتما تتحدثان أكثر مما تشربان.

ـ رقابة عليّ يا لبيبة؟

ـ أنا أراقبك؟ أنا أخاف عليك. الاعتداء الذي وقع عليك أمس، وهذا الغريب اليوم، والجلسة التي طالت، والحديث الذي لا ينتهي، ماذا هناك؟ لماذا لا تتكلم؟ وماذا بينك وبين العجوز؟ أتحُطُّ رأسك برأس العجوز؟

ـ لا أحطّ رأسي برأس أحد. كل ما أريده أن يتركوني بسلام.

ـ من هم الذين لا يتركونك بسلام؟

قلت:

ـ يا لبيبة! هذه أمور الشغل. كنا نتحدّث حول الشغل. لماذا تتدخّلين في أمر لا يعنيك؟ لا خطر عليّ. قلت لك لا خطر عليّ. ما رأيك بفنجان من القهوة؟

ـ قهوة في هذا الوقت المتأخر؟ نحن بعد منتصف الليل بكثير. أنت بحاجة إلى النوم.

ـ أنا بحاجة إلى فنجان من القهوة. سنشرب القهوة معاً. ونتحدّث. لا يهمّني النوم، ما دمت معي، وإلى جانبي، لا يهمّني النوم، الحديث معك، على فنجان من القهوة، أفضل لي من النوم. تعرفين كم أحب القهوة، وكم أحبّها معك. معك أنت بالذات.

ـ كنت تحبّ القهوة معي في الصباح، حين تفيق باكراً، أو لا يكون لديك شغل.

ـ أحبّها الآن أيضاً. ومعك. تعرفين كم أنت عزيزة عليّ! وماذا كنت قبلك، وماذا أكون بعدك.

ـ أنا ماذا أكون بعدك؟

ـ لماذا نتحدث وكأننا سنفترق؟

ـ لأننا سنفترق. قلبي يحدّثني بهذا. لن يتركوك بسلام. القطن والشاش ما زالا حول رأسك، وتريدني ألّا أخاف؟

قلت وأنا أنهض:

ـ سأصنع القهوة بنفسي.

اعترضتني:

ـ أنت تتهرب من الجواب بحجّة صنع القهوة. أنا أصنعها. صنعها ليس مشكلة. وضعك هو المشكلة. إنني خائفة عليك.

تركتني على الخوان ودخلت المطبخ. تركتني وحدي، مع أفكاري،

أسترجع كل ذلك الحديث الذي دار بيني وبين برهوم، أتذكّره كلمة كلمة، وفي ضوئه أبحث عن مصيري. ماذا سيكون مصيري؟ أنا في خطر. لبيبة تعرف أني في خطر. تحدس. حدسها صحيح. أريد أن اغنّي موّالي. برهوم عرف نوع هذا الموّال. قال: «أنت تبحث عن الغيم!» قلت: «أريد اصطياد الغيم!». ابتسم: «هذا سراب! البحث عن الانتصار الشخصي، عن الظهور بمظهر الشجاع، والعمل بمفردك، كل ذلك لا يؤدّي إلى نتيجة» كابرت. قلت في نفسي: «يؤدّي» وسيرى برهوم أنه يؤدّي. رغم أنني، في قلبي، معهم. أنا معهم بقلبي، ما عدا ذلك سأواجه الخطر بمفردي، لا أخاف العجوز، ومن لا يخاف العجوز، لا يخاف شيئاً.

هدوء الليل، والقهوة بعد العرق، والحديث العائلي، بين زوج وزوجة، يعطي سعادة خاصّة، لها طعم خاصّ، طعم أن هناك، إلى جانبي، من يحبّني، ومن أحبّه، دون طمع، دون أنانية، دون حساب للكلمات، وما وراءها، وماذا تُظهر، وماذا تُخفي، وما يترتّب عليها. إنني، بعد كل ما جرى، بحاجة إلى حديث من هذا النوع، حديث صريح، من القلب، وشعور مريح، بأنني لست وحدي، وأن هناك إنساناً إلى جانبي، يشاركني حياتي، يقاسمني حلوها ومرّها.

سألتها:

ـ ألست سعيدة معي يا لبيبة؟

قالت:

ـ سعيدة جداً. أنت إلى جانبي، إذن الدنيا إلى جانبي. أنا مثلك، كنت وحيدة، ضائعة، تعيسة، فلمّا اجتمعنا، وتزوّجنا، وضمّنا بيت واحد، لم أعد وحيدة، ولا ضائعة، ولا تعيسة.

قلت:

ـ أنا مثلك تماماً، كأنك تتكلّمين بلساني.

قالت:

ـ لذلك أخاف أن تضيع سعادتنا.

قلت:

ـ لا تخافي، لن تضيع سعادتنا.

قالت:

ـ تعدني بأن لا تغامر؟

ـ أعدك.

ـ ولا تتعارك.

ـ لن أتعارك.

ـ وتفكّر فيّ فلا تتهوّر لأجلي؟

ـ سأفكّر بك ولن أتهوّر لأجلك.

ـ هكذا نلتقي كل يوم.

ـ نلتقي كل يوم.

ـ ويضمّنا بيت واحد وسرير واحد؟

ـ سيظلّ يضمّنا بيت واحد وسرير واحد.

ـ ونمارس الحب كما نفعل الآن؟

ـ نمارس الحب كما نفعل الآن، وفي هذه الليلة بالذات.

في الصباح ذهبت إلى الميناء كعادتي. كنت أشعر بسعادة الحبّ الذي مارسته مع لبيبة. وكنت نشيطاً. خفيفاً، رائق المزاج. قرّرت دخول المقهى، دخلته، تناولت فنجاناً طيّباً من القهوة. كان هناك الريّاس. كان هناك البحر، الريّس هو البحر، يذكّرك بالبحر، وبالسفر على مركب له شراع أبيض. أمنيتي أن أسافر على مركب له شراع أبيض. عبدوش سافر على سفينة، ماذا في السفينة مما يغري بالسفر؟ هدير. محرّكات تهدر. تحميل، تفريغ، تحميل من جديد، تفريغ من جديد، والقبطان كل شيء.

... في السفينة، مجرّد عامل. أما في المركب فأنت بحّار. البحّارة الحقيقيون هم بحّارة المراكب، هكذا كان الريّس بكري الغطّاس يقول. أنا أفضّل أن أكون بحّاراً حقيقياً، على مركب، ومع واحد من هؤلاء الريّاس، حين أنتهي من هذه اللعنة التي اسمها الميناء.

انطلقت صفّارة باخرة. انطلقت مديدة. إنها تنادي الميناء. تنتظر المواعين. انطلقت صفّارة أخرى. بعدها، مع شروق الشمس، انطلقت صفّارات كثيرة. بدأ الشغل. الشغل بدأ في الصباح، في الصباح الباكر، ولا ينتهي إلّا في الليل، في المساء، في العشيّة، عند منتصف الليل، في الفجر. كلّ سفينة تريد التشطيب: أن تفرّغ كاملاً أو تحمّل كاملاً، وبعد ذلك تهدر محرّكاتها، ويخرج الدخان كثيفاً من مدخنتها، يخرج أسود أوّلاً، ثم أبيض، ضبابياً، وبعده الإقلاع. ما أمتع الإقلاع! السفر إلى بعيد، إلى بعيد جداً، كما فعل عبدوش، أين أنت الآن يا عبدوش؟

كان العمل، اليوم، على الفرنساوي. قطن، قمح، شعير، عدس، حمص، هذه هي البضائع التي نُصدّرها، ومقابلها نستورد كل شيء: من الآلة إلى الإبرة، من الخشب والحديد إلى الاسمنت والأدوات الصحيّة، من الرز والسكّر والبن إلى المحرّكات والأنابيب، من الزجاج إلى البراميل. وما فيها من سوائل حمضية، أو دهانات، أو أصباغ لصناعة النسيج. أنا لا أحبّ البراميل، ولا السوائل، ولا رائحة الحمض والأسيد. وأكره رائحة البصل المتعفّن، والخيش، والأسمدة الكيماوية والجلود المدبوغة والقار المحروق والنباتات البحرية المتفسّخة، ولكن عليّ، رغم حبّي أو كرهي، أن أعتاد، وأتحمّل، كرئيس وردية مسؤول وعاقل.

طلعنا إلى ظهر الباخرة. كانت باخرة كبيرة، لها مدخنة ضخمة، فيها عدة رافعات، تعمل على عدة عنابر. تفرّق العمّال على ظهر الباخرة. تناولوا مدّات المواعين، ربطوها، قُرنت الأسماء، جرى توزيع المهمّات، نزل

العنبرجيّة(١) إلى العنابر، الونّشيّة(٢) إلى الونشات، الستفادورية إلى أمكنتهم لمراقبة تنضيد البضائع. أعطيت إشارة البدء، راحت الرافعات تتحرّك، تصرّ، والتصبينات ترتفع وتهبط. كنّا نفرّغ ونحمّل في وقت واحد، وبوّابات العنابر المفتوحة تستقبل الشوالات وبالات القطن، وتخرج الصناديق الخشبية والبراميل والأكياس. كان كل شيء يجري بانتظام، بهمّة، وكنت على الظهر حين رأيت المعلّم رضا ينزل من اللنش ويصعد سلّم الباخرة.

استقبلته بترحاب. قلت:

ـ أهلاً بالمعلّم رضا.

قال المعلّم رضا:

ـ عوافي!

ـ الله يعافيك.

ـ كيف تجري الأمور؟

ـ أليسطا.

ـ لنقم بجولة.

تجوّلنا على ظهر الباخرة، نزلنا إلى العنابر، دعانا وكيل الشركة إلى قمرة صغيرة، فيها طاولة، عرض علينا أن نشرب شيئاً. قال:

ـ ويسكي مثلاً؟

أومأنا بالإيجاب. حضرت زجاجة ويسكي. صفّت الأقداح. أحضروا سطلاً من قطع الثلج. شربنا قليلاً. بضعة كؤوس. قال المعلّم رضا:

ـ الفرنساوي مطموع فيه.. بحّارته أرذال، يهرّبون المخدّرات.

(١) عمّال العنابر.

(٢) عمّال الونش: الرافعة.

قلت:

ـ وجماعتنا لا يقلّون عنهم رذالة.. يحومون حول الباخرة نهاراً وليلاً، منذ أن ترسو إلى أن تقلع، يبيعون، يشترون، يبادلون المصنوعات الحرفية بالويسكي والسكائر الأجنبية.

قال المعلّم رضا:

ـ وماذا يفعل الحرّاس؟ حرّاس الباخرة وحرّاسنا. يجب التنبيه عليهم. التشديد ضروريّ. كي لا نقع في متاعب.

قلت:

ـ المهرّبون لهم ألف طريقة. يأتون في الفلائك. يدورون حول الباخرة. يتفاهمون مع البحّارة بالإشارات. البحّارة يدلون لهم الحبال، وأحياناً السلالم. عملية ضبط الأمور صعبة.. لا بدّ من بعض المتاجرات.

ـ وماذا تفعل الجمارك؟

ـ مرحبا جمارك! البواخر كثيرة، والفلائك أكثر، وهناك اتفاقات. صفقات صغيرة. تتمّ في الخفاء، أو يغمض رجال الجمارك عيونهم عنها، مقابل فريضة معلومة عن كل عملية.

قال المعلّم رضا:

ـ كل شيء إلّا المخدّرات.

ـ وهذه لا بدّ منها. ولكن على نطاق ضيّق. بين الحين والحين.

ـ والعمّال؟

ـ مالهم العمّال؟

ـ ألا يتاجرون هم أيضاً؟ ألا يهربون من العمل وينسلّون بين قمرات الباخرة، أو يلطشون هذا الغرض أو ذاك؟

ـ هذه أشياء صغيرة، لا بدّ منها.

قال المعلّم رضا:

ـ وأنت؟ ألا تأخذ نصيبك؟

قلت:

ـ أنا أدفع مقابل ما آخذه. مشروبي الخاص فقط. أنا لا أتا.

ـ يعني لا تنتفع؟ رئيس ورديّة وتريد إقناعي أنك لا تنتفع؟

ـ وإذا قلت لك إنني لا أنتفع، تصدّقني؟

ـ ولماذا لا أصدّقك؟ من يبلغ به يباس الرأس حدّ رفض العمل مع العجوز، لا بدّ أن يتعامل مع العمّال والبحّارة بهذه الطريقة.

أضاف:

ـ يا مفيد! يا ابني! نفّع وانتفع.

قلت:

ـ أنا خارج هذه اللعبة.

ـ لا أحد في الميناء خارج لعبة من الألعاب فيها.

ـ أنا خارج كل الألعاب.

حدّق فيّ، قال بنبرة حاسمة:

ـ أنت غارق في لعبة من نوع آخر. لعبة خطرة. انتبه! العجوز يضع حدّاً، وفي الوقت المناسب، لكل لعبة خطرة.

قلت:

ـ وما هي هذه اللعبة؟

ـ اسأل عنها برهوم.

ـ أنا لا علاقة لي ببرهوم سوى علاقة العمل.

ـ هذا في الميناء، أمّا في البيت؟ ماذا كان يفعل عندك إلى ما بعد منتصف الليل؟

ـ كنّا نشرب.

ـ الشرب مفهوم. اشرب قدر ما تريد، أوتستطيع. أنت حرّ في هذا، ولكن برهوم كان يتحدّث. أظنّك عاقلاً ووفيّاً لي بحيث لا تخفي عنّي مـ دار بينك وبينه من حديث.

نبرت:

ـ وصلت المراقبة إلى البيوت أيضاً؟

ـ لا تُسَمِّها مراقبة. هذه كلمة في غير محلّها. لنقل إنهم رأوكما صدفة.

ـ ومن هؤلاء الذين رأونا صدفة؟

ـ وما أدراني؟ كل ما أعرفه أنك كنت وبرهوم في بيتك، وبرهوم لا يذهب إلى بيوت الناس لتقديم التهاني أو التبريكات.

قلت:

ـ ولا يذهب أيضاً ليحوك مؤامرة ضدّك أو ضدّ أحد.

قال ساخراً:

ـ ضدّي؟ لا. هذا لا يخطر لي في بال.

ـ ولا ضدّ أيّ من المعلّمين.

ـ ولا ضدّ أيّ من المعلّمين.

ـ ولا ضدّ العجوز نفسه.

ـ ولا ضد العجوز نفسه.

ـ ضدّ مَن إذن؟

قال بلهجة تهديد:

ـ ضدّ الميناء. برهوم وأمثاله غير راضين عن الوضع في الميناء. يعملون في الخفاء.

قلت:

ـ أنا لا أعمل مع برهوم. ولا أعمل ضدّ الميناء، ولا أعمل في الخفاء، وهذا كل ما عندي.

قال وهو يفرغ بقية كأسه لينهض:

ـ لقد أعذر من أنذر. أنا أحبّك. أغار عليك. أغار على مصلحتك. لكنك، أنت، لا تعرف مصلحتك. العجوز وُجد في الميناء ليبقى، ونحن المعلّمين وُجدنا على رأس الفرق لنبقى. ليس من قوّة تزعزعنا، العجوز صخرة. تعرف ما هي الصخرة؟ لا تكن خروفاً ينطح صخرة.

قلت وأنا أقف قبالته:

ـ لست خروفاً، ولم أكن خروفاً أبداً، ولا أنطح صخرة، ولا أهتمّ بالصخور. لكنني، في المقابل، لا أخاف على شيء. بما في ذلك رأسي. المعلّم البطحيش حاول، وغيره سيحاول، وهذا الكلام الذي أقوله سيعرفه العجوز. النورس يخبر العجوز بكل شيء، هو قال لي ذلك.

ـ أيّ نورس تقصد؟

ـ كل النوارس. لنصعد إلى ظهر الباخرة ونُلْقِ نظرة على البحر. النوارس تغطّي البحر.

قال:

ـ ورجال العجوز يغطّون الميناء.. يا الله! عد إلى شغلك، وأنا عائد إلى الميناء.

وقفت على حاجز الباخرة. نزل المعلّم رضا سلّم الباخرة. قفز إلى إحدى المواعين. انتظر لحظة حتى جاء اللنش. قفز إلى اللنش. هدر محرّك اللنش. اضطرب البحر. أرغى، أزبد. انطلق اللنش. لم يلوّح المعلّم رضا بيده. لم تعجبه كلماتي، وأنا لم تعجبني كلماته أيضاً. ليذهب وينقل ما سمع إلى العجوز، هذا «النورس» الذي يمشي على قدمين. إنه نورس مخلص. لكنه خصيّ، العجوز خصى كل النوارس. ستنقرض ذرّية النوارس. لن تطير في المستقبل على وجه الماء. لن تقف على أعراف الموج، ستدرج مقصوصة الجناحين على أرض الميناء. تنقر بقايا الحبوب. تنبش

كالشوحات في النفايات. تتغذّى من الجيف. لا نوارس بعد الآن. وداعاً يا نوارسي الجميلة. وداعاً يا صحبة المعلّم رضا.

تساءلت وأنا أستدير: «هل يرسم المعلّم رضا من يحاول قتلي أيضاً؟» لكنني لم أحاول أن أجيب على سؤالي، حسن الدفش قطع عليّ سؤالي، اقترب مني. عدنا إلى حاجز السفينة. وقفنا. أشعلنا سيكارتين ودخّنا. قال لي:

ـ ماذا يريد المعلّم رضا؟

ـ لا شيء.. زيارة تفقّد للعمل.

ـ يتفقّدك أم يتفقّد العمل؟

ـ قال إنه يتفقّد العمل.

ـ وصدّقته؟ لا تصدّقه، جاء يدسّ أنفه ليشمّ رائحة ما يجري.

ـ وماذا في الباخرة سوى رائحة العنابر؟

ـ رائحتنا نحن. برهوم وأنا. أنت والآخرين. ألم يقل لك إن برهوم كان عندك في البيت؟

ـ بلى! قال، لا أدري كيف عرف.

ـ العجوز أخبره. عيون العجوز تترصّدنا، لكننا لا نبالي. هذا ما فعل معنا في المرة السابقة.

كان حسن الدفش يقمط رأسه بعصبة، لقفل الرأس من الصداع، وحمايته من الشمس. كان فتى، في نحو الثلاثين، أسمر، أفطس الأنف قليلاً، على جبينه ندبة، وهو قويّ البنية، وفي عينيه عزم. كان يكره العجوز والمعلّمين، ولا يخفي أنه من المطالبين بإنشاء نقابة لعمّال الميناء.

قلت له:

ـ أنت تكره العجوز لأنه أنزلك من رئيس ورديّة إلى ونّيش.

ـ أنا أكرهه، ولكن ليس لهذا السبب. عملت في البنده حمّالاً، ثم

عنبرجياً، وبعدها ونّيشاً، وكذلك استيفادوراً. مررت بكل المراحل حتى صرت رئيس ورديّة، وبعد ذلك جاء الأمر بمعاقبتي. عدت الآن أعمل على الونش. العجوز يأمر والمعلّم رضا ينفّذ. هكذا كلّ المعلّمين. يتلقّون أوامر العجوز وينفّذونها. إنهم عيونه وآذانه وأيديه. لا تصدّق أحداً منهم ولا تطمئنّ لهم.

ـ هذا الدرس حفظته. لكنّهم، حين يريدون تخويفي، أفهمهم أنني لا أخاف.

قال كالواثق مما يقول:

ـ وتتبرأ أمامهم من علاقتك بنا. تقول: أنا ليس لي علاقة بفلان وفلان!

قلت:

ـ أليست هذه هي الحقيقة؟

ـ بلى! أخبرني برهوم. قال إنك لست ضدنا. ولكن ليس معنا. غايتك إظهار شجاعتك. أن تكون رجل الميناء و«أشجع شجعانها»، كذلك تريد أن تبقى طليق اليدين، مع أننا لا نقيّدك ولا نقيّد أحداً غيرك. كل ما هنالك أننا نعمل كجماعة، وأنت تفضّل أن تعمل كفرد.

ـ نعم! أريد أن أعمل كفرد.

ـ في هذه الحال سيستفردونك وتدفع الثمن.

ـ في الميناء لا بدّ من دفع الثمن، في أيّ موضع كان الإنسان.

ـ حين تكون مع الآخرين لا تدفع نفس الثمن. العجوز لا يستطيع شيئاً معنا ما دمنا متحدين، وهذا ما حصل سابقاً.

أضاف:

ـ في العام الماضي ذهب وفدٌ منّا وقابل العجوز. قدّم له مطالبنا: «نقابة وحقوق العمّال». رفض العجوز. اجتمعنا في جامع العجّان. أقسمنا على المصحف.

حدّدنا يوماً للإضراب. شمّ العجوز الرائحة. راح زلمه يضربون العمّال. وفي كل مرة نرفع شكوى، كان ينظّم محضرٌ في قسم الشرطة، وفي اليوم التالي يمزّق محضر الشرطة وتقيّد القضية ضد مجهول. خاف بعض العمال. تردّدوا، وقعوا تحت سطوة العجوز واغراءاته، ولكن الأكثرية بقيت متضامنة. وفي اليوم المحدد للإضراب تجمّع العمّال. تركوا الشغل وتجمّعوا. حاصروا المعلّمين. كانت حركة أشبه بمدّ البحر. أشبه بالموج، العمّال الغاضبون تقاطروا موجة بعد موجة. رجعوا من البواخر في المواعين واللنشات. في ساعة الصفر توقّف العمل تماماً. انشلّ. وقفنا في باحة الحوض، سرنا في مظاهرة طافت شوارع المدينة. قدمنا عريضة للسلطات. طالبنا بالسماح لنا بتأليف نقابة، وبإعطائنا حقوقنا. قرّرنا الاستمرار في الإضراب، لكن العجوز استطاع، في اليوم التالي، كسر الإضراب. خرج من مكتبه يحمل رشّاشاً، ومعه المعلّمون يحملون المسدّسات والعصيّ. تقدّم زلمه للتحرّش بنا فكانت معركة. كانت معركة كبيرة، أُطلق فيها الرصاص، علا الصراخ، ثار الغبار، وتراكض الناس. كنّا دون سلاح. لم نكن نريد العنف. إضراب سلميّ. مظاهرة سلميّة، لكن العجوز فَرَضَ العنف علينا. فرّقنا. جرح بعضنا، رمى البعض الآخر في البحر، أخاف ضعاف القلوب، نجح في تفشيل المحاولة. لكننا تعلّمنا منها. نجحنا في لفت الأنظار إلينا. كتبت الصحف عنّا ومعنا. أثرنا الرأي العام. ثارت ضجّة في البرلمان. تكلّم بعض النواب مؤيّدي مطالبنا. أحْرَجنا العجوز، فتّحنا العيون على ما يجري في الميناء، فتّحناها على الاستغلال والبطش والظلم والقتل. ضعف موقف العجوز. ضعف أكثر. اليوم غير البارحة. هذه المرة لن يستطيع أن يهدّدنا بالرشاشيش والمسدّسات. نحن الآن نجمع صفوفنا، سترى.

قلت:

ـ عرفت ذلك من برهوم. قال إن المسألة قريبة، وأنتم لا تخافون العجوز.

ـ وأنت؟

ـ أنا لا أخافه أيضاً. ولكن على طريقتي. إذا أضربتم أنا معكم. إذا تظاهرتم سرت معكم. إذا قامت معركة وقفت إلى جانبكم. ما عدا ذلك دعوني وحدي. سأنتقم من المعلم البطحيش وحدي، وربما من العجوز إذا اضطررت إلى ذلك. أما الاجتماعات والتنظيمات فأنا خارجها.

قال حسن:

ـ ستندم يا مفيد لأنك خارجها، يد الله مع الجماعة.

ـ هذا ما قاله لي برهوم، وبالحرف، لكنني لم أقتنع. لي ثأر عند المعلّم البطحيش. يقولون إنه شجاع، وخطير، وسأبرهن أنني أشجع وأخطر منه.

قال حسن:

ـ أنت لن تبرهن على شيء. وحدك لا تفيدنا في شيء. الكلام على الشجاعة والثأر كلام فارغ، يذهب في الهواء.

افترقنا على خلاف. لم أتفق مع حسن كما لم أتفق مع برهوم. أنا لست ضدّهم وهم ليسوا ضدي، لكنني لا أطيق مشية النملة. لا أريد أن أكون نملة. دخلت الميناء لأكون رجلها، وسأكون هذا الرجل، سأهزم المعلّم البطحيش، وأصير معلّم فرقة، وقد لا أصير معلّم فرقة، هذا لا يهمّ كثيراً، المهم أن أؤدّب المعلم البطحيش، وأجلعه عبرة لباقي المعلّمين، وللعجوز نفسه، وهكذا أُخلّص العمال من شرّهم، من ظلمهم، وبهذه الطريقة أكون نافعاً لبرهوم وجماعته.

بعد أيام كنت في المقهى. كان يوم راحة وكنت في المقهى. كنت أتقصّد أن أكون فيه، حين لا يكون لديّ عمل. صرت أدخله دخول أيّ من المعلمين. دخول الرجل الذي تعرفه الميناء، لا دخول الدرويش الذي كنته في الماضي، والذي كانت تجهل الميناء من هو، ومن أين أتى. صار الزلقوط يتجنّبني، يخافني. صار صاحب المقهى يحسب حسابي. قهوة خاصّة.

ناركيلة خاصّة. نربيش خاص. كنت، كعادتي، كريماً، أُنفق كلّ دخلي، وكان دخلي يزداد. أنتفع وأنفع كما يفعل غيري، دون طمع، دون إفراط، فالمال، وجمعه، وتوفيره لليوم الأسود، أشياء لا تدخل في حسابي، لا أحبّها، ولا أطيقها.

كنت أجلس وحدي كي يأتي الآخرون إليّ. لم أعد أتسلّى بالورق. لم أعد أُنجّم لمعرفة الحظ. حظّي واق. تبدّلت حالي، تهندمت، اشتريت خيزرانة مقبضها من الفضّة. صار الخربوط يلمّع حذائي وهو ساكت. عرفني المعلمون والريّاس والعمّال وكلّ من في الميناء. هذا ما كنت أريده وقد صار. لم يبق عليّ سوى الثأر من المعلّم البطحيش الذي رحت أفكّر فيه. قرّرت أن أتصدّى له في المقهى، وفي عزّ النهار، وهو بين رجاله كنت، باختصار، أغزل على ذنب كلب، والمعلّم البطحيش يغزل على مغزل من خشب السنديان. كانت تجربته أكبر من تجربتي. كنت أظنّه نسي أمري، وأنني أنا الذي أعدّ خطة الثأر منه، بينما كانت الحقيقة غير ذلك. كان هو أيضاً يفكّر، ويدبّر، ويعدّ لضربة قاضية، لا أقوم منها. كان يعدّ لقتلي، أو إخراجي من الميناء نهائياً، بالاتفاق مع العجوز، وبغضّ النظر من المعلّم رضا.

أذكر تماماً كيف وقعت الحادثة. رأيت الزلقوط يدخل ويخرج. لم أهتمّ بدخوله وخروجه. ناديت الخربوط، طلبت منه مسح حذائي، استرخيت، شربت القهوة ورحت أدخّن الناركيلة، وإذا المعلم البطحيش يدخل المقهى ويسير نحوي مباشرة. نهضت للترحيب به، فهو، بعد كل شيء، معلّم، وهو يأتي إلى طاولتي، ومن واجبي أن أرحّب به وأكرمه. لكن المعلم البطحيش لم يأت ليجلس معي. كان عند العجوز. هذا ما أقدره، وكاد يصدّني، فذهب الزلقوط وأخبره أنني في المقهى، وعندئذ نهض وجاء إليّ، جاء لتصفية الحساب.

صاح بي:

ـ ماذا تفعل هنا يا عرص؟ أخرج من المقهى.

تناولته من صدره. جذبته نحوي. دفعته إلى وراء، فتطوّح واصطدم بالكراسي، ولما حاول النهوض عاجلته بضربة خيزرانة وأنا أصرخ:

ـ من هو العرص يا ابن الكلب؟ ومن منا سيخرج من المقهى؟

سمعت، بعد ذلك، أصواتاً تصيح:

ـ أنت الذي سيخرج، يا ابن القحبة.

ـ أنا؟

تلفّتّ حواليّ فإذا بخمسة أو ستة رجال قد أحاطوا بي. أحاطوا بي وانهالوا عليّ ضرباً بخيزراناتهم. كان الضرب يأتيني من كل الجهات، وكنت أضرب بدوري، أركز الضرب لشقّ طريق لنفسي، لكن عبثاً كنت محاصراً، وكان المقهى كلّه قد قام وقعد. تجمّع الناس. تراكضوا من الداخل والخارج، وفي لحظة رأيت نجّود يسحب سكيناً ويحاول غرزها في صدري. عاجلته بضربة محكمة، وضعت فيها كل قوتي، أصابت رأسه الذي ترنّح والدم ينفر منه. أصبته بضربة قاتلة، ابن الزانية هذا، الذي أفلت مني في المرة السابقة، واستحكمته هذه المرة، غير أن الكثرة تغلب الشجاعة، كانوا كثراً، رجال المعلّم البطحيش، وربما رجال العجوز أيضاً.. وحين وصلت الشرطة كنت قد جرحت في عدة أماكن من جسمي، وكان الدم يبلل ثيابي، وبصعوبة فرّقونا. قبضوا عليّ، انتزعوا الخيزرانة مني، وكان هذا لصالحي، فاستسلمت لهم لأنقذ حياتي، لكن الضرب ظلّ ينهال عليّ حتى صرت خارج المقهى، وبعد ذلك لحقوا بي إلى المستشفى، يريدون الإجهاز عليّ، فوقف الأطباء في وجوههم، ونقلوني إلى غرفة الإسعاف فوراً، وكذلك نقلوا نجّود وبعض الجرحى، وجاءت قوة

إضافية من الشرطة للحراسة، لمنع تجدّد المعركة، وبعد الإسعاف جاء المحقّق، وخذ وهات يا سين وجيم.

وقعت، هكذا، في المصيدة. القضية قضية ثأر، لا دخل لعمّال الميناء فيها. أنا لم أكن في إضراب أو مظاهرة. لم أكن في وفد لتقديم عريضة. موضوع النقابة غير وارد، موضوع مطالب العمّال غير وارد، خصومة شخصية وأنا المعتدي. كيف أنا المعتدي؟ هذا ظلم، ظلم يا ناس! أنا مظلوم يا برهوم، أنا مظلوم يا حسن، أنا مظلوم يا عمّال الميناء. لكن عمّال الميناء تركوني لمصيري، كما تركتهم لمصيرهم. لا. لم يتركوني لمصيري، لكنني أنا، وضعتهم في موقف حرج. لقد تألّموا، في الحقيقة، لأجلي، لم يتخلّوا عني، غير أن ظروفهم، كمناضلين نقابيين، لم تسمح لهم بالتدخّل، لئلا يُتّهموا بأنهم يلجأون إلى السلاح لتحقيق مطالبهم. . العجوز كان يريد جرّهم إلى هذا الفخّ، لكن وعيهم كان يجنّبهم الوقوع فيه.

هذا ما فهمته من برهوم. برهوم الرائع، الذي زارني في المستشفى، وقال لي، في أسف شديد:

ـ وقعت يا مفيد!

قلت:

ـ ساعدوني في التحقيق على الأقل.

قال:

ـ بذلنا كل ما في طاقتنا. لكن القضية جنائية. نجّود ارتجّ مخّه. ربما يموت. إذا مات تحوّلت القضية إلى جريمة.

قلت:

ـ كنت أدافع عن نفسي.

قال برهوم:

ـ الشهود شهدوا لصالح المعلّم البطحيش، ادّعوا أنك أنت الذي

ضربته، أنت المعتدي، وفي هذه الحال لا فائدة، إذا لم يكن لديك شهود لا فائدة. ضعت يا مفيد. حذّرناك فلم تصغ. ركبت رأسك.

صحت:

ـ أنا لم أركب رأسي. المعلّم البطحيش هو الذي هاجمني، هو الذي اعتدى عليّ، هذه هي الحقيقة.

ـ والشهود؟

ـ الذين كانوا في المقهى يشهدون معي.

ـ كلهم شهدوا ضدك. خافوا. فشهدوا ضدك. الخربوط، ماسح الأحذية، قال إنه كان يمسح حذاءك، وأنك أنت الذي بدأت بضرب المعلّم البطحيش.

ـ الخربوط كاذب. هذا زلمة المعلّم البطحيش.

ـ وكيف تثبت ذلك؟

ـ لا أعرف.

ـ إذن لا فائدة.

ـ ألا تشهدون أنتم معي؟

ـ نحن لم نكن موجودين. ومع ذلك طلبني للشهادة. سأقول إن المعلم البطحيش له ثأر معك، وأنه حاول في السابق قتلك. هذا كل ما أستطيع.

في المحكمة، بعد شهور، قلت هذا الكلام. قلت إن هناك ضبط الشرطة. طلب المحامي تأجيل الجلسة لإحضار ضبط الشرطة، لكن دفتر الشرطة لم يكن فيه أيّ ضبط. العجوز مزّق الضبط. فمن أين أختلق ضبطاً؟ كلامي راح في الهواء، شهادة برهوم راحت في الهواء، والهواء حملني من قاعة المحكمة إلى السجن: «الحكم خمس سنوات!».

«لا يهمّ! قلت في نفسي، خمس سنوات وتمضي، تمضي كما مضى غيرها، تماسك. يا مفيد أنت ضربت وضُربت. المعلم البطحيش، مع كل ما يقال

عنه، لم يلْوِ ذراعك. لم يكسر رقبتك»، المعلم البطحيش لم يأتني وحده. لم يطوّح بي كما طوّحت به. كان قادراً برجاله، وكنت مقتدراً بنفسي، بزندي، بقلبي، بشجاعتي. أنا لم أُهزم. الميناء اعترفت أنني لم أهزم. أخذوني غدراً. كانوا عدّة رجال، كانوا قتلة، كانوا مسلّحين، بينما كنت وحيداً، كنت شجاعاً ولم أكن مجرماً، كنت أعزل، إلا من خيزرانة، وقد حاصروني، ورغم ذلك عطبت بنجوّد ابن العاهرة. أصبته بعطل لن يشفى منه. هذه الضربة كانت موجّهة إلى المعلّم البطحيش، والمعلّم البطحيش يحسّ بها الآن. ويحسّ بها العجوز أيضاً. كسرت شوكتها. فعلت ذلك وحدي، والذين في المقهى، وكذلك في الميناء، قالوا: «مفيد وقف وقفة رجل شجاع. تصدّى ولم يضعف، صمد ولم يهرب. ولو كان المعلّم البطحيش وحده، لو نازله منازلة رجل لرجل، لمسح به الأرض «هكذا خبرني حسن الدفش حين زارني في السجن. قال لي:

- اصمد!

قلت:

- أنا صامد، لا الغدر أخافني ولا السجن أرعبني. قلبي معكم.

قال:

- نعرف هذا.

قلت:

- إذا خرجت وعدت إلى الميناء، سأكون غير ما كنت. أنا أخطأت، تعلّمت من خطئي.

قال:

- كلنا نتعلّم من أخطائنا. نتعلّم ونتابع الطريق.

قلت متأثراً:

- ما يحزنني أنني هنا، بين أربعة جدران، بينما أنتم هناك، وفي وكر الأفاعي.

قال:

- لا تهتمّ. كل شيء سيتغيّر. دولاب الزمن يدور.

قلت:

- هذا ما أثق به الآن. شكراً لعواطفكم، ومساعدتكم، وشكراً للبرهوم، الذي تحدّى المعلّم رضا، والمعلم البطحيش، ومن ورائهما العجوز، وشهد معي. شهد مع الحق. المحامي قال لي: «أنت، يا مفيد، على حقّ. أنت مظلوم».

قال حسن:

- الميناء كلّها تقول هذا الكلام. تعرف، يا مفيد، أنك ساعدتنا بقضيّتك؟ عملنا منها قضية ضد أرباب العمل، والملتزمين، والمعلّمين، والعجوز. قلنا لمن كان مغمّضاً من العمّال: «افتح عينك!» ولمن كان مخدوعاً: «احذر!» ولمن كان متردداً: «انضمّ إلينا، وحدك لا تستطيع شيئاً» لقد ساعدتنا من حيث لا تدري.

قلت:

- هذا أحلى كلام أسمعه. إذا كنت قد ساعدتكم فمعنى هذا أنني لم أُحكم سدى. السجن الآن لم يعد سجناً. أشعر أنني حرّ. وإذا انتصرتم سأنتصر معكم، وماذا أريد غير هذا؟

عدت من المقابلة إلى القاووش فرحاً. حسن أزال همّي ببساطة. قال إنني ساعدتهم. أراد تشجيعي. أعرف أنه أراد تشجيعي. كان يجب أن أساعدهم بشكل آخر. لو كنت معهم لساعدتهم بشكل آخر. العجوز قال

لي: «كم ثمن رأسك يا ابن أخوي؟» قلت له: «لم أضع له ثمناً بعد» فهم أن رأسي ليس للبيع والشراء. أنا أثبت أن رأسي ليس للبيع والشراء. أنت يا مفيد لم تتاجر برأسك، وهذا جيّد، هذا ما أبقى رأسك مرفوعاً، فاحرص على أن يبقى رأسك مرفوعاً.

خمس سنوات كاملة قضيتها في سجن اللاذقية. قضيتها في السجن دون أن أفكر أنني في السجن. لم أضعف، لم أئنّ، لم أسمح للبيبة أن تبكي. زجرتها حين بكت في الزيارة الأولى. بعد ذلك فهمتني وكفّت عن البكاء. وبمساعدة برهوم عادت إلى الشغل في الريجي. أمنت رزقها ورزقي، أظهرت وفاء نادراً، يليق بامرأة نادرة، امرأة رجل شجاع، امرأة عامل في الميناء، امرأة بحّار وإن لم يُبحر، بحّار صار البحر أمنيته، شوقه، حنينه، صار أغنيته المفضلة، والموّال البعيد الذي يسمعه في نهاره وليله، في يقظته ومنامه.

هكذا دار دولاب الزمن كما قال حسن الدفش. مضت اربعة أعوام دون أن أعرف كيف مضت. بقي عام واحد. عام واحد وتخرج يا مفيد، تخرج إلى البحر. لم يبق أمامك سوى البحر. الميناء صارت من الماضي، أما البحر فهو المستقبل.. بعد خروجك من السجن تبحر كما أبحر عبدوش، تبحر نحو المستقبل... لكن المستقبل كان يخبىء لي مفاجأة: مرض السكر!

قلت لطبيب السجن:

ـ أسمع بهذا المرض ولكن لا أعرف ما هو.

قال مازحاً:

ـ لا تستعجل سيعرفك بنفسه.

قلت:

ـ كيف؟ وهل هو خطير؟

سأل:

ـ أنت تبوّل كثيراً؟

ـ منذ شهور وأنا أتبوّل كثيراً.

ـ وتحسّ بجفاف في فمك؟

ـ أحس بجفاف في فمي.

ـ وباهم قدمك اليمنى يزداد سواداً.

ـ ألاحظ أنه يزداد سواداً.

قال:

ـ هذه أعراض مرض السكر. درجته مرتفعة عندك. إنه خطير إذا لم تتبع النصائح، وأولها الحمية.

ـ الحمية في السجن؟

ـ حتى في السجن. وبقدر المستطاع.

قلت في نفسي: «كلام فارغ. حمية في السجن؟ يطبخون لي طعاماً خاصّاً؟ هل هذا معقول؟» لبيبة، حين أخبرتها، قالت: «معقول ونص. أنا آتيك بطعام خاصّ، ثم إن سجنك انتهى. ستخرج بعد شهور. اعمل بنصيحة الطبيب».

وعدتها وأخلفت الوعد. لم أستطع الحمية. لم أقدّر الخطر. لم أكترث بالموت. طوال عمري لم أكترث بالموت. ثم إن مرض السكر لا يميت. الطبيب قال لي: «السكّر مرض لا يميت» غير أنني بدأت أشيب، أنحل، وأخذ وزني يخفّ، وأصبع رجلي يزرقّ، وأنا أعدّ الأيام الباقية، حتى انتهت المحكومية وأفرجوا عني أخيراً.

وجدت نفسي خارج السجن فجأة، لم يكن في استقبالي سوى لبيبة. قال لي المدير وهو يودّعني: «مع أنني أريد رؤيتك. لكن لا أريدك أن تأتي إلى السجن إلا زائراً» وقال لي الدرك: «لم نكن سيّئين معك، تذكّر هذا»

وودّعني السجناء، الذين علموا بالإفراج عني قائلين: «كنت طيّباً معنا، شجاعاً وطيّباً». ابتسمت للجميع. رفعت يديّ ولوّحت بهما، «شكراً يا إخوان! قلت، كنتم، أنتم أيضاً، طيّبين، وفرحتي التي كنت أفكر أنها ستكون كبيرة، خالصة، ليست بهذا الحجم، ويخالطها شيء لا أعرفه، ربما كان الحزن على فراقكم».

قالت لبيبة:

ـ تحزن وأنت تغادر السجن؟ عجيب أمرك يا مفيد.

تمتمت:

ـ صحيح، عجيب أمري. ربما كانت الإلفة، أو كانت شيئاً آخر. لنجرب أن ننسى، وأن نفرح، ونستقبل الحياة بابتهاج.

ـ لنجرّب.. انسَ الماضي.

ـ سأنساه.

ـ انسه تماماً، اقلعه من ذهنك.

ـ سأقلعه..

ـ رأيت البحر؟

ـ رأيته.

ـ أنت تحبّه.

ـ أحبّه كثيراً.. لم يبق من الماضي سواه.

ـ والمدينة.. تغيّرت عليك؟

ـ لا أدري. أتطلّع، أرى، اندهش.

ـ لكنك لا تتكلم إلا إذا سألتك.

ـ اسأليني، تكلّمي، قولي كل شيء.

ـ ماذا أقول وأنت إلى جانبي؟

ـ هل هذا يفرحك؟

ـ كيف يفرحني، يجعلني أطير من الفرح، وأنت؟

ـ انا أيضاً فرح..

ـ ولكن ليس مثلي.

ـ مثلك تماماً.

ـ لا أرى هذا في وجهك.. ألم تشتق إلى المدينة؟

ـ اشتقت إليها.. كل شيء يبدو كأنني أراه للمرة الأولى: الشوارع، الدكاكين، الناس و....

قاطعتني لبيبة:

ـ وأنا؟

ـ أنت أيضاً. أنت جديدة وجميلة وحبيبة، أنت، الآن، كل دنياي، ليس لي غيرك.

ـ وأنا ليس لي غيرك. خمس سنوات من الفراق! ما أصعبها!!

قلت:

ـ أريد أن أبدأ حياة جديدة.

ـ وتترك كل تلك المشاكل؟

ـ المشاكل؟

ـ قصدت...

ـ فهمت.. نعم سأتركها.. لن أعود إليها أبداً.

ـ هذا وعد؟

ـ وعد.. قلت لك إنني ودّعت الماضي، بخيره وشره.

ـ ودّعه، اتركه، انسه.. لا تلتفت إلى الوراء.

ـ لن ألتفت..

ـ ولن تفعل ما يفرّقنا عن بعضنا؟

ـ لن أفعل ما يفرّقنا عن بعضنا.

- مهما صار؟
- مهما صار، وإلى أن أموت.
- لا تذكر الموت، ذكر الموت غير مناسب الآن.
- تخافين؟
- من لا يخاف الموت؟
- لا أحد! (قلتها وتذكرت جثّة حليش بوجهه الأزرق المشوّه).
- بلى! هناك واحد لا يخاف الموت.
- من هو؟
- أنت.

شددت على يد لبيبة ونحن في السيارة. وضعت في يدي التي تلامس يدها كل محبتي وشكري. جميل ألاّ يخاف الإنسان الموت. جميل أكثر أن أكون أنا هذا الإنسان. إنه أفضل كلمة سمعتها. كلمة من الماضي، من الماضي البعيد، قبل سنوات كثيرة، يوم كنت وكنت وكنت...

سألتني:
- بماذا تفكر؟
- بك.
- تحبّني؟
- تريدين أن آخذك في حضني ونحن في السيارة؟
- لا، لا تفعلها، وصلنا إلى البيت، هذا بيتنا الجديد.

كان البيت قريباً من المرفأ. مدخل وغرفة صغيرة للنوم، ومطبخ وحمام لا يتسع إلا لشخص، في الطابق الأرضي، يطلّ بابه على الشارع مباشرة، فيستطيع الساكن فيه، إذا ما فتح الباب، أن يرى المارة، وأن يراه المارّة، كأن هذا البيت، الذي هو من البيوت القديمة، قد حوّل من دكان واسع إلى بيت للسكن، مخصّص لشخص أو شخصين، لا أكثر.

قالت لبيبة بعد أن دخلنا:
- ما رأيك؟ صغير لكنه يتّسع لنا نحن الاثنين.
- بيت صغير كافٍ.
- وجميل؟
- ذوقك في الترتيب جعله جميلاً.
- قالت:
- كان كافياً لي وحدي.
- وسيكون كافياً لنا نحن الاثنين.

كنت أحلم أن يضمّنا معاً، وتحقّق الحلم.
- ما أطيب أن يتحقّق الحلم.
- معنى هذا أنك مرتاح وسعيد.
- أنا سعيد معك ولو سكنّا مغارة في الجبل.
- يا حبيبي، يا مفيدي، يا وحشي، كم أنا سعيدة!

سألتها:
- أنت سعيدة لأنك زوجة مفيد الوحش؟
- آه لو تعلم.. لقد انتظرتك طويلاً، خمس سنوات طويلة، وأخيراً نحن معاً.
- أنت والوحش.
- لا تقل هذا.. أنت وحش جميل، كل الوحوش أمثالك جميلة.. أنت رجل، أنت.. ماذا أقول؟
- مثل الآخرين.
- لا، لست مثل الآخرين، وتعرف هذا.
- أعرفه ولكن أريد سماعه منك..
- اسمعه إذن. أنت تختلف عن الناس، عن كلّ الناس، أنت وحشي،

وحشي الذي أحببته، وانتظرته ونعمت بحمايته حاضراً وغائباً.

- هذا يكفي، لا تمدحيني كثيراً.. أريد فنجاناً من القهوة، فنجاناً من يدك، من قهوتك، من أطيب قهوة ذقتها..

- القهوة بعد الحمّام.. اشرب سيكارتك.. لدينا وقت طويل للكلام.

كان الحمّام ساخناً، كان نعيماً، كان شيئاً رائعاً، فرحت به كما يفرح الطفل بلعبته.. أردت، في البدء أن أكون وحدي، خجلت أن تراني عارياً، خمس سنوات لم ترني عارياً، وهذا ما جعلني أتعامل مع لبيبة بحذر، كما يتعامل الغريب مع غريبة، وكانت هي تضحك، تقول:

- أنت أنت! لم تتغيّر، وحش وطفل، ضربت المعلم البطحيش وتخجل من لبيبة، هل هذا ممكن؟ مع من أتعامل؟ مع الوحش أم الطفل؟

- مع مفيد الذي تعرفينه.

- إذن دعني أساعدك في الحمّام.. منذ كَمْ من الوقت لم تتحمّم؟.. هل يتحمّمون في السجن؟ هل فيه حمّام؟

- فيه غرفة واسعة، في الطابق الأرضي، والماء نصف بارد نصف ساخن.. وكل عشرة أو عشرين من المساجين يدخلون هذه الغرفة اللعينة معاً.

- وأنت؟

- قلت لك أنا مثل الآخرين.

- لا أصدّق، قل الحقيقة.

- كان لي امتياز..

- كان يجب أن يكون لك امتياز، أعرف هذا، لماذا تتواضع؟

- لا تنفخيني أكثر من اللزوم. احذّرك، ذنبك على جنبك، إذا بقيت على هذه الحال سأصدّق أنني فريد زمانه، وعندئذ أسبب لك الإزعاجات.

- اسكت الآن، اغتسل جيداً، تريد الماء ساخناً جداً؟

- جداً جداً.. إلى الدرجة التي لا تحرق.

- يا إلهي! أنت جائع إلى الماء الساخن؟

- جائع إلى النظافة، إلى الانتعاش، إلى نسيان الماضي.. إلى الجحيم بالماضي كله، لنكن الآن معاً وهذا يكفي.

حين خرجت من الحمّام كنت سلطاناً.. كان حمّاماً ملوكياً، كان منعشاً ومفرحاً ولذيذاً، جاءت القهوة بعده فاكتملت سعادتي. كانت ليلتي الأولى هذه سعيدة فوق ما تصوّرت، كانت ليلة من العمر، وفي حماسي، وهياج فرحي، كانت هي العمر، وكما يحدث عند الحزن، حدث عند الفرح، لم أستطع النوم إلا مع الفجر.

في اليوم التالي ذهبنا، لبيبة وأنا، إلى الطبيب، استعجلنا الذهاب إلى الطبيب، لنبدأ العلاج الذي لم يتوفر لي وأنا في السجن. طبيب السجن كان طبيباً عاماً، كان طبيباً لكل المساجين، ولم يكن طبيب أحد. كان يعطي المريض حبات من الاسبرين، مهما كان مرضه، ويصرفه من عيادة المستوصف.

فحصني الطبيب خالد مرعي فحصاً دقيقاً. طلب تحليل الدم، لمعرفة درجة السكّر، قال:

- اجر تحليلاً عاماً.

أجريت تحليلاً عاماً. أخذنا ورقة التحليل وذهبنا ثانية إلى الطبيب. قرأها وتجهّم. عاد إلى فحصي، ومعاينة باهم قدمي، وبعد ذلك عرفت منه الحقيقة: كنت مريضاً بالسكر منذ وقت بعيد، وربما قبل دخولي السجن، والآن تفاقم المرض، أصبح خطيراً، وأصبح باهم قدمي اليمنى، الأزرق، بحاجة إلى قطع، وبأسرع ما يمكن.

لم يكن هناك ظل من الشكّ. معاينه الطبيب، وتحليل الدم، والإصبع الأزرق، وكل ما طرأ على حياتي في السنوات الأخيرة كان دليلاً قاطعاً. شيء ما صرخ في ذاتي: «انتهيت يا مفيد!» كنت أجلس على كرسيّ في عيادة الطبيب، وأدخن سيكارة بشره، ولبيبة معي، والنوافذ، في غرفة المعاينة، تحدّق بي بعيون واسعة، هازئة، مدورة كعيون الحوت، أو مستطيلة كجراح سكين ككباس في جسد مخلوق فتي، والدم ينزف منها، تغيّرت نظراتي إلى كل شيء: الطبيب، والمكتب، والأدوات، والستائر المخملية، والمقاعد، واللوحات الطبية. كل شيء خرج من الدم، أو تلوّث به. نظرت إلى باهم قدمي الأزرق فإذا هو مقطوع، والرجل ناقصة، وبركة من دم تغرق فيه، وفي الخارج، رغم الصيف، ليل أسود، كأنما لا سماء، ولا نجم، ولا شوارع أو أضواء، وفي داخلي يقين، واحتجاج على اليقين، ومحاولة للتجاهل، للنسيان، للتصبّر لاستقبال ما يقوله الطبيب بأعصاب هادئة، وقد زادت ابتسامتي بلاهة، غباء، لا مبالاة، وعبارة واحدة تتردد في راسي: «لقد قتلوك يا مفيد!».

تسأل لبيبة:

- هناك خطر على حياته يا دكتور؟
- لا خطر إذا اتبع تعليماتي بدقّة.

يضيف:

- باهم الرجل انتهى. القطع أسرع ما يمكن، قبل أن تسري منه «الغانغارينا» إلى الجسم كله.

لم أعرف ما هي الغانغارينا. كانت كلمة طبيّة لم أسمع بها قبل الآن ذات كريهة، فاسدة كلحم كلب متفسّخ. كانت زرقاء، قاتمة، مقرفة، كأنما احتقن بها الدم إثر سقوط حجر كبير عليها، وتجمّد داخلها.

حاول الطبيب أن يحقنني بإبرة أمل. قال كلاماً عن الشفاء، حسبه

صوتاً يأتيني من بعيد، من مقبرة، من مشنقة، من زنزانة فطس فيها سجين مريض بسبب الإهمال. ولما ألحّ على وضعي فوق لوح من ثلج الصبر، كشّرت في وجهه وقلت:

- كلّه مثل بعضه يا دكتور!
- كيف كله مثل بعضه؟ والشفاء؟ وإرادة الشفاء؟
- لا أهتم بالشفاء. قتلوني وانتهى الأمر.
- من الذي قتلك؟

أجابت لبيبة:

- يقصد السجن. كان سجيناً.
- لمدة طويلة؟
- خمس سنوات متواصلة.
- وطبيب السجن، ألم يكشف عليك؟
- بلى، مدّدني في مستوصف السجن وبال عليّ.

قال الطبيب:

- هذا مزاج سوداوي، مزاج سيّء.. لا تيأس من الشفاء.

قلت بشفتيّ الغليظتين، وابتسامتي التي تحت شاربي:

- أرجوك يا دكتور! لا أفهم ما تقول. ما هو المزاج السوداوي؟ اعذرني فأنا لم أدخل عيادة طبيب قبل الآن. مزاجي ليس أسود أو أبيض، وأنا غير يائس، متى تقطع الإصبع؟

قلتها ووقفت، ترك الطبيب مقعده وجاء فوقف أمامي:

- ليس المهم قطع الإصبع.. هناك ما هو أهم الآن: الحمية!
- الحمية من ماذا؟
- من الشرب والتدخين وأكل السكريات. ابتعد، منذ اليوم، عن أكل كل طعام فيه سكّر، حتى الفاكهة نفسها. سأكتب لك قائمة بالممنوعات

تركته يكتب. لم أحاوره. ما نفع الحوار؟ «قتلني أولاد الكلب!» وكل يوم جديد هو يوم زائد في حياتي. أعرف هذا جيّداً. أنا لم أقرأ أيّ كتاب طبّي، ولم أهتم بآراء الأطبّاء في الصحف، وعبد الجليل لم يقل لي شيئاً عن هذه المسألة. لكن ما همّ؟ ما النفع؟ «قتلني أولاد القحبة وانتهى الأمر» ما تبقّى هو أن أفكر بمصير لبيبة، كيف ستعيش لبيبة من بعدي؟

عاد الطبيب إلى الكلام:

ـ كل طعام فيه سكّر ممنوع.

ـ أنا لا آكل طعاماً فيه سكّر، الحلويات لم أذقها منذ سنوات.

ـ ليس الحلويات وحدها أقصد النشويات كلها: من الخبز إلى الرز إلى العنب والفاكهة السكرية بكل أنواعها.. ثم الخمر، وهناك التدخين، عليك أن تتوقّف عن التدخين من الآن.. مفهوم؟

ـ مفهوم تماماً. متى تقطع الإصبع يا حكيم؟

ـ بعد يومين.

ـ في العيادة؟

ـ لا، في المستشفى الوطني.

ـ تقصد الحكومي؟

ـ نعم، عليك أن تحصل على «أوراق فقر الحال» لتتعالج مجاناً

ـ وما هي «أوراق فقر الحال» هذه؟ من يعطيها؟

ـ المختار طبعاً!

قالت لبيبة:

ـ انا فهمت. [illegible]وراق ستكون جاهزة غداً، بعد غد ننتظر العملية.

ـ ليست عملية. هذه كلمة ضخمة. قطع إصبع فقط!

ـ قطع إصبع فقط. شكراً.

[illegible] من الجحيم. العيادة البيضاء، بكل ما فيها، حتى مريول

الطبيب، غدت سوداء. لنبتعد. ابتعد يا مفيد. يكفي سواد الليل، وسواد الإصبع، وسواد النصائح حول الحمية والطعام والشراب والتدخين. أطبقت فمي ولم أفتحه إلا في البيت.

قلت:

ـ فنجان قهوة يا لبيبة، وبسرعة.

ـ من حظّنا أنك تشرب القهوة دون سكّر.

ـ والسيكارة أيضاً دون سكّر، والعرق دون سكّر بعد اليوم. خراء! لم يبقَ غير الخراء!

صاحت لبيبة:

ـ ولكن لماذا كل هذا؟ ما سبب قلقك وعصبيتك هذه؟

قلت:

ـ أنا غير قلق. غير عصبيّ. أنا كيّس. سأكون كيّساً دائماً. فهمت ما قاله الطبيب. وفهمت المرض. والحمية، وأوراق «فقر الحال» وقطع الإصبع.. ستكون قدمي جميلة جداً دون إصبع. وسأكون سعيداً دون عرق، دون تدخين، دون فاكهة، سأشرب بولي، وأدخّن ورق الجرايد، وآكل البلوط..

ـ ولكن يا مفيد، يا حبيبي، يا...

قاطعتها:

ـ وحشي! هذه هي الكلمة. لا تناديني باسمي، كلمة «وحشي» هذه كافية، إنها لذيذة، مطابقة للوضع، في الماضي والحاضر، وكذلك في المستقبل، أنا وحش حقيقي، أنا حمار أكثر من ذلك الحمار الذي قطعت ذنبه.

ـ تيأس بهذه السرعة؟

ابتسمت دون اهتمام بما أسمع أو بما أقول:

ـ لا يأس مع الحياة!

ـ تسخر؟

ـ أتذكر كلمات عبد الجليل.

ـ من هو عبد الجليل هذا؟

ـ مكيّس في حمام السجن! ثم، لا كلمة واحدة بعد. هاتي القهوة وعلبة السكائر، و«دزكة» العرق. الليلة سأحتفل بخروجي من السجن، برجولتي، بشجاعتي، بكل ما في حياتي من رذائل وفضائل!

لم تتحرك لبيبة. بدت محتارة، غير مصدّقة. رافضة طلباتي. عدت إلى القول:

ـ القهوة يا لبيبة، يا زوجتي العزيزة.

ـ القهوة نعم، ولكن السكاير لا.. لن تدخّن ولن تشرب بعد اليوم، لا بدّ من «الريجيم».

ـ ما هذا «الريجيم»؟ تعلّمت الفرنسية؟

ـ يا إلهي! أنت تسخر بسوداوية كما قال الطبيب، مع أنك ستشفى.

ـ ومن قال إنني أريد الشفاء؟

ـ ولكن الشفاء ضروري، لأجلك، لأجلي، لكي نعيش.

ـ بالنسبة إليّ انتهى العيش، قتلوني أولاد الكلب!

ـ من هم الذين قتلوك؟

ـ الحكاية طويلة، اسرعي بالقهوة.

شربت القهوة متمهّلاً. رشفة رشفة. مع كل رشفة مجّة من السيكارة. نفخت الدخان. خرج من فتحتي الأنف والفم، كأنما أنفخ الماضي كلّه، أخرجه من داخلي، من معدتي، من رأسي، أحرقه مع السيكارة، وأحترق معه، فننتهي معاً، ويطوينا النسيان معاً. نعم! سأنتهي، ستنتهي يا مفيد!

وهذا أفضل لك من حياة لعينة كهذه. أنا أعرف. الطبيب لم يقل كل شيء، لكنني، أنا، فهمت كل شيء. أعرف نفسي، أعرف مرضي، أعرف تدهور صحّتي، وأعرف الماضي، الماضي الذي كان فارغاً، دخاناً، طيشاً، كان لا شيء، وحين أردت أن أجعله شيئاً، أن أجعل حياتي مستقيمة، شريفة، سخر القدر مني، رماني بالمرض، لتكون نهايتي، مثل بدايتي، سوداء، قذرة. ولكن من المسؤول؟

دائماً، وأنا أواجه المصاعب، وأغوص في الوحل، وأنتقل من بالوعة إلى أخرى، يخطر لي هذا الخاطر: من المسؤول؟ وأبداً لم أتوصّل إلى جواب، ولم يعطني الأستاذ ماهر هذا الجواب. قال أشياء عن المجتمع نسيتها، لأنني لم أقتنع بها، لم أفهمها، ما علاقة المجتمع بحياتي؟ ما هو المجتمع أصلاً؟ أين أجده؟ في الخمارات؟ في المواخير؟ في السجن؟ في الميناء؟ عند العطارين؟

بعد القهوة بدأت الشرب. شربت نخب السكر. هذا المرض الحلو، الذي يليق بالأكابر، بالأوادم، بأولاد الذوات، المرض الذي له اسم جميل وفعل رديء، مثل طبيعتي وأعمالي. لقد قال لي الأستاذ ماهر يوماً: «طبيعتك حسنة وأفعالك سيئة» فهززت كتفي غير مبال. أنا لست شريراً. كنت صغيراً ولم أكن شريراً، كنت تلميذاً وجائعاً، فكيف يتعلّم الجائع؟ يشحد؟ الشحادة ليست ملائمة لعقليتي، رفضتها. رفضت المدرسة معها. ضربني والدي، وكي أنتقم ضربت أولاد الضيعة. وضربني المعلّم، وكي آخذ بثأري قطعت ذنب الحمار، فطردني والدي من البيت.

هذا هو عمري: طويل قصير، سريع بطيء. في أيام الحرية كان سريعاً، وفي أيام السجن كان بطيئاً. أنا الآن حرّاً. أنا مريض، ومرضي حلو: السكّر! كم هو جميل ولذيذ هذا السكّر! وكم هي نصائح الطبيب

خفيفة ومفيدة! وكم هي طيبة ورائعة لبيبة! وكم أشعر بالسعادة لهذه النهاية!

- كاسك!

قالت لبيبة:

- كأس من تشرب؟
- كأس السكّر.

أضفت:

- ممتع أن يشرب الإنسان كأس السكّر.
- أنت تعذّب نفسك. خفت من قطع واحد من أصابع قدمك؟
- تعرفين أنني لا أخاف. المسألة ليست قطع الإصبع، بل قطع الرِّجْل.

صاحت فزعة:

- الرِّجل!؟ بعيد الشر. لن أتركك تدخّن وتسكر، أنت. . .

قاطعتها والابتسامة البلهاء على شفتي:

- أنتحر!

بكت:

- لماذا تقول هذه الكلمة؟ يئست بهذه السرعة؟
- لم أيأس. كرهت، قرفت، وكي لا تصير الكأس مرّة، أشرب نخب السكّر الحلو.
- مجنون!
- ما كنت يوماً عاقلاً.
- لماذا لا ترحم نفسك وترحمني؟ تريد عذابي؟ تزوّجتني كي تعذّبني؟ كفّ عن التدخين والشرب.

نظرت إليها بشفقة. هزّتني كلماتها هزّاً. ما ذنبها، هذه المرأة التي

ضحت لأجلي كثيراً، وانتظرتني طويلاً؟ ما ذنب الذين جنيت عليهم: أبي وأمي وإخوتي؟ وما ذنب هذه الإنسانة النادرة، مثل الذهب، أن أجني عليها؟ لو كنت عاقلاً لكان عليّ أن أعمل بنصيحة الطبيب. لو كنت أحبّها حقاً لكان عليّ أن أطيعها. لو كنت أريد الحياة، لأجلها على الأقل، لكان عليّ أن أرمي بعلبة السكائر وزجاجة الخمر في مجرور المدينة. لكنني لست عاقلاً، ولست مطيعاً، ولا أريد العيش درويشاً. أنا مفيد الوحش! أنا الذي أكلت الحياة، ولن أترك الحياة تأكلني. هي وأنا، الحياة وأنا، وسنرى من منا الأقوى.

عادت لبيبة إلى القول:

- كفّ عن التدخين والشرب.

قلت:

- فات الأوان.
- لم يفت شيء. مجرد مرض سكّر، عندنا مئات المصابين به، وكلهم يعملون بنصائح الأطباء ويشفون. عليك، أنت أيضاً، أن تعمل كما أوصاك الطبيب.
- بعد أيام سيقطعون باهم قدمي.
- وماذا في ذلك؟ ما همّك وأنت القوي؟ إصبع في قدمك؟
- لو كانت المسألة تتوقّف على إصبع ما خسرنا شيئاً. المشكلة يا لبيبة في القدم. هذه قدمي وأعرفها. أحسّ بها. أراها وأرى كيف أخذت تزرقّ هي أيضاً.
- الطبيب لم يقل شيئاً عن الرجل. كلامه مفهوم: الإصبع وحدها!
- الطبيب، عادة، لا يقول كل شيء. . الجرّاح هو الذي يقرّر.
- لا تقنط من رحمة الله.
- الرحمة عليّ، على رجلي، على حياتي. . لقد قتلوني. . قتلوني بشكل حلو، بالسكّر، كأس السكّر!

نفضت لبيبة يدها مني. تركتني أدخّن واشرب. ركبها غمّ شديد. تعرف أو لا تعرف؟ الأرجح أنها تعرف. تريد إنقاذي بأيّ ثمن. أنا مركب وهي ريّس. أنا ريّس على الناس، وهي ريّسة عليّ، ومن قلب النوّ تريد إنقاذ الهيكل الخشبي للمركب الذي يغرق. أقول لها: «لا فائدة!» أقول لنفسي: «لا فائدة!» هل هناك فائدة؟ خمسة أعوام من السجن، من الرطوبة والعتمة والعفن، من الموت على مهل، الموت على نار خفيفة، حتى طهوني جيداً، صرت وجبة جاهزة، صنعوا مني أكلة للكلاب.

«نمت مع الفجر. استيقظت متأخراً. شكلت ابتسامتي في موضعها. لبست نصيحة الطبيب حلقاً في أذني اليمنى. لبست نصيحة لبيبة حلقاً في أذني اليسرى. مزّقت الغيم بأظافري. فتحت طاقة للنور في السماء. تظاهرت بعكس ما أؤمن.رضيت أن نسعى بتدبير «أوراق فقر الحال» رضيت بالذلّ. المسافة بين الميناء والسجن والبيت قصيرة وطويلة. خمسة أعوام دهر. خمسة أعوام يوم من الدهر. أنا عشت هذا اليوم. كان يوماً فظيعاً، حياتي كلها يوم فظيع. أعرف نفسي. ماذا أقول الآن؟ ومن يستمع لقولي؟ الدنيا تبدّلت. الدنيا سريعة التبدّل. الدنيا دولاب. أنا دولاب دار، دولاب يدور، أنا مركب نجحت الجرذان في ثقبه، فأصبح تحت رحمة العاصفة والموج. من يسدّ الثقوب؟ من ينقذ المركب؟ أنا ولا أحد سواي. أنا أريد. لا فائدة حتى لو أردت. حلم السفر عصا انكسرت. البحر الأزرق صار رمادياً. صار عكراً، صار بركة من ماء ووحل. السكّر منجل حصد كل الزرع، ذبل الزرع، يبس، صار قشّاً، صار غباراً، زرعك، يا مفيد، لم يعقد. ارتفع القمح ولم تنعقد السنابل. ازهرت اللوزة دون أن تثمر، الدالية عرّشت حلماً جيلاً، حلماً بالميناء، والبحر، والسفر، والعمل، وجاء الصقيع فقضى على الخضرة كلّها. أنت فلاح مثل أبيك، وزرع أبيك مات قبل زرعك، كذلك مات زرع الفلاحين، الشقاء واحد،

في الضيعة والمدينة، وبعد هذا العمر، عليّ أن أمدّ يدي وأتسوّل، عليّ أن أشحد «أوراق فقر الحال».

لبيبة. ملاكي الأبيض، الملاك الذي نزل عليّ من السماء، الذي أرسلته إليّ السماء، لبيبة، لبيبتي، ذهبت وجاءت. طرقت الأبواب فلم تُفتح لها، طرقت أبواب الناس فوجدت ذاكرتهم ميتة. تضرّعت للمختار، ومديرية الصحة وطبيب المستشفى. حصلت، بعد أربعة أيام من الركض، على «ورقة فقر الحال». دخلت المستشفى. دخلته على أمل الشفاء ولكن كم في المشافي من آمال ذات عناقيد؟ وكم هي سليمة هذه العناقيد؟ وماذا تركت الدبابير من حبّات العنب؟ قشر؟ الحبّة قشر، والعنقود قشر، والنبيذ خلّ، والمشافي تضع آمال المرضى في صندوق الزبالة، وهناك وضعت حلمي أيضاً. فهمت الحقيقة عندما صحوت من البنج، الجرّاح قطع الرجل من فوق الركبة، ما توقّعته صار، وبقيت التعازي، ولم أجد من المعزّين سوى لبيبة، بماذا تفعل لبيبة؟ ماذا تفعل امرأة لزوجها المريض؟ تعزّيه؟ تعزّي نفسها؟ تتركه يدفن نشوة ماضيه في حفرة مع ساقه المقطوعة؟ وماذا بعد الساق؟ الساق الأخرى؟ كيف أبدل سواد الغراب بصدر حمامة بيضاء؟ من أين أستمدّ الإيمان بالشفاء؟ هل الشفاء رقية؟ حجاب؟ حجاب نذوّبه ونشرب نقيعه في كوب؟ ولماذا هذه الأسئلة؟ لماذا تكثر، يا مفيد، يا ابن الكلب، من الأسئلة؟

أيام وأيام وأيام. محاولات، خيبات، أفكار سود، أفكار بيض، وأنا آكل محاولاتي وخيباتي وأفكاري السود والبيض، وأبذل، كقبطان سفينة، آخر جهدي للعوم، للوصول إلى الشاطىء، للوقوف عند شاطىء، لترميم السفينة، لإصلاح الصاري والدفّة وزورق النجاة، وخلال ذلك، أسعى، أبذل ماء وجهي، أبيع الشفقة، أدلّل على الإحسان، وبقدم واحدة، مع عكّازة، أقدّم العريضة بعد العريضة لإعطائي أي عمل أعتاش منه،

وتُرفض العرائض، واحدة بعد واحدة بعد واحدة، أو تهمل. مع ذلك أرفض اليأس، لأجل لبيبة وحدها، لأجل ألاّ أجعل حياتها، بداية ونهاية، زرقاء، داكنة، متآكلة، مثل رجلي الأخرى التي قطعوها بعد عام من قطع الرجل الأولى.

كتلة لحميّة. شجرة قُطعت أغصانها. اقتلعت جذورها. جذع دون أطراف. إذا وضعت يدي على ركبتي صرت هذا الجذع، هذه الكتلة اللحمية التي بقي منها رأس، رأس ضخم، شعر مكرمش، رماديّ، وعينان من لون الخريف، وشارب كأنه دهان ترابي، فوق شفتي العليا، التي تتعلق بها ابتسامتي إياها، وذقني المنطعجة، في وجه عريض، شايب الشعر النابت، والمرآة في يدي، ويدي مرفوعة كي أرى صورتي، ما تبقّى من صورتي: الكتفان والرأس المركّب بينهما!

صباحاً أُوضع على الخوان، ومنه أرى الشارع. أرى الناس، والسماء، والأشياء، وأحياناً يدفعني الفضول إلى تأمّل نفسي، الكتلة اللحمية المتبقّية مني، بفخذيّ المقطوعتين من فوق الركبتين، وصدري المنحني بضخامته على الفخذين، وظهري المقوّس بفعل الجلوس، ومنظري المشوّه الذي لا أدري هل يدعو إلى الضحك أم إلى البكاء، إلى الشفقة أم إلى الرثاء، أنا الحيّ الميت، الذي يرى الدنيا من طاقة الباب، والذي صار الباب المطلّ على الشارع العام، كلّ صلته بالعالم المتحرّك من حوله.

لبيبة تذهب صباحاً، بعد أن تساعدني في قضاء حاجتي الضرورية، وغسل وجهي ويدي، للعمل في الريجي. أبقى، في هذه الحال، وحيداً، أمدّ رأسي، مثلما تفعل السلحفاة، أتلقّى تحيات من أعرف من الجيران عبر الباب، عاطلاً، عاجزاً، مشلولاً، يقتلني الفراغ، ويدمي قلبي أن يتوقّف الصغار، الأطفال والصبيان، يتفرّجون عليّ، وأنا أبتسم لهم، فرحاً ببراءتهم، وهم ينظرون إليّ، ويأتون، أحياناً، بحركات فيها تعجّب، وفيها

تدافع، وشيء من سخرية، وعندئذ أحزن، وأطلب منهم برفق، بكلمات متوسلة، أن يدعوني وينصرفوا.

بعض المحسنين، وبعض أعضاء الجمعيّات الخيرية، من رجال ونساء، كانوا يمدّون إليّ أيديهم بمساعدات بسيطة. رفضت في البدء، سالت دموعي، شبّت نار في ضلوعي، قلت لهم:

ـ شكراً، لا أريد.

ـ لماذا؟

أنظر في عيونهم: «لماذا؟» وهل هي ضرورية هذه «اللماذا؟»، هل يجب أن أقول إنني أفضل الموت جوعاً، على أن أتقبّل إحساناً؟ وصلتُ إلى الدرجة التي صرت فيها فُرجةً، ومزحة، وسبباً للشفقة، ومستحقاً للصدقة؟ بلغ الهوان بي إلى الحدّ الذي صرت فيه شحّاذاً، له بيت معروف، ومقام معروف، ومن يريد الإحسان عليه أن يعطيه شيئاً عند مروره أمام الباب الذي يقبع وراءه؟ إنني أرفض، أرفض. لا أريد صدقة أو إحساناً أو كلمة عطف. المرض، في كل الأحوال، يأكلني، وسيأكلني، سيخرّب ما تبقى من جسدي، وعليه أن يسرع، أرجوه أن يسرع، أن يقضي عليّ، أن يُبقي على العينين فقط، على الفتحتين اللتين أرى منهما الدنيا قبل أن يأتي الموت، هذا الحبيب، الحلو، المريح، الذي تُظلم الأشياء حين يأتي، ويلفّني الظلام، وأدخل فيه، وأصير مثله، أصير ظلاماً، ولا أحتاج، عندئذ، إلى العينين، لأنه لم يعد هناك نور، ولا حاجة إلى النور.

تأتي لبيبة بعد الظهر، أنظر إليها برعب. معروفها يسبّب لي الرعب. أقول لها:

ـ لا تذهبي، غداً، إلى الشغل. لنغلق الباب، ونبق وراءه نحن الاثنين، ونظلّ وراءه حتى ننتهي.

أشعر بقسوة الفكرة. إذا كنت سأموت أنا، فلماذا تموت هي؟ قبرتُها حين كنت سليماً، وأقبرها وأنا عليل؟ أطلب منها ما هو فوق طاقتها؟ ما هو غير إنساني؟ ما هو همجيّ؟ لا، هذه أنانية مرعبة؛ كما هي طيبته مرعبة، وفي الحالين أنا السبب، وأنا وحدي من يجب أن يدفع ضريبة ماضيّ الملعون كله.

أقول لها:

ـ لماذا لا تتركيني يا لبيبة؟ اتركيني. سأرتاح لو خرجت ولم تعودي. سأكون أفضل حالاً وأنا أخلصك من همومي.

وتقول لبيبة:

ـ هذه وسوسة شيطان.

ـ هذه عاطفة إنسان أنت عزيزة جداً عليه.

ـ وأنت عزيز جداً عليّ.

ـ كيف؟ عزيز عليك وأنا في هذه الحال؟

ـ عزيز جداً لأنك في هذه الحال.

ـ أنت، يا لبيبة، كالآخرين، الذين يأتون ليتصدّقوا عليّ. أنت تتصدّقين بعاطفتك، بينما هم يتصدّقون بقروشهم.

ـ أنا لا أتصدّق بشيء.

ـ وإذا كنت أشعر بهذه الصدقة وأتألم منها؟

ـ في هذه الحال أنت تحبّني كما أحبك.

ـ وهل بقي في هذه الجثّة ما يحبّ؟

ـ هذه الجثّة هي أنت، وأنت عندي أغلى ما في الوجود.

ـ أنا محكوم بالموت، فلماذا أعذّبك معي؟ لماذا تريدين أن تموتي معي؟

ـ أنت لن تموت، وأنا لن أموت.

ـ ولكنني ميت، ميت منذ الآن. أغلقي الباب واذهبي، اهربي، أرجوك أن تهربي.

ـ كفى! لماذا تردّد هذه اللازمة كلّ يوم؟ ألا تعرف أن كلماتك هذه هي كلّ عذابي.. هيّا، سنأكل.

ـ أريد فنجاناً من القهوة قبل الأكل، أحبّ القهوة، أحبها أكثر من اللقمة. أفكّر وأنت غائبة: لو كنت أستطيع أن أتحرّك؟ لو استطعت الوصول إلى المطبخ وصنع فنجان من القهوة.

ـ ولماذا لا تنده الجيران؟ أيّ رجل، أية امرأة؟ سأوصيهم بك.

ـ لا، لا تفعلي.. أفضّل البقاء صائماً حتى تعودي.. أخاف المعروف، أكره المعروف، إنه يذكرني بعجزي، يجعلني أطلب صدقة من الآخرين.

ـ فنجان من القهوة ليس صدقة.

ـ إنه صدقة تماماً، معه أصير شحاداً مثل غيري.

ـ أنت تبالغ!

ـ أنا أحكّ جلدي.. لم يبق لي سوى حكّ جلدي.

ـ أنت مغرم بتعذيب نفسك.. حكّ الجلد تعذيب للنفس، أفهم ما تريده تماماً. أفهمك بالإشارة. كبرياؤك ستقتلك. أنت رفضت نصائح الأطباء بسبب هذه الكبرياء، وتدخّن وتشرب لإرضائها. أنت عنيد، عنيد بشكل لا يُصدّق.

أقول لها:

ـ أرجوك. لم يبق لي سوى الكبرياء. لم يبق من الماضي سوى هذه القشرة. لم يبق من بيت الأحلام سوى هذه الخشبة.. اتركيني أتعلّق بها، في هذا عزائي.

تقبّلني لبيبة. أبيح لها وجهي وخدّي وشفتي دون مقابل. أخجل أن أقبّلها. أخشى أن ألمسها ونحن في السرير. لم أعد صالحاً للحب حتى وإن قدرت عليه. لا أريد الحبّ مجاناً، لا أريده منحة، وعملية نكاح بائخة، أريده كما أردته دائماً: عظيماً، في وقته، في رجولته، وعزّه.

وتضحك لبيبة:

ـ أخطأ من لقّبك بالوحش. أنت صبيّ خجول.

ـ لست خجولاً، أقول لك لست خجولاً، لكنني أتعذّب يا لبيبتي، لا أقبل حتى نظرة الإشفاق.

ـ أنت مجنون!

ـ ليتني كنت مجنوناً!

ـ أنت مجنون دون أن تدري. لماذا لا تنسى الماضي؟

ـ لأنه كلّ ما بقي لي..

ـ وماذا تعشق فيه؟ شقاواتك!؟

ـ شقاواتي؟ أنت أيضاً يا لبيبة؟ تسمّين شجاعتي شقاوة، ورجولتي جنوناً؟ عرفت الآن لماذا أرفض الشفقة منك، ومنك على الأخص!؟ دعيني.. أريد فنجاناً آخر من القهوة.

ـ أنت تكثر من القهوة ومن السيكارة وهذا مضرّ. اهدأ. أنا لا أهين شجاعتك ورجولتك، أنت نفسك كنت تحدّثني عن شقاواتك، نسيت؟

ـ نسيت أشياء كثيرة، أشياء لا فائدة من تذكّرها.. أريد القهوة.

«كنت مستثاراً. تقول لبيبة: «القهوة مضرّة» ماذا بقي مما يضرّ؟ على ماذا أحرص؟ حياتي؟ هذه نكتة! أيّ حياة هذه؟ هي لا تقصد إهانتي. أنا أصدّقها. وتلك الشقاوات، لو يعود العمر لعدت إليها. كانت لذيذة إلى حدّ التحسر عليها. من هذه الشقاوات أخذت شجاعتي. من قماشتها كان قميصي ورجولتي، وغداً، حين أموت، أموت مرتاحاً، لأنني كنت شجاعاً. المرض يقضي عليّ. قضى عليّ وانتهى الأمر. لم يبق مني شيء، ولا آسف على شيء. لكنّ مخلوقاً في هذا الوجود لا يمكن أن ينكر أنني كنت شجاعاً، وسأبقى شجاعاً، أنظر في عيني الموت ولا أخاف».

شربت القهوة. ترشّفتها كعادتي على مهل. دخّنت معها. السيكارة مع

القهوة متعة. أستمتع بها إلى درجة النشوة. الطبيب نصحني بتركها. ترى لو تركتها كان يتركني المرض!؟ يتوقّف عن اكلي!؟ عن نشر الزرقة والورم الفاسد في أصابعي، في قدمي وجسمي!؟ ما أظن. كانت المعالجة مفيدة في أول المرض، وفي أول المرض كنت في السجن. أنا لن أغفر لمن وضعوني في السجن، وأبقوني فيه. لكنني، الآن، عاجز عن الانتقام، غفراني أوْ عَدَمُه لا يسوي قرشاً. تحالفوا مع المرض عليّ، سلّطوا المرض عليّ، من سلّط المرض عليّ!؟ يا لبيبة، لا تعرفين ما أعرف، لا تشعرين بما أشعر. أنت تعذّبين كما أتعذّب. ربما أكثر مما أتعذّب. هذا صحيح. أنا أشكرك. أشكرك بعدد الشعر الذي في رأسي، وأعلم أن هذا الشكر لا يفيد في شيء. ما يفيدك هو الابتعاد عني، تركي لمصيري، اعتبار زواجنا كأنه لم يكن، لكنك ترفضين. هذا الرفض يقتلني، أنت يا لبيبة، تقتلينني. كفّي عن قتلي، كفّي عن قتلي، وإلا صرخت بأعلى صوتي. يجب أن أصرخ بأعلى صوتي، فحين أكون غير مستحّق للمعروف، يصبح المعروف سكّيناً تقطع في لحمي.

سألتني لبيبة:

ـ بماذا تفكر يا مفيد؟

ـ لا أفكر في شيء..

ـ كيف؟ أنت تفكر..

ـ عبدوش قال إنني لا أفكر. أنا أصدق عبدوش.

ـ لا تصدّق عبدوش، كل إنسان يفكّر، وخاصّة في المرض والشدّة، أنت مريض، تفكّر في المرض، وعليك أن تنسى المرض، أن تعيش بشكل طبيعي.

ـ لا أستطيع أن أكون طبيعياً. هكذا خلقت. ربّ خلقني من طينة غير التي خلق منها البشر، لهذا لم أكن بشراً، كنت حيواناً، وسأموت حيواناً، وسأشرب نخب حيونتي، هاتي زجاجة العرق!

ـ أعرف ما تفعل؟

ـ أعرف أني أسبح، كما هي عادتي، ضد الموج، سبحت كلّ حياتي، ضد الموج، ولا فائدة من الكلام أو النصائح.

تلوّت لبيبة من الخوف والألم. تلوّت من الشقاء والعمل في الريجي، ضاق صدرها بعنادي. ضاق صدري، أنا أيضاً، بعنادي، لكن كيف أفعل لأستعجل الموت؟ أناديه؟ أرسل دلّالاً في طلبه؟ يا موت! يا موت! يا ابن القحبة، لماذا لا تأتي؟ ولماذا لا تسرع في المجيء؟ أنقذني، انقذني، خذ حياتي، أوصلني إلى الراحة.

كانت، في الطرف الآخر من الخوان، نقود وضعها رجل صديق. من يوم لآخر، يأتي بعض الأصدقاء يضعون لي نقوداً. أصرخ: «لا أريد!» أرفض أن أمسّها بيدي، فيضعونها بعيداً عني. يرغمونني على القبول، وعلى بلع الإهانة، وعلى الشحادة بطريقة مهذّبة. ومع الأيام، ونتيجة للفقر والحاجة، ولشراء الدواء والطعام، بدأت لبيبة تأخذ النقود وتصرف منها. كنت أراها، وأعاتبها، وأتوسّل إليها أن تلقي بها إلى الشارع. لكن لبيبة كانت عاقلة، وبدوري أرغمتني أن أكون عاقلاً هكذا، كثور الحراثة، أصبحت عاقلاً، وكان على هذا الثور أن يتخلى عن مشاكسته، أن يصبح مطيعاً، أن يحرث أرضاً بوراً، وكنت هذا الثور الذي لم يعد يهيّجه حتى البيرق الأحمر، فهو يحرث ويحرث، والغلّة زيوان. صار الخبز زيواناً. صرت أغصّ باللقمة. ومع ذلك ألوكها وأبلعُها، ألوك الشوك وأبلعه، ثم أنظر إلى السماء معاتباً، لكن السماء لا تردّ على عتابي، أو لا تسمعه أصلاً.

كنت أبقى، بعد ذهاب لبيبة إلى شغلها، جالساً حيث ساعدتني على الجلوس، في طرف الخوان المقابل للباب، شارداً عن الدنيا، ساهياً، حتى كأنني غير صاح، غير موجود. كنت أنام، بتأثير الدواء، وعندئذ تأتي الأحلام الجميلة، فأرى نفسي طفلاً، في ضيعتنا، وأرى والدي أو والدتي.

أحياناً إخوتي، وتلعب عليّ الأحلام، فأعود إلى الماضي، أعيش أيّامي من جديد، أتساءل: كيف حسبت أنني مقطوع الرجلين؟ ها أنا أمشي، واركض، وأطير، وها أنا أحبّ، وأعمل، وأنزل البحر، وأصطاد السمك. ثم أجد نفسي على مركب، أو في سيارة، أو في مقهى، ثم فجأة يتوقّف كل شيء: أستيقظ! أعود إلى وضعي، إلى حقيقتي، إلى رجليّ المقطوعتين، وحالتي اليائسة. أتذكر موّالاً كانت تدندن به أمّي وهي تعمل: «لو ان الحلم يصدق في المنام، ليالي كتير صادفنا الحباب!» أهزّ رأسي. الأحلام، في المنام، لا تصدق. والانسان لا يظلّ يحلم.. ترى، عندما يموت الإنسان، يحلم؟ ما أجمل أن يحلم الإنسان وهو ميت. أن يظلّ في حلم لا أول له ولا آخر. يظلّ يحلم ويحلم، ويقبض على حلمه، على اللحظات الجميلة في حلمه، فلا يتركها تمر أو تنقضي.

بعد النوم، يصير فنجان القهوة أمنية. لم أعد أتمنّى شيئاً كثيراً أو كبيراً. أمنياتي صارت بسيطة: أن أتحرّك من مكاني، أن أذهب إلى المرحاض، أن أصنع فنجان قهوة، أن يمرّ بي إنسان يعرفني، أن يدخل ويحادثني، أن تكون لبيبة إلى جانبي، أن أتخلّص من عجزي ووحدتي وشقائي.

ذات يوم، حوالي الظهر، أحسست أن إنساناً يهزّني من كتفي. كنت نائماً. أحلم بما لا أدري. كنت مستغرقاً في النوم، راغباً أن أنام، وأن أظلّ نائماً، وأن أموت وأنا نائم، وهكذا ينتهي كل شيء بسلام. لكنني، هذه المرة، استيقظت والدهشة عالقة في جفوني. كان إبراهيم الشنكل أمامي. هل يمكن؟ أنا أحلم؟ هل هذا ابراهيم الشنكل بلحمه وشحمه؟ لا أصدق. محال! أنا ما زلت أغطّ في النوم، إنني أحلم، وقال ابراهيم الشنكل:

ـ لا يا مفيد، أنت لا تحلم، أنا ابراهيم الشنكل حقيقة.

مددت يدي. تناولها وشدّني إلى امام، كي أجلس مستقيماً على الخوان.

فعل ذلك بغير كلام. انطرح عليّ وراح يقبّلني. قبّلته بدوري. أخذني بين ذراعيه، أخذته، أنا أيضاً، بين ذراعيّ. خانتني أعصابي فبكيت، وبكى هو معي، ومرّت اللحظات ونحن في صمت مثقل بالحزن والأسى.

كان ابراهيم، هذا القريب من بعيد، عزيزاً عليّ، كان من الماضي، يحمل معه الماضي، وكان الماضي جميلاً، مؤثّراً، هجم عليّ بغتة، تذكّرته، وقلت في نفسي «أهذا كل ما بقي منه!؟» وقال ابراهيم:

ـ يؤسفني، يا مفيد، أن أراك، بعد كلّ هذه الغيبة، وأنت على هذه الحال.

أضاف وقد لاحظ أنني ما زلت مختنقاً بالتأثّر:

ـ اهدأ، لا تتكلم، لا تقل شيئاً، أعرف عنك كل شيء.

قلت بعد أن تماسكت:

ـ ما تعرفه عنّي يحزنني.. ليتني وضعت كلماتك خرزات في أذني.

ـ وضعتها أم لم تضعها، هذا لا يهمّ. المهمّ أنك ما خنت عمّال الميناء، لكنك قاتلت وحدك.

قلت:

ـ وهذا خطئي الكبير.

ـ رغم الخطأ كنت شجاعاً.

ـ لا تواسني، أعرف أنني لا أستحقّ.

ـ كيف لا تستحقّ؟ أنستك الشدّة كل شيء؟

ـ ليتها تنسيني.. كنت أتعزّى قليلاً.

ـ كلنا يريد أن يتعزّى قليلاً.

ـ أنت لا. أنت، منذ عرفتك، كنت مستقيماً.

ـ الاستقامة جعلتني أدفع الثمن. كلنا، يا مفيد، يدفع الثمن.

ـ أنت كنت نافعاً للناس، اما أنا..

فاطمني:

ـ لا تتأسّف! كلنا أراد منفعة الناس بطريقة. أنت خضت معركة مع «البريغوته»، قاومت الاحتلال الفرنسي دون أن تدري أنك تقاوم الاحتلال الفرنسي، وقفت ضد الملتزمين والظالمين والعجوز في الميناء، وهذا جيّد.. هذا ما فعلته أنا أيضاً، ولكن بطريقة أخرى.

ـ أنظر بماذا كافؤوني؟

ـ مكافأتنا كانت واحدة.

قلت:

ـ سجنوك طويلاً؟

قال:

ـ سجنوني طويلاً.

ـ وعبد الجليل؟

ـ مات عبد الجليل!

ـ كيف مات؟

ـ في السجن..

ـ وأنا أموت خارجه.

ـ لا يهمّ، الموت واحد، وهو حقّ، لكن الأسباب تختلف، والمصائر تختلف، لا بدّ من الصبر، أصبر..

ـ أصبر على ماذا؟

ـ على تحمّل بلواك.

ـ بلواي أكبر مني..

ـ الانسان أكبر من كل بلوى..

ـ هذا أنت، عشرون سنة وهذا أنت.

ـ وسأبقى كما أنا..

ـ [illegible] رائع!

ـ [illegible] رائع!

و[illegible]

ـ كان كلامك صحيحاً. كان صحيحاً جداً. كنت تعرف، وكنت أجهل. هذا هو الفرق بيننا.

قال:

ـ على الجميع أن يعرفوا..

قلت:

ـ ألا يعرف الناس بعد؟

ـ الذين يعرفون قلّة..

ـ ومتى يعرف جميع الناس؟

ـ بعد زمن طويل، طويل جداً، أكثر مما تتصوّر.

ـ وما فعلتموه، أنت وعبد الجليل والأستاذ ماهر، وغيركم..؟

ـ سيأتي غيرنا أيضاً.

ـ ويضيع كلّ ما فعلتموه؟

لا شيء يضيع، غيرنا كان قبلنا، وغيرنا سيكون بعدنا، وبعد هذا الغير سيأتي آخرون، وآخرون.. الدرب طويل، السائرون عليه كثر.. [illegible]! لن تنقطع السلسلة، هم الذين، في النهاية سيقطعون السلسلة..

ـ أنا لا أفهم..

أنت تفهم. أن تسأل يعني أنت تفهم. الحياة كلّها أسئلة، وحين لا تكون أسئلة لا تكون حياة.. كل الناس سيسألون، ومهما طال الزمن، تزداد أسئلتهم، وفي النهاية لا بد من أجوبة. هم، بأنفسهم، سيجدون أجوبتهم.. لكن حدّثني عن حياتك، حدّثني عن السجن، وما بعد

السجن، وقبل الحديث لنشرب القهوة، عندك قهوة؟ أنا ثرثار، لا أشبع من الثرثرة، عادة، عادة سيئة، لا أستطيع التخلص منها، مع أنني «خرمان»(١) على فنجان من القهوة.

وصحت فرحاً به:

ـ أنا «خرمان» أكثر منك.. المطبخ هناك، أرجوك، أنا عاجز، وإلا:

لم تبلغه كلماتي كلّها، وما حاجته إليها؟ رآني عاجزاً، وكان مستعداً، في سبيل فنجان من القهوة، أن يذهب حتى إلى السوق. أعرف كم يشتهي القهوة، كلّ الذين على شاكلته يحبّون القهوة. من الذي زرع القهوة؟ من اكتشفها؟ من أوّل من صنعها؟ اسأل الله، أنا العاجز، أن يريح عظام الذي اكتشف القهوة في قبره، وأن يريح معه عظام الذي زرع الدخان(٢) وشربه، وباعه واشتراه آمين يا رب العالمين.

فركت يديّ لشدة سروري. «ماء بارد، وفنجان قهوة، سيكارة، وصديق قديم، وحديث من القلب، شكراً يا الله، شكراً على هذا اليوم الجميل. الإنسان، ولو كان مثلي، يجد مثل ابراهيم الشنكل، وهو يجد مثله، ومثله يجد مثله، يعني لا يبقى الإنسان وحيداً، الدودة، في البرّية، لا تبقى وحيدة». هذا ما أذكره من كلام عبد الجليل. الرحمة عليك يا صديقي، يا عبد الجليل.

جاءت القهوة ومعها الماء البارد. الماء يشرب أولاً، روى لي سجين هذه النادرة: «بنت بدر تركت خطيبها لأنه شرب الماء بعد القهوة. اعتبرته غبيّاً، قليل الذوق. الأوادم يشربون الماء أولاً والقهوة ثانياً «منذ ذلك اليوم صرت من الأوادم، أشرب الماء وبعدها القهوة. مزاج! أنا صاحب مزاج! طبيعتي

(١) خرمان: شديد الشهيّة.

(٢) الدخان: التبغ.

طبيعتي، وكانت طبيعة ابراهيم الشكل مماثلة، فقد راقبته، ورأيته
الماء قبل القهوة، فازداد اعتباره في نظري، قلت له.

اسمع يا عم ابراهيم، الغداء عندي

ومن قال لك إنني سأتغدى في السوق؟

ـ خفت أن تشفق عليّ؟

ـ ولماذا أشفق عليك؟

ـ من العجز والفقر..

ـ لا أتعامل بالشفقة مع هذين الصنفين. لي قلب، أنا الآخر.

ـ ولكنك شفوق، أعرفك، لا تسايرني كثيراً، أرجوك!

لا داعي للرجاء. أشفق أو لا أشفق، هذا لا يهمّ، أنا لست عضواً في
معية للإحسان، طريقي غير هذا الطريق. أعرف أين اقف.

ـ وأنا أين أقف؟

ـ في المكان اللائق..

ـ أنا لا أقف في المكان اللائق، صرت أقبل الصدقة.

ـ حين يأتي الأصدقاء إليك، وأنت مقطوع الرجلين، تختلف الحال،
ت، لا تمدّ يدك للناس.

ـ أخاف أن أضطر إلى مدها..

ـ لماذا؟ لأنك عاجز؟ العجزة أيضاً يعملون.. فكّر بشيء ينفعك.

قلت:

ـ ما هو الذي ينفعني وأنا عاجز كما ترى؟

ـ تركيب دواليب لهذه «الدزكة»[1].. أنا من سيركب الدواليب. تعلمت
النجارة في السجن.

---

(1) الطاولة الخشبية الصغيرة الواطئة

ـ وبعد؟

ـ تتدرّب على الانتقال من الخوان إليها، ومنها إلى الخوان، وهكذا يصبح بإمكانك التنقلّ في البيت. أضاف:

ـ عندي فكرة أخرى.

ـ ما هي؟

ـ أن تبيع، أمام الباب، بعض الأشياء: الدخان والكبريت والسكاكر وغيرها، أشياء متنوّعة، للصغار والكبار فتربح قليلاً.. ما رأيك؟

ـ لم أفكر بهذا..

ـ أنت فكر وأنا أنفّذ.. سأذهب الآن وأعود..

ذهب ابراهيم وعاد. ظل يذهب ويعود. في كل مرة كان يقوم بعمل ينفعني. قضى نصف يوم في تركيب دواليب الدزكة. قدّم عريضة باسمي للحصول على رخصة لبيع الدخان. حصل عليها. أمضى ساعات في تمريني على الانتقال إلى الكرسيّ الذي اخترع له دواليب. ذهب مع لبيبة واشترى البضاعة التي سأبيعها.

قلت له:

ـ بذلت حياتي، بذلت روحي أيّ ملاك أنت؟

ـ أنا إنسان لا ملاك. زمن الملائكة مضى. لو تعرف عيوبي.

ـ أنت لا عيب فيك.

ـ أنت واهم. أنا ابن هذا المجتمع، والمجتمع مليء بالعيوب. أنا أيضاً لي عيوبي.

ـ ولكنك إنسان رائع.

ـ أنا إنسان فقط

قلت:

ـ أنت انسان يعرف كيف يغير الروح، يسعدها

ـ الروح تسعدها الكلمة الطيّبة.
ـ هل تعمل هذا مع الآخرين؟
ـ حين يكونون في حاجة إليّ.
ـ لماذا كل هذا التعب؟
ـ لارتاح نفسياً.
ـ أنت لست طبيبا نفسانياً؟
ـ لا أفهم بالطبّ مطلقاً.
ـ الأستاذ ماهر كان يفهم.
ـ هو قال ذلك؟
ـ لم يقله. أنا استنتجته. وجدته يفهم في كل شيء.
ـ لا أحد يفهم في كل شيء.
ـ الأستاذ ماهر كان يفهم.

رازني قليلاً وسأل:
ـ تحبّه؟
ـ جداً. لو جاء مرة لزيارتي.
ـ إنه مسافر.
ـ متى يعود؟
ـ لا أدري. ماذا تريد منه؟
ـ أن أراه..
ـ لمجرد الرؤية؟
ـ لكي اقبله. أقول له شكراً. كم ذكرته في سجني. كم سألت عنه. كم من أفضال له عليّ.

علّمني القراءة والكتابة والمطالعة، بفضله طالعت كثيراً من القصص في السجن.

ـ قلت لي إنك كنت في المدرسة وأنت صغير.
ـ كنت، لكن المعلم لم يفهمني، ذقت منه الويلات، كرّهني بالمدرسة والدراسة.
ـ هذا سبب شقاوتك.
ـ هذه لا أنكرها. كنت شقياً فعلاً، لكن الأستاذ ماهر لم يرفضني لأنني شقي، وحتى لصّ. كان يفهمني.
ـ فهم الناس يحلّ نصف المشكلة، يختصر المسافة.
ـ أنا لا أفهم الناس بهذه الطريقة، لا أستطيع أن أفهمهم أو أعاملهم بهذه الطريقة.
ـ لكل واحد طريقته.
ـ طريقي كانت خاطئة.
ـ لا أوافقك على هذا. ظروفك دفعتك إلى ما اندفعت إليه. لو وُجدت في ظروف أخرى لكانت لك طريقة أخرى.
ـ وجدت نفسي في مختلف الظروف، وظلّت طريقتي هي هي، أنا أعترف.
ـ أنت، في مرات كثيرة، فضلت الآخرين على نفسك، عبد الجليل قال لي ذلك.

أضاف:
ـ هذا التفضيل للغير على النفس، هو طريقة نافعة. تذكّرْ كم من أشياء نافعة فعلتها في حياتك تسترحْ. يا مفيد! يا ابني! لا تعذّب نفسك، في كل إنسان بقعة ضوء في الداخل، حتى ولو لم يعرف هو ذلك.
ـ وما هي بقعة الضوء في القاتل؟
ـ قل لي لماذا قتل، أقل لك عنها.
ـ المجرم لا ضوء فيه. رأيت المجرمين أنا.

[illegible] كل من في السجن مجرماً، وليس كل ما هو خارجه [illegible] إنسان دافع، ولو عرفنا هذا الدافع لعرفنا هذا الانسان..

[illegible] ومعي [illegible] أنا على الكرسيّ الذي اخترعه يداي قويّتان. قوتي في يدي، وبهاتين اليدين كنت أبرم الدواليب فيكرج الكرسي. كنت أدور في البيت، أعد القهوة، أخرج إلى الباب، أبيع البضاعة، أربح في يومي نصف ليرة أو أكثر، أتسلى، أستجلب الزبائن أكثر فأكثر، صار لي زبائني من النساء والرجال والأولاد، أنقذني ابراهيم الشنكل، آه ما أطيبك يا ابراهيم، يا الشنكل!

كان شغل لبيبة في الريجي يؤلمني، يجرحني، ينهش صدري، لأن رائحة الدخان تنهش صدرها. قرّرت أن أجعلها تستريح. وجدت طريقة لأربح أكثر، لأربح ما يكفيني ويكفيها، فاندفعت للتنفيذ دون أن أستشيرها. المليحة لا تحتاج إلى استشارة. ما أفعله مليح، أنا عاجز ولا حيلة لي في [illegible]، لكن العاجز كما قال ابراهيم الشنكل يعمل عملاً يتلاءم مع [illegible] ومن حسن الحظ أنني وجدت هذا العمل. حمدت الله لأنني [illegible] طابت نفسي، لا أدري لماذا طابت نفسي؟ شعرت أنني أعود مرة أخرى إلى الحياة، وإلى الميناء والبحر، وإلى عالمي الذي فقدته.

كل شيء من البحر يحمل رائحة بحرية. كل شيء يحيط بالبحر يقترب منه، يبتعد عنه، يحمل رائحته. الشاطىء بصخوره المطحلبة. الرمال المتألقة تحت القدم. السماء التي فوق، حين تبتسم وحين تعبس. الفلوكة، المجذاف، الشبكة، حبل الفلّين، قفير السمك، والسمكة الغريبة. كل هذه وغيرها كثير، عشّشت رائحتها في أنفي ورئتي، تسرّبت في مسامي إلى عروقي، تغلغلت مع الهواء والماء والدم في جسمي. أحببتها، أحببتها، [illegible] في حبّها منذ عرفت البحر، منذ نزلته سابحاً وصياداً ومتفرجاً، في حالات الصحو، ونوبات العاصفة.

هذا البحر حُرمت منه خمس سنوات. كنت أشمّ رائحته من بعيد، من طاقة القاووش في السجن، وأعرف حالاته من هذه الرائحة، ومن تبدّلات الطقس، وغيوم السماء، وحمرة الأفق في أمسيات الصيف، فأفتقد، عندئذ، أجمل ما في الحياة: زرقة الماء! ويوم كنت في الميناء. كنت أنزل إليها مارّاً بالمسمكة. غيري يهرب. زنخة. أنا أتلذّذ. رائحة السمك مثل رائحة اللحم المشويّ، شيء يفتح الشهيّة، وكثيراً ما ذهبت في الشتاء، وفي الليالي الباردة، إلى صخور الشاطىء، ومعي سمكة مقلية وبطحة عرق. عرام! البحر لا يشرب كأسه من بعيد، العين ترى، تشمّ، تأكل، والبحر وحده كان يطعم فمي وأذني وأصابعي وحواسيّ. كان يدخل منها، ويقيم فيها، فتفرح به، تنتشي، تصل إلى حدّ اللذة، لذّة الإحساس الذي يغلي في دمنا ونحن مع امرأة.

«حين خرجت من السجن، كانت أول زيارة أقوم بها للبحر. وفي داخل السجن، كنت أقوم بأول سياحة فكرية للبحر، كنت أحلم به في منامي ويقظتي. كنت أقول: «غداً حين يأتي ذلك اليوم وأخرج من السجن، سألازم البحر حتى المات، سأسافر في البحر إلى البعيد». هكذا عشت، وبهذا حلمت، لكن عيشي تغيّر وحلمي تكسّر، فاجأني المرض، قطع أوصالي المرض، جعلني كسيحاً، لكنه فشل في سرقة البحر من خيالي، ظلّ البحر صديقي وحبيبي وسميري، ينام معي، يفيق معي، يجلس معي، يأكل ويشرب معي، ويبيع ويشتري أيضاً».

بيتي على طريق البحر، يمرّ به البحارة والصيّادون وعمال الميناء، يوماً بعد يوم، تعرفوا بي، تذكروني، أحبّوني، وبدأوا يزورونني، وبدأت أنا أشمّ البحر في ثيابهم وكلماتهم والأشياء التي يحملونها من الميناء والبواخر، ليبيعوها في الأسواق. كانت هذه الأشياء جميلة مزوّقة، مفرحة، من علبة الدخان الأجنبي إلى زجاجة الويسكي، ومن تبغ الغليوم، إلى علبة اللحم

أو الجبنة أو كيس الزيتون الاسود اليوناني، وخلافه.

كانوا يلطشون مثل هذه الأشياء ويرتزقون منها. قالوا لي: «لماذا لا ترتزق أنت أيضاً؟» قلت: «كيف أرتزق يا اخواني؟» أجابوا: «نعطيك هذه المهربات وأنت تبيعها» قلت: «هنا حطّنا الجمال! كانت ضائعة ولقيناها. أنا من خلق لمثل هذه الأعمال.. اتفقنا!».

فاتحت لبيبة في الموضوع. قلت لها: «يا لبلوبتي وقعت على كنز» «أين؟» في البحر «أين أنت وأين البحر؟» «البحر جاء لعندي» «كيف؟» شرحت لها الموضوع. قلت:

ـ منذ الغد تقعدين في البيت. ستّ مثل كل الستات. مفيد يا لبيبة سيقهر المرض والعجز، ويدير مؤخرته لأولاد الكلب الذين حبسوه.

صاحت:

ـ تبيع مهرّبات؟

ـ أبيع أشياء بحرية.

ـ ولكنها مهرّبات.

ـ مهرّبات بحرية، افهمي الفرق.

ـ بحريّة أو غير بحرية، كلّه واحد.

ـ غبيّة!

ـ غبية لأنني أنصحك؟

ـ لأنك لا تعرفين الأشياء البحرية من غيرها.

ـ ولكن في هذا مجازفة.

ـ لأجل البحر، واللقمة، أحبّ هذه المجازفة. أنا لها، أنا مفيد الوحش يا لبيبة، أم أنك نسيت؟

ـ هنت عليك؟

ـ لا، لا تقل هذا..

ـ إذن هاتي القهوة، وهاتي العرق، وهذه الليلة.. هذه الليلة لك يا لبيبة.. وهي لي.. وهي للماضي، الماضي الذي يعود، وأعيده بالقوة.

ـ لولا أنني أعرفك..

قاطعتها:

ـ ما دمت تعرفينني فلا حاجة للكلام. دعيني أدخّن، وأفكّر، وارتّب أموري.. ما قلت كلمة ورجعت فيها. وما قلت كلمة إلا حققتها، هذا أنا..

لم أنم ليلتي رغم انني مارست الحب. مارسته بعزم، بعنف، كما أيام زمان. جعلت لبيبة تعود إلى صباها. رجعنا، هي وأنا، إلى صبانا. جعلتها تشهق من جديد، وتتأوه من جديد، وتضمني بقوة من جديد، ونسيت أنني كسيح. عدت كما كنت، ذلك الفتى، ذلك الرجل، ذلك الفحل، ذلك الشجاع الذي صمد لكل المخاوف، وكل الشدائد، وتغلب عليها. باختصار: سكرت مرتين، من العرق والجنس، سلطنت! ولماذا لا أسلطن!؟..

سارت الأمور كما توقعت تماماً. في الشهور الأولى كان البيع قليلاً. كانت الحركة بطيئة، وبعد ذلك نشطت. صرت أتسلّم وأسلّم. البضاعة مقابل المال. أتعامل باستقامة وشرف. أرفض أن أراعي. أقول لهم: «إياكم ومراعاتي!» أنا زبون كسائر الزبائن، أبيع الدخان والويسكي وكل ما يأتيني، كما يبيعها غيري. لا فرق، لا أقبل فرقاً. أصيح بهم: «لا تقولوا إنني عاجز، حاشاً! مفيد هو هو كما عرفتموه، وكما سمعتم عنه، وكما ستسمعون عنه.. قهرت الجن والإنس ولن يقهرني مرض السكّر، خسا! من يقاوم ينتصر «ومن لا يخاف الموت، لا يبقى ما يخافه في الحياة».

كنت أجد في هذه المواقف راحة، تعويضاً، وكان الناس، من الحارة، والحارات الأخرى، يقصدونني، يطلبون أشياء موجودة عند غيري، في كل

مكان، لكنهم يفضلون أن يشتروها من عندي. هذا ما لاحظته، وفكرت فيه، فاكتشفت أنني أبيع أرخص، وأن لي، عند الشاربين، معزّة خاصة، لأسباب كثيرة، لا أستبعد منها حب المساعدة تقديراً لي. وحتى لبيبة، التي عارضت في الأول، وافقت أخيراً. تركت العمل خارج البيت وانصرفت إلى العناية ببيتها، وبي، أخذت تساعدني في أعمالي، مثل استلام البضاعة وإخفائها في الداخل، وإحضار المطلوب، عندما يأتي زبون للشراء.

انتعشت. انتعش جسدي، تفتّحت روحي. تغيّر إحساسي بنفسي وبالناس من حولي. لم أعد أهتمّ بعجزي، المرض لم يعد يخيفني. قضى على نصفي، وسيقضي على النصف الآخر، وكل شيء في أوانه. الإنسان لا يموت مرتين، وإلى أن أموت، في يومي، عليّ أن أعيش كأنني لن أموت، وأنني غير مريض، وأن الحياة حلوة، حتى في الوضع الذي أنا فيه.

صرت أدخّن «اللوكي» رائحته معطّرة، تفتح النفس، وهو مجلوب من بعيد، من وراء البحر، إذن فيه رائحته. وكان الويسكي لذيذاً، وهو يأتي من بعيد، من وراء البحر أيضاً، وفيه رائحته. وحباً بالبحر، ولأني أقطف العسل، رحت ألحس أصابعي. أفتح علبة اللوكي وأشمّها كما يشمّ الناس «العطوس». . الله! هذه هي الرائحة الجميلة، التي تتغلغل في عروقي، تدخل في الأنف وتنتشر. تصل حتى أعماقي، ومن أعماقي أنتشي، وأدخّن، وأشرب الويسكي، مصراً على اعتبار نفسي واحداً من الأوادم الذين يشترون بضاعتي. فإذا كانوا هم يعملون، فأنا أيضاً أعمل، وإذا كانوا يربحون، فأنا أيضاً أربح، أربح بالحلال، بينما غيري يربح بالحرام. كنت أعرف أصناف الناس، وأميّز نوعية الزبائن، وأعرف، عند اللزوم كيف أضع حدّاً لكل تحرّش بي، ولكل تطاول على عملي، ففي عيني، وفي بدني، وفي كياني كله، ما زال العزم القديم موجوداً، وما زالت القوة

متوفّرة، وكما في البحر، والميناء، والسجن، حرصت على أن يفهم كلّ من يتعامل معي، انه يتعامل مع مفيد الوحش.

نذل واحد لم أتعامل معه: هو المعلّم البطحيش. كان يكرهني لأنني اهنته. السنوات لم تغيّر كراهيته، لم تبدّل من طبعه، ومن حقده. خاصّة بعد أن أصبح يعمل في التهريب، بسبب تأميم المرفأ والاستغناء عنه. أرسل إليّ يتهدّدني. أجبته: «يدك وما تطول!» ردّ عليّ: «يدي طويلة وسترى!» رددت عليه: «سنرى!»

بعد قليل بدأت المضايقات. من مضايقة الذين يشترون مني، إلى الاعتداء على الذين يأتونني بالبضاعة، إلى إرسال بعض الزعران للتحرّش بي، وفي النهاية، عندما أفلس، لجأ إلى الوسيلة الدنيئة: وسيلة المخبر! صار يرسل الإخبارية وراء الإخبارية إلى أمانة الجمارك.

في الصباح الباكر من أحد الأيام، جاء رقيب في الجمارك ومعه بعض الجمركيين. كنت أشرب قهوة الصباح. رحّبت بهم. سألتهم عما يريدون، فقال الرقيب زريق:

ـ عندنا إخبارية أنك تشتغل في التهريب.

أجبته بغير اكتراث:

ـ أن أبيع بعض المهرّبات أفضل من أن أشحد.

ـ هذا غير منطقيّ.

ـ كيف يكون المنطق إذن؟

ـ العمل في التهريب ممنوع.

ـ وماذا هرّبت؟

ـ أنت تبيع المهرّبات.

ـ هل بيع باكيت سيكارة أو زجاجة ويسكي تهريب؟ انظروا إلى حالي، هل يكون المهرّب في مثل وضعي؟ أظن عندكم نظر!

- المهرّب هو مهرّب كيفما كان

صحت بأعلى صوتي

- قلت لكم إنني لا أهرّب شيئاً. البحّارة وعمال المرفأ يأتون إليّ ببعض ما معهم، بعض ما يأخذونه من البواخر والميناء بعلمكم، وأنا أبيعه كي أعيش، كي لا أجوع، فهمتم؟

صاح الرقيب رزوق:

- تصرخ في وجوهنا أيضاً؟

- ومن الذي دفعني إلى الصراخ؟ تروني عاجزاً فتتمرجلون عليّ؟ ألا ترون المهرّبين بحق وحقيق؟ المهربين الذين يبيعون ما يحمله بغل أو ما تحمله سيّارة؟ اتقوا الله!.

- تقوى الله في الامتناع عن بيع المهرّبات.

- وهل يرضى الله أن أشحد أو أموت من الجوع؟

- هذا ليس شغلنا.

- شغل من إذن، قولوا لمدير الضابطة الجمركية عن لساني: «مفيد الوحش يتعيّش، يتعيش ولا يهرّب، وهو، المدير، سيقدّر الموقف».

قال الرقيب رزوق:

- هذه المرة جئنا للتحذير.. نحن نحذّرك!

- وأنا تبلّغت تحذيركم.. مع السلامة!

انصرفوا. اعتكر مزاجي. تكدّر صباحي. انكسر خاطري. فكرت في نفسي وفي وضعي: «أهذه آخرتها يا مفيد؟ المعلم البطحيش، المهرّب الكبير، لا يكفيه تهريبه، لا تكفيه أعماله، يتضايق من عملك، يريد أن يقطع رزقك.. باختصار يريد أن ينتقم، فالى من تلجأ؟» «عجوز الميناء راح. المعلّم رضا مات. الذين عرفوك رجلاً وقدروا رجولتك لا تعرف لهم أرضاً. من بقي لك؟ قل: «من بقي لك؟!».

طلبت قهوة ثانية. اشعلت السيكارة من السيكارة. سكرت. كان الجو مضباً. جوّ أواخر الصيف. الدنيا غبوق، رغم أننا ما نزال في الصباح أعرف هذا الجوّ، أحبّه، إنه جوّ الساحل. إنه مناخ البحر. البحر يتنفّس الغيم هو بخار تنفّسه. في مثل هذا الوقت يحلو النزول الى الشاطىء والسـ على الشاطىء ورؤية النوارس، والزبد الأبيض الذي يرغي فوق الأمواج الصغيرة، المتدافعة نحو الساحل، كذلك تحلو رؤية فلائك الصيادين وشباكهم وحركة المرفأ والسفن والزوارق. هناك، على البحر، كل شيء جميل، يملأ النفس راحة، نشاطاً، صفاء، هدوءاً. وكان عليّ، لو كنت قادراً، أن أكون هناك لا هنا، وأن أمشي هادئاً، واثقاً، وأن تمشي أمامي، وورائي، ومن كل جوانبي، هيبة الرجال، وسطوتهم، وأن أمرّ بأولاد العاهرة، كل أولاد العاهرة، شامخاً متحدّياً. هذا ما كان يجب، هذا ما كان يجول في خاطري وأنا في السجن، هذا حلمي يوم كنت أجهل أن مرض السكر سيقضم كل أحلامي، وأنه سيلقيني على هذا الخوْان كسيحاً عاجزاً، ليس له من قوة إلا في لسانه، ولا شيء مخيف سوى نظراته، وهذه القوة، وهذه النظرات، رآها الرقيب زريق، وأدركها، وحسب حسابها. حسب حسابها قبل أن يأتي. وإلا لماذا اصطحب معه اثنين من رجاله؟ خافني وأنا عاجز؟ أفزعته وأنا كسيح؟ رفعت صوتي عليه وهو يتباهى بالمسدّس على خصره؟ كل هذا صار، وكل هذا سيصير، لكن على الشكل الذي أريده أنا. تراجعت حتى الجدار. ردّني المرض الى الجدار، وماذا بعد الجدار؟ لم تبق ولا خطوة الى أبعد، ولا خطوة أخرى الى الوراء..

أرسلت لبيبة الى السوق لشراء بعض الأغراض. انتقلت من الخوان الى الكرسيّ، دخلت وأنا أدفع الكرسيّ الى البيت، عاينته، فتّشته، وقعت على طلبي فيه. وجدت المكان الذي أخبىء فيه بضاعتي. عدت الى الخوان، انتقلت اليه. جلست هناك، تابعت التدخين والشرب والتفكير الأسود،

المرّ. ومن كل هذه الحالة خرجت بقرار واحد: «لن أسمح لأيّ ابن قحبة أن يتخطّى عتبة الباب».

بعد شهر جدّد المعلم البطحيش تحريض الجمارك عليّ. الاخبارية وراء الاخبارية، ومدير الجمارك الذي قدّر حالي، وقدّر موقفي، عمد الى التمويه، أرسل دورية برئاسة الرقيب زريق، وأوصاهم الا يتحرّوا كثيراً، وأن يراعوا الظروف. لكن النقيب زريق لم يتقيّد بوصيّة مديره، كان مدفوعاً من المعلّم البطحيش مباشرة.

وقف أمامي، ومن ورائه جماعته، ووضع يديه في خصريه، واتخذ هيئة التحدّي. قال:

- لماذا تصرّ على مخالفة القانون؟

أجبته ببرود:

- أيّ قانون هذا؟
- قانون الجمارك طبعاً.
- الجمارك على الرأس، وقانونها على العين، ولكنني، كما قلت لك، أريد أن أعيش، أن أعيش دون أن أشحد.
- يمكن أن تعيش دون أن تعمل في التهريب.
- أعمل بحّاراً مثلاً؟
- تسخر مني؟
- لنترك عمل البحر. الأفضل أن أشتغل في الميناء. هل هذا يريحك؟
- تتمادى في سخريتك؟ وممن؟ من الرقيب زريق، الرقيب زريق الذي لا تعرفه، وعليك أن تسأل عنه. حدّقت فيه، أطلت التحديق. قلت له دون انفعال:

أنا أعرفك. سمعت عنك.

- ماذا سمعت عني؟

- أنك تؤجر قفاك!

ضحك الحاضرون. ضحك خفراء الجمرك وراءه. ثار هو. استثرته. شتمته. قلت رأيي فيه بصراحة، بالكلمة المناسبة، وتوفّزت أعصابي استعداداً للمجابهة. قلت في نفسي: «إذا طالته يدك يا مفيد، فاذهب أنت وهو الى الجحيم».

صاح بي:

- لمن تقول هذا الكلام يا...؟
- لك.
- لي، أنا الرقيب زريق؟
- لك أنت صبي المعلّم البطحيش.
- فشرت..
- اذا أردت معرفة فشري من جدّي، اقترب مني قليلاً.

اقترب خطوة، قال:

- تهدّدني!؟

التفت الى رجاله والحاضرين وقال:

- اشهدوا أنه يهدّدني، ومتى؟ أثناء قيامي بواجب وظيفي.
- طظ فيك وفي وظيفتك.
- يا عرص!

قلت:

- هذه ستدفع ثمنها غالياً.
- أنا ادفع ثمنها!
- نعم أنت.. تذكّر هذه الكلمة.

تدخل واحد من خفرائه قائلاً:

- هذا لا يصحّ.. نحن نمر في دو ية عادية، لا نقصدك بالذات.

فحّ الرقيب زريق:

- بل اقصده، وساظل أقصده الى أن يرفع يديه.

رفعت يديّ. قلت:

- تفضّل!

- ليس الآن.

- متى إذن؟

- في وقت آخر.

قلت:

- في أيّ وقت تريد، أنا هنا بانتظارك.

انصرف ومن ورائه جماعته. كان قصير القامة، قصير الرقبة، مجعلك الشكل، كبير المؤخرة والرأس، وفي عينيه حول خفيف، وتدويرة وجه تدل على أنه لئيم. لا بأس! جرحته بما يكفي. شتمته. بأقذع كلمة شتمته. جعلته أضحوكة. تحدّيته وتحدّيت المعلم البطحيش معه، وسينتشر الخبر، وعليّ أن أتوقّع انتقاماً كاملاً بعد الآن.

لكن كما ينشف الماء المسكوب على البلاط، في شمس تموز، ويزول أثره، تبخرت الخضّة التي سببها لي الرقيب زريق وزال أثرها. هذه عادتي! أستعيد دوزاني بسرعة! أنسى الإرساءات، وأضحك بعد خمس دقائق من الحزن. لو لم أكن عاجزاً لمشيت الى المعلّم البطحيش وعاتبته بالعصا. أعرف أنه مسلّح، وأنه قد يطلق النار عليّ، وأنني، في هذه الحال، أقدّم نفسي للقتل مجاناً، لكن من يستطيع أن يراهن على أنه قادر على قتلي؟ حين يلتقي النظر بالنظر، لا بد أن تضطرب اليد. يده ستضطرب. وسيحمد الله أنه نجا بجلده، فكما أجيد الضرب بالخيزرانة، أجيد التصويب بالمسدس، وحين أكون المهاجم، سيتصوّر المعلم البطحيش أنني مسلح، وسيبول في سرواله.

لقد كنت، منذ صغري، منذوراً للقتل. أؤمن بذلك إيماناً عميقاً. ذات يوم سأُقتل. أعرف هذا. ولكن من هو ابن المرأة الذي يتجرأ على قتلي؟ وكيف يقتلني إذا تجرأ؟ حضوري وحده ضمانة لعجز الخصم عن النيل مني. أربعون عاماً وأنا أعيش في ماسورة المسدّس، وعلى حدّ السكين. أعيش ولا أبالي، ولامبالاتي سبب نجاتي. إنه أعجز، هذا الذي اسمه البطحيش، من أن يقتلني، وسأعرف، لو كنت في حال أخرى، كيف أذهب إليه وأؤدّبه، ومن يدري؟ فقد يأتي هو، مستغلاً عجزي، كي ينتقم مني، وعندئذ لو عملها، سأجعله يتوب على يديّ عن المرجلة طول عمره.

عدت، بعد ذهاب الرقيب زريق، الى التدخين، والشرب، والبيع والشراء. انفتحت نفسي لكل شيء، حتى للتنكيت، أنا الذي، كما كان عبدوش يقول، تبوخ النكتة على شفتيّ الغليظتين. قلت له: «يا عبدوش! يا ابن أمك! النكتة لا علاقة لها بالشفاه» قال: «بلى! لها علاقة» لم أجادله، كان تيساً تركمانياً، وحين يقول: «لا!» تعجز الدنيا كلها على حمله أن يقول: «نعم!» (أين أنت يا عبدوش الآن؟ في أيّ بحر؟ في أيّ أرض؟ في أيّ ماخور؟ أم أنك أصلحت أخلاقك واستقمت كما أصلحت أخلاقي واستقمت؟ الهداية من الله، واسأله تعالى، أن يهديك ويهديني.

مضى أسبوع على آخر «كبسة»[1] قام بها الرقيب زريق على بيتي. هو لا يكبس شيئاً. يرى ويتظاهر أنه لا يرى، يعود كما أتى، «يد من قدام ويد من وراء»، لكن المعلم البطحيش يدزّه[2] لا فائدة! تصفية الحساب مع البطحيش وليس مع زريق، غير أن البطحيش يختبىء وراء زريق، وهذا، كحمار الناعورة، يسير مغمض العينين، أو يطلع أمامي، مثل مذكّرة الجلب، بتكشيرته المعهودة، وسحنته المقلوبة، كأنه لم يبق له عمل غيري،

(١) الكبسة: الهجوم المباغت لمصادرة المهرّبات.

(٢) يدزّه: يدفعه.

أن جماركه قطعت دابر التهريب وبقيت أنا وحدي شوكة في عينه

أفقت، صبيحة هذا اليوم من أيلول، على بقايا حلم عالق في المخّ. كان حلماً جميلاً، عذباً، حنوناً، عدت فيه إلى القرية والطفولة وبيت الوالدين والضيعة، وأول بنت أثارت خيالي المراهق في الضيعة. كنا في بستان من اللوز، واللوز مزهر في اذار، والشمس ساطعة، ضاحكة، وهذه البنت، عبلة، تضحك أيضاً، وتقف معي، وتلتصق بي، وتحبّني. كانت تحبّني، وكنت مغموراً بالحب والسعادة، وكنت أطير، وأعجب كيف أستطيع أن أطير، وأحملها معي. فتحت عيني. ابتسمت. لبدت في الفراش. أغمضت عيني واستعدت الحلم، حاولت أن أتذكره بكل تفصيلاته، وأحتفظ به، في ذاكرتي، بكل تفصيلاته أيضاً، لكن الحلم كان يتشتّت، يضيع، ولا تبقى منه إلا نتف، وحلاوة في الرأس والقلب تتركها هذه النتف، وأنا أتمنى لو بقيت نائماً، لو بقيت حالماً، هكذا في الدنيا والآخرة معاً.

على فنجان القهوة حكيت ما رأيت في نومي للبيبة. حاولت، بكل جهدي، أن أستعيد حلمي، أن أجمعه في صورة من كلمات لا تؤاتي، ولبيبة تصغي إليّ، وتقول بتأكيد:

ـ ستسافر!

ـ أسافر؟ إلى أين؟

ـ إلى الشام.

ـ وماذا في الشام؟

ـ هناك يمكن أن يركبوا لك رجلين اصطناعيتين.

ـ أسألها:

ـ يمكن هذا؟

ـ سمعت أنه يمكن.. يجلبون الأرجل والأيدي الاصطناعية من بلاد برّه.

ـ كم تكلف العملية؟

ـ لا أدري.. هناك أجرة الإقامة ومصاريف السفر وثمن الرجلين.

ـ إذا ظلّت الأحوال على ما يرام يمكن تدبير التكاليف.

ـ من أجل ذلك أقتصد.

ـ سأفعل، ولكن من يحملني إلى الشام؟

ـ أنا.

ـ أنت؟ تستطيعين؟

ـ ألا تثق بقدرتي؟ ألا تعرف قدرتي على تدبير كل الأمور؟

ـ أعرف. أشهد. لا شيء يصعب عليك.

ـ إذن استعدّ، ستعود، مرة أخرى، تمشي على رجليك!

ـ يمكن هذا؟ يمكن يا لبيبة؟ يا حبيبتي؟ يمكن أن أمشي وأخرج إلى الشارع، وأنزل إلى البحر؟

ـ حين تمشي ستذهب إلى كل مكان.

ـ سأذهب إلى المنشية.

ـ ستذهب إلى المنشية.

ـ وإلى البطرنة.

ـ إلى البطرنة أيضاً.

ـ هناك، في المقهى، أفطر وأدخن نركيلة.

ـ ستفعل ما يطيب لك.

ـ وأنزل إلى الميناء؟

ـ طبعاً ستنزل إلى الميناء، وكذلك إلى البحر.

ـ البحر مفروغ منه يا لبيبة، أوّل خطوة ستكون باتجاهه.

ـ تحبّ البحر يا مفيد؟ماذا أقول؟ هل هذا سؤال يُسأل؟ وكيف أجيب عليه؟ لا أستطيع أن أجيب عليه. غبطتي، تهلّلي، فرح وجهي ويدي

وجسمي كله، لا يكفي للإجابة والحجر كبير يا ابنيه، وأنا أحبّه بهذا الحجم».

بغتة نبق الرقيب زريق أمام الباب. كان معه ثلاثة من الخفراء. دورية كاملة. يأتي إليّ، أنا العاجز، بدورية كاملة. إنه يخاف. هذا المبروم، مثل المدحلة، يخاف، ولن يفوز بشيء، ولن أدعه يمدّ يده إلى شيء، وسأجعله يدفع ثمن تعكير مزاجي، وتطيير حلمي الجميل من رأسي.

قلت له بلهجة جافة:

ـ نعم؟

ـ سنفتّش البيت.

ـ معكم الإذن بتفتيش البيت؟

ـ معنا الإذن والمختار.

قلت:

ـ أهلاً بالمختار.

ـ مرحباً يا مفيد! كيف الحال؟

ـ كما ترى يا مختار، سانرها ربك (وبعد وقفة) وأنت، هل هذه زيارة أم مأمورية؟

ـ مأمورية مع الأسف!

ـ وكيف قبلتها!؟ كيف تطاوعهم على مهاجمة بيتي وتفتيشه!؟ مات الحياء!؟ جُنّت الجمارك!؟

قال المختار مغلوباً على أمره:

ـ إجبارية بحقك. أوامر صارمة.

ـ لا يهمّ. أهلاً وسهلاً على كل حال. أرجوك أن تقف بعيداً. ألاّ تتدخل بيني وبين الرقيب زريق.

قال الرقيب زريق:

ـ سندخل البيت ونفتّشه بحضور المختار، أعني حسب الأصول.

صحت به:

ـ من وضع هذه الأصول؟ أيّ ابن زانية؟ تتمرجلون عليّ؟ كلكم تتمرجلون عليّ؟ هذه هي الشهامة؟

ـ وجّه هذا الكلام لمن أرسلنا.

ـ اذهب وقل لمن أرسلك أن يأتي هو بالذات.

ـ لن أتحرّك قبل تفتيش البيت ومصادرة الموجودات.. في البيت مهرّبات.

قلت بحزم:

ـ نعم في البيت مهرّبات، ولكنك لن تدخله.

ـ تقاوم رجال الحكومة؟

ـ أقاوم السلطان نفسه.. عد وأخبر مديرك، أو عُدْ وهات البطحيش معك، عندئذ تكمل الحفلة!

ـ هذه كبسة وليست حفلة.

ـ ما دام الناس تجمّعوا، فقد صارت حفلة، وسأحتفل بها على طريقتي.

ـ تهدّدني؟

ـ ...

ـ اشهد يا مختار.. إنه يقاوم، ولكنني سأدخل البيت بالقوة.

قلت بحسم:

ـ لن تدخله..

ـ سأدخله.

ـ لن تدخله..

ـ وإذا دخلت؟

- جرّبْ . .

- تهديد أم تخويف؟

- احسبها كما تريد

تدخّل بعض الحاضرين. حاول المختار إقناع زريق بأن تكون الأمور شكلية. أخذه جانباً وهمس في أذنه بما لا أدري، لكن زريق انتتر، عاد إلى الباب وصاح بلبيبة:

- ارجعي من الطريق!

قلت بهدوء:

- هي لن ترجع وأنت لن تدخل.

- وإذا دخلت؟

- جرّبْ . .

أنا لبيبة الشقرق، سأروي لكم ما حدث بعد ذلك، سأقول كلمات قليلة، بسيطة، مثل بساطة مفيد وقلّة كلامه . . كلمات مبلّلة بدموعي، لكنّها ليست للحزن، فقد عوّدني مفيد، منذ التقينا، ألاّ أحزن على شيء، لا عليه ولا على نفسي.

سمعت مفيد يقول للرقيب زريق:

- جرّبْ.

جرّبَ الرقيب زريق. مدّ قدمه داخل العتبة، وحاول مدّ القدم الأخرى. كان الرقيب زريق مصمّماً، لكنه كان خائفاً، ويرتجف، وكان كلّ شيء، في قلب ذلك الصمت، يرتجف، وفجأة سحب مفيد مسدّساً من تحت الغطاء الموضوع على رجليه المقطوعتين، وسدّده إلى صدر الرقيب زريق. دوّى صوت الرصاصة، وتهاوى الرقيب زريق والدم يدفق من فمه، وتراكض الناس.

صحت:

- مفيد!

لم يجب مفيد، لكنه سدّد فم المسدس إلى صدغه وأطلق.

دمشق ١٩٨٩/٤/١٩